بي ناريا

ملحمة الكوكب البلوري

بقلم: خيال

التمع الرضى في عيني بي ناريا وهي تتأمل نفسها بإمعان..
كانت جميلة.. خلقت بهذا الجمال الفتّان الذي لا يناسبه
إلا العرش البلوري.. وهذا ما كان يؤكده لها والدها الملك
دائماً.. مَن غيرها يستحق أن يكون وريثاً لعرش المملكة
الشاسعة التي تضم أرجاء الكوكب البلوري بأكمله؟
ابتسمت وهي تتخيل نفسها جالسة فوق العرش والتاج الملكي
على رأسها يزيدها جمالاً.. صحيح أن جمالها لم يكفها أبداً
لتنال حب ورضى الشعب عنها.. لكنها لم تهتم يوماً بهذا..
رغم ترديد والدها الملك في كل لحظة من لحظات حياتها
أن رضى الشعب هو الأهم، لكنها ترى في هذا مبالغة شديدة..
ما الذي سيعنيه لها رضى الغوغاء وهي جالسة على العرش،
وهو أمر حتمي لا تشك بحدوثه؟..

حقاً.. ما الذي قد يخلّ بحياتها التي
رسمت بإتقان منذ ولادتها..؟

أرض البهاء والنقاء والنور

مقدمة

مملكة البلور.. تلك المملكة الشاسعة التي تضم أرجاء الكوكب البلوري بأكمله، تأسست على يد رجل شجاع قاد جيوشه لتوحيد المناطق كلها في الكوكب الذي عانى صراعاً وحروباً دامية دامت قرناً كاملاً، حاول فيها سكان المناطق الفقيرة الاستيلاء على المناطق الأغنى والأوفر حظاً بمناجم البلور.. والبلور هو المادة الرئيسية للطاقة والتي يعتمد عليها كل شيء في هذا الكوكب ليعيش.. من المركبات للطائرات وحتى إضاءة المنازل..

منذ الأزل، ومنذ اكتشف الإنسان الطاقة الكامنة في البلور المستخرج بكميات هائلة من الأرض، غدا هو المطلب الرئيسي للعالم كله، ولم يبحث أحد عن بديل له لاكتفاءهم به.. أصبح هو مثار الحسد بين الأقاليم، وسبباً للحروب العنيفة، كما كان سبباً لاستقرار بعض الأقاليم التي تمتعت بمخزون كبير من البلور..

بعد التوحيد، أصبح هذا الرجل الشجاع هو ملك مملكة البلور الأول ورمزها الأعلى على مدار السنين.. وبقيت المملكة موحدة وموزعة إلى تسع وثلاثين إقليماً، يترأسها إقليم يانّا وعاصمته يناسّا، حيث استقر الملك الأول، ويتولى حكمها ذريته حتى يومنا هذا..

الفصل الأول:
الأميرة

عن القصر

..

ويناسّا

..

والجمال البلوري

..

ألقت الشمس بأشعتها الدافئة على مدينة يناسّا، عاصمة مملكة البلور، في ذلك الصباح البارد ككل صباح يطلع على المدينة.. فتلألأ القصر الواقع على ربوة مرتفعة بفعل تمازج النور بجدران القصر البلورية الشفافة.. وخفقت الرايات على أبراج القصر بنعومة وهدوء.. بدا منظر القصر المتلألئ فوق الربوة الخضراء خرافياً وكأنه ظهر من إحدى القصص الخيالية..

وفي داخل ذلك القصر، بدأت الحركة تدب رويداً رويداً في ممرات القصر وجوانبه والخدم والجنود يسارعون لتأدية أعمالهم اليومية دون إبطاء.. وفي أحد الممرات المفروشة بالسجاد السماوي المزخرف، أخذ الجنود يسارعون للاصطفاف على جوانب الممر وهم يحنون رؤوسهم ويتصلبوا في وقفتهم تبجيلاً للمارة أمامهم..

سارت الأميرة بي ناريا (ابنة البلور بلغة هذا الكوكب) على السجاد الغليظ دون أن تعير الجنود أدنى انتباه، حتى وصلت إلى إحدى الشرفات، فدلفت إليها متأملة المدينة الناعسة التي بدأت تتحرك وتمد يديها إلى الشمس طلباً للدفء..

وضعت بي ناريا يديها على حد الشرفة البلوري.. وضغطت عليه رغم برودته التي تغلغلت عبر بشرتها الناعمة.. لكنها لم ترفع يديها وكأنها مستمتعة ببرودته وهي تتأمل المكان حولها.. حتى وقع بصرها على صورتها المنعكسة على أحد الجدران البلورية الصافية.. كانت بي ناريا ذات وجه دائري أبيض ببشرة صافية تكاد ترى الدماء تجري في عروقها.. يحيط الوجه شعر أسود غزير منهمر كالليل بطول ظهرها كله.. وعيناها واسعتان بحدقتين زرقاوين تنافس البلور المواجه لها في الزرقة والنقاء.. أنفها مستقيم ملكي بشمم.. وشفتيها حمراوان كالدم.. ويكمل ذلك الجمال قامتها الرشيقة وخصرها الصغير.. التمع الرضى في عيني بي ناريا وهي تتلمس خصلات شعرها الأملس وتتأمل نفسها بإمعان.. كانت جميلة.. خلقت بهذا الجمال الفتّان الذي لا يناسبه إلا العرش البلوري.. وهذا ما كان يؤكده لها والدها دائماً.. من غيرها يستحق أن يكون وريثاً لعرش المملكة الشاسعة التي تضم أرجاء الكوكب البلوري بأكمله؟ ابتسمت وهي تتخيل نفسها جالسة فوق العرش والتاج الملكي على رأسها يزيدها جمالاً..

صحيح أن جمالها لم يكفها أبداً لتنال حب ورضى الشعب عنها.. لكنها لم تهتم يوماً بهذا.. رغم ترديد والدها الملك في كل لحظة من لحظات حياتها أن رضا الشعب هو الأهم، لكنها ترى في هذا مبالغة شديدة.. ما الذي سيعنيه لها رضى الغوغاء وهي جالسة على العرش، وهو أمر حتمي لا تشك بحدوثه؟..

سمعت في تلك اللحظة صوت باب الشرفة يفتح، فالتفتت بانزعاج لترى المتطفل على خلوتها، والتي لا يجرؤ أحد على قطعها إلا والدها ووالدتها، وهما نادراً ما يفعلان ذلك.. لكنها رأت شاباً فارع القامة وسيم القسمات يدلف عليها بابتسامة قائلاً "كيف حال أميرتي هذا الصباح؟"

تأملت بي ناريا وجهه الجذاب وشعره العسلي الناعم يتطاير بفعل الهواء، وتلتمع عيناه الخضراوان وهو يمسك يدها مغمغماً "اسمحي لي أن أقبل يدك التي هي أبهى من أجمل بلور في كوكبنا.. وأن تتحملي إعجابي

وحبي الذي لا أستطيع السيطرة عليه كلما رأيتك"
وانحنى مقبلاً يدها فيما قالت بي ناريا بابتسامة وهي تخفي إعجابها خلف برودها "ألا تستطيع التخفيف من إطرائك هذا كلما رأيتني يا مانيم؟ أم أنك لا تريدني أن أصدق أنك تعرف الكثيرات سواي من العائلة المالكة؟"
رفع مانيم رأسه إليها قائلاً "ليس ذنبي يا مولاتي أن فتيات العائلة المالكة يسعين خلفي وقلبي لم يسع إلا خلفك أنت.. أم أنك تصدقين ما يرويه الحاقدون عنيّ؟"
تجاوزت بي ناريا تلك النقطة وهي تسأله "متى عدت من إقليم هيمانيا؟"
أجاب "للتو واللحظة.. وأسرعت إليك لأراك قبل أن أقابل مولاي الملك وأعطيه تقريري عما حدث هناك"
عادت تسأله "وما الذي فعلته في الإقليم؟ هل استطعت التغلب على المشاكل هناك؟"
أجاب بابتسامة عريضة "بل قضيت عليها"
رفعت حاجبيها معلقة "قضيت عليها في هذا الوقت القصير؟ كيف؟"
لوح بيده قائلاً "ولماذا تخدشين أذنيك بسماع تلك الأمور المزعجة؟ لا أحب أن يدور الحديث بيني وبينك فقط في أمور المملكة.."
ثم اقترب منها أكثر محيطاً خصرها بذراعيه قائلاً بابتسامة "هل فكرت فيّ كثيراً أثناء غيابي يا نارياسّا؟"
عقدت بي ناريا حاجبيها قائلة "لا تنس يا مانيم أنني الوريثة على عرش المملكة.. وسأصبح يوماً المسؤولة عن تسيير أمورها.. فيجب أن أحيط علماً بكل ما يجري فيها.."
ثم أضافت بحدة "ولقد أخبرتك مراراً ألا تستخدم هذا اللقب بتاتاً"
تنهد مانيم قائلاً "أجل أعرف.. لا يستخدم هذا اللقب سوى والدك الملك، ولا يحق لي استخدامه بأي حال من الأحوال.. لكنه اسم يليق بك كثيراً.. نارياسّا.. البلورية.. أنت حقاً جميلة كجمال البلور.."
ثم أضاف وابتسامته تتسع "ألن تسمحي لي باستخدام هذا الاسم حتى بعد زواجنا؟"
قالت بهدوء وهي تدفعه بعيداً عنها "قطعاً لا.. وعليك أن تخفف من التفكير بأمر زواجنا الآن، فالوقت ليس ملائماً"
هتف مانيم باعتراض "لماذا يا أميرتي؟ كيف تريدينني أن أحبس اشتياقي في صدري ولا أتعجل أمر زواجنا؟ إنني أود لو يتم الزواج اليوم، بل الساعة، كي أضمن أنك ستبقين لي للأبد"
شمخت بي ناريا قائلة "هو ليس طلباً.. بل أمراً يا مانيم"
لم تنتبه لنظرة عينيه التي التمعت غضباً للحظة، قبل أن يقول متنهداً "مادمت أميرة قلبي، فطلباتك كلها أوامر.. مهما كانت"
وأمسك يدها ليضعها على قلبه مضيفاً "يعزّ عليّ فراقك يا أميرتي.. لكنه الواجب.. لا أريد للملك أن يغضب مني الآن"
فقالت "لا بأس.. لا تدع الملك ينتظرك طويلاً"
انحنى لاثماً يدها، وغادر الشرفة تاركاً إياها بمفردها.. وفور أن ابتعد اكفهرت سحنته وهو يجزّ على أسنانه

بغيظ.. دون أن ينتبه لاقتراب الملكة إلى أن أصبحت في مواجهته.. عندها تبدلت ملامحه مكتسبة لباقته المعتادة وهو يقول منحنياً "يا لسعد يومي.. أن أرى جميلتيّ المملكة في يوم واحد، بل في ساعة واحدة؟ أي .."

قاطعته الملكة بابتسامة محدودة "لست بحاجة للاستطراد.. الملك قد أرسل في طلبك"

فقال مانيم على الفور "وأنا منطلق إليه حالاً"

ظلت الملكة تنظر إليه حتى غادر، ثم أكملت طريقها إلى الشرفة لتدلفها بهدوء.. فأحنت بي ناريا رأسها في هزة خفيفة وهي تقول "صباح الخير يا مولاتي الملكة"

نظرت إليها الملكة مطولاً، ثم غمغمت بشيء من الضيق "ما هكذا تحيي الفتاة أمها"

فقالت بي ناريا على الفور "هكذا تحي الأميرة ملكتها.."

زفرت الملكة وهي تتقدم من الحاجز البلوري عازفة عن المجادلة.. هو شيء لطالما تجادلتا بشأنه حتى ما عاد يفيد ذلك في كسر عناد هذه الفتاة.. من أي شيء خلقت يا ترى؟ برودتها وشموخها لا ينكسران أمام أحد حتى أمها التي غمرتها بعطفها وحبها منذ الطفولة، لكن لم ينتج عن هذه التربية إلا أميرة متجمدة المشاعر خالية من الحب والعطف..

نظرت الملكة إلى بي ناريا الساهمة وسألتها "لقد عاد مانيم باكراً هذه المرة.. ما الذي جدّ؟"

هزت بي ناريا كتفيها مجيبة "لم يرض بإخباري أي شيء.. قال إن الأمن استتب أخيراً في ذلك الإقليم، وليس هناك من داعٍ للخوض في التفاصيل"

قالت الملكة مقطبة "لكننا لا نعلم ما يفعله حقاً هناك.. كيف ينجح في تهدئة القلاقل فور وصوله فيما يعجز الآخرون عن ذلك؟"

قالت بي ناريا بابتسامة "إنه رجل موهوب.. هذا كل ما في الأمر"

هزت الملكة رأسها معلقة "بل هذه القدرة تجعلني أشك في الأمر أكثر.. هناك شيء يدور في الخفاء لا يعلم أحد عنه"

قالت بي ناريا مقطبة "أتشككين في أمانة مانيم؟"

تنهدت الملكة مجيبة "حتى لو كنت كذلك، ليس لدي أي دليل.. لقد أرسل الملك عدة نواب ليتفحصوا الأوضاع هناك ويكتبوا تقارير وافية للملك، لكن الجميع عادوا بنفس الإجابة.. الأمن مستتب تماماً.. وكأنهم قد اتفقوا على تضمين الجواب نفسه"

فقالت بي ناريا بحدة "ما يدور في ذهنك ليس صحيحاً.. أتقولين إن مانيم يرشوهم ليرسلوا تقارير زائفة؟"

قالت الملكة بضيق "إذن أخبريني، لماذا يعود الوضع للانفجار فور عودة مانيم إلى العاصمة بأسابيع قليلة؟"

أجابت بي ناريا "لأنه إقليم له تاريخ طويل في الثورات والقلاقل.. أم أنك نسيت ذلك؟"

حاولت الملكة تجاوز قلقها بشأن الإقليم وهما تصمتان للحظات طالت، قبل أن تقول الملكة "بدا مانيم مختلفاً اليوم"

ابتسمت بي ناريا معلقة "هل بدا سعيداً جداً؟ لقد ألحّ عليّ في إتمام زفافنا قريباً.. يقول إنه لا يمكنه أن يصبر

أكثر من ذلك"
نظرت الملكة ملياً إلى وجه بي ناريا.. كانت ابتسامتها أبعد مما تصورتها.. لم تكن ابتسامة غرور لأن شخصاً مثل مانيم في مكانته ووسامته يلاحقها، ولا ابتسامة سعادة كما تفعل الفتيات عادة، لكنها ابتسامة رضا.. وكأنه شيء متوقع أن يحدث لها بل ومن أبسط حقوقها..
فسألتها "أتظنين أنه يحبك؟"
قالت بي ناريا بشموخ "أظن..؟ يبدو أنك لم تنتبهي له جيداً.. إنه غارق في حبي حتى النخاع.. لست أظن أبداً، بل أنا متأكدة.. فقط نظرة إلى عينيه تجعلني أدرك إلى أي مدى أنا أسكن قلبه.. هذه أشياء لا يمكن أن يخيب اعتقادي فيها أبداً"
غمغمت الملكة في سرها وهي تتذكر سحنة مانيم المكفهرة "يبدو أنك أنت من لا يعلم شيئاً يا ابنتي الواثقة.."
ثم قالت "وأنت.. هل تحبينه حقاً؟"
قالت بي ناريا هازة كتفيها "ليس من المفترض أن أحبه أنا، بل أن يحبني هو.. هذا برأيي هو الضمان الوحيد لي بأنني سأعيش حياة سعيدة.. فحبه لي سيجعله يطيعني في كل ما أطلبه.. الحب عبودية، وأنا لا يمكن أن أكون تحت عبودية أي رجل مهما كانت منزلته"
قالت الملكة باعتراض "ما الذي هيأ لك أن الحب عبودية لصاحبه؟ هل تعتقدين أن حب الملك لي هو عبودية له؟"
قالت بي ناريا بابتسامة صغيرة "لا أحب قول هذا.. لكن ربما هو يحاول كسبك إلى جانبه بهذا القول.. لا أكثر ولا أقل"
صدمت الملكة لما قالته بي ناريا، ألهذه الدرجة وصل تفكيرها؟ ثم قالت وهي تستدير بصوت غاضب "لقد تجاوزت حدودك بهذا القول.. يجب أن تعتذري على الفور.. ليس لي، بل لأبيك الذي تتهمينه بالكذب"
وغادرت المكان على الفور تاركة بي ناريا التي لم تزايل البسمة شفتيها وهي تعود للنظر إلى المدينة مغمغمة "وهل أكون مخطئة عندما أذكر الحقائق التي أراها؟.."

****

بعد مدة من الوقت، دلفت بي ناريا على والدها بعد خروج مانيم من عنده، فرأته واقفاً قرب أحد الجدران يتأمل الحدائق المحيطة بالقصر.. كان الملك رغم ارتدائه أغلى الأثواب وعلى رأسه التاج ذو الجواهر الأغلى في المملكة، يبدو بملامحه الطيبه ولحيته البيضاء التي يجذب شعيراتها مفكراً مجرد أب طيب حنون.. أب للمملكة كلها باختلاف شعوبها.. لذلك دائماً ما تعجبت بي ناريا من كيفية إحكام قبضته على المملكة التي تطيعه بصمت وحب شديدين، ما عدا ذلك الإقليم..
اقتربت بي ناريا منه قائلة بابتسامة "كيف حالك هذا النهار يا أعظم ملك في الدنيا؟"
التفت الملك إليها والابتسامة تغزو شفتيه مجيباً "كيف يمكن أن يكون نهاري وأنا أبدأه بالنظر إلى وجهك

الصبوح هذا؟ من الطبيعي أن يكون سعيداً"
قالت بي ناريا بدلال "لكن يبدو أنك فضلت اليوم رؤية مانيم قبل رؤيتي.. أهو أهم مني؟"
تنهد الملك مجيباً "إنها أمور المملكة يا نارياسّا.. من الضروري أن أتأكد من كل ما يجري في مملكتي كي أطمئن عليها.."
ثم ابتسم قائلاً "ولكن مانيم لا يختلف في شيء عنك.. سرعان ما ستصيران شخصاً واحداً في نظري"
قالت بي ناريا عاقدة حاجبيها "إنني لم أقل إن هذا سيحدث سريعاً"
رفع الملك حاجبيه معلقاً "ولم لا؟ ألستما متفقين على الزواج؟ فما الداعي للإبطاء؟"
هزت بي ناريا كتفيها مجيبة "إنني لست مستعجلة.. لا أريد أن أربط نفسي بزوج وأولاد بهذه السرعة.. مازلت صغيرة على ذلك"
لم يمنع الملك ابتسامة من الظهور على شفتيه وهو يقول "الثالثة والعشرون سن صغيرة بالفعل يا بي ناريا.. لكن كل الفتيات اللواتي في سنك قد تزوجن منذ زمن وأصبحن أمهات.. ولم يتأخر إلا أنت"
سارعت بي ناريا لتقول "لكن أنت لم تنشئني على هذا الأساس يا أبي.. أنت زرعت في رأسي أنني وريثة للعرش أكثر من أنني فتاة ستصبح زوجة وأم.. الزواج يحتل المرتبة الثانية بعد الحكم، وأنا لست مهتمة بالزواج أصلاً"
فقال الملك بنظرة حزينة "لست أدري حقاً إن كنت قد ظلمتك بهذه التنشئة التي حرمتك من الحياة بشكل طبيعي.. إن أفكارك تزعج والدتك وتقلقها، وهي تحملني مسئولية ذلك"
أشاحت بي ناريا بوجهها قائلة "لست أرى ما يسوء في أفكاري وتصرفاتي.. ومادمت أرضيك فلا يهمني أي شخص آخر"
قال الملك والضيق يكتنف وجهه "لماذا تعاملين أمك بهذا البرود؟ كانت دائماً تتمنى ابنة مثلك تصبح صديقة لها تؤنس وحدتها وهي التي لا أصدقاء لها.. لكنك جافة كثيراً معها بشكل يؤلمها"
نظرت بي ناريا بصمت إلى الحديقة والملك يضيف "حاولي أن تتقربي أكثر من والدتك.. ربما أنت جافة المشاعر لأنك لا تحتكين إلا بي وبرجال السياسة في بلاطي.. لا تحاولين قضاء أي وقت مع والدتك أو مع فتيات العائلة المالكة في أي مناسبة"
قالت باستهتار "وما الذي سيجمع بيني وبين أولئك الفتيات التافهات؟ لا يشغل عقولهن الصغيرة إلا الأمور التافهة.. الحب.. الزواج.. والأطفال.. وطبعاً الغيرة من بعضهن البعض لأتفه الأسباب.. كيف تريدني أن أجد شيئاً أتحدث به مع مثل تلك الأشكال؟"
قال الملك مقطباً "ومع ذلك، أرى أنهن أكثر طبيعية منك يا نارياسّا.. ليس من الطبيعي أن نرى فتاة تجادل الوزراء والمستشارين في قرارات المملكة ولا تنجح في تبادل حوار عادي مع أترابها"
فقالت بي ناريا هازة كتفيها "إذن سأكون أنا الأولى.."
زفر الملك بضيق وهو عاجز عن إقناع عقلها العنيد، عندما دلف المستشار الأول على الملك قائلاً "مولاي.. لدي

تقرير عاجل ورد إليّ.. أحد نوابك يريد رداً سريعاً على هذه المسألة"
فربت الملك على كتف بي ناريا قائلاً "ناریاسّا.. أنا آمرك أن تذهبي إلى والدتك وتقضي معها بعض الوقت.. وكوني لطيفة معها، أرجوك"
قالت بي ناريا على الفور بدون أن يبدو ضيقها على وجهها "أمرك مطاع يا مولاي"
وخرجت بخطواتها الشامخة دون أن تلقي نظرة على المستشار وهي صامتة..
توجهت من فورها إلى جناح الملكة كما أمرها والدها وهي تزفر بضيق وحنق كتمته في صدرها ولم يبد على تقاطيع وجهها الباردة كعادتها.. لم عليها أن تكون كباقي الفتيات؟ لم عليها ألا تكون أفضل منهن وأحكم عقلاً؟ لقد عمل الملك طوال سني عمرها على تنشئتها تنشئة لا تختلف عما قد يحصل عليه ولي العهد لو كان رجلاً.. خاصة أنها ابنته الوحيدة.. والآن بعد تلك السنوات يطالبها بأن تكون فتاة فارغة العقل؟ بل ويطلب منها الإسراع في الزواج من مانيم.. لكنها تجزع من فكرة الانضواء تحت جناح رجل.. لقد أنشأها الملك على أنها ستكون الملكة في يوم من الأيام، ستكون الآمرة الناهية وسيطيع جميع رجال المملكة أوامرها.. فكيف بعدها تكون تحت رجل يملي أوامره إليها؟..
وصلت في تلك اللحظة إلى باب جناح والدتها، فاستغربت عدم قيام الحارس الواقف قربه بفتحه لها.. فقالت له بجفاء "ألن تقوم بعملك؟ أم أنني يجب أن أطلب ذلك منك في كل مرة؟"
قبل أن يتفوه الحارس بكلمة جاءت إحدى وصيفات الملكة التي لم تتعرفها بي ناريا من بين الكثيرات وهي تقول لها "آسفة يا مولاتي.. لقد أمرت مولاتي الملكة بأن تبقى في خلوة ولا يدخل عليها أحد أبداً"
عقدت بي ناريا حاجبيها متسائلة "لماذا؟ ما الأمر؟"
أجابت الوصيفة وهي تحني رأسها "ليس من حقي أن أسأل عن السبب.. لقد طلبت مني أن أمنع أي شخص يريد الدخول إليها حتى تقرر هي ذلك"
فاتجهت بي ناريا إلى الباب قائلة "افتحه أيها الحارس.. يجب أن أقابل الملكة الآن"
وقفت الوصيفة أمامها قائلة "أرجوك يا مولاتي.. ليس مسموحاً لي بإدخال أي شخص كان"
صاحت بي ناريا في وجهها بعنف "أتجرُئين على منعي من الدخول؟ ألا تعرفين عاقبة تصرفك هذا؟"
بدأت الوصيفة ترتجف وهي تقول محاولة الإبقاء على ثباتها "سامحيني يا مولاتي.. إن أوامر مولاتي الملكة صريحة.. وهي قد نبهت عليّ ألا أسمح لأي شخص بالدخول.. وقد اختصتك أنت بهذا الأمر"
قالت بي ناريا بغضب "أنت تكذبين.. لا يمكن للملكة أن ترفض رؤيتي وتطالبك بمنعي من الدخول.."
وسارت نحو الباب خطوتين، لكن الوصيفة قامت بشكل لا إرادي بإمساك ذراع بي ناريا وهي تقول "كلا يا مولاتي.. أرجوك"
دوّت صفعة قوية على خد الوصيفة وبي ناريا تقول بعنف "كيف تجرأت على ما فعلت؟ يبدو أن العمل على خدمة الملكة قد أصابك بالغرور فتجرأت عليّ.. أنسيت من أنا؟"
التمعت الدموع في عيني الوصيفة وهي غير قادرة على الرد، فيما قالت بي ناريا للحارس "أخرج هذه الوضيعة

من هذا القصر.. لا أريدها أن تعمل هنا مرة أخرى"
قال الحارس محاولاً تلطيف الأمر "مولاتي.. ستنال الوصيفة عقابها وستنقل للخدمة في غرفة تنظيف الملابس.. لن تريها أبداً مرة أخرى"
صاحت بي ناريا في وجهه "أءنت أصم؟ لا تجعلني أعيد ما قلته وإلا طردت أنت معها أيضاً.. نفذ ما أقوله حالاً"
قالت الوصيفة ودموعها تنهمر من عينيها "اغفري لي يا مولاتي.. ليس خطئي أنني حاولت تنفيذ أوامر الملكة حرفياً.. أرجوك لا تطردينني فلن يقبل شخص ما أن أعمل عنده بعد أن أطرد من القصر، وعائلتي بحاجة ماسة للنقود التي أحصل عليها"
ألقت بي ناريا نظرة جامدة عليها وهي تقول للحارس "إن لم تخرجها من هنا حالاً فسوف أرسلها إلى السجن.."
غمغم الحارس "أمرك مولاتي"
اندفعت الوصيفة مبتعدة عن المكان وهي تجهش في البكاء والحارس يتبعها مشيراً لآخر كي يأخذ مكانه، فسارع الثاني لفتح الباب لبي ناريا التي دلفت إلى جناح الملكة الواسع ومنه إلى غرفتها الخاصة لتراها تجلس قرب النافذة العريضة تتناول إفطارها وحيدة.. فاقتربت منها بي ناريا قائلة "لقد جئت لقضاء بعض الوقت معك يا مولاتي.. إذ يبدو أن الملك يراني أفتقد للمسة النسائية في شخصيتي"
فوجئت الملكة بمرآها وهي تراها تجلس على الكرسي المقابل لها، فغمغمت عاقدة حاجبيها "ألم تخبرك جوين أنني لا أرغب برؤية أحد؟ لقد تعهدتها بالعقاب إن لم تفعل"
ابتسمت بي ناريا قائلة "لا تزعجي نفسك بأمرها.. لقد طردتها"
رفعت الملكة حاجبيها وهي تقول "طردتها؟ لماذا؟"
قالت بي ناريا عاقدة حاجبيها "لأنها منعتني من الدخول.. ألا يعد هذا سبباً كافياً؟"
فقالت الملكة بحنق "لكنها كانت تنفذ أوامري.. أم أنك ترين أنها لا تستحق التنفيذ؟.. أليست لي سلطة حتى في جناحي الخاص؟"
قالت بي ناريا بجدية "بالطبع لك سلطة في ذلك.. لكن أوامر الملك واجبة التنفيذ، أليس كذلك؟"
سألتها الملكة مقطبة "هو أمرك بالقدوم إليّ؟"
أجابت بالإيجاب وهي تحول بصرها للنظر من النافذة المفتوحة، فقالت الملكة بضيق "لم يكن عليه فعل ذلك.. أنا لا أريد صحبتك حقاً.. ولم يكن ذلك يستدعي طرد تلك المسكينة"
تساءلت بي ناريا بشيء من الاستخفاف "لماذا تهتمين بها؟ إنها لا تستحق أن ترهقي عقلك بالتفكير فيها، وهناك غيرها الكثيرات ممن سيخدمنك بأفضل منها.."
قالت الملكة بجفاف "ليس لك تقرير ذلك.. ومادمتِ قد لبيتِ أوامر الملك، فقد انتهى دورك هنا"
قالت بي ناريا بضيق "لم تبدين كارهة لوجودي هنا؟"

أشاحت الملكة بوجهها قائلة "بسبب تصرفاتك هذه التي ضقت منها.. إنك لا تقيمين وزناً لمشاعر أو ظروف أي شخص، وتصدرين أحكامك على الجميع دون الرجوع إليّ أو حتى إلى والدك.."
فعلقت بي ناريا قائلة "لكنني لم أكن أجانب الصواب في أي شيء.. وإلا لتدخل أبي في الأمر"
قالت الملكة بحدة "إن الملك مشغول بقضايا أهم مما تفعلينه.. إنك لم تصبحي ملكة بعد.. لذلك يحلو لك ممارسة الحكم على الخدم والجند في القصر.."
نهضت بي ناريا قائلة "أنا واثقة بما أفعله، ولن أسعى لتغييره"
ثم خرجت من الغرفة وحركاتها تنم عن ضيقها، فيما زفرت الملكة قائلة "ويل للمملكة في حكمك يا بي ناريا"

****

سارت بي ناريا بعد انتصاف النهار وسط الحدائق الغناء التي تحيط بالقصر الملكي.. حيث انتشر حولها مجموعات من الفتيات والسيدات المنتميات للعائلة المالكة، وحولهن الوصيفات يتراكضن لتقديم ما يفرض عليهن من خدمات.. لاحظت بي ناريا النظرات المتوترة، وربما الخائفة، التي تلقيها عليها الوصيفات وهن يبتعدن عن طريقها بصمت.. فأدركت أن ما حدث للوصيفة هذا الصباح قد أثر فيهن.. ابتسمت برضا لأن ما فعلته أحدث فيهن هذا التأثير.. ليس هناك أفضل من القوة للسيطرة على هذه الغوغاء..
لاحظت أيضاً أن الفتيات يتهامسن كلما مرت بهن، وبعضهن يتغامزن ويكتمن ضحكاتهن بشكل أغاظها..
فتقدمت من إحدى الفتيات اللواتي كانت غارقة في همس ضاحك مع رفيقتها، فقالت لها بي ناريا بصوت تعمدت أن يصل للجميع "إن كنت تودين قول شيء فالأفضل أن تقوليه بصوت عالٍ.. ليس من الأدب التهامس عن وريثة العرش من خلف ظهرها.."
قالت الفتاة وهي تنحني بانحناءة بدت لبي ناريا هازئة والفتاة تقول "مع احترامي لك أيتها الأميرة.. لم أقصد أن اسبب إحراجاً لك بما يمكن أن أقوله"
احتقن وجه بي ناريا غضباً وهي تقول بشدة "ماذا تقصدين بقولك هذا؟ كيف يمكن أن تحرجيني بأي حديث قد تنسجينه؟"
هزت الفتاة كتفيها قائلة "لست أنسج شيئاً أيتها الأميرة"
ازداد غضب بي ناريا، لكن قبل أن تتفوه بكلمة قالت الفتاة بسرعة "مادمت واثقة من صحة أفعال جلالتك، فلماذا تهتمين بما يقوله الآخرون عنها؟ إلا إذا كنت.."
وتبادلت نظرة ضاحكة مع رفيقتها التي ألقت نظرة متوترة على بي ناريا، أما بي ناريا فقد تذكرت اتهام والدتها لها بأنها تتسلى بفرض سيطرتها على أهل القصر وخدامه.. أهذا ما يضحك هؤلاء الفتيات التافهات عليها؟ أيرونها تحاول فرض سلطة لا تملكها حقاً؟..
وبعد صمت طال، والجميع يصيخ السمع لما قد تتفوه به بي ناريا، قالت بصوت حاولت ان تكسيه ببرودة شديدة

"ما إسمك يا فتاة؟"
انحنت الفتاة انحناءة هازئة أخرى وهي تقول "مارلا ابنة سوديل القيّم على خزائن الملك.. يا مولاتي"
أعطتها بي ناريا ظهرها على الفور وهي عائدة الى القصر، فيما وجدت مارلا رفيقتها تجذب كمها قائلة بقلق
"ما الذي فعلته يا مارلا؟ لا ندري الآن ما قد تفعله الأميرة بك.."
قالت مارلا بنبرة هادئة وهي تنظر حولها الى الجمع الذي أخذ يتهامس وهم يبتعدون على المكان "لا تقلقي.. لن تستطيع فعل شيء.. أنا لست خادمة من خدم القصر حتى تلقي بي الى الخارج.."
قالت الفتاة بهلع "لكنها الأميرة.. والدها الملك لا يرفض لها طلباً.."
قالت مارلا بثقة "الملك لا يرضى بالظلم أبداً.. أنا لم أرتكب جريمة بالتهامس سراً.. مالم تقنعه الأميرة أنني أخطط لقلب الحكم"
وأطلقت ضحكة هازئة وهي ترى نظرات الإعجاب لجرأتها في بعض الأعين من حولها..

****

فتح الحرس باب قاعة الحكم أمام بي ناريا التي دخلت القاعة بوجه محتقن غضباً وخطواتها متسارعة حتى اقتربت من الملك الذي كان يتفحص بعض الأوراق في يده، ولما رأى منظرها قال بنبرة حانية "ما الذي كدر صفاء وجه أميرتي الحلوه؟"
ألقت بي ناريا نفسها على أحد الكراسي الفخمة القريبة من العرش صامتة مشيحة بوجهها.. فترك الملك ما بيده وقال لها "نارياسّا.. أنت تدرين أنني لا أتحمل رؤيتك متكدرة.. فلا تتعبي قلبي أكثر من هذا"
نظرت إليه بي ناريا بنظرة غاضبة، ثم أطرقت وهي تفرك يديها ببعضهما البعض مدة قصيرة، قبل أن تقول "لقد تعرضت للإهانة من إحدى فتيات القصر.. يبدو أن مكانتي تنهار كل يوم مهما حاولت أن أبنيها.."
ثم نهضت بغضب قائلة "كان بودي أن أصفعها أمام الجميع.. لكنني أريد أن أعاقبها بطريقة أشد.. لذلك أمسكت نفسي بصعوبة.."
قال الملك متعجباً "أذكر أنك تصفين فتيات القصر بالتافهات.. فلماذا تشغلين نفسك بهن؟"
قالت حانقة وأصابعها تعبث بخصلات شعرها بشيء من العصبية "لأنني الملكة المستقبلية.. من المفترض أن يكون لي احترامي.. هيبتي.. لا أن أهان من أتفه فتاة الى أصغر خادمة في القصر؟"
وسارت لتبدد غيضها وهي تقول ضاغطة أسنانها "ألم يكف ما فعلته تلك الوصيفة الحقيرة هذا اليوم؟"
سألها الملك وهو يعود لأوراقه "يبدو أن هذا لم يكن من أسعد أيامك يا أميرتي.. وما الذي فعلته لك تلك الوصيفة؟"
هتفت "تخيّل أنها حاولت منعي من الدخول الى جناح الملكة؟ يكفي أنها أخبرتني أن الملكة لا ترغب برؤية أحد.. أما أن تحاول منعي بالقوة وتجذبني من ذراعي.. هذا ما أثار غيظي"

فقال الملك محاولاً تهدئتها "لا تحملي هماً يا صغيرتي، سوف أنزل بها أشد العقاب كي لا تعود لهذا مجدداً"
لم تنتبه بي ناريا إلى أن والدها لم يكن جاداً في قوله، وهي تقول ملوحة بيدها "لا عليك منها.. لقد شفيت غليلي منها وانتهى أمرها.. ما يهمني هو تلك الفتاة التي تطاولت علي قبل...."
قاطعها الملك مقطباً "ما الذي فعلته لتلك الوصيفة المسكينة؟"
هتفت باعتراض "مسكينة؟ لا تصفها هكذا يا أبي.. إنها خبيثة لا تستحق أي عطف من أي نوع.."
قال الملك بشيء من الصرامة "ما الذي فعلته بها؟"
غزاها التوتر وهي تلمح نظرة تعرفها كل المعرفة في عين أبيها، ثم قالت بعد تردد "لقد طردتها"
زفر الملك بضيق وهو يغمغم "بي ناريا.."
قالت بسرعة "هذا ما تستحقه يا أبي.."
قال بصرامة "كان من المفترض أن تكافئيها على طاعتها الأوامر مهما كان السبب، لا أن تعاقبيها.. أنت بهذه الطريقة أرسلت إشارة لجميع من في القصر أن الالتزام بالأوامر يوجب العقاب.."
قالت باعتراض "لكن أنا.."
قال بشدة "من تكونين أنت؟ إن كانت مكانتك أنت، أو الملكة، أو أنا، تسمح بتجاوز أي أمر مهما كان تافهاً، فلن يبقى هناك نظام في القصر، ولا حتى في المملكة.. تعرفين أنني ضد أن يبيح أي شخص لنفسه شيئاً بدعوى مكانته، فكيف تفعلين هذا أنت؟.. أنت يا بي ناريا؟"
خفضت وجهها بضيق وهو يردف بلهجة حاول تلطيفها "نارياسّا.. إنني أعدّك لكي ترثي العرش.. لكي تحكمي عدداً لا يحصى من البشر.. فكيف تريدينني أن أشعر بالراحة لقرراي هذا وأنا أرى قلبك خالياً من الرحمة؟"
ثم ربت على كتفها مضيفاً "إن كنت تريدين إسعادي وإراحة قلبي، فأعيدي تلك الوصيفة الى عملها.."
قالت بي ناريا مغالبة ضيقها "أمرك يا أبي.. لن يهنأ لي عيش وأنا أرى ضيقك مني.. سأرسل من.."
قاطعها الملك بابتسامة متسعة "لا ترسلي أحداً، واذهبي بنفسك إليها لإعادتها.."
تطلعت إليه بعيون متسعة وهي تهتف "مستحيل.."
قال الملك "بل هذا ما أطلبه منك.. اذهبي الى منزلها.. وشاهدي بعينيك كيف يعيش العامة بعيداً عن هذا القصر.. حاولي التقرب من رعاياك، كي يحبوك مدى الحياة"
فتحت فمها لتعترض، لكن قطع حديثهما دخول المستشار الأول للملك بشكل مفاجئ الى قاعة العرش والتوتر باد على وجهه، وقال للملك وهو ينحني أمامه "معذرة يا مولاي.. هناك أمر عاجل ومهم قد حدث.. ولم أجد مفراً من إبلاغك به في هذه اللحظة.."
أشار الملك لبي ناريا قائلاً "اذهبي لأداء ما كلفتك به يا بي ناريا.. ووافيني بالنتائج لاحقاً.."
قالت بي ناريا مدمدمة "لست مقتنعة حقاً بما تجبرني على فعله.. لكنني سأفعله إرضاء لك فقط.. ولا تهمني تلك الوصيفة في شيء"
ثم نهضت مغادرة القاعة وهي تلاحظ انفعال المستشار وهو ينتظر خروجها.. وخارج القاعة قالت لأحد الحراس

"جهز لي المركبة حالاً.. واحرص على ألا يرافقني في خروجي أحد أبداً"
قال الحارس بدهشة "ولا حارس واحد لحمايتك يا مولاتي؟"
قالت زامة شفتيها "ولا واحد.. واستعجل في تجهيز المركبة، فسأخرج بعد قليل"
ثم اتجهت إلى جناحها وقد غمرها الضيق.. إنها مضطرة للخروج بلا حراسة كي لا ينتشر خبر ما ستفعله للجميع.. فهي تعتبر ما ستفعله ضعفاً، وهي تكره الضعف بكل أشكاله، ولا ترضاه لنفسها..
بعد فترة قصيرة، كانت المركبة تشق طريقها بين طرقات المدينة الكبيرة التي غمرها نور الشمس الغاربة، لا تحمل إلا سائقها، وبي ناريا التي جلست في المقعد الخلفي واجمة.. ورغم انتشار استخدام المركبات التي تسير بطاقة البلور، إلا أن التقليد الملكي كان يحتم استخدام العربات التقليدية التي تجرها الحيوانات، وقد ارتأى الملك ألا يغيّر هذه العادة في عهده..
كانت بي ناريا قد استبدلت ملابسها الفاخرة الأنيقة بملابس عادية لا تلفت إليها النظر، وتوشحت بوشاح غطت به رأسها وجانباً من ملامحها في محاولة لإخفاء شخصيتها.. لكن المركبة الملكية المميزة كانت تلفت الأنظار حتماً في سيرها وسط طرقات المدينة.. ولما أصبحوا يسيرون في شارع خالٍ من المارة، أمرت بي ناريا السائق بالتوقف، وهبطت منها وسط الطريق الحجري مدمدمة "لماذا لا نستطيع الخروج باستخدام مركبة عادية كالآخرين؟"
والتفتت إلى سائق المركبة قائلة بأمر "سنكمل الطريق إلى منزل الوصيفة جوين سيراً.."
هبط السائق بدهشة وهو يقول "سيراً على الأقدام يا مولاتي؟ لكنه بعيد من هنا"
قالت "لا بأس.. سنسير حتى هناك.. وإياك أن تبوح بكلمة عن هويتي.."
قال وهو يسرع أمامها "أمرك مولاتي"
سارت بي ناريا على مبعدة من السائق الذي بدا قلقاً يتلفت حوله وكأنه يخشى أن يهاجمها أحد إن عرف هويتها وتقع مسؤولية ذلك عليه.. فيما هي سارت بهدوء وثقة يغلبها التعالي.. وهي تتلفت حولها تنظر لمدينتها لأول مرة نظرة مباشرة من دون أن يحجزها حاجز.. بدا الأهالي متفاوتين في المكانة والغنى.. والمنازل بعضها فخم بهيج وبعضها مظلم متداعٍ.. ورغم أن مرورها أثار الفضول من حولها، إلا أن أحداً لم ينتبه لشخصيتها وهي تحرص على تخبئة وجهها جيداً..
طال بهما السير مدة من الوقت وساقيها تتعبان وهي التي لم تستخدمهما في مسافات طويلة من قبل.. ولما وصلوا إلى المنزل المنشود وقفت بي ناريا فترة تتأمل المنزل الذي لم يكن فاخراً مرفهاً، لكنه كان أفضل من المنازل المتداعية التي مرت بها.. كان صغير الحجم، وقد بدأ يتشقق في أماكن عديدة موحياً بقدم عمره.. له حديقة صغيرة زرعت فيها بعض الأشجار والخضروات.. وفي جانب زرعت شجيرات تحمل أزهاراً بهيجة المنظر..
اقتربت بي ناريا من الباب وهي تشير للسائق ليبقى بعيداً.. وبعد تردد طال طرقت الباب، وانتظرت لحظات معدودة قبل أن يفتح الباب صبي لم يتجاوز العاشرة من عمره تبدو السماجة على وجهه وهو ينظر إليها من

أعلى لأسفل، ثم قال بلهجة حادة "ماذا تريدين؟ إن كنت تريدين الاستجداء فنحن لا نملك شيئاً"
قالت ببرود "وهل أبدو فقيرة لهذه الدرجة؟"
هز كتفيه مجيباً "لا.. أحببت فقط أن أوضح هذه النقطة"
اقتربت امرأة من الباب وهي تنهر الصبي بعيداً.. ثم قالت "اعذريني على وقاحة الصبي.. لا أعرف كيف أستطيع أن ألجم لسانه"
ثم تأملتها ملياً وهي تتساءل "هل أستطيع أن أخدمك في شيء؟"
سألت متلفتة في المنزل من خلف المرأة "هل جوين موجودة؟"
قالت المرأة وتعجبها يزيد "هل أنت من صديقاتها؟ لقد غادرت بحثاً عن عمل.. يمكنك انتظارها إن شئت فستعود بعد قليل"
ترددت بي ناريا وهي تنوي رفض ذلك، لكن العودة لهذا الذل من جديد جعلها تحجم عن ذلك وهي تجيب بالإيجاب، فسمحت لها المرأة بالدخول والجلوس على كرسي خشبي قرب طاولة متوسطة الحجم بدت بالية لكثرة الاستعمال.. وقربها جلس الصبي الوقح يبتسم لها ابتسامة لزجة، وقربه فتاة أصغر سناً ظلت مطرقة دون أن تلتفت وإن بدت تصغي بانتباه لما يدور حولها.. وفي الجوار يتعارك صبيان متقاربان في العمر لا يبدو أن أحدهما يتجاوز الخامسة.. بينما أسرعت المرأة لتحضير بعض الشراب الساخن لضيفتها تساعدها فتاة تصغر جوين سنين معدودة..
ظلت بي ناريا تتلفت حولها متأملة المكان الذي بدا على شيء من رقة الحال وإن بدا نظيفاً مرتباً.. ثم انتبهت إلى عجوز تجلس في زاوية المكان ترمقها بنظرة متفحصة وهي تغزل بعض الخيوط على آلة غزل قديمة..
جاءتها الفتاة الكبرى بالشراب الساخن ووضعته دون كلمة، لكن بي ناريا لم تمسّه تعففاً وهي التي لم تعتد الشرب إلا في الأكواب المذهبة غالية الثمن في القصر.. ولا تكاد تشرب من الكوب ذاته مرتين أبداً..
جلست المرأة قربها وهي تقول "اشربي يا ابنتي.. إنه لذيذ وسيدفئك.. يبدو أن الشتاء قد اقترب كثيراً.. قلت لي ما هو اسمك؟"
قالت بي ناريا بنبرة باردة "سأنتظر جوين.."
بدا هذا تلميحاً صريحاً أنها لا ترغب بالتحدث عن شيء حتى مجيء جوين، فصمتت المرأة بحيرة وهي تلتفت لتناول الفتاة الصغيرة كوباً آخر وتساعدها في شربه.. ثم عادت تنهر الصبيين الصغيرين وتطالبهما بالتزام الهدوء.. أما الصبي الوقح فقد قال لبي ناريا بصوت متراخ "هل أنت صديقة جوين من القصر؟"
لم تجبه بي ناريا وهي تشيح بوجهها، فقال من جديد "وهل طردوك أنت أيضاً؟"
انتهرته المرأة بحنق وهي تطالبه بالاعتذار.. في تلك الأثناء بدا أن الفتاة قد تضايقت من سخونة الشراب، فأعادته لصحنه بهدوء، لكنها ارتبكت قليلاً مما تسبب في سقوط الكوب وتناثر محتوياته على شقيقها وبي ناريا.. فصاحت بي ناريا بغضب "أيتها الحمقاء.."
ونهضت تنفض ملابسها مما أصابها من الشراب، بينما ارتبكت المرأة وهي تسارع لمسح ما انسكب من

الشراب قائلة باعتذار "سامحيني يا ابنتي.. إنها لم تقصد ذلك"
قالت بي ناريا بحدة "كان عليها أن تنتبه أين تضع الكوب.."
بدت الفتاة مطرقة لا تتحرك وإن احمر وجهها، والمرأة تقول باعتذار أشد "سامحيها.. إنها لا تستطيع الرؤية"
نظرت بي ناريا إلى الفتاة التي لاحظت للمرة الأولى انطفاء عينيها، بينما بدأت الدموع تحتشد في عيني الفتاة وهي تغمغم بصوت هامس "آسفة.."
عادت بي ناريا للجلوس زافرة وهي تهز قدمها بنفاذ صبر.. وكادت تنهض وترحل من المكان بلا عودة عندما سمعت صوت الباب يفتح لتدلف منه جوين مرتدية ملابس متواضعة وملامحها تنم عن حزن وضيق.. لكنها فور أن رأت عائلتها حتى اغتصبت ابتسامة وهي تلاحظ وجود ضيفة في المنزل وإن لم تتعرفها..
سارع الصبيان الصغيران لملاقاتها بسرور وهي تقبلهما وتمنح كل منهما قرصاً من الحلوى.. فاقترب منها الصبي الأكبر وهو يمد يده متطلباً، عندها ابتسمت وناولته نصيبه بعد أن قبلته عنوة وهو يدفعها متأففاً.. لكنه بعد ذلك ابتعد والابتسامة تملأ وجهه..
اقتربت جوين من بي ناريا وهي تقول لأمها "لدينا ضيفة اليوم!.."
قالت المرأة "جاءت بحثاً عنك.. وهي تنتظرك منذ مدة"
قبلت جوين جدتها محيية، ثم قبلت أمها بحنان، وجلست على كرسي قريب حاملة أختها الضريرة لتجلسها في حضنها وتناولها نصيبها من الحلوى ماسحة على رأسها بحنان وهي تنظر إلى بي ناريا التي لم تكشف الغطاء عن وجهها بتساؤل..
لا تدري لم شعرت بي ناريا كأن دلواً من الماء البارد صبّ على رأسها مطفئاً غضبها وضيقها وهي ترى ما يدور من حولها.. لكنها تجاهلت مشاعرها وهي تقول لجوين "هناك أمر يجب أن أنهيه معك.. هلا ابتعدنا من هنا؟"
بهتت جوين وهي تتعرف صوتها، وهبّت مذعورة فاتحة فمها، لكن بي ناريا أشارت لها لتصمت بحزم وهي تخرج من المنزل وجوين تتبعها مذهولة والجميع مندهش لما يجري.. وفي الحديقة، بعيداً عن سمع السائق الذي لم تره جوين عند دخولها، وبعيداً عن سمع عائلة جوين التي التصقت بالنافذة المفتوحة تنظر لما يجري.. قالت بي ناريا دون أن تكشف نفسها "أظنك قد عرفت من أنا.."
همّت جوين بالانحناء لها، لكن بي ناريا منعتها بعصبية وهي تقول "لا أريدك أن تشيري لأحد عن هويتي بأي طريقة كانت.. لا أحد يعلم أنني قدمت إليك ولا أريد لأحد أن يعلم ذلك.. أفهمت؟"
هزت جوين رأسها إيجاباً وهي تغمغم "هذا شرف لي يا مولاتي.. ولكن لماذا؟"
قالت بي ناريا بضيق "لقد أتيت لأعيدك إلى وظيفتك في القصر.."
اتسعت عينا جوين بذهول وبي ناريا تشيح بوجهها قائلة "ستعودين للعمل كوصيفة للملكة.. هذا بناء على رغبتها ورغبة الملك"
ثم أضافت بحدة "لكن إن كررت ما فعلته معي مجدداً، فلن أكتفي بطردك.. أفهمت؟"

قالت جوين على الفور "طبعاً يا مولاتي.. لن أكرر خطئي مرة أخرى.. وأجدد اعتذاري لما حدث.. فأنا لم أقصد.."

أسكتتها بي ناريا بإشارة من يدها وهي تقول بترفع "لست بحاجة لاعتذارك فهو لا يفيدني في شيء.. لكن أتمنى ألا أرى وجهك مرة أخرى في القصر أبداً.. إياك والظهور أمامي في أي حال من الأحوال"

أحنت جوين رأسها بخفة وهي تقول "أمرك مولاتي.."

ابتعدت بي ناريا للحظة قبل أن تلتفت قائلة "لا تخبري عائلتك بأنني قدمت إلى هنا.. قولي لهم أنني رسولة من القصر إليك.. أفهمت؟"

وغادرت دون أن تنتظر رد جوين التي كادت تطير من الفرح وهي تسرع لأمها تزف لها البشرى.. أما بي ناريا فقد عادت من الطريق ذاته وفكرها غائب بكل ما رأته في منزل جوين.. هل حقاً لمس مشاعرها الدفء الذي يغمر ذلك المنزل المتواضع؟ لم تلمح الكثير من الابتسامات على الوجوه، لكن المنزل حمل دفئاً وحباً أكثر مما رأته في القصر كله.. كما بدا أن الجميع يحبون جوين.. التماع السرور بدا واضحاً في الأعين لدى قدومها.. ماذا لو كان لها هي أخوة أو أخوات أصغر منها تلتمع أعينهم بذات النظرة لدى رؤيتهم لها؟..

****

دلفت بي ناريا جناح والدتها الملكة التي تألق وجهها بابتسامة وهي تقول لدى رؤيتها "لأول مرة أراك تقومين بعمل يحمل شيئاً من الرحمة في جوانبه.. أتمنى أن تكوني قد تعلمت شيئاً من هذا الدرس"

قالت بي ناريا ببرود "أي درس؟ لم يقل لي إن ما حدث كان درساً وجب عليّ حفظه"

لم تغب الابتسامة عن الملكة رغم هذا التعليق وهي تسألها "ألم يسعدك ما فعلته لجوين؟ ألا تشعرين بالراحة عندما تسعدين شخصاً ما؟"

قالت بي ناريا بجفاء "بل أشعر بالذلّ.. ليس من مقامي استجداء وصيفة لتعود إلى عملها في القصر.."

قالت الملكة "ذلك ليس استجداء.. بل رحمة"

هزت بي ناريا كتفيها موحية بعدم فهمها أو عدم اهتمامها بالأمر وهي تتقدم من النافذة تتطلع إلى الحدائق الغناء خارجها والتي رغم حلول الظلام إلا أن الأنوار المتفرقة في الحديقة تضفي عليها لوناً ساحراً.. ثم نظرت إلى الملكة التي انشغلت بمداعبة حيوانٍ ناعس يشبه القطة بفراء وردي كثيف حتى لا يبدو أي ملمح من ملامح وجهه.. وبعد لحظة صمت غمغمت بي ناريا "لماذا ليس لدي أخوة؟"

تجمدت الملكة صامتة للحظة، ثم نظرت إلى بي ناريا متسائلة "ما الداعي لمثل هذا السؤال الآن؟"

قالت بي ناريا هازة كتفيها "إنه مجرد سؤال خطر ببالي اليوم"

قالت الملكة بتردد "لقد رزقنا بك بعد سنين طويلة من الانتظار.. وبعدك لم نحض بأي أطفال مطلقاً.. وقد بدا الملك راضياً بذلك، لذلك لم يحاول الحصول على أطفال آخرين بالزواج من أخرى"

لم تعلق بي ناريا مثيرة حيرة الملكة التي عادت تتساءل "أتشعرين بالضيق لذلك؟"
قالت بي ناريا "لست متأكدة.. ربما أحببت أن يكون لديّ أخوة أو أخوات كي لا أشعر أنني وحيدة.. هذا شيء لا يستطيع المُلك أن يمنحني اياه.."
ثم أضافت بعد تفكير قليل "أو ربما لم يكن هذا ليسعدني، لا أريد أن ينازعني أشخاص آخرين اهتمام أبي، ولا المُلك الذي أسعى إليه.. لذلك الحال هذا افضل لي بالتأكيد"
قالت الملكة بضيق "أهذا كل ما يهمك؟ المُلك؟"
قالت بي ناريا "أجل.. هذا كل ما يهمني.. هل لازلتم تشكّون في ذلك؟"
عزفت الملكة عن التعليق وقد تأكدت من عدم جدوى ذلك.. بينما أضافت بي ناريا "أين أبي؟ هل لازال مجتمعاً بالمستشار؟"
قالت الملكة وهي تمسح على فراء الحيوان في حجرها "لقد علمتُ قبل قدومك أنه استدعى الوزراء في اجتماع عاجل.. يبدو أن أمراً جللاً قد حدث فهو غاضب بشدة.."
قطبت بي ناريا وهي تفكر في الأمر، لا يُغضب أبيها شيء إلا ظلم قد وقع على رعيته.. فمن هو الظالم يا ترى؟..
في تلك الأثناء كان الوزراء يتبادلون النظرات المستنكرة وأعلاهم مركزاً يقول "حكم ذاتي؟ أي سخف هذا؟"
قال الملك والتعب بادٍ على صوته "هذا ما سمعتموه يا سادة.. الثورة عادت من جديد في هيمانيا ومطالب الثوار واحدة.. يريدون الانفصال عن المملكة دون تنازل أو مساومة"
قال أحد الوزراء باستنكار "يطلبون منا اقتطاع جزء من مملكتنا ومنحها لهم عن طيب خاطر؟ هذا هراء.."
قال الملك "إنها أرضهم بالأساس أيها الوزير.."
تساءل المستشار "إذن أنت راضٍ عن طلبهم يا مولاي؟"
أجاب الملك بحزم "قطعاً لا.. لن أتسبب في تفكك المملكة التي حافظ عليها أجدادي لسبعة أجيال كاملة.. لن أعيد الكوكب للقرون التي سادتها الثورات والفوضى والحروب.. لم نحصل على السلام الشامل إلا بتوحيد الكوكب كله في مملكة واحدة، ولن أتنازل عن هذا أبداً.. لكن.."
ظلوا يتطلعون إليه مستفهمين، فقال وهو يعقد يديه أمام وجهه "هناك أمر استجدّ في هذا الإقليم.. أنتم تعلمون أن الثورات لم تبدأ فيه إلا منذ أقل من عقد واحد.. بالتحديد منذ سبع سنوات فقط.. فما الذي حدث في هذا الإقليم ليثور دون هوادة؟"
قال أحد الوزراء "جميع الولاة الذين حكموا الإقليم خلال هذه السنوات قد أرسلوا تقارير وافية عن استتباب الأمن والعدل في الإقليم.."
قال آخر "هذا ما تأكدنا منه.. هذا الإقليم محبّ للمشاكل.. وأراهنكم أن أول شيء سيفعلونه إن استجبنا لطلبهم هو هجومهم على أقرب إقليم وبدئهم حرباً أهلية.. إنهم شعب فاسد لا أكثر ولا أقل.."

قال الملك نافياً "لا أصدق هذا.. قد ينطبق هذا على جماعة منهم.. على ألف أو ألفين.. لكن أن ينطبق على إقليم كامل يبلغ سكانه عدة ملايين، فهذا ما لا أصدقه.."

تساءل أحد الوزراء بحدة "وماذا عن تقارير مانيم؟ هل هي مشكوك فيها أيضاً؟"

قال المستشار بحدة أكبر "لا يحق لك مخاطبة الملك بهذه اللهجة يا مردين.. حتى لو كنت عمّ مانيم، لكنك لا تملك أن تشكك في نزاهة الملك ونظرته للأمور.."

صمت الوزير مردين على مضض بينما لم يعلق الملك بكلمة وهو غارق في التفكير.. كان بالفعل يشك في مانيم.. يشك في قدرته العجيبة على تهدئة الأوضاع بسرعة قياسية، ويشك أكثر بانفجار الوضع بعد عودة مانيم بمدة وجيزة..

ثم إن تقارير مانيم جميعها عائمة لا تحوي تفاصيل كثيرة، وطبيعة الفتى الماكرة التي لا يستطيع إخفاءها عن عيني الملك الحادتين تدله على أن أساليب الفتى ليست مسالمة تماماً..

نظر الملك إلى المستشار وقال مقاطعاً الأحاديث الجانبية بين الوزراء "أرسل مجموعة من الخبراء لتقصّي الأمر وبحث الأسباب الظاهرة والخافية لهذه الثورات.. أريد معرفة أصل الحكاية، وعندها نستطيع أن نختار القرار المناسب لحل هذه الأزمة للأبد، بما يضمن مصلحة الطرفين.."

غمغم مردين "الثورة لا تبغي إلا يداً من حديد لقمعها.."

قال الملك بابتسامة "عندما أرغب باستخدام هذه اليد، فسأستشيرك في هذا قطعاً أيها الوزير.."

لم يعلق أحد على قوله بينما أظهرت بعض الأعين سخرية من الوزير الذي احتقن وجهه وهو يتشاغل بما أمامه من أوراق..

أما المستشار فقد ابتسم وهو يقول "سآمر بأن يتم هذا في أسرع وقت يا مولاي.."

****

جلس الملك على كرسي وثير في جانب من جناحه يتأمل أوراقاً في يده بصمت.. كان الليل قد أوغل والهدوء قد عمّ القصر، لكن الملك لم يهدأ وهو ينتظر بصمت حتى سمع الطرقات التي عَلَتَ في المكان.. فأذن لصاحبها بالدخول وهو يزيح الأوراق جانباً.. وخلال لحظات كان مانيم يقف أمامه متسائلاً "ما الذي يدعو مولاي للسهر حتى هذه الساعة؟ الكل أخلد للنوم العميق.. وحتى النبلاء الذين تجمعوا للسهر والاحتفال في القصر قد عادوا إلى ديارهم.."

قال الملك وهو ينظر إلى مانيم "أمر هام قد منع النوم من عيني يا مانيم.."

وأشار له ليجلس على كرسي آخر، فجلس مانيم والدهشة تغزو أعماقه دون أن ينبس بكلمة.. وبعد لحظة صمت طالت قال الملك "ما الذي تفعله في هيمانيا يا مانيم؟"

ارتفع حاجبا مانيم للسؤال المباشر وقال "مولاي.. كما أرى تقاريري كلها بين يديك الآن.. وقد أوضحت لك كل ما تبغي معرفته من قبل.. فما الداعي لهذا السؤال الآن؟"

قال الملك بحزم "لأني أشم رائحة خديعة لا تفوتني.. لقد تهاونت في الأمر مدة طويلة لأسباب عدة.. في البدء ظننت الثورات كانت مجرد محاولة لجذب الاهتمام والحصول على حقوق منسية، وسعيت لتحقيق ذلك.. ثم اعتقدت أن هدف الثورة هو تغيير الوالي وتنصيب الثوار حكاماً للإقليم، وعينت رجلاً ثقة من هيمانيا والياً.. ومع كل هذا الثورات لا تخفت بل تزيد وتكاد تأكل الإقليم كله.. ما الذي يجري في هيمانيا بالذات لتثور بهذه الطريقة؟"

قال مانيم "إنه الطمع يا مولاي.. طيبتك معهم وتساهلك جعلهم يطمعون أكثر وأكثر.. هناك شعوب يكفيها العدل والأمن لتبقى مطيعة.. وهناك شعوب كلما تساهلت معها أكثر كلما تمردوا أكثر.. هيمانيا تريد الحديد والنار كي تحني رأسها وتسير في ركب المملكة طائعة.."

قال الملك بحدة "وهذا أسلوب لا أرضى به.. كل الشعوب تريد الأمن والسلام والعدل.. كل الشعوب تريد أن تحصل على حقوقها، وتربي أطفالها في بيئة آمنة.. حديثك عن الطمع والتمرد لا يقنعني.. أنا لست طفلاً لتغرر بي بكلماتك هذه.."

قال مانيم مقطباً "ما الذي تعنيه يا مولاي؟"

قال الملك بصرامة "ما أعنيه أنني أعرف ما يحدث في هيمانيا.. أعرفه وأعرف كل المتسببين في ذلك.. لكنني لا أملك دليلاً قاطعاً على ذلك، ومتى ما حصلت على الدليل، فلن أتوانى عن محاسبة المسؤولين محاسبة قاسية.. أنا لا أرضى بالظلم.. وأنت تعلم هذا جيداً.."

كان هذا تهديداً صريحاً لمانيم جعله ينظر إلى الملك صامتاً وهو يفكر، ثم سمع الملك يضيف وهو ينظر في الأوراق بين يديه "ثم ما الذي كنت تفعله بالأوراق الخالية المذيلة بتوقيعي يا مانيم؟ لا أرى أيها هنا.. فما الذي كنت تفعله بها حقاً؟"

جمد مانيم قليلاً ينظر إلى الملك بصمت، ثم نهض واقفاً وقال وابتسامة تتلاعب على شفتيه "مولاي.. ما كان عليك مصارحتي بأمر كهذا.. في هذا الوقت وهذا المكان.."

قال الملك مقطباً "وما الذي ستفعله؟"

اتسعت ابتسامة مانيم وهو يقترب من الملك قائلاً "هناك الكثير مما يستطيع شاب مثلي أن يفعله بعجوز مثلك.. ولقد آن أوان التجديد لهذه المملكة.."

ولم يُسمع في تلك الليلة همس آخر في الجناح الواسع المظلم..

****

في تلك الليلة، استغرقت بي ناريا في نوم عميق تخللته أحلام لا معنى لها.. كان ذلك اليوم قد شهد أعنف مجهود بذلته منذ تجاوزها مرحلة الطفولة.. فالسير لمسافات طويلة، إن صحّ وصف المسافة التي قطعتها بذلك،

كان مجهوداً عظيماً بالنسبة لها.. وشعرت أن ساقيها تؤلمانها بشكل جعلها ترمي اللعنات على رأس جوين قبل نومها والوصيفة تعتني بها عناية خاصة باستخدام الزيوت العطرية المريحة للأعصاب والتدليك المتمرس لساقيها قبل أن تغرق في النوم بدون مقدمات..

لذلك ساءها بشكل كبير دخول الوصيفة عليها في الساعات الأخيرة من الليل وإقلاق نومها مما جعلها تقول بحدة وهي لم تنتبه من نعاسها بعد "كيف تجرؤين؟ لم أطلب منك إيقاظي في هذه الساعة.. هل تريدين العقاب؟"

لكن لهجة الوصيفة وصوتها المرتجف أطار النعاس من عينيها وجعلها تنتبه لمنظر الوصيفة المرتبك وهي تقول لها "مولاتي.. لدي خبر عاجل ومحزن لك.. الأمر لا ينتظر الصباح بأي حال"

نهضت بي ناريا جالسة وتساءلت بحدة "ما الأمر؟"

قالت الوصيفة بصوت هامس "الملك.. لقد مات"

كتمت بي ناريا شهقة كادت تفلت من حلقها بصعوبة وهي تتطلع لوجه الوصيفة بعينين متسعتين، ثم صاحت فيها "أهي مزحة؟ سأقتلك لو كان ما تقولينه غير صحيح"

تدافعت الدموع في عيني الوصيفة وهي تقول بصوت مرتجف "كلا يا مولاتي.. الصدق هو ما أقول.. لقد أبلغني المستشار بالأمر قبل قليل وطلب أن أبلغك وأبلغ مولاتي الملكة بالأمر حالاً"

شعرت بي ناريا بالدوار يلف رأسها وكأنها لا تزال في حلم لا معنى له.. الملك مات؟ كان هذا شيئاً غير مستبعد مع عمر الملك المتقدم، لكنه كان بالنسبة لها شيئاً مستحيلاً.. رغم أنها كانت تتلهف للجلوس على العرش، لكنها لم تربط يوماً بين هذا وبين موت والدها، كانت تتوقع بعد أن يطول به العمر سيتنازل عن العرش لها، ويبقى قريباً منها كملاك حارس.. يعينها ويرشدها ويغمرها بحبه مدى الحياة..

كانت صدمتها عنيفة، فطردت الوصيفة خارجاً واختلت في جناحها وهي تجهش في بكاء حار..

بعد نصف ساعة، دلفت بي ناريا إلى غرفة الملك واتجهت إلى السرير الذي رقد فيه جثمانه.. كانت الملكة راكعة قرب السرير منخرطة في البكاء.. فركعت بي ناريا جوارها وهي تتأمل وجهه الهادىء وكأنه غارق في سبات عميق صامتة للحظة، ثم رفعت رأسها مغمغمة لأمها "لقد رحل.. من كان يصدق أن يأتي هذا اليوم؟"

لم ترفع الملكة رأسها وهي تغمغم باكية "لست أدري ما أصابه.. لقد كان بأتم عافية مساء البارحة.. وراعني الخبر عندما جاءني اليوم.. فماذا جرى له؟"

غمغمت بي ناريا "يقول الأطباء إنه مرّ بأزمة قلبية في الليل سحبت روحه من جسده.. ربما كان هذا راجعاً للأخبار السيئة عن إقليم هيمانيا التي سمعها قبل أن ينفضّ اجتماعه مع رئيس الوزراء"

فقالت الملكة بحزن غاضب "تباً لذلك الإقليم.. لن نحصل منه إلا على المصائب.."

نهضت بي ناريا واقفة وهي تقول "ما حدث قد حدث.. ولا يجب أن يشغلنا عن المسئولية التي تنتظرنا.."

رفعت الملكة وجهها متطلعة إلى بي ناريا، فلم تر بها ما يدل على حزنها سوى عينيها المحمرتين كما بدا لها.. إنها أعلم الناس بطبيعة بي ناريا التي تجعلها تكتم عواطفها وتغلب عقلها، لذلك حرصت على كتم حزنها

والسيطرة عليه دون أن تذرف دمعة واحدة حتى أمام والدتها.. وذلك رغبة منها في عدم إظهار ضعفها والسيطرة على أمور المملكة بقوة..

قطعت بي ناريا أفكارها وهي تقول متأملة ملامح الملك للمرة الأخيرة "ستتم إجراءات دفنه كما هو متبع بعد قليل.."

ثم غادرت الغرفة دون أن تحني رأسها مما جعل الملكة تقول بمرارة "رغم كل شيء لا أعذرك على الجفاء الذي تعاملين به موت والدك.. يا لك من قاسية القلب يا بي ناريا.. ماذا تحمل الأيام للمملكة في حكمك يا ترى؟"

وخارج الغرفة وجدت بي ناريا ذراعي مانيم تتلقفانها وهو يضمها هامساً "أعلم أن مصابك كبير، لكن الملك الراحل لم يكن ليرضى برؤيتك حزينة.. أليس كذلك؟"

لكن بي ناريا أبعدته عنها دون اهتمام وهي تقول "أريد البقاء لوحدي.."

وغادرت الى جناحها دون أن تلتفت لمانيم الذي ظل ينظر إليها بدهشة حانقة.. لم تكن تريد العزاء من أحد.. ولم يكن مانيم بقادر على إزالة حزنها.. بالواقع لم يكن للمسة مانيم أي تأثير يذكر على مشاعرها، وهو ما كان يرضيها لأنها تعتبر اختلاج مشاعرها للمسة أي رجل ضعفاً لا يليق بها..

أما مانيم فقد غمغم وهو يجتمع بعمه الوزير بعيداً عن سمع الآخرين والحنق يبدو بوضوح على وجهه "تلك الحقيرة تظن أنها في منزلة أكبر مني.. رغم ما تتظاهر به من حزن إلا أنني متأكد أن قلبها يرقص سعادة بوصولها للعرش"

قال مردين بضيق "ما كان عليك التسرع فيما فعلته.. فبي ناريا هي الوحيدة المستفيدة من هذا.. لو أنك سعيت للتخلص منهما في وقت واحد لأصبحت الوريث على العرش دون جدال فأنت الثاني في ترتيب وراثة العرش.."

قال مانيم "مستحيل.. موت الملك متوقع نسبة لسنه الكبيرة.. أما موت بي ناريا فهو سيجذب لنا الأنظار حتماً ويثير الشبهات.. لابد أن أجد ثغرة تبيح لي الاستيلاء على العرش بموافقة الجميع.. ولن أسكن حتى أعثر على هذه الثغرة.."

غمغم مردين زافراً قبل أن يغادر "لحسن حظنا أن العادة جرت ألا يتم فحص جثمان الملك حال موته إلا بشبهة قوية، وأن جناح الملك لا يخضع للمراقبة بأجهزة التصوير.. وإلا لبدا ما فعلته له واضحاً وجلياً للأعين.."

قال مانيم بابتسامة ساخرة "من حسن حظي أن الملك استدعاني في جناحه بالذات، وإلا ما استطعت فعل شيء أبداً.."

في وقت متأخر من صباح اليوم التالي، تجمهر الناس قرب سور القصر البلوري وقد بدا الوجوم على وجوه الجميع، وانطلقت صرخات الأطفال وقد استشعروا الحزن السائد في المكان دون أن يفهموا سببه.. وبعد لحظات، بدأ الموكب المهيب لجنازة الملك سيره من بوابة القصر، بعد أن أعلنت الأبواق ذات الأصوات العالية الرتيبة عن مروره.. فانزاح الناس مشكلين صفين من الأجساد تاركة مسافة كافية لمرور الموكب..

في بداية الموكب، سارت جماعة من الحرس الملكي الخاص بزيهم الرسمي وسلاحهم المشهر، يحيطون بعربة مذهبة تحمل في قلبها جثمان الملك الذي تم الاعتناء بتجهيزه تحضيراً لدفنه في مثواه الأخير.. يجرها أربعة من

الحيوانات التي تشبه الأحصنة تسمى توكور، وإن كانت أضخم حجماً سوداء اللون بشعر طويل يصل إلى الأرض، وأذنين طويلتين تتدليان جانبي الوجه.. وخلف العربة، ظهرت بي ناريا على توكور آخر أسود اللون، وقد أرسلت شعرها دون شيء يربطه للدلالة على حزنها، وتخلت عن كل أشكال الزينة وارتدت من الثياب أبسطها، وإن احتفظت بكبريائها وشموخها دون أن تحنيه أرضاً.. وخلفها كانت والدتها الملكة على توكور آخر مع مانيم وباقي العائلة المالكة.. ثم ظهر مستشارو الملك ووزراؤه.. وبقية قواد الجيش ونواب الملك في الأقاليم الأخرى ممن استطاع الحضور في هذا الوقت القصير..

اتجه الموكب إلى المقابر الخاصة بالعائلة المالكة الكائنة في طرف المدينة الشرقي، وهناك دلف الموكب إلى المقابر، فيما منع العامة من دخولها، واكتفوا بالوقوف قرب السور الحديدي المزخرف وهم يحدقون في ما يجري داخلها.. وقد ران عليهم صمت وسكون غريب..

استمرت مراسم دفن الملك لمدة طويلة.. كانت بي ناريا خلالها تحاول جهدها ألا تظهر شيئاً من الحزن أو الضعف لما حدث.. وسرعان ما انتهت المراسم، وعاد الموكب الحزين إلى القصر ليبدأ التجهيز لفصل آخر من الأحداث الكبيرة في عصر المملكة الجديد.. فصل تنصيب الملكة الجديدة على العرش، والتي طبقاً لقوانين المملكة، يتم تنصيبها في نفس يوم وفاة الملك السابق، كي لا تبقى المملكة بلا ملك يحكمها لليلة واحدة..

****

الفصل الثاني:
الملكة

عن العرش

..

والسياسة

..

والكبرياء الملكي

..

سارت بي ناريا في أرجاء جناحها الجديد الشاسع وهي تتأمل زواياه.. كان هذا الجناح حتى البارحة يخص والدها الحبيب.. لكنه اليوم أصبح لها.. كلما تلفتت إلى أية جهة تراءت لها صورة الملك السابق وهو ينظر لها بحب أبوي لا يمكن إغفاله..

تنهدت وهي تقف قرب النافذة الضخمة المواجهة للشمس التي بدأت رحلتها نحو الغروب صابغة الموجودات بلون ملتهب.. كانت النافذة تعطي منظراً شاملاً لجزء كبير من المدينة، والتي كان والدها يهوى الوقوف عندها مطولاً ليتأمل مدينته الحبيبة..

تنبهت بي ناريا على اقتراب إحدى وصيفاتها التي قالت بصوت هادئ "مولاتي.. جميع الترتيبات قد تمت لانتقالك إلى هذا الجناح.. فقط بقي القليل من....."

قاطعتها بي ناريا "دعوا كل شيء مكانه.. سأبقى في جناحي السابق.."

بهتت الوصيفة لثوان قبل أن تقول "لكن مولاتي.. هذا هو الجناح الخاص بملك المملكة.. جميع الملوك السابقين ومن ضمنهم والدك الملك الراحل سكنوا هذا الجناح.. ولا يعقل...."

قاطعتها بي ناريا مجدداً "لهذا سيبقى هذا الجناح خالياً، محتفظاً بذكرى أروع ملك شهدته المملكة.. لا أريد رائحة الملك أن تزول من هواء هذا المكان"

انحنت الوصيفة قبل أن تغادر لتباشر تنفيذ أمرها.. فيما تقدمت وصيفتان أخريتان ساعدتا بي ناريا على ارتداء المعطف الملكي، الذي صمم مسبقاً خصيصا من أجلها، وهو من قماش مخملي ناعم بلون سماوي مشرق، مطرز بخيوط مذهبة ومرصع بمختلف الجواهر الرائعة البريق..

ثم البستها الوصيفة تاجاً بلورياً سماوياً مرصعاً بالألماس بمختلف الأحجام والأشكال فوق شعرها الفاحم المصفف بعناية.. نظرت بي ناريا إلى صورتها في المرآة المقابلة.. لم يكن المعطف والتاج يغطيان جمال وجهها بل يزيدانه بهاءً.. شعرت بالثقة التي يشوبها غرور لم تحاول كبحه وهي تستدير مغادرة الجناح ووصيفاتها ينحنين لها وهن يباركن لها أول يوم تتولى فيه حكم المملكة الشاسعة..

وفي قاعة الحكم، التي امتلأت ثناياها بالوزراء وبعض حكام الأقاليم ممن كان في العاصمة في تلك الأيام والأشخاص ذوي المناصب الرفيعة، والذين تجمعوا لتعزية بي ناريا بوفاة الملك السابق وتهنئتها بتوليها الحكم.. دلفت بي ناريا بشموخ وهي لا تلتفت الى أحد من الحضور حتى جلست على عرشها المذهب حيث وقف المستشار الأول عن يمينه.. كانت بي ناريا قد أمرت باختصار حفل التنصيب إلى أقل ما يمكن حزناً على والدها الراحل.. فاكتفت فقط بالاجتماع بذوي المناصب لأداء قسم الولاء لها دون مظاهر صاخبة واحتفالات باذخة.. أما الملكة الأم فقد فضّلت عدم الاشتراك في الحفل لحزنها الشديد..

رأت مانيم يقترب متجاهلاً الجميع ويركع أمامها متناولاً يدها وطبع قبلة عليها قائلاً "مبارك لمملكة البلور أجمل وأبهى ملكة حكمته حتى الآن.. إن الناظر إليك مولاتي يدرك أن الشمس لم تشرق على المملكة قبل اليوم"

تناقل الوزراء النظرات التي تقول الكثير والكثير تدون أن تفصح عنها الألسن فيما قالت بي ناريا دون ابتسامة "شكراً يا مانيم.. لكني كنت أتمنى أن تتوقف عن فعل هذه الأفعال الاستعراضية قليلاً"
غصب مانيم ابتسامة على فمه وهو يقول "أتعنين أن التعبير عما في قلبي هو عمل استعراضي؟"
لم تعقب بي ناريا ومانيم يتنحى تاركاً لبقية الوزراء الاقتراب من الملكة لتهنئتها وأداء قسم الولاء لها..
ورغم حزنها على أبيها، فإن بي ناريا كانت تفيض سعادة.. كانت تشعر أنها تحلق فوق السحاب.. أخيراً، جلست على العرش بشكل رسمي.. أخيراً أصبحت الملكة.. أخيراً أصبحت هذه المملكة المترامية الاطراف بحجم الكوكب كله تحت قدميها..
من يباريها الآن؟.. بل من يستطيع أن يكون في صف واحد معها؟..

****

انتشر خبر تنصيب بي ناريا على عرش مملكة البلور في أرجاء المملكة الشاسعة.. وتناقلت وكالات الأنباء صورها التي تم التقاطها بعناية بعد مراسم التنصيب.. حيث ظهرت بمعطفها الملكي السماوي وتاجها البلوري يخطفان الابصار.. وملامحها بدت أكثر نضجاً من صورها السابقة فكانت فاتنة ناعمة.. عيناها تتطلعان بتصميم وبرود لا يُخفي جمالهما ولونهما السماوي الشفاف..
وقد تم تجهيز برنامج خاص عن حياة الملكة منذ طفولتها وحتى توليها عرش المملكة.. عرض في الأقاليم أجمع على الشاشات العملاقة التي نصبت في أبرز موقع في المدن الرئيسية والهامة في أرجاء الكوكب، والتي لا يستخدمها في البث إلا مركز البث الخاص بالقصر الملكي في يناسّا.. أظهرت الشاشات الحدث الأهم في المملكة باحتفالية كبيرة جذبت الشعب كله ليتابعه بمشاعر متماوجة.. فيها الاهتمام والفرح والترقب.. كما كان فيها الضيق والقلق والتذمر..
وفي مدينة ما.. مدينة بعيدة بعيدة.. مدينة غزا الدمار أطرافها واندلع الدخان من أجزاء متفرقة منها.. مدينة ارتسم الشقاء والبؤس على ملامح سكانها.. مدينة حرمت من أبسط مظاهر التحضر والرغد.. تطلعت عينان سوداوان حادتان إلى صورة بي ناريا الفاتنة، والتي ظهرت باهتة شبه مطموسة في تلك الشاشة التي لم تنج من الخراب والدمار.. تطلعت إليها بنظرة هائلة البغض.. لو كانت بي ناريا شخصياً أمام هاتين العينين لربما شبّت النيران في ملابسها من حدة تحديقهما بها..
كان اللغط دائراً في المدينة والكل يتطلع إلى صورة الملكة بمشاعر متفاوتة ليس الفرح ولا الأمل من بينها..
ولشدة اللغط لم ينتبه أحد لصاحب هاتين العينين وشفتيه تنفرجان بهمس مرعب "انتظريني أيتها الجميلة.. أنا قادم إليك لا محالة.. انتظريني فأنا في شوق إليك ما يبزّه شوق.."
وأضاف وهو يستدير مبتعداً "الموت لك يا بي ناريا.."

****

احنى مانيم رأسه بشكل خفيف أمام الملكة بي ناريا وهو يقول "أجمل تحية لمليكتي الرائعة.. هاقد مثلت أمامك فور أن وصلني رسولك يطلب مني الحضور"
أشارت بي ناريا لمانيم ليجلس قائلة "اجلس يا مانيم.. أريد أن أخبرك بآخر قرار أصدرته عن إقليم هيمانيا.. أحببت أن تسمعه مني عوضاً عن أن يصلك مرسوم ملكي بهذا الأمر"
فقال مانيم وابتسامته تتسع "أشكر لمولاتي حرصها هذا.. ويسعدني أن تمنحني بعضاً من رعايتها واهتمامها"
قالت مبتسمة "أنا لا يمكن أن أنسى خدماتك للملك الراحل.. وأتطلع للحصول على خدمات مماثلة الآن"
سألها مانيم رافعاً حاجبيه "فقط؟"
صمتت بي ناريا متطلعة إليه وهي تدرك إلام يلمح، ثم قالت مغيرة الموضوع "أنت تعرف الوالي الذي يدير شؤون الإقليم.. وتعرف طبعاً أنه أخفق في تسيير أموره بما يتلاءم مع قوانيننا.. ذلك الإقليم كان دوماً مصدراً للثورات التي لا معنى لها.. وهو المرشح دائماً بين الأقاليم الأخرى للانفصال عن المملكة.. وهذا ما أعتقد أنه تسبب بشكل غير مباشر في موت الملك السابق.."
ثم قالت بحزم "وأنت تعلم أنني لا يمكن أن أسمح بانفصال هذا الإقليم.. لا أريد أن أكون السبب في تفتت المملكة التي جاهد أبي وأجدادي من قبله للحفاظ عليها.. ستبقى المملكة موحدة كما كانت دائماً.. مهما كان الأسلوب الذي قد أتبعه لإحكام ذلك"
قال مانيم "هل توكلين أمره إليّ يا مولاتي؟"
أجابت هازة رأسها "أجل.. ستصبح أنت الوالي الجديد.. وأنا أخوّلك استخدام ما تراه من أساليب لإعادة السيطرة عليه.. لا أريد أن أسمع عن حدوث ثورات في ذلك الإقليم.. أريدهم أن يصبحوا من أشد الأقاليم ولاء للملكة"
ابتسم مانيم قائلاً بثقة "لا تخشي أمره يا مولاتي.. لقد تعاملت كثيراً مع شعب هيمانيا.. وأدرك أي أسلوب يعيدهم إلى جادة الصواب"
فقالت الملكة وهي تسترخي على العرش "إذاً يمكنك البدء من اليوم.. سيجهز لك المستشار المرسوم الملكي بتنصيبك نائباً على الإقليم.. وأريد أن أرى النتائج سريعاً.."
انحنى مانيم مجدداً وهو يقول "لا تحملي هماً يا مولاتي.. ستأتيك الأخبار بأسرع مما قد تتوقعين.."
وغادر القاعة تاركاً بي ناريا مع المستشار الذي تنحنح قبل أن يغمغم "ما زلت أرى أن الأمر يحتاج لتفكير أكثر.."
قطبت بي ناريا قائلة "أي تفكير يحتاج؟ أنا أُولي الثقة ذاتها التي منحها الملك لمانيم.. فما الذي يدعوني للتفكير؟"
قال المستشار "ربما لم يصارحك الملك الراحل بشيء من شكوكه، لكنني أعلم تماماً أنه لم يكن يثق بمانيم تلك

الثقة المطلقة في أيامه الأخيرة.. لقد أرسل خبراء لتفحص أمور هيمانيا، لكن وفاته في نفس اليوم منعني من المضيّ في الأمر.. كما أنه قد طلب تقارير مانيم عن الإقليم كلها تلك الليلة ليتفحصها.. لقد بدأ يشك فيه، وأرجو أن تأخذي هذا في محل الاعتبار قبل إصدار قرار خطير كتولية مانيم على هيمانيا.."

قالت بي ناريا "المهم عندي أن تهدأ الثورة القائمة في هذا الإقليم الآن.. وبعدها، قد أرسل خبراء لتقصي أموره وكتابة تقرير وافٍ عن أحواله.."

صمت المستشار على مضض وهو مستاء للثقة التامة التي ينالها مانيم من بي ناريا.. ألهذه الدرجة عميت عن رؤية حقيقته؟..

****

"مانيم؟.. مرة أخرى؟!!.. لماذا يصرّ الجميع على تفادي الحقائق وتولية هذا الوغد علينا؟"

دوّى الصراخ في مكان مغلق تحت الأرض بين مجموعة من الرجال والنساء بوجوه مكفهرة وصاحب الصراخ يضيف "وكأنهم يتحدوننا.. يدعوننا لمزيد من الثورة والتمرد.. أليس كذلك؟"

قال آخر بغيظ "يجب أن نقتل هذا المجرم.. يجب أن نوحد جهودنا لنقتله ونتخلص من أساس الشر المسيطر علينا.."

جاوبه صوت آخر لرجل أكبر في العمر يقول "بل هو مجرد ذراع.. الرأس موجود.. مهما تبدل وتغير يظل موجوداً منذراً بالخراب والدمار.. القضاء على الذراع لا يعني شيئاً مع ترك الرأس سليماً"

تطلع الجميع إلى الرجل الذي بدا ذا كلمة مسموعة بينهم وهو يضيف "آن الأوان لنسعى لتغيير شامل في خططنا.. حان الوقت لفعل حقيقي.. فعل كان يجب أن نقوم به منذ زمن.."

تساءلت امرأة بين الجموع بقلق قائلة "أنت لا تقصد.. الملك؟"

قال الرجل وهو يرفع رأسه متطلعاً إلى وجوههم جميعاً "بل الملكة.."

تطلعوا إليه بذهول، فتنهد وقال شاداً قامته "هذه هي الخطوة الصحيحة.. ليس لنا فقط.. ليس لهيمانيا وشعبها.. بل كي لا ينال الظلم أحداً من الأقاليم الأخرى.. هذه مرحلة مهمة.. وأمرها سيطول.. لذلك علينا التخطيط لها بهدوء وعدم استعجال.. ولابد سنأكل من ثمار جهودنا في الوقت المناسب.."

****

لم يكن شهر قد مضى على تولية مانيم على حكم هيمانيا عندما تساءلت الملكة بي ناريا وهي تزيح أوراقاً من أمامها "ما أخبار هيمانيا أيها المستشار؟ لم تردنا أنباء منه منذ فترة.."

قال المستشار هازاً رأسه "لست أدري يا مولاتي.. إن مانيم لم يرسل أي تقرير عما يفعله منذ توليه الأمر.. وهو

يفرض حصاراً على الإعلام حتى لا يتم نشر أي شيء مما يحدث هناك"
قالت الملكة عاقدة حاجبيها "لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟ من أعطاه الإذن بفعل كهذا؟"
قال المستشار بشيء من الحرج "أنت يا مولاتي.."
نظرت إليه باستنكار، فقال موضحاً "لقد أعطيته توكيلاً مفتوحاً لعمل كل ما يراه مناسباً لقمع الثورة وكسر شوكتها.."
صمتت بي ناريا مفكرة والمستشار يقول بتردد "مولاتي تعلم أنني كنت من الرافضين لتولية مانيم على الإقليم... فالملك قبل وفاته كان يشك في تصرفاته.. وتكتمه هذا يزيد الشك فيه أكثر فأكثر.."
قالت بي ناريا بحزم "لم أسمع من أبي قط قولاً كهذا.. ثم إنني أعرف مانيم معرفة مطلقة.. لن يقوم بعمل يسيء إليّ وإلى المملكة أبداً.."
صمت المستشار عازفاً عن مجادلتها في أمر لا ترغب بالحيد عنه.. ثم سمعها تقول "اتصل بمانيم بأي وسيلة ممكنة وصلني به.. يجب أن أعلم ما يحدث هناك.. فقد طال الأمر هذه المرة.."
انحنى المستشار ثم انطلق مطيعاً أمرها.. ولم تمض دقائق حتى كانت شاشة تخرج من قلب القاعة مقابلة للملكة يظهر فيها وجه مانيم مبتسماً كما عهدته بي ناريا وهو يقول "المجد لمولاتي الملكة ولمملكة البلور.. كم يسعدني هذا الاتصال وسط الصحراء القاحلة التي نعيش فيها.."
قالت بي ناريا متجاوزة مجاملاته التي لا تصدق نصفها "مانيم.. أنت تقاعست عن إبلاغنا بآخر أخبار هيمانيا.. وسمعت أنك فرضت حصاراً على الإعلام لكيلا ينتشر أي خبر مما يحدث هناك.. فما الذي يحدث هناك حقاً؟"
قال مانيم ملوحاً بيده "فلتطمئني يا مولاتي.. أنا أحكم قبضتي على الإقليم كله.. كل شيء يسير بسلاسة تامة.. فلا تخافي.."
قالت بي ناريا بصرامة "ليس هذا ما أسألك عنه.."
فتنهد مانيم وهو يجيب "مولاتي.. ليس من عادتي الكذب عليك.. الإقليم كان قد بلغ من الثورة أقصاها عندما وصلت إلى هنا.. الوالي السابق كان متقاعساً عن كبت الثورة تلك وذلك مما شجعهم على التمادي.. لذلك كان عليّ الضرب بيد من حديد لأضمن ألا يفكر هؤلاء الرعاع بالتطاول على ملكتنا الغالية.."
وأضاف وهو يبتسم "لا أحب أن أؤذي مولاتي بسماع التفاصيل التي لا تلائم أذنيك المرهفتين.. لكن لو رغبت فسأورد كل ما حدث في تقريري المفصل عندما أعود.. لكن لا تقلقي، الشعب لم يتضرر بشيء مما أفعله، وهم يساندوننا ويتمنون رضاك.. إنما الثوار شرذمة قليلة سرعان ما أقضي عليها وأعود إليك مظفراً.."
لمحت بي ناريا النظرة المستاءة في عيني المستشار، لكنها لم تعلق وهي تقول لمانيم "حسناً.. أريد تفاصيل جميع ما فعلته في تقريرك الذي تسلمه لي فور وصولك من هيمانيا.. كما أريد أن تجمع لي رؤساء العشائر في الإقليم ليقسموا على طاعتهم لي هنا في يناسّا.."
وعدها مانيم بذلك قبل أن ينهي الاتصال، وما كاد يفعل حتى التفتت بي ناريا إلى المستشار قائلة "تبدو مستاءاً

مما دار بيننا.. فما الأمر؟"
قال المستشار بضيق "مولاتي.. ألا تلاحظين أن مانيم يدور في أجوبته متجاهلاً ما تطلبين معرفته؟ إنه يعطينا أجوبة ملتوية لا تشفي غليل أحد.. وحتى تقاريره السابقة كلها عائمة لا دليل فيها لأي شيء.. كل ما نعرفه أن الهدوء يعمّ الإقليم بعد عودته لأسابيع معدودة قبل أن ينفجر الوضع مجدداً.."
قالت بي ناريا وهي تعود إلى الأوراق أمامها "وهذا ما أريد حسمه هذه المرة.. سأنتظر تقارير مانيم، وسأواجهه بصرامة لو لمحت أي مراوغة فيها.. فلا تقلق.."
تنهد المستشار وهو غير مقتنع تماماً بثقتها المطلقة.. مانيم يبدو أخبث وأشد خطراً من الثوار الذين يملؤون هيمانيا.. أما بي ناريا فهي على قسوتها لا تتسم بالخبث مثله لذلك يسهل عليه خداعها في كل مرة..

****

بعد عدة شهور، وبعد إلحاح من بي ناريا، عاد مانيم للعاصمة بعد أن أرسل تقريراً مفصلاً عما حدث في إقليم هيمانيا أثناء ولايته عليه.. وقد قضت بي ناريا يومها بطوله تقرأ التقرير مدققة في أشد التفاصيل بمعاونة المستشار.. وفي اليوم التالي، ظلت بي ناريا تستمع للمستشار بنصف وعي وهي تهز قدمها بعصبية، فيما كان يقرأ لها بعض الرسائل الواردة من الأقاليم الأخرى، ثم قاطعته بحدة "أين مانيم؟ المفترض أن التقي به منذ بداية النهار.. الآن يوشك النهار على الانتصاف وهو لم يأت بعد.. هل يتجاهلني؟"
غمغم المستشار "لقد أرسلت في طلبه والمفترض أن يمثل بين يديك الآن.."
قالت بحنق "إنه يتجاهلني بكل تأكيد.. لا أشعر أنه يعاملني بالاحترام الذي استحقه كملكة.. ما الذي يفكر فيه هذا الرجل؟"
سمعت مانيم يقول "بل احترامي لك هو ما يجعلني أتأخر.. فلا يمكنني أن أقابل الملكة وأنا منهك لا أعرف ما أتفوه به.."
نظرت بي ناريا إلى مانيم الذي دلف القاعة بأبهى صورة يمكن أن يكون عليها.. وتساءلت في سرها عما يجعله يبدو بهذه الأناقة المفرطة وبشرته أنضر من أجمل فتاة في القصر، رغم أنه عائد من إقليم صحراوي قاسي المناخ.. ثم قالت بأمر "المفترض أن تلبي ندائي فور وصوله إليك.. أنت تخسر تقديري بهذا التصرف أيها الوالي.."
أمسك مانيم يدها بدون دعوة وقبلها وهو يهمس "مهما تفوهت به شفتاك الجميلتان من تجريح، فقلبي لا يملؤه إلا حبك يا غاليتي.."
لم تتأثر بي ناريا بكلامه وهي تنظر إليه بشيء من التعالي، ثم قالت "المهم، لقد قرأت تقريرك البارحة، لكن كما لاحظت وتوقعت، فأنت تسرد جميع التفاصيل المهمة وتترك الأهم.. أتظنني مغفلة يا مانيم؟"

رفع مانيم حاجبيه قائلاً "اسألي ما بدا لك يا مولاتي وسأفصله لك كما ترغبين.. لم أفعل ما يستوجب الإخفاء أبداً.."

تناولت بي ناريا التقرير القريب منها ونظرت إليه للحظات.. ثم تسائلت "قلت إنك شتت شمل الثوار وقضيت عليهم، وأنك أعدت الأمان للعاصمة الهيمانية بالتخلص من أوكار الثورة فيها ومن بقايا المتحالفين معهم.. أريد معرفة ما حصل بالتفصيل "

قال مانيم "حسناً.. في البدء حصلت من جواسيسي على جميع المعلومات التي أمكنهم جمعها عن الثوار.. هوياتهم، منازلهم، أوكارهم.. بعدها، وبخطة مدروسة، أرسلت عشر فرق من الجنود إلى أنحاء متفرقة من المدينة...."

انطلق مانيم في حديث طويل استغرق ساعة يشرح فيها الأحداث التي جرت في الشهور الماضية منذ توليه إقليم هيمانيا.. والمستشار يجلس في جانب المكان يقارن بين ما يقوله مانيم وما يرد في تقريره.. وبعد رحيل مانيم، سألت بي ناريا المستشار "أما زلت تشك بأمره بعد كل ما سمعته؟"

قال المستشار "لا أدري يا مولاتي.. حديثه منمق أكثر من اللازم.. حسب ما يقوله فإن هيمانيا أصبحت الآن جنة تحوي أشد المخلصين للمملكة.. وهذا ما يثير شكي أكثر.. ما يقوله يستحيل إنجازه في هذه المدة القصيرة.."

علقت بي ناريا هازة كتفيها "لا أعلم.. بدا مقنعاً بالنسبة لي.."

قال المستشار "إن كنت حقاً تعتبرينني مستشارك الخاص، فخذي بنصيحتي يا مولاتي.. أرسلي فرقة من بضع رجال تثقين بهم إلى هيمانيا ليدرسوا الأوضاع.. ولتكن مهمتهم سرية، لكيلا يعلم بها مانيم ويعمد إلى شراء ضمائرهم.."

فكرت قليلاً ثم قالت "سأفعل.. وأريد منك أنت أن تقوم بترتيب اللازم.."

حنى المستشار رأسه قائلاً "أمرك مولاتي"

****

بعد خروج مانيم من قاعة العرش، رأى عمه الوزير مردين يجول خارجها بتوتر ملحوظ.. فسار إليه وجذبه من ذراعه مغمغماً "حتى لو لم تكن تنوي شيئاً، فإن الناظر إليك سيجزم أنك تنوي قلب الحكم.."

قال مردين "ماذا فعلت مع الملكة؟"

قال مانيم بابتسامة "لا تقلق.. بي ناريا الآن من أشد المؤيدين لي.. أنا أعرف كيفية الوصول إلى الحقيقة التي ترغب بسماعها وكسب رضاها.. فلا تخش من هذا الأمر.."

زفر مردين معلقاً "المهم ألا يتسرب أمر حمولة البلورات التي سربناها من الإقليم لمسامعها.."

ثم أضاف بلهفة "هناك أمر مهم عليّ إبلاغك به.. ولم أستطع الانتظار فور معرفتي بقدومك من هيمانيا.."

سار مانيم مع عمه بحثاً عن بقعة آمنة لتبادل الحديث دون الخوف من تنصت سكان القصر لحديثهما، وقال بضيق "لقد عدت لتوي من ذلك الإقليم الصحراوي المقفر.. ويكاد عقلي ينفجر من الصداع والتعب.. فإن لم يكن ما تقوله مهماً فالأفضل إرجاؤه للغد"

قال مردين بسرعة "بل إنه مهم.. مهم جداً.."

جذبه مانيم إلى موضع خالٍ من الآذان المتنصتة وهو يسأل "حسناً.. ما هو هذا الأمر المهم؟"

قال مردين متلفتاً حوله "أنت تعرف غرفة الوثائق السرية.. أليس كذلك؟"

قال مانيم مقطباً "بالأحرى سمعت عنها فقط.. أنت تعرف أنها منطقة محرمة تماماً إلا على الملك.. ما المهم فيها؟ ما أعرفه أنها تحوي تاريخ الأسرة المالكة والمراسلات الخاصة بالحروب السابقة التي لا يحبذ الملك تسربها إلى العامة.."

قال مردين بلهفة "بل يبدو أنها تحوي ما هو أكثر.. فيها يتم الاحتفاظ بوصايا الملوك السابقين كلهم، بالإضافة إلى بعض القرارات التي أصدرت سابقاً والتي يتم إخفاؤها حتى لا تُطبق.. أي أنها أفضل مكان تبحث فيه عن الثغرة التي حدثتني عنها.."

تساءل مانيم ودهشته تتعاظم "ماذا تعني؟"

انتهر مردين وصيفة كانت تبدو كمن يتنصت للحديث الدائر بينهما، ولما ابتعدت بارتباك قال مردين متذمراً "هاته النسوة.. لا يمكنهن ترك عادة التنصت أبداً.. المهم.. لقد سمعت منذ زمن طويل جداً، منذ أن أعلن الملك أن بي ناريا هي وريثته على العرش، همسات تتحدث عن أحد القوانين السابقة التي استنها مؤسس هذه المملكة.. لكني لم أتذكره إلا الآن.."

وأضاف مستمتعاً بنظرات الفضول البارزة على وجه مانيم "والقانون ينصّ على عدم أحقية أي امرأة لحكم هذه المملكة، حتى لو كانت هي الوريثة الشرعية والوحيدة لها.."

تعاظمت الدهشة ممتزجة باللهفة على وجه مانيم وهو يتساءل "أءنت واثق؟ لم أسمع بهذا من قبل.."

قال مردين "يبدو أن الملك قد أودع هذا القانون بعيداً عن الأعين في غرفة الوثائق.. واشترى صمت من يعلمون بأمره.. أتعلم ما يعنيه وجود مثل هذا القانون؟"

قال مانيم بلهفة "معناه أن ولاية بي ناريا على المملكة باطلة.. وهذا يفرض أن تتحول الولاية إليّ أنا.."

والتفت إلى عمه يسأله "وكيف يمكننا الوصول إلى غرفة الوثائق هذه؟ إنها مغلقة بإحكام، ولا أعتقد أن بي ناريا ستسمح لي بالاطلاع على ما فيها مهما رجوتها ذلك.."

قال مردين "مفتاح الغرفة يملكه القيّم على خزائن المملكة سوديل.. فهي من الأهمية بحيث تعامل معامل الخزائن الحاوية على أهم كنوز القصر.."

صمت مانيم مفكراً ومردين يضيف "علينا أن نشتري ضمير إحدى الوصيفات العاملات في قصره لتستنسخ لنا نسخة من هذا المفتاح.. والوصيفات عموماً بلا ضمائر أصلاً.."

قال مانيم مفكراً "أليس لسوديل ابنة غير مرتبطة؟"

قال مردين بدهشة "بلى.. واسمها على ما أظن مارلا.."
فابتسم مانيم بثقة قائلاً "إذن دع أمر هذا المفتاح لي.. الأمر أبسط مما قد تظنه.."
وابتعد دون أن يضيف كلمة أخري، فيما أخذ مردين يتلفت حوله مغمغماً "إنك لجريء حقاً لتفكر في استغلال ابنة القيّم لتحقيق أغراضك الشخصية.. لكن الوسيلة لا تهمني في شيء.. المهم النتيجة.. النتيجة التي انتظرتها دهوراً.."
وغادر بدوره المكان وهو لا يكف عن التلفت حوله بشكل يثير الشبهات حوله أكثر..

****

لم تمض ليلتان، حتى كان مانيم يقبض على مفتاح الغرفة السرية ومارلا تسلمه إياه خلسة بعيداً عن الأعين، وهي تقول له في دلال "لا تنس وعدك لي.. أنا أثق بك.."
قال وهو يداعب وجهها بأصابعه "لا تخشي شيئاً يا حلوتي.. أنت هدفي الأساسي من كل ما أفعله.. ولولا وجودك في هذا المكان المظلم، لما بقيت في القصر يوماً واحداً.."
وتنهد بمرارة مغمغماً "لا تعلمين كم أكره تلك الشمطاء المغرورة التي أُجبرت على الارتباط بها.. ولولا خشيتي من العقاب، لأعلنت حبي وشغفي بك للجميع"
احمر خداها بسعادة وهي تتمتم "لا بأس.. سينتهي كل هذا ويلتئم شملنا عما قريب.. أليس كذلك؟"
ابتسم هامساً "قريباً جداً يا ملاكي.."
وفي تلك الليلة ذاتها، كان مانيم يتسلل إلى الجزء الغربي من القصر حيث تقع غرفة الوثائق السرية في موقع بعيد وغير مطروق منه.. فاستخدم الشفرة السرية بالإضافة للمفتاح الذي حصل عليه في فتح باب الغرفة، ودلف إليها بسرعة مغلقاً الباب خلفه بهدوء.. كانت غرفة متوسطة الاتساع، لا تحوي إلا كرسياً واحداً وطاولة صغيرة.. فيما الأرفف تملأ جوانبها وكل رف يحوي ما لا يمكن إحصاؤه من الكتب والوثائق القديمة المغبرة..
جال مانيم بعينيه في المكان مستخدماً مصباحاً صغيراً لإنارة الغرفة مغمغماً "يا للمكان القديم المغبرّ.. إن وجِدَ قانون مثل ذلك الذي سمع عنه عمي فهو يوم سعدي ولاشك.."
أخذ مانيم يجول في المكان متأملاً الوثائق التي تم تصنيفها بعناية.. تاريخ الأسرة المالكة.. مراسلات الحرب الكبرى.. قضية سيريل.. وثائق خاصة..
توقف مانيم عند التصنيف الأخير مغمغماً "هذه هي.. لابد أن تكون هنا.."
ثم بدأ بتفحص الوثائق تحت ذلك التصنيف فحصاً دقيقاً معتنياً بعدم الإخلال بترتيبها كي لا يظهر عبثه بالوثائق للآخرين.. بحث طويلاً دون أن يجد بغيته حتى أحس بالحرقة في عينيه لقلة الإنارة وشدة التدقيق..
فتنهد بنفاذ صبر وهو يتناول وثيقة أخرى عندما انتبه لوجود ورقة قديمة مصفرة مخبأة خلف الوثائق بعناية أشعلت فضوله.. فتناولها وفتحها برفق، وبدأ يقرأ محتواها وعيناه تتسعان مع كل سطر فيها.. حتى لم يملك

نفسه بعد الانتهاء منها أن صاح بذهول "هذا مستحيل.. من كان يصدق..!"
صمت للحظات محدقاً في الورقة قبل أن ينفجر ضاحكاً بغير احتراس وهو يقول لنفسه "وأخيراً ستنال مرادك يا مانيم.. أخيراً"
سارع لإخفاء الوثيقة في جيبه وهو لا يكاد يتمالك نفسه.. ثم أعاد كل شيء إلى مكانه بعناية وسارع لمغادرة الغرفة بعد أن كلل بحثه بالنجاح الساحق.. غير المتوقع..

****

دلفت الملكة بي ناريا إلى قاعة العرش التي تلألأت بنور الشمس الوليدة، فرأت المستشار جالساً على كرسيه القريب من العرش وقد وضع عدة أوراق أمامه.. ولما رآها وقف بهدوء محنياً رأسه لها..
سارت الملكة تجاه العرش قائلة "كيف حالك هذا اليوم أيها المستشار؟"
أجاب المستشار "بخير مادامت المملكة بخير.."
فقالت الملكة بابتسامة "هذه إجابة فلسفية.. أنا لم أقصد إلا المعنى المباشر.."
فأجاب المستشار "أردت فقط أن أطمئنك على حال المملكة.. فلا بد أنها أهم من شخص مثلي"
جلست الملكة على عرشها قائلة "مادمت مهتماً بالمملكة هكذا فلنبدأ بتصريف شئونها.. ما هي أخبار يناسّا؟"
أجاب المستشار متناولاً إحدى الأوراق "بخير حال.. لقد أحضر لي المستشار الفني هذا التصميم لبناء المدينة الثقافية التي سيكون موقعها كما أشرت إلى الشمال الغربي من العاصمة"
ألقت الملكة نظرة سريعة على التصميم وهي تقول "حسن جداً.. يجب أن أدرسه جيداً بمفردي لأرى إن كان بحاجة لأية تعديلات.."
تنحنح المستشار وهو حائر في بضع كلمات بدا لبي ناريا أنه يتحرق لقولها، فقالت له "قل ما عندك مباشرة أيها المستشار.. لا داعي للتردد"
فقال المستشار وهو يحني رأسه "مع احترامي لقرارات الملكة ونظرتها للأمور.. أرى أن يناسّا تزخر بكل ما تحتاجه في كافة المجالات.. وبناء مثل هذا المدينة التي ستكلف مالاً لا حصر له غير مهم في ظل أمور أهم بكثير"
قالت الملكة عاقدة حاجبيها "وما هي الأمور الأهم؟"
قال المستشار "هناك الكثير من الأقاليم التي تحتاج لمثل هذه الأموال، ولا يكفيها ما نخصصه لها سنوياً من دخل.. هناك الأقاليم الشمالية الفقيرة في الموارد والتي تعاني طقساً قارساً طوال السنة.. وهناك إقليم هيمانيا الذي يعاني الفقر بسبب الثورات والاشتباكات بين الجنود والثوار.."
قالت الملكة بحدة "هيمانيا؟ أتظن أنني سأكافئ الثوار على انقلابهم علي بإرسال المزيد من الأموال إليهم؟ كان يفترض بك أن تطلب العكس من هذا عقاباً لهم"

قال المستشار باعتراض "إقليم هيمانيا شاسع وكبير، وهو قطعاً يضم الملايين من السكان بخلاف هؤلاء الثوار.. فلماذا نعاقب السكان على شيء لم يقترفوه؟"

قالت الملكة "كي يكرهوا هؤلاء الشرذمة ويساعدونا في القبض عليهم بشكل أسرع"

قال المستشار هازاً رأسه "بل هم بهذه الطريقة سيلجئون أكثر للثوار ويرفعونهم منزلة الأبطال.. لن يروا أن في الدنيا ظالماً سوى مولاتي الملكة التي أذاقتهم شظف العيش"

قالت الملكة بحزم "بل سترى ما سيحدث أيها المستشار.. سأعمل جهدي لتأليب السكان على هؤلاء الشرذمة، وبعد القبض عليهم سيكون بمقدور شعب هيمانيا التمتع برضى الملكة وما تقدمه لمن يرضيها.."

صمت المستشار فيما بي ناريا تراه يحاول دفن ضيقه في الأوراق التي أمامه، فقالت "أتراني ظالمة أيها المستشار؟"

أحنى المستشار رأسه قائلاً "لست بقادر على أن أصفك بالظلم يا مولاتي.. لكنك قاسية على شعبك الذي يطمح لرؤية قلبك الطيب"

قالت بسرعة "لقد كان والدي طيباً وكسب المملكة كلها بطيبته، لكن هيمانيا لم ترض بطيب قلبه وسعت للثورة عليه بشتى الأساليب.. حان الوقت لإتباع أسلوب آخر مع هذا الإقليم"

لم يعقب المستشار بكلمة وهي تحول الموضوع قائلة "دع أوراق المدينة الثقافية لي لأدقق فيها هذه الليلة.. وغداً أخبرك بأي تعديلات فيها إن وجدت.."

لملم المستشار الأوراق وهو يقول "أمرك مولاتي.."

سمعا في تلك اللحظة جلبة مريبة خارج القاعة جعلت الملكة تغمغم بانزعاج "ما الذي يجري خارجاً؟"

قبل أن يتفوه المستشار بكلمة فوجئا بباب القاعة يفتح بقوة ويدلف منه رجل في الخمسين من عمره.. بثياب رثة وشعر أشعث.. رغم ما بدا في عينيه من ثقة.. فقالت الملكة بانزعاج "كيف تجرؤ على اقتحام المكان هكذا؟ أين الحراس؟"

سمعت صوت مانيم يقول بهدوء "هذا ليس اقتحاماً يا مولاتي، بل هو لجوء إليك في أمر لا يمكن لأحد آخر البت فيه"

نظرت الملكة إلى مانيم الذي دخل خلف الرجل.. كان يبدو مختلفاً، في وجهه، في حركاته، في نظراته التي تكاد تذيب العرش الذي تجلس عليه لحدتها.. ترى ما الذي تغير في ليلة واحدة؟..

تغلبت على أفكارها وهي تقول مقطبة "ما هذا يا مانيم؟ أهكذا تستهين بحرمة هذا المكان؟ ثم من هذا الرجل.. أهو شخص تعرفه؟"

قال مانيم هازاً كتفيه "لا أعرفه، لكنه قال أنه صاحب مظلمة ولا يمكن لأحد رفع الظلم عنه سواك.. يا مولاتي"

قالت بجفاء "هناك قاض عينته لقضاء أمور الناس.. ليس هذا مكان رفع المظالم"

قال الرجل مقاطعاً إياها "أنا صاحب مظلمة ولي حق الدخول عليك.."

قالت بحدة "يا للوقاحة.. أتجرؤ على ما تقول؟ ألا تخشى أن أرميك في السجن على تجرؤك عليّ؟"

قال بثقة "كلا.. بل ستهتمين بمظلمتي أكثر عندما تعرفين هوية من ظلمني"
قالت بجفاء "لست أملك الوقت الفارغ لسماع ما تحب قوله.. إذهب الى القاضي وارفع تظلمك عنده.."
رفع الرجل إصبعه قائلاً "ليس في حالتي هذه.. إن من ظلمني أرفع قدراً من أن يحكم عليه القاضي.."
قالت بغلظة "قلت لك اذهب إلى القاضي.. إنه مخوّل للبت في كل الأمور حتى لو كان أحد أفراد العائلة المالكة طرفاً فيها"
ثم أشارت للحراس صائحة "أخرجوه من هنا.."
سارع الرجل ليقول "حتى لو كان من ظلمني هو جلالتك أنتِ أيتها الملكة؟"
عمّ الصمت المكان والكل يتطلع إليه باستنكار، بينما وقف مانيم في جانب المكان عاقداً يديه على صدره يتأمل ما يجري باستمتاع.. فقالت الملكة بحدة "ما الذي تهذي به أيها الرجل؟ متى ظلمتك وأنا لم أرك ولا أعرف هويتك"
فقال الرجل عاقداً يديه على صدره "لو أنك استمعت لي من البداية لعرفت مظلمتي دون أن يعلوك هذا الاستنكار.."
فقال المستشار "أقترح أن تستمعي له يا مولاتي.. فهذا أفضل من أن يتقدم بشكواه إلى القاضي.. ربما يكون الأمر أبسط مما نعتقد ونستطيع حل الإشكال في وقت قصير"
قالت الملكة بجفاء "ليس هناك أي إشكال.. كيف يمكنني ظلم رجل لم أره في حياتي؟"
قال الرجل بابتسامة هازئة "ظلمك لي أتى من إلغاء أحد مراسيم الملك الراحل.. عزائي لك برحيله بالمناسبة.."
اتسعت عيناها باستنكار وهو يرفع يده بورقة مضيفاً "هذا هو المرسوم.. ومنذ وفاة الملك لم يتم تنفيذها، مع أن المذكور فيها أنها صالحة مدى الحياة.. حياتي أنا المقصودة طبعاً وليست حياة الملك.."
اقترب المستشار من الرجل ماداً يده وهو يقول "دعني أتأكد من صحة هذا المرسوم، فليس هناك أي أمر من الملك لم يمرر إليّ قبل إصداره"
قال الرجل ضاحكاً وهو يناوله الورقة "ليس هذا يا رجل.. إنه أمر سري، لكن ختم الملك يؤكده ولا شك"
قطبت الملكة وهي تنظر إلى المستشار الذي تناول الورقة وقرأها بعناية.. فلاحظت أن ملامح وجهه تغيرت تغيراً ملحوظاً، وهي تكاد تجزم أن الشحوب قد كساه قبل أن يهرع إليها قائلاً "يجب أن تقرأي هذا يا مولاتي.. لو كان هذا صحيحاً فنحن مقبلون على مصيبة"
تناولت الملكة الورقة وقرأتها، لتجد أنها أمر من الملك الراحل بتقديم منحة مالية معينة إلى المسمى رافل مينار مدى الحياة، مهما تغير الجالس على العرش، ووقت إصدار المرسوم كان منذ ما يقارب الإثنين وعشرين عاماً..
أما ما صدم بي ناريا في الورقة العتيقة هذه، هو شرط أخير وضع على المدعو رافل، بأن هذه المنحة تظل سارية مقابل كتمانه لهوية بي ناريا الحقيقية.. توقفت بي ناريا ذاهلة أمام هذه النقطة.. هويتها الحقيقية.. وماذا قد تكون هويتها هذه؟..
رفعت رأسها إلى الرجل الذي اتسعت ابتسامته وهو يرى انفعالها.. ثم سألته بصوت حاولت إظهار ثباته "ما

الذي قصده الملك من إخفاء هويتي الحقيقية؟ ما هي هذه الهوية؟"
قال الرجل مشيراً برأسه الى الورقة "يحسن بك إتمام قراءة الورقة، ففيها مقاطع مثيرة ستشد انتباهك حتماً.. يا مولاتي"
تغاضت بي ناريا عن اللقب الذي قاله الرجل بهزء واضح، وانتقلت عيناها بسرعة بين السطور، حتى توقفت عند نقطة أخيرة في المرسوم، نقطة أثارت رجفة في أعماقها وهي تقف غير قادرة على البقاء جالسة في كرسيها..
ظل الصمت محيطاً بالقاعة وعينا بي ناريا ثابتتين على الورقة بصمت، حتى اقترب مانيم منها قائلاً "ما الأمر يا مولاتي.. هل صعب عليك قراءة ما تبقى من المرسوم؟"
وجذب الورقة من يدها بغير لباقة وهو يقرأ بصوت عالٍ "يشترط على المدعو رافل مينار، وزوجته سامين، التخلي تماماً عن حضانة ابنتهما التي تمت تسميتها بي ناريا من قبل الملك، لاستحقاق هذه المنحة.. على ألا يتراجعا عن قرارهما هذا مدى الحياة.. وفي حال إخلالهما بأي شرط من شروط هذا العقد، يتم إنزال العقاب عليهما وقطع المنحة عنهما دون رجعة"
والتفت إلى بي ناريا الذاهلة بابتسامة قائلاً "هل كانت قراءتي واضحة يا مولاتي؟"
ارتج القول على بي ناريا وهي تحدق في وجه مانيم الذي بدت عيناه رغم ابتسامته قاسيتين، ثم التفتت إلى الرجل قائلة بذهول "هل أنت.. المدعو رافل مينار؟"
قال الرجل "أجل هذا أنا.. وبما أن المنحة قد قطعت عني منذ وفاة الملك، فقد جئت مطالباً بحقي.."
فقالت بي ناريا بشدة "أنت تكذب.. ليس هناك من إثبات لما تقوله.."
قال مانيم من خلفها "حتى لو كان الرجل كاذباً في هويته، فإن الختم على المرسوم صحيح تماماً.. ولا يمكن تزويره.. أليس كذلك أيها المستشار؟"
قال المستشار بصوت مضطرب "بالفعل.. إنه صحيح قطعاً.."
فقال مانيم هاتفاً "هذا يفصل الأمر إذن.. ولمزيد من الدقة يمكنكم التأكد من ختم الملك وتوقيعه بأي وسيلة ترغبون بها.."
نظرت إليه بي ناريا ذاهلة فرأته يتقدم ليجلس على العرش باسترخاء مضيفاً "وهذا يثبت أنك، يا مولاتي العزيزة.. آسف.. يا فتاتي العزيزة.. غير أهل للجلوس على هذا الكرسي.. وهذا معناه أنني أنا، مانيم كادار، الذي يحتل المرتبة الثانية في ولاية العرش، أحق الناس بالجلوس على هذا الكرسي.."
والتفت مرة أخرى إلى المستشار قائلاً "أليس كذلك أيها المستشار؟"
لم يعقب المستشار على قوله الذي لم يكن بحاجة لإثبات، فيما حاولت بي ناريا انتزاع نفسها من ذهولها وهي تقول لمانيم بصوت مرتجف رغماً عنها "ما هذا الذي تقوله يا مانيم؟ هل تسعى لإطاحتي من عرشي؟ هل هذه الخدعة من تخطيطك كي تجردني من الملك؟"
قال بصوت حاد "هذه ليست خدعة.. وهذا العرش ليس عرشك يا بي ناريا.. ولم يكن لك أبداً.. مكانك الحقيقي هو في كوخ حقير إلى جوار هذا الرجل الأشيب وزوجته العجوز.. لم يكن حقاً لك المكانة التي تمتعت بها طوال

تلك السنين.. أنت أميرة مزيفة، والقصر آخر مكان تحلمين بالدخول إليه"
ثم أضاف بضحكة ساخرة "إلا لو كنت ترغبين بالعمل كخادمة فيه.."
ظلت بي ناريا تنظر إليه مصدومة، مصدومة للحقائق التي تكشفت لها، ومصدومة لخيانة مانيم.. كانت تود لو تصرخ فيه بأعلى صوتها لاحتقاره مكانتها.. لو تطرده وتأمر بسجنه.. لكن صوتها لم يغادر حلقها.. لم تتوقع هذا منه هو بالذات.. مانيم الذي كان يؤكد لها دائماً أنه مدله في حبها، وسيساندها في كل ما تفعله ويبقى وفياً لها مدى العمر.. فأي وفاء هذا؟..
تداخلت الأصوات في عقلها وهي ترى من بين الضباب الذي غشى عينيها المستشار يجادل مانيم بكلام لم تكن قادرة على فهمه أو استيعابه.. رأت تراكض الجنود على صراخ مانيم.. التفتت إلى الرجل الأشيب لتراه يراقب كل هذا باستمتاع واضح.. ظل عقلها في غشاوة حتى أنها حاولت تذكر ملامح الملك.. ملامح الرجل الذي كانت موقنة أنه والدها.. لكن شيئاً لم يقشع الضباب الذي يحيطها.. وسرعان ما أحاط الظلام بها وهي تسقط في غيبوبة عميقة وتتهاوى أرضاً وسط نظرات مانيم غير المبالية.. وكأنها تهرب مما يحدث حولها.. وتهرب حتى من المشاعر المضطرمة في صدرها.. وكأنها تريد الزمن أن يتوقف لوهلة.. يتوقف لتستوعب ما حدث ويحدث.. لتستوعب الظلام الذي غشى عينيها فبدا لها دائماً لا حدود له.. ولا نهاية لقراره..

****

هبّت الملكة الأم في جناحها وهي تقول بصوت مرتجف "مستحيل.. هل فعل مانيم هذا حقاً؟ لكن كيف..؟"
قال المستشار وهو مطأطئ رأسه "لا أدري يا مولاتي كيف عرف بالموضوع كله ولا كيف حصل على تلك الوثيقة.. لكن مع عقلية مانيم الساعية للحصول على العرش لا يوجد هناك مستحيل"
صاحت الملكة "افعل أي شيء أيها المستشار.. حاول التكتم على الموضوع حتى نصل إلى تسوية مع مانيم قبل أن يصل خبر هذا إلى عامة الشعب.. عندها لا يمكن أن تعود بي ناريا إلى الحكم أبداً"
سمعت صوتاً هازئاً خلف المستشار يقول "تعود؟ ومن قال إن هذا الحل موجود من الأصل؟"
التفتت الملكة الأم إليه بحقد وقالت "أيها الحقير.. ألم يكفك أنك ستكون زوجاً للملكة وتحكم معها هذه المملكة الشاسعة؟ لم يكفك أنك لعبت بمشاعرها لتوهمها بحبك لها؟ والآن تحطم حياتها؟"
ضحك مانيم ساخراً وقال "زوجاً للملكة؟ من قال إنني أحب الانضواء تحت ظل امرأة حتى لو كانت بي ناريا؟ أنا أسعى لأن أكون الملك.. والعرش كان حقي الشرعي كما تثبته جميع الأوراق.. لكن ماذا تعتقدين الشعب سيقول عن تدليس الملك السابق لهم وتنصيب ابنة شخص حقير كملكة عليهم دون وجه حق؟"
صرخت الملكة في وجهه "كيف تجرؤ؟ لا تذكر الملك على لسانك القذر هذا؟"
بادلها الصراخ بحدة "قذر؟ ليس من قذارة إلا تحايل الملك لتولية هذه التافهة تاركاً إياي أحترق بغصتي.. أنا سليل العائلة النبيلة أباً عن جد، لا أستطيع أن أصل إلى العرش الذي يسلمه لفتاة بلهاء بأصل حقير؟ ما كان

يضره لو ولاّني أنا واستمتع هو بأبوته المزيفة مع تلك الفتاة؟ لو اكتشفت حقيقتها وأنا أجلس على العرش لما ساءني بقاؤها في القصر واحتفاظها بهويتها المزيفة.. بل وربما استطاعت الوصول لمرتبة زوجة الملك.. أما الآن.. فجميع ما يحدث لها هو من فعل أبيها الملك السابق.."

وابتسم بسخرية قائلا "الآن.. ستدفع ثمن السنوات التي قضتها في نعيم لا تستحقه.. وستدفعه بما تبقى من عمرها"

صاحت الملكة بالمستشار "ألا يمكنك فعل شي؟"

هز المستشار رأسه بأسف وقال "كلا يا مولاتي.. الأوراق رسمية وعليها ختم الملك.. ولو أُجْري على الملكة فحصاً للدم لظهر تطابق دمها مع دم ذلك الرجل"

احتقن وجه الملكة الأم بغضب وسخرية مانيم تتزايد مع قوله "اعفِني من هذه الألعاب يا مولاتي.. أنت زوجة الملك الراحل ولك مكانة لن تتغير.. لكن تلك الفتاة.. فلا مكان لها في هذا القصر"

هبّت الملكة تمسك ثيابه وتهزه صارخة "ماذا فعلت بها يا مانيم؟ أين هي؟"

دفعها بقوة حتى سقطت على الأرض وهو يقول ببرود "لقد قلت أن لك مكانة لن تتغير، لكن مكانتك مرتبطة بالتزامك الهدوء وعدم اعتراضك.. أما تلك الفتاة.. فأنا الملك الآن، وسأحكم عليها بما يضمن لي الأمن في المملكة"

وخرج من الجناح وهو يقول "أيها المستشار.. أريد أن تستدعي بقية الوزراء لاجتماع عاجل.. وترتب لإعلاني حاكماً على المملكة.."

انتفضت الملكة الأم وهي تخفض رأسها ودموعها تتحدر على وجنتيها وهي تغمغم "سامحيني يا بي ناريا.. تمنيت هذا اليوم ألا يأتي أبداً.. سامحيني.. ما الذي أستطيع فعله الآن؟ مانيم لابد سيقتلها.. أوه ما الذي سأفعله الآن؟"

****

الفصل الثالث:

السجينة

عن الصدمة

..

والخديعة

..

والسجن الإجباري

..

لم تدر بي ناريا كم دامت بها الغيبوبة التي خلفتها صدمة عمرها.. لكن عندما عاد إليها الاحساس بما حولها كان أول ما شعرت به هو البرودة في جسدها وقسوة الفراش تحتها.. هبّت جالسة مما أثار الدوار في رأسها فأمسكته بيديها وهي تفتح عينيها ناظرة لما حولها بصعوبة.. كانت الإنارة خافتة في الغرفة الصغيرة الموحشة.. جدرانها مطلية بلون قاتم يزيد المكان كآبة.. والمكان خالٍ إلا من سريرٍ قاسٍ فوقه لحاف خشن مهترئ، ما إن رأته حتى هبّت واقفة باشمئزاز.. ودارت بعينيها في الغرفة المقرفة بالنسبة لها وهي التي لم تر من الغرف إلا أفضلها وأجملها وأوسعها..

تنامى الغضب أكثر وأكثر في صدرها وهي تستعيد ما حدث منذ دخول مانيم مع الرجل الغريب إلى قاعة العرش حتى نهوضها في هذا المكان.. وبخطوات حانقة أسرعت إلى باب الغرفة وطرقته بقوة صائحة "افتحوا الباب.. لا يمكنكم فعل هذا بي.. ليس أنا.. ليس بي ناريا.."

لم يستجب لها أحد وهي تطرق بيديها الاثنتين وصراخها يزداد "ستندالون العقاب إن لم تخرجوني.. أيها الحراس.. اخرجوني وإلا كانت غضبتي عليكم عظيمة"

فُتِحت فتحة صغيرة في الباب يطل منها أحد الحراس وهو يقول "اهدئي يا امرأة.. الصراخ سيضرّ حنجرتك بلا فائدة.."

صرخت في وجهه "امرأة؟ أنا مولاتك أيها الحقير.. أخرجني وإلا أمرت بقطع رأسك مع أول خطوة أخطوها من هذا الباب"

قال الحارس بدون انفعال "لا داعي للصراخ.. إنها أوامر الملك مانيم.."

فوجئ بها تدفع يدها من الفتحة محاولة الإمساك به وهي تصيح "تباً لك.. أتجرؤ على تسميته بالملك؟ هذا التافه يصبح ملكاً ويرميني أنا في السجن؟"

ابتعد الحارس عن الفتحة وهو يقول متوتراً "الكل في القصر أصبح يعرف بأمرك وأمر تزييف الملك السابق لحقيقتك.. لا نستطيع تجاهل أوامر مانيم مع كل الإثباتات على أحقيته بالعرش"

ثم أغلق الفتحة ليتركها في الظلام وهي تصرخ راكلة الباب "كلا.. هذا غير صحيح.. تلك لعبة من ألاعيبه.. كان دائماً يطمح للعرش وهو بارع في الاكاذيب"

وتهاوت على الأرض ودموعها تجري على خديها وكلماتها تخرج من بين نشيجها "كان دائماً يلهث خلفي ويحاول كسب رضاي.. إنه يكذب.. يكذب.. سيعود ذليلاً إليّ من جديد وعندها سأرفسه.. لن أرحمه أبداً"

تدافعت دموعها بغزارة وهي تنظر حولها في تَيْه قائلة "انا لا أستحق هذا.. لم أفعل شيئاً في حياتي لأستحق هذا.. لماذا يا أبي.. لماذا مت وتركتني الآن.. لماذا كذبت عليّ؟"

وأغرقت في نشيج مرير وهي تسند ظهرها إلى الحائط دافنة رأسها بين ركبتيها مرددة بدون ملل "لماذا يا أبي.. لماذا يا أبي.. لماذا؟"

****

انتشر الخبر كالنار في الهشيم في أرجاء القصر.. تهامس الحراس به وتسارّت الوصيفات بتفاصيله تزيد وتنقص حسب ناقل الخبر.. وبين فينة وأخرى يتجمع بعض منهم حول الحراس الذين شهدوا الواقعة مستوثقين من أحداثها لا تكاد كلمة تفوتهم وهم بين متعجب وشامت..

ورغم لهفة سكان القصر لمعرفة ما لهذا الحدث من تبعات عليهم، إلا أن الوزراء ظلوا عازفين عن التعليق وهم يسيرون في ممرات القصر رغم ملامحهم الذاهلة.. فقبل مدة قصيرة استدعاهم المستشار الأول إلى القصر منبئاً إياهم بما حدث دون تفصيل كثير..

وفي القاعة، وجدوا مانيم مسترخياً على العرش والمستشار جالس في جانب المكان بوجه شاحب.. ولما اجتمع الوزراء قال أرفعهم مكانة "ما هذا الذي سمعناه أيها المستشار؟"

قال مانيم مقاطعاً المستشار الذي حاول شرح الأمر "هو ما سمعتموه.. لقد قمت بعزل بي ناريا لعدم أهليتها لتولي الحكم، ونصبت نفسي ملكاً فأنا الوريث الطبيعي بعد الملك الراحل حسب ترتيب الولاية.."

اتسعت أعين الوزراء دهشة وآخر يقول "لكن بأي حق؟"

أجاب مانيم ضاحكاً "بحق الخديعة التي أعمانا بها الملك الراحل.. بإحضاره فتاة من حثالة البشر وتنصيبها على العرش مدعياً أنها من السلالة الملكية.."

تناول كبير الوزراء من المستشار الورقة التي تحمل العقد بين الملك الراحل والمدعو رافل مينار، والد بي ناريا الحقيقي.. بينما أضاف مانيم "أنا لم أستدعكم إلى هنا لنيل رضاكم.. من لا يعجبه الوضع فليقدم استقالته على الفور.. لكنني جئت بكم لأعرف من سيواليني ومن سيعاديني.. ولا أعتقد أن معاداتي ستكون في مصلحة أحد.."

تبادل الوزراء النظرات الصامتة لدقائق طويلة ومانيم يتأملهم بابتسامة، ثم قال كبير الوزراء "لا يمكننا إغفال الحقائق التي بين أيدينا.. كون بي ناريا من عامة الشعب يحرمها من تولي العرش قطعاً.. لذلك فنحن مع الوريث الشرعي للعرش.."

فقال مانيم بحزم "إذن.. أدلوا بقسم الولاء والطاعة حالاً كي ننتهي من هذه المسألة.."

نظر الوزراء إلى بعضهم البعض بشيء من التردد، ثم تقدم كبير الوزراء من مانيم الذي لم يتحرك من عرشه، وركع عند قدميه ممسكاً يد مانيم اليمنى بيديه وقال محنياً رأسه "أقسم بالولاء والطاعة للملك مانيم.. ولاءً دائماً مخلصاً لا يتغير ولا يتبدل.. مطيعاً لأوامره ومحافظاً على سلامة وأمن المملكة.. فلتحيا مملكة البلور.."

وتنحى جانباً ليدلي بقية الوزراء بقسم الولاء واحداً تلو الآخر والمستشار يراقبهم مخفياً ضيقه.. كان يود أن يرى منهم اعتراضاً لما يحدث.. لكن استسلامهم السريع جعله يدرك مدى تمسكهم بمناصبهم وخوفهم من

غضبة مانيم.. صحيح أنه يبدو مثلهم باستسلامه وبقاءه في منصبه، لكنه على الأقل يأمل في أن يكون وجوده ذا فائدة لبي ناريا، ولا يستطيع المغادرة قبل أن يطمئن عليها وعلى سلامتها وسلامة الملكة الأم..

تنهد المستشار غارقاً في أفكاره قبل أن ينتبه على صوت مانيم وهو يهتف "الآن.. جهزوا مراسم تنصيب الملك الجديد.. الملك الحقيقي.."

أحنى الجميع رؤوسهم وغادروا القاعة ومانيم مسترخ في العرش وهو يقول لنفسه "الملك مانيم.. لقب يناسبني بالتأكيد.."

****

كانت مراسم تنصيب مانيم قد تمت في اليوم ذاته على عجالة، وإن اهتم مانيم بجعلها على أكبر قدر من الفخامة وكأنه يباري بي ناريا ويحاول إثبات أن حفله الأكثر بهاء وجمالاً بشكل طفولي.. ولم يتغيب عن حفله أحد من الوزراء والنبلاء والعائلة المالكة.. وهم بين مستنكر ومسرور ومتشفٍ لما حدث لبي ناريا، لم يتغيب إلا الملكة الأم التي رفضت القدوم، ولم يهتم بأمرها مانيم كثيراً.. ومن رأى التنصيب، لاحظ أن مانيم كان أكثر زهواً وهو يضع تاج المملكة على رأسه ويرتدي ثياباً تم اختيارها بعناية يعلوها معطف أسود مخملي فخم المنظر.. وتبدّت في عينيه للناظر إليه عن قرب نظرة تشف وتحدٍ، وكأنه يتحدى من يعترض ولو في دخيلة نفسه على توليه للحكم..

وبعد انقضاء المراسم، وفيما الملك الجديد في طريقه عائداً لجناح الملك الذي استولى عليه ضارباً عرض الحائط بما أمرت به بي ناريا سابقاً من إبقاء الجناح خالياً، قابل مارلا التي وقفت قريباً من باب الجناح بأبهى حلة بعد الاحتفال الكبير.. فاقترب منها بابتسامة ساخرة وهو يقول "مرحباً بفتاتي العزيزة.. يبدو أنك انتظرتني لفترة طويلة.."

نظرت مارلا للحاشية خلف الملك مغمغمة وهي تنحني "مولاي.. لقد أردت التحدث إليك في أمر مهم.."

صرف مانيم حاشيته بإشارة من يده، ثم وضع يده على كتف مارلا قائلاً "حسناً.. ما هو هذا الأمر؟ غداً سيكون يومي حافلاً ولست بمزاج للسهر على أمر تافه.."

قالت مارلا وهي في دهشة من تعامله لها بهزء "حبيبي.. هل نسيت وعدك لي؟"

هدر مانيم "مولاي.."

أجفلت وهي تنظر له بذعر، فابتسم وهو يداعب أنفها قائلاً "أنت لا تخاطبيني إلا بهذا اللقب.. هذا إن أردت بقاء لسانك في حلقك مدة أطول"

اتسعت عيناها بذعر أشد وهو يصرفها بإشارة من يده قائلاً "أما عن ذلك الوعد التافه، فانسيه تماماً.. هذا إن كنت تطمحين للبقاء في هذه المكانة أنت ووالدك القيّم على الخزائن.. فكما تعلمين العديد من الطامحين للاستيلاء على هذا المنصب ينتظرون إشارة من يدي.."

شحب وجهها وهي تقلّب التحذير في عقلها لثوان، قبل أن تنحني بعجلة وتركض مبتعدة ودموعها تجري على خديها.. أما مانيم فقد دلف جناحه وهو يغمغم "يا لتفاهة هاته الفتيات.."

وفي اليوم التالي، اجتمع مانيم بالمستشار والوزراء، وكان أول ما قاله هو "في البدء، أعلمكم بأني سأرفع منصب مردين إلى منصب كبير الوزراء.. وسيبدأ سريان هذه الترقية منذ هذه الجلسة.."

على الاستنكار وجوه الجميع وهم يتطلعون إلى عم مانيم الذي ابتسم ابتسامة متشفية وهو يتأملهم، وهبّ كبير الوزراء السابق معترضاً "لكن مولاي.. لا يمكنك فعل هذا دون سبب.. وأنا.."

ضرب مانيم الطاولة بقبضته صائحاً "لا يمكنني؟ من يقول هذا؟"

صمت كبير الوزراء بمضض، لكن مانيم استمر قائلاً بحدة "إن كان هناك سبب لترقية مردين، فهو خلو منصب كبير الوزراء من شخص يستحق، واستقالة الوزير السابق لأسباب خاصة"

اتسعت عينا كبير الوزراء وهو يتلعثم قائلاً "مـ.. مولاي.. أنا لم.."

قال مانيم بحزم "استقالتك مقبولة أيها الوزير"

احتقن وجه كبير الوزراء وهو يلقي بنظرة على وجه مردين الساخر، بينما عجز الآخرون عن التفوه بكلمة خوفاً من أن يصيبهم الأمر ذاته.. وبعد لحظات تردد، انحنى كبير الوزراء لمانيم انحناءة سريعة قبل أن يغادر القاعة بصمت وذلة..

أما مانيم فقد استرخى في كرسيه قائلاً "هل يشك أحد بأنني لا أقدر على شيء مما أريده؟"

أطرق الجميع برؤوسهم والمستشار متعجب في سره مما يراه.. فمانيم لا يهتم لقول أحد ولا لأي اعتراض قد يجابهه، فما الذي سيحدث للمملكة في حكمه يا ترى؟ كان هذا سبب آخر يدعو المستشار لأن يبقى في منصبه الذي بات يكرهه، أملاً في أن يستطيع تغيير بعض قرارات مانيم الظالمة..

بعدما انفضّ المجلس، خرج الوزراء من قاعة العرش تاركين مانيم والمستشار وحيدين.. وبينما كان مانيم يمهر قراراته الجديدة بتوقيعه، كان المستشار ينظر إليه جانبياً بتردد، فقال مانيم بحدة "ما الأمر؟ لو كان لديك شيء تقوله أسرع به قبل أن تذوق غضبي"

قال المستشار بتردد "مولاي.. ما الذي تنوي فعله بـ.. ببي ناريا؟"

قال مانيم مفكراً "لا أدري.. أيكفي سجنها مدى الحياة؟"

قال المستشار محاولاً إقناعه "ما رأيك بنفيها أيها الملك؟ أرسلها إلى إقليم من أقاليمنا النائية وضع عليها حِجْراً دائماً على السفر.. لا يوجد داعٍ لاحتجازها أكثر من هذا بعد أن وثّقتَ ملكك.."

قال مانيم بهزء "أنفيها؟ أتظنني مجنوناً لأطلقها؟ ستعود لتطبق بأسنانها على رقبتي وأنا غافل.."

قال المستشار محاولاً تخفيف الأمر "لا يمكن هذا يا مولاي.. إنها لا تستطيع فعل شيء ضدك بعد أن أثبت أحقيتك بالملك منها.. المملكة كلها ستعلم بأمرها في الأيام القادمة ولن تقدر على العودة إلى العرش مهما حاولت"

غمغم مانيم "ليس بي ناريا.. أتوقع هذا من الجميع إلا منها.. هذه فتاة لا تستسلم بسهولة.."

ثم قال وهو ينظر جانبياً إلى المستشار "ما رأيك؟ هل سيعترض الوزراء إذا أصدرت أمراً بإعدامها؟"
نظر المستشار إليه بهلع وقال بصوت مرتجف "إعدام؟ لم يا مولاي؟ الأمر لا يستحق.. يكفيها النفي مع التهديد بالـ.."
قال مانيم دون أن يلقي بالاً لما يقوله المستشار "ولماذا عليّ أن أهتم بما يقوله الوزراء؟ أنا الملك.. وما أقوله أنا هو القانون.."
ثم أشار للمستشار قائلاً "هل جهزت المراسيم التي طلبتها منك؟"
قال المستشار بتردد "وماذا عن بي ناريا يا مولاي؟"
لوح مانيم بيده وهو يتوجه للعرش "سيأتي وقتها لاحقاً.. لن أتخلص منها قبل أن أنتهي من تثبيت عرشي.. سيكون حدث إعدام الملكة المزيفة مدوياً، ولا أريده أن يغطي على جلوسي على العرش"
غرق المستشار في التفكير العميق وهو يناول المراسيم إلى مانيم بآلية ويستمع إلى تعليقاته بغير انتباه.. ظل على هذا الحال لمدة ليست بالقصيرة.. ولما انتهى مانيم مما بيده انتبه إلى شروده، فقال بشيء من الاتهام "ما الأمر أيها المستشار.. ما الذي يشغل عقلك عني؟ هل ينازعك الولاء لملكتك المزيفة؟"
هتف المستشار "لا.. لا يا مولاي.. أنا عبد مأمور.. ليس لي ولاء حقيقي لأي حاكم مادام عملي مستمراً وراتبي يصرف لي كل شهر.."
ظل مانيم يحدجه بنظرة متشككة فأضاف المستشار بابتسامة ضعيفة "أنا مستشار الملك.. ولست مستشار بي ناريا.. أنا مع الملك الجالس على العرش أياً من كان"
فقال مانيم "إذاً ما الذي يشغل بالك؟"
هرب المستشار ببصره بعيداً وهو يغمغم "لا شيء يا مولاي.. أفكر في الملكة الأم وما قد تقاسيه من حزن على وحيدتها"
صاح مانيم "أما زلت تصدق هذا الهراء؟ الملكة الأم لم تنجب أبداً.. وبي ناريا ليست ابنتها بحال من الأحوال.."
قال المستشار مطرقاً "ومع ذلك.. فقد ربتها منذ المهد، ولابد أنها تعتبرها كابنتها.."
قال مانيم بهزء "وهل تركتَ مشاكل المملكة كلها لتفكر في أحزان امرأة؟ هناك أمور أهم علينا التفكير بها لنضمن أن تبقى المملكة موحدة وموالية لي.. فدع عنك تلك التفاهات.."
غمغم المستشار بخفوت "أمرك مولاي.."
لكنه في الواقع، كان يفكر بطريقة لإبلاغ الملكة الأم بما ينتويه مانيم.. دون أن ينثر الشبهات حوله أو يجذب الأعين التي تراقب كل شاردة وواردة تحدث في القصر..

****

رفعت بي ناريا وجهها عن ركبتيها وقد أغرقته الدموع التي جفت تاركة خلفها خطوطاً عريضة.. كم من الوقت مضى عليها وهي تبكي حتى تغيب عن الوعي فتستيقظ بعدها متمنية لو أن كل هذا كان كابوساً مر عليها في نومها؟..

لكن الغرفة الباردة المظلمة والسرير القاسي ينبأنها عن حقيقة واقعها قبل حتى أن تفتح عينيها.. رمت بوجهها على ركبتيها من جديد وهي لا تجد شيئاً أفضل لتفعله.. يجب أن تخرج من هنا.. يجب أن تتبين حقيقة ما جرى.. لم يكن لديها شخص تستوثق منه عن الحقيقة إلا والدتها الملكة الأم، فهي الوحيدة التي يمكنها أن تثبت أن بي ناريا ابنتها.. نعم، فلا يمكن أن تكون ادعاءات مانيم حقيقية.. لا يمكن لها أن تكون متبناه.. لا شيء يثبت هذا، لا جمالها الذي لا يليق بذلك الرجل القبيح الذي يدّعي أنه أباها، ولا الحب الذي غمرها به الملك طوال تلك السنين، ولا حقيقة أنه نصّب بها ولية على عرشه وما كان ليفعل ذلك لو أنها ليست من صلبه..

ظلت بي ناريا تدير تلك الأفكار في رأسها وتحاول تهدئة نفسها، مقتنعة أن الحقيقة ستظهر قريباً، وستعود بعدها للعرش من جديد وتأمر من فورها بقتل مانيم.. فهذا هو الجزاء الوحيد الذي يستحقه.. لا يمكنها أن تأمن جانبه بعد الآن.. وقتله هو أضمن لسلامة وأمن المملكة..

لم تكد تفكر بمانيم، حتى تراءى لها وجهه أمامها.. حدقت به قليلاً بعدم استيعاب، حتى سمعت صوته يقول بسخرية "ما أجمل هذا المنظر.. لم أكن أحلم برؤيته في حياتي.."

استوعبت بي ناريا في تلك اللحظة أنه أمامها بالفعل وقد دخل الزنزانة ليقف وسطها متباهياً بملابسه الملكية الباذخة والتاج على رأسه، ونظرة هازئة في عينيه.. هبّت بي ناريا واقفة واندفعت تجاهه بغيظ رافعة يدها لتصفعه على وجهه.. لكنه أمسك يدها بسهولة وقال بسخرية "حقاً أنت تهينينني.. أتظنين أن فتاة ضعيفة مثلك يمكن أن تتعدّى علي وأصمت؟"

ودفعها بقوة لتسقط أرضاً مرتطمة بالسرير الذي أصاب ظهرها بآلام مبرحة.. أما مانيم فقد خطا خطوتين في الزنزانة الحقيرة قائلاً "من كان يظن أن بي ناريا بكل كبريائها وغرورها يمكن أن تنتهي هنا؟ حقاً لقد خدعتنا جميعاً بتكبرك على الجميع، ولم يعلم أحدنا أنك وضيعة الأصل لهذه الدرجة.."

قالت بي ناريا بغيظ "ما الذي ترجوه من هذه السخرية أيها الحقير؟ أتعتقد أن بقائي هنا سيطول؟ سأخرج قريباً، ما إن يكتشف الجميع خدعتك.. وسأرمي برأسك هذا من فوق سور القصر ليكون عبرة للآخرين.."

ضحك مانيم بصوت عالٍ وقال "حقاً؟ ألا تعلمين أن جميع الوزراء قد أقسموا بالطاعة لي وأولهم مستشارك الخاص؟ جميع الجنود قد سلموا أمرهم لي.. لم يبق إلا أن يقسم ولاة الأقاليم لي بالطاعة لكي أكون ملكاً فعلياً على الكوكب كله.. فمن الذي سيعصي أوامري ويخرجك من هنا؟ أنت تحلمين.."

ظلت بي ناريا تنظر إليه ذاهلة، فأضاف مانيم بسخرية "اقبعي في جحرك هذا واملئي عقلك بالأوهام.. فهذا أفضل ما تتسلين به حتى أصدر حكمي عليك.. وانسي أمر زواجك بي، فهذا مما لا يليق بي.."

صاحت بي ناريا وهي تراه يغادر "أكنت تكذب عليّ كل تلك السنين؟ أكنت تخدعني وأنت تقسم بالطاعة لي؟ وأنت تقسم على حبي؟ لماذا تفعل هذا وأنا لم أسيء إليك بشيء؟"

قال مانيم ملقياً بنظرة حادة عليها "لم تسيئي إليّ؟ يكفي استيلائك على عرشي لكي أكرهك.. يكفي معاملتك الدونية لي وكأنني لا أستحقك لكي أعمل على الإطاحة بك.. أنا الملك، وأنت لا شيء.. لا شيء.."
وغادر تاركاً إياها ترتجف والصدمة تملأها.. هل خسرت كل شيء بهذه السهولة حقاً؟..

****

سار المستشار بخطوات متعجلة في ممرات القصر وعقله يعمل باستمرار.. كان يودّ مقابلة الملكة وتحذيرها مما يتهدد بي ناريا.. لكن هذا مستحيل.. لن يمرّ الأمر من مسامع مانيم أبداً وسيتهمه بالخيانة..
استمر في سيره وهو عاجز عن اتخاذ قرار عندما رأى وصيفة الملكة جوين تسير وهي تتهامس مع إحدى الوصيفات حاملة إبريقاً مليئاً بالشراب.. عندها اتجه إليها فوراً ملاحظاً انشغالها حتى اصطدمت به لينسكب ما في الإبريق على ثيابه الغالية بشكل شهقت له وهي تصيح "مولاي المستشار.. أنا آسفة حقاً.. لم انتبه لقدومك.."
فوجئت بالمستشار المعروف بهدوئه ينفجر غضباً "ما الذي فعلته؟ لقد أفسدت ملابسي تماماً.. أيتها البلهاء، أين تظنين نفسك تسيرين؟"
بهتت لصراخه وهي تقول مرتجفة "آسفة يا مولاي.. سأطلب من أحدهم أن يحضر لك ثوباً نظيفاً في الحال.."
قال بشدة "بل تأتيني به أنت.. سأنتظرك في غرفة المستشار.. وإن تأخرت أكثر من عشر دقائق فالويل لك.. الملك ينتظر مني أوراقاً مهمة ولا يمكن أن أدخل عليه بهذه الصورة"
أحنت رأسها مذعنة وأسرعت لتنفيذ أمره بينما تولت الوصيفة الأخرى تنظيف المكان وحمل الإبريق.. وبعد دقائق، طرقت جوين باب غرفة المستشار، ودلفت حاملة ثوباً جديداً والقلق على وجهها مغمغمة "ها هو الثوب يا مولاي.. أرجو أن تغفر لي ما حدث.. وألا يصل خبر هذا إلى مولاتي الملكة.."
أمرها قائلاً "أغلقي الباب وتعالي.."
نظرت إليه بتوجس قبل أن تطيعه بصمت.. ففوجئت به يقترب من الباب المغلق منصتاً لثوان، قبل أن يعود إليها قائلاً بصوت أكثر خفوتاً من المعتاد "اسمعي.. لقد تعمدت ما حدث قبل قليل لأني أريدك أن تكوني رسولاً بيني وبين الملكة.. فإياك وإياك كشف أي شيء مما سيدور ها هنا.. حتى لنفسك.."
تطلعت إليه بدهشة مغمغمة "ما الأمر؟ هل تخشى من الجواسيس؟"
قطّب ونظر إليها للمرة الأولى منذ دخولها قائلاً "كوني جادة فلا مجال للتأخير.. إنه يتعلق بحياة ملكتك السابقة"
هتفت بدهشة "بي ناريا؟"
أشار لها لتخفض صوتها هامساً "أجل.. أجل أيتها الحمقاء.. لن يُسْقطنا في مصيبة إلا تصرفاتك الخرقاء"
نظرت إليه بتشكك قائلة "لماذا افتعلت هذا الحادث بهذه الطريقة وأمام الكل؟ القصر كله يعلم بأمر قدومي إليك"

قال زافراً "أعلم أن هذا الأمر لن يجهل به أحد في القصر.. لكن كلما كان الأمر مكشوفاً أكثر كلما صَعُبَ الشك فينا أكثر.. أنا لا أغادر القصر بتاتاً، ولو لجأت لمقابلتك خارج القصر فهذا سيثير الشكوك أكثر ونقع تحت طائلة أعمالنا"

قالت بشك أكبر "ولماذا أنا بالذات؟"

أجابها بشيء من العصبية "لأنني أعلم أن الملكة الأم تثق بك.. لذلك لا أقدر إلا أن أثق بك.."

ثم تلفت حوله مجدداً وهو يشير لها لتجلس، ولما فعلت قال لها هامساً "إياك والصراخ لما سأقوله.. مانيم قرر إعدام الملكة بي ناريا"

شهقت جوين بذعر ثم سارعت لتغطية فمها بيدها إزاء نظرة التهديد من المستشار.. ثم همست "لكن.. مولاتي الملكة ستموت من الحزن والحسرة إن علمت.. يكفي أن صحتها قد ساءت منذ موت الملك وانتهاءً بعزل بي ناريا.. وبي ناريا... رغم قسوتها فهي لا تستحق هذا المصير البشع من مانيم.."

فقال المستشار "لذلك حرصت لإبلاغك حتى توصلي الخبر إلى الملكة الأم.. أنا ليس بيدي أمر تغيير مصير بي ناريا.. لكن ربما تملك الملكة الأم حيلة تنقذ بها حياتها"

صمتت جوين والمستشار ينبهها قائلاً "إياك وأن يتسرب هذا الأمر لأي كان خلاف الملكة الأم.. لو وصل الأمر إلى مانيم فرقابنا ستطير في ثانية واحدة"

ثم أخرج قارورة صغيرة بها سائل شفاف من بين ثيابه قائلاً "هذا مخدر قوي وسريع المفعول.. استطعت الحصول عليه من العقاقير الخاصة بالقصر دون أن يشك بي أحد.. أوصليه للملكة الأم وهي ستعرف كيف تستخدمه"

تساءلت جوين "وماذا سيحدث لو عرف مانيم بهذا؟"

قال المستشار "هذه ستكون نهايتنا جميعاً.."

وأشار لها لتخرج، فسارعت تخبئ القارورة بين ثيابها جيداً، ثم خرجت مسرعة إلى القسم الخاص بالوصيفات.. لم ترغب بالتوجه مباشرة إلى الملكة كي لا يربط أحد بين مقابلتها للمستشار وبين هروب بي ناريا إن أفلحوا في تهريبها..

وبعد عدة ساعات أرسلت الملكة الأم في طلب جوين.. وما إن دخلت جوين جناحها حتى هتفت الملكة في وجهها "أين كنت اليوم؟ لقد طلبت منك إحضار بعض الشراب لي، لأفاجأ بأنك لم تعودي رغم انتظاري ويتناهى لعلمي أنك قد سكبته على المستشار بخرقك المعتاد؟"

نظرت جوين جانبياً إلى الوصيفات اللواتي يخدمن الملكة ويُصِخن السمع لما يدار مغمغمة "مولاتي.. هل لي بحديث خاص معك؟"

صرفت الملكة الوصيفات بسرعة، وتأكدت جوين أن الجناح خالٍ تماماً، ثم أسرعت إلى الملكة وهمست لها "مولاتي.. لقد أنبأني المستشار بخبر رهيب.. مانيم ينوي إعدام مولاتي بي ناريا"

توقعت جوين أن يغشى على الملكة الأم من الصدمة، لكنها وجدتها تصمت مفكرة والغضب يبدو على ملامحها

الناعمة.. فسألتها جوين "ألم يصدمك الخبر يا مولاتي؟"
قالت الملكة بغيظ "يصدمني؟ لم أتوقع أقل من هذا من شخص دنيء كمانيم.. منذ كَبُرَ هذا الفتى وبدأ يفهم خبايا القصر بدأت أرى في عينيه المكر والخبث.. وكلما كبر كلما كبرت شهوة الحكم في عينيه.. رأيت هذا بوضوح بينما عَمِيَ الملك السابق وبي ناريا عن هذا بكلامه المعسول وإخلاصه الزائف.."
ونهضت زافرة وهي تراقب المدينة الهادئة مع حلول المغيب من نافذة جناحها قائلة "توقعت أكثر من هذا منه.. وما فَتِئْتُ أبحث عن حل لأنقاذ بي ناريا منه.. لكن فيمن أثق؟"
اقتربت جوين منها هامسة "ثقي بي يا مولاتي.. فرغم قسوة بي ناريا معي لكني لن أنسى تنازلها وحضورها شخصياً لإعادتي للعمل في القصر"
لم ترغب الملكة الأم بقول إن هذا كان بأمر حازم من الملك وجوين تضيف "سأساعدك بما في استطاعتي لتهريب بي ناريا.. ولهذا أعطاني المستشار هذا"
وأخرجت القارورة من طيات ثيابها وناولتها للملكة قائلة "هذا مخدر سريع المفعول.. يمكننا ترتيب خطة لتخدير الحراس وتهريب بي ناريا من السجن.. لكن كيف نخرجها من القصر؟ وأين ستذهب بعد هذا؟"
تأملت الملكة القارورة قليلاً، ثم سارعت لإخفاءها في خزانتها وبين ملابسها قائلة "اذهبي الآن يا جوين.. أريد التخطيط للأمر في ذهني.. هذه عملية خطيرة ولن يمكننا التراجع متى ما بدأنا"
ثم أمسكت بيديها قائلة "مادمت ستعاوينني، أريدك أن تبحثي عن حارس ثقة يمكن أن اطمئن لأمانته.. لن يمكننا أنت وأنا وحدنا إنجاح الأمر دون مساعدة أحد الحراس"
قالت جوين "اطمئني يا مولاتي.. أعرف بالضبط من يمكننا الوثوق به"
فقالت الملكة "اءتني به في غفلة من الجميع.. يجب أن أتأكد من إخلاصه لبي ناريا قبل أن أكشف له مخططنا.."

****

ظلت بي ناريا مستلقية على السرير في سجنها وهي تتطلع إلى السقف بهدوء ظاهر بينما داخلها يغلي كمرجل ثائر.. لقد مرّ يومان منذ قدومها إلى هنا ولا تدري إلام انتهى حال المدينة في هذه الفترة القصيرة.. لم تستسلم إلى حالها المزري لكنها لا تدري ما الذي يمكنها فعله في سجن محكم كهذا.. لقد تربّت على الدِعة وعلى إخلاص من حولها.. لا تعرف كيف تحيك الدسائس ولا تقدر على التخطيط للهرب من مانيم وسجنه..
سمعت صوت خطوات تتقدم من الزنزانة وحديث يدور بين الحراس، فعلمت أن وقت تبديل الحراسة سيتم في هذه اللحظة.. زفرت بحدة وهي تجلس وترفع بصرها إلى النافذة الصغيرة جداً بحجم كرة متوسطة والتي تقع في أعلى منطقة من حائط السجن.. كانت تود لو ترى من خلالها.. لو تشاهد سماء يناسّا التي افتقدتها من ضمن الأشياء التي سلبها إياها مانيم.. نهضت فجأة بتصميم وحاولت دفع السرير الحديدي رغم صوته المزعج

حتى أوصلته للحائط الذي يحوي النافذة.. ثم صعدت فوق السرير ووقفت على أطراف أصابعها حتى أفلحت بالإمساك بإطار النافذة بعد أن مدت يدها بطولها.. لكنها لم تفلح في الوصول إلى مستوى النافذة ولم ترَ إلا جانباً من السماء المظلمة التي تفترشها النجوم المتناثرة..

في تلك اللحظة فتح باب الزنزانة بشيء من الهدوء وهي تسمع همساً يقول "مولاتي.. هل أنت نائمة؟"

نزلت من السرير وهي تغمض عينيها اتقاء للنور الداخل من الباب، ولما فتحتها رأت جوين تقترب منها مسرعة هامسة "مولاتي.. أرجوك لنسرع.. يجب أن نهرب قبل أن يقترب أحد الحراس من هنا"

عقدت الدهشة لسان بي ناريا.. ثم قالت وهي تسرع إلى الباب "كيف دخلت إلى هنا؟"

قبل أن تجيبها جوين رأت الحارس المكلّف بحراستها يَغُطّ في النوم وشخيره يتعالى.. فيما سارعت جوين لإغلاق الزنزانة وقفلها ومن ثم إعادة المفتاح إلى السلسلة المدلاة من ثياب الحارس بهدوء محاذرة أن توقظه.. ثم جذبت بي ناريا من يدها قائلة "من هنا يا مولاتي.."

لم تعلق بي ناريا على إمساك جوين ليدها وهي تجري خلفها في الممر الخافت الإنارة قبل أن تسرع جوين إلى أحد الأعمدة المنتشرة في المكان ولا يختلف منظره عن غيره، فتناولت من جيبها قلادة عادية تتوسطها بلورة وردية اللون، وتبدو القلادة قديمة جداً مع تغير لون المعدن حولها في عدة أماكن، فرفعت جوين البلورة مواجهة العمود لثوان قبل أن ترى بي ناريا نوراً خفيفاً التمع في بقعة معينة من العمود.. عندها أزيح جزء من الحائط جانباً مظهراً فتحة تسمح بمرور شخص واحد.. فدفعت جوين بي ناريا إلى داخله وتبعتها ثم أغلقت الباب من الداخل بنفس طريقة فتحه ليعود الحائط كما كان دون أن يصدر صوتاً يذكر..

عندما اطمأنت بي ناريا إلى ابتعادهما عن الحراس قالت لجوين وهي تتلفت في الممر المظلم بدهشة "أين نحن الآن؟ كيف استدللت على مكان كهذا؟"

قالت جوين وهي تضيء مصباحاً في يدها "الملكة الأم دلتني على هذا الطريق السري.. يبدو أن القلعة تحوي مئات الممرات السرية التي لا يعلم أحد عنها شيئاً إلا الملك والملكة.. وهذه القلادة المتوارثة منذ الملك الأول هي المفتاح الوحيد لفتح البوابة.."

وسارعت في الطريق الذي حفظته عن ظهر قلب وبي ناريا تتبعها مغمغمة "لكني الملكة ولم أعلم عن هذا شيئاً"

لم تعلق جوين وهي تسير معها في طرقات مختلفة متفرعة، حتى وصلوا إلى جدار يقف بين عمودين.. فسارعت جوين بالضغط على نتوء بارز على الجدار ليفتح بسلاسة.. فتساءلت بي ناريا "لماذا لم تستخدمي القلادة؟"

قالت جوين مفسرة "يبدو أن الممرات صممت بحيث لا يفتحها من الخارج إلا من يملك القلادة، لكن من الداخل يمكن فتحها بدونها تحسباً لضياع القلادة الوحيدة ولكي لا يجد الملك نفسها محبوساً فيها بلا نجدة.."

زاد تعجب بي ناريا وجوين تسبقها في الخروج، ولما خرجت بي ناريا خلفها وجدت أنها في جناح الملكة الأم، وصاحبة الجناح كانت واقفة قرب الباب تفرك يديها بتوتر..

ما إن رأت بي ناريا أمها تناهبتها عشرات المشاعر المختلفة، فظلت في مكانها متجمدة.. أتناديها أمي؟ أم ماذا تسميها؟.. هل تغفر لها كذبها طوال تلك السنين؟ أم تشكرها على حسن رعايتها لها؟ ظلت حائرة حتى وجدت

الملكة الأم تهبّ إليها فتحتضنها بقوة وهي تبكي قائلة "بي ناريا.. يا ابنتي العزيزة.. لقد هزلت وشحب وجهك.. تباً لك يا مانيم"

بكت بي ناريا وقد أثر فيها بكاء أمها.. بكت غير عابئة بمن حولها ربما للمرة الأولى منذ سنين.. منذ وعى عقلها لم تبك على شيء في حياتها إلا بكاءها على موت الملك وحيدة في غرفتها، وعلى نفسها وحيدة في سجنها.. ولم تعترف بالبكاء إلا كضعف لا يليق بها.. أما الآن.. فقد جاشت مشاعرها منفّسة عن صدمتها.. عن فقيدها.. ولم يكن العرش فقط هو ما فقدته.. بل فقدت أمها وأبيها.. فقدت ذكرياتها وتاريخها المزيف.. بكت وبكت وهي تضم أمها بقوة هامسة بتكرار لا يمل "لماذا؟... لماذا؟... لماذا؟..."

تركتهما جوين يفرغان مشاعرهما وأسرعت إلى باب الجناح تراقب خشية قدوم أحد وانكشاف أمر بي ناريا..

بينما دفعت الملكة بي ناريا عنها بخفة قائلة "انظري كيف أصبحت.. من كان يصدق أن يحدث كل هذا بتلك السرعة؟"

قالت بي ناريا متشككة وهي تمسح دموعها "هل كل ما قاله مانيم صحيح؟ هل حقاً لست ابنتك الحقيقية؟"

خفضت الملكة الأم وجهها قائلة "للأسف.. هذا صحيح.."

فتساءلت بي ناريا ونظرة لوم تتبدى في عينيها "لماذا يا أمي؟ لماذا فعلتم هذا بي؟ لماذا زيفتم ذكرياتي كما زيفتم أوراقي؟"

قالت الملكة الأم بألم "لم نفعل هذا عمداً.. كل ما أردناه هو ابنة لنا.. نحبها ونرعاها وتعوضنا عن الحرمان الذي لم يكن بيدنا.. لكن لشدة ما أحببناك أردناك أن تكوني ابنة حقيقية.. أن ترثي عرش أبيك ومكانته.. ولم يدر بخلدنا أن أحداً سينبش الأمر بعد كل تلك السنين"

قالت بي ناريا بحزم "أريد أن أعرف كل شيء بالتفصيل.."

دفعتها الملكة لتجلس في ركن الجناح حيث وجدت بي ناريا ثياباً بدت لها رثة وأغراضاً كثيرة ملقاة حولها..

والملكة تقول "فلنبدأ في المهم.. ستعمل جوين على إعطائك شكلاً مختلفاً لتضليل الحراس ومانيم حتى نستطيع تهريبك.. وفي هذا الوقت سأخبرك بما تريدين معرفته"

قالت بي ناريا بانفعال وهي تقف "تهريبي؟ لماذا؟ لا يمكنني الرحيل الآن.. يجب أن أستعيد عرشي.. يجب أن أنتقم من مانيم.."

قالت الملكة الأم بقلق "الانتقام؟ لا يا بي ناريا.. انسي مانيم وانسي العرش وانسي المملكة كلها.. سأعمل على تهريبك من مانيم.. عيشي حياتك بحرية بعيداً عن قيود العرش ودسائسه.. عودي لكونك فتاة وانسي كونك ملكة"

قالت بي ناريا بثورة "محال.. لن أغفر لمانيم كذبه، ولن أسلّم العرش إليه بطيب خاطر.. سأذيقه المرّ قبل أن أقتله شرّ قتلة.. وسترين"

قالت الملكة بغضب "أرى ماذا؟ تريدينني أن أصمت وأنا أراك تلقين نفسك في براثن مانيم؟ إن حاولت النيل منه فسيجد حجة جاهزة ليقتلك دون محاكمة أو مشاورة.. انسي كل هذا وفرّي بنفسك.. لدي جندي ثقة سيقوم بنقلك في إحدى الطائرات إلى إقليم سربين.. وهو إقليم هادئ وبعيد وأشك أن مانيم سيخطر له البحث عنك

هناك.. لا تضيعي الفرصة الوحيدة التي تملكينها للنجاة.."
قالت بي ناريا باستنكار "سربين؟ لا يمكنني أن أغادر الآن.. سأهرب من القصر، لكني سأبقى قريبة حتى أجمع جنودي حولي وأستعيد عرشي.. لا يمكنني أن أترك مانيم يستمتع بإنجازه وأهرب كالفأر.."
أمسكت الملكة كتفيها قائلة بحدة "ألا تعلمين ما أنت فيه؟ المملكة كلها مع مانيم بعد صدمتها بزيف هويتك.. الكل سارع لمباركة مانيم ونبذوك.. فهل تعتقدين أنهم سيقفون في صفك ومانيم يسيطر على الجيش؟ أفيقي وتقبلي مستقبلك بدون العرش"
هتفت بي ناريا "وما الذي سأفعله بمستقبلي؟ لقد عشت حياتي لأجل العرش أحلم به مستيقظة ونائمة.. ما المستقبل الذي تبقى لي؟ هل أتيه في الأرض بلا وجهة؟ هل أختبئ كالفأر وأقضي حياتي في خوف؟"
قالت الملكة بقوة "عيشي حياة كأي فتاة أخرى.. جدي عملاً تسترزقين منه.. أحبي بصدق.. تزوجي وذوقي معنى الأمومة.. انسي القصر وبيئته الملوثة.. وعيشي في الأرض الواسعة وهواءها النقي.. بودّي لو تركت المكان كله معك.. لكني سأكون عبئاً أكبر عليك وسينكشف أمرك أسرع بوجودي"
ظلت بي ناريا تنظر إليها والاستنكار يملؤها.. كل ما ذكرته الملكة أحلام لم تطرأ على بالها ولا ترقى لطموحاتها.. تعمل؟ تحب؟ تتزوج؟ العمل الوحيد الذي تتقبله هو الجلوس على العرش ولا شيء غيره.. أما أن تنزل من مرتبتها لتصبح من العامة، وترى مانيم يستمتع بحكم المملكة وبعرشها، فهذا ما لن يكون..
التفتت بي ناريا إلى جوين قائلة بأمر "أخرجيني من القصر.. سآوي لمنزلك بضعة أيام حتى أتمكن من ترتيب استعادتي للعرش.. وإن ساعدتني، فسأرفعك وعائلتك كلها لأعلى المراتب.."
نظرت جوين للملكة الأم بحيرة، فأشارت لها الملكة إشارة لم تفهمها بي ناريا وهي تقول "يا ابنتي.. عرفتك طوال عمرك عنيدة.. لكنك فقدت الظهر الذي كان يسندك.. فقدت الملك الوحيد الذي كان سيعطيك حباً بلا مقابل.. أما بقية من تعرفينهم، فهم يخضعون لمن يملك السلطة.. لا تتشبثي بعنادك وتفقدي حياتك لأمر تافه.."
فتحت بي ناريا فمها لترد على الملكة، لكنها فوجئت بمنديل رطب يغطي فمها وأنفها ورائحة قوية تتسلل عبره..
حاولت بي ناريا إبعاد اليد التي تمسك بالمنديل عن وجهها وهي ترى الملكة تنظر إليها بحزن قائلة "لا تنسي أنك ابنتي مهما كنت ومهما ابتعدت.. أتمنى لك السعادة بعيداً عن يناسّا، وبعيداً عن البيئة المريضة التي نعيش فيها.."
تهاوى وعي بي ناريا وهي تعجز عن مقاومة جوين، حتى سقطت في غيبوبة وتهاوى جسدها أرضاً لتسارع جوين بإسنادها وهي تقول للملكة "أتظنين ما نفعله هو الأمر الصائب؟"
قالت الملكة وهي تجلس على كرسي مغالبة انفعالها "هو أفضل ما نفعله لها.. والآن قومي بما أوصيتك به.."
غمغمت جوين وهي تسحب بي ناريا لتضعها على الفراش القريب "أن نلقي بالملكة التي عاشت حياتها في عز ورفاهية، في بيئة غريبة وربما معادية، هذا أقسى ما قد نفعله لها.."
قالت الملكة متنهدة "أن تعيش حياة قاسية أفضل من أن تفقد هذه الحياة نهائياً.."
ساد الصمت بينهما والملكة تراقب جوين التي أمسكت شعر بي ناريا، وجذبته لتقصه بمقص حاد، فتتناثر

خصلاته الفاحمة الطويلة على الأرض.. بينما بي ناريا غارقة في غيبوبة عميقة لا تدري ما قد يحدث لها في الساعات القادمة..

****

نهض مانيم من نومه مستاء وهو يقول بغضب "ما الداعي لكل هذا الإزعاج الآن؟ شمس الصباح لم تشرق بعد"
سمحت الوصيفة للجندي بدخول جناح الملك بإشارة من مانيم، فدلف الجندي مخطوف الأنفاس وهو يصيح "مولاي.. آسف لإزعاجك في هذه الساعة.. لكنه أمر عاجل.."
قال مانيم بحدة "ما الأمر؟ يحسن أن يستحق.."
قال الجندي "بي ناريا يا مولاي.. لقد هربت.."
اتسعت عينا مانيم وصاح "ماذا تقول؟"
قال الجندي محاولاً التغلب على توتره "لقد تبخرت من الزنزانة المغلقة.. أنا متأكد أنني لم أغادر موقعي ولم أغفل عنها بتاتاً.. كل ما هنالك.."
غلبه التردد لحظات صاح فيها مانيم بشراسة "ماذا؟ أي حمق تريد التفوه به؟"
قال الجندي ملوحاً بيده "غلبني النعاس الشديد للحظات يا مولاي.. لكني متأكد أن أحداً لم يمر قربي في تلك الأثناء.. نومي لا يكون عميقاً عادة.. لكن لا أعرف ما حدث في تلك اللحظات.."
هبّ مانيم من فراشه الوثير صائحاً "أبلغ الجند جميعاً أن يبحثوا عنها.. ولمصلحتك يجب أن يجدوها الآن.."
خرج الجندي لتنفيذ أمره شاحباً، فيما ارتدى مانيم رداءه الملكي وهو يغمغم بغيظ "أنا أعلم من المتسبب بهذا.. والويل لها لو أفلحت بي ناريا بالهرب.. الويل لها.."
في تلك الأثناء، وعندما بدا الاستنفار على الجنود وهو يفتشون القصر تفتيشاً دقيقاً، أسرعت جوين إلى جناح الملكة الأم وأغلقت الباب خلفها بإحكام وهي تغالب توترها الشديد، فقالت لها الملكة الأم بهمس قلق "ما كل هذا الاستنفار؟ هل اكتشفوا أمر بي ناريا بهذه السرعة؟"
أومأت جوين إيجاباً وهي تهمس بدورها "الجنود يفتشون كل بقعة من القصر.. لذلك يجب أن نسرع ونخفي آثار مولاتي من هذا الجناح.. لابد أنهم سيأتون إلى هنا قريباً.."
وأسرعت إلى ما بقي من آثار بي ناريا، ملابسها التي تم استبدالها وبقايا شعرها المتناثر أرضاً، فجمعته محاذرة أن تترك أي شيء خلفها والملكة تسألها بلهفة "ماذا فعلتِ ببي ناريا؟ هل....؟"
قاطعتها جوين بسرعة "لا تخافي يا مولاتي.. أمورنا سارت على ما يرام.. مولاتي الآن في طريقها إلى سربين بأمان تام.. والجندي أكد لي أنه سيحميها بحياته.."
زفرت الملكة الأم بقلق وهي ترى جوين تضع ما حملته في الممر السري بعناية قبل أن تغلق بابه وتضع أمام الباب كرسياً وثيراً مذهب الأطراف إمعاناً في إبعاد الأنظار عنه، وأعادت القلادة للملكة قبل أن تنشغل بترتيب

الجناح بعناية وهي تقول للملكة الأم "عودي لفراشك يا مولاتي.. الفجر قريب ولا نريد للملك أن يتساءل عن سبب بقاءك مستيقظة هذه الليلة بالذات.."

أطاعتها الملكة الأم بصمت وهي تزفر من جديد غير قادرة على إزالة قلقها.. فخبأت القلادة في مخبأ سري في الحائط قرب فراشها يبدو كجزء من نقوش الحائط البارزة، ثم استلقت في فراشها وهي منشغلة الفكر ببي ناريا.. فلتكوني بخير يا ابنتي.. وسامحيني.. فما أردت لك إلا ما هو خير لمستقبلك..

****

عندما استيقظت بي ناريا وقد تلاشى مفعول المخدر من جسدها، فوجئت بالظلام الذي يحيط بها.. كانت جالسة في صندوق بالكاد يحتوي جسدها، ولما مدت يدها حولها وجدت أنه تم تبطينه بطبقات من قماش غليظ ليحافظ عليها من أي اهتزاز أو ارتطام قوي.. غلب الذعر بي ناريا وهي لا تعلم ما حلّ بها.. فضربت الصندوق بيدها وهي تصيح "هل من أحد هنا؟ اخرجوني الآن.."

سمعت خطوات تقترب منها مسرعه، ثم تعالى صوت رجل قرب الصندوق يقول بصوت خافت "صمتاً يا مولاتي.. قائد الطائرة ووالي سربين ليسا بعيدين عن مكاننا.. ولو افتضح أمرك فستطير رقابنا في لحظة.."

قالت بذهول "طائرة؟ أين أنا الآن؟"

أجاب الرجل "نحن في الطائرة التي تقلّ والي سربين إلى الإقليم.. لقد وضعناك بأمر الملكة الأم في صندوق ضمن الصناديق التي تحوي ممتلكات الوالي، وحالما نصل، سأقوم بتهريبك قبل أن يتم إفراغ الطائرة من الصناديق.. لا تخشي شيئاً يا مولاتي فقد أوصتني الملكة الأم وأنا لن أخونك أبداً.."

قالت بي ناريا بحدة "أخرجني من هنا الآن.. لا يمكن أن أذهب إلى سربين.."

سارع الرجل ليقول "أرجوك مولاتي اصبري... خروجك الآن معناه عودتك إلى السجن، هذا إن لم يأمر مانيم بقتلك فور العثور عليك.. ثقي بي، وأنا سأوصلك للأمان.."

عضّ ت بي ناريا شفتيها وهي تصمت بضيق.. هل هذا ما أرادته لها الملكة الأم؟ لقد سعت لتخديرها وإرسالها لسربين معارضة رغبة بي ناريا وكأن لا حق لها في تقرير مصيرها.. لماذا يعاملها الجميع كأنها بلا إرادة ولا حق في الاختيار؟..

غمرها التوتر فأمسكت خصلة من شعرها وهي تحاول التفكير في ما قد يجري لها بعد وصولهم إلى سربين، عندما فوجئت بما حلّ بشعرها وهي تتلمسه مندهشة.. كان قد أضحى قصيراً جداً لا يتجاوز كتفيها.. عضّ ت على شفتيها بغيظ وهي ترى أن الملكة قد تخلت عنها هي الأخرى.. قد تكون تحاول الحفاظ على حياتها، لكنها لم تحاول أن تساندها في استعادة عرشها، بل رمتها إلى المجهول وكأنها تتبرأ من وجودها..

أيقنت في تلك اللحظة أنها وحيدة.. وكأن العالم قد خلا ممن قد يساندها، ممن يمكن أن توليه ثقتها ولا تخشى أن يطعنها خلف ظهرها عندما تغفل عنه.. معنى هذا أنها يجب أن تستعيد عرشها بنفسها، ولا تركن لأحد

ليساندها..
وكعادتها، ورغم الغصة التي ملأت حلقها والضيق الشديد الذي يكتنفها، لم تذرف بي ناريا دمعة وهي تعضّ على أظافرها محاولة التفكير في الخطوة التالية.. ماذا بعد الخروج من هنا؟ ماذا بعد الوصول إلى سربين؟..

****

"أين هي؟"
انتفضت الملكة الأم لدى سماعها الصراخ الهادر، لكنها حاولت الحفاظ على هدوءها وهي تجلس في فراشها تتطلع إلى مانيم الداخل إلى جناحها وقد انتفخت أوداجه من الغضب، ولما اقترب منها عاد للصراخ "أين بي ناريا؟ أنا أعرف أنك أنت من سعى لتهريبها، فالمستشار أجبن من أن يحاول هذا، والوزراء لا مصلحة لهم في ذلك مع كل العلاوات التي منحتهم إياها، فلا يبقى إلا أنت"
نهضت الملكة من فراشها هاتفة "بي ناريا هربت؟ متى؟ أين ذهبت؟"
دفعها بشيء من الخشونة وهو يقول "لا داعي لكل هذا التمثيل، أنت من ساعدها ولا أحد سواك.. اعترفي خيراً من أن ألجا لأي أساليب مذلة لك"
قطبت قائلة بحزم "لا علم لي عن أي شيء، القصر كله يعلم أنني لم أغادر الجناح منذ أن استوليت على العرش.. ولست ساحرة لأفتح زنزانة بي ناريا من على مبعدة ببضع كلمات سحرية"
غمغم مانيم بحنق "لكنني واثق أنها أنت.. كيف لبي ناريا التبخر من زنزانة مقفلة دون أن تترك أثراً؟"
جلست الملكة على كرسي قريب بهدوء وهي تقول "لم لا تتنازل عن بي ناريا؟ ما الذي تريده منها أكثر مما فعلته؟ أنا أؤكد لك أنها قد تخلت عن فكرة العرش تماماً، فدعها تذهب حيث ذهبت ويكفيك ما حصلت عليه حتى الآن"
أطلق مانيم ضحكة ساخرة وهو يهتف "بي ناريا تنازلت عن العرش؟ أقنعي أي شخص بهذا إلا أنا.. إنها عنيدة، ولن تستسلم حتى تراني معلقاً من حبل المشنقة.."
ودار في الجناح مفكراً بصوت عالٍ "إنها ستسعى لتأليب الجموع ضدي.. ستحاول أن تجمع حولها جيشاً ممن يكرهونني ويفضلون موتي، وبهم ستسعى لاسقاطي.. لكن من؟ سكان العاصمة والإقليم كله مستسلمين للراحة والدعة ولن يتهوروا بفعل كهذا.. إذن من؟"
ظلت الملكة تنظر إليه بقلق وهو غارق في التفكير، قبل أن تفاجأ به ينفجر ضاحكاً وهو يهتف "طبعاً.. لا يوجد أصلح من تلك الشرزمة.. لابد أنها ستلجا لهم.. حسناً يا بي ناريا، سنرى من هو الأبرع في هذه اللعبة"
وغادر الجناح متجاهلاً نظرات الملكة القلقة، والتي وضعت يداً مرتجفة على رأسها وهي تفكر.. هل هو عازم على البحث عنها؟ ولكن من المستحيل أن يكتشف أنها في طريقها لإقليم سربين.. فما الذي اكتشفه وأسعده بهذه الطريقة؟ وغرقت في صلاة حارة لسلامة بي ناريا وأمنها..

أما مانيم، فقد اختلى في جناحه الخاص بمردين الذي تم استدعائه على عجالة، وقال له وهو يدور في المكان "اسمع.. سأوكل لك مهمة خاصة وطارئة، فأنا ما عدت أثق بالمستشار.. لكن إياك ان تخذلني فيها"

قال مردين "ما الأمر العاجل الذي يستدعي التقاءنا قبل طلوع الشمس يا مانيم؟"

هدر مانيم "مولاي.. أنت لا تخاطبني إلا بمولاي.. مهما كانت صلتك بي فأنا الملك، ولا أحد يجرؤ على مناداتي بإسمي أبداً"

خفض مردين بصره مطيعاً، فيم قال مانيم "انتبه لما سأقوله.. بي ناريا قد هربت"

اتسعت عينا مردين بدهشة لكن مانيم قاطعه قبل أن يتفوه بكلمة "وأنا أعلم تماماً أين ذهبت ولمن ستلجأ.. أريد تعاميم أن تُنشر، وجنوداً أن يُستنفروا، وجوائز توضع لمن يدلي بأي معلومة عنها.. لا أريد أن يمر عليها أكثر من نهار واحد قبل أن تعود للسجن.. عندما تصل لوجهتها، ستفاجأ بأن العامة جميعهم مجندين للقبض عليها، ولن تجد مخبأ تلجأ إليه"

قال مردين "لكن يا مولاي، لا يمكننا أن ننشر أن الملكة السابقة قد هربت، فهذا قد يغري بعض الرافضين لتوليك العرش للبحث عنها ومساعدتها للإطاحة بك"

قال مانيم مفكراً "هذا ما أتوقعه أيضاً.. إذن أنا أعرف بالضبط ما عليك كتابته في التعميم.. لكن الويل لك لو لم تبذل جهداً كافياً للامساك بها قبل أن تغرب شمس هذا النهار"

****

الفصل الرابع:

الهاربة

عن الضياع

..

والفرار

..

والمدينة المحطمة

..

لم تكن الشمس قد بانت بعد عندما شقّت طائرة ملكية السماء المظلمة.. لا يسمع لها صوت إلا أقل القليل ولا يرى منها إلا أنوارها التي تدل عليها.. وفي الطائرة، قال والي سربين لقائدها "كم بقي من الوقت قبل أن نصل إلى سربين؟"

قال قائد الطائرة "القليل يا سيدي.. نحن على مشارف الإقليم وتبقت لنا ساعة لنصل إلى عاصمته.."

قال الوالي بتذمر وهو يتململ في جلسته "هلاّ أسرعت قليلاً؟ هناك أمر عاجل ويجب أن أحضره مع بداية الصباح.. أي تأخير غير مقبول بتاتاً"

لم يجب القائد وهو يغمغم متطلعاً إلى أجهزته "ما هذا؟"

قطع تساؤله صوت انفجار في الهواء هزّ الطائرة والقائد يدير المقود مغيراً اتجاهه، بينما تساءل الوالي بذعر "ماذا حدث؟"

قال القائد دون تصديق "إنهم يحاولون إسقاطنا.."

صاح الوالي "من؟ من؟.."

أما بي ناريا فقد فوجئت باهتزاز الطائرة بعنف مما جعلها تنكمش مغمغمة "أي قائد يطير بطائرته بهذا العنف؟ لو كنت الملكة لجردته من عمله على الفور.."

عاد الاهتزاز بشكل أعنف وقد خيّل إليها أنها سمعت انفجاراً يليه صراخ من غرفة القيادة.. ازداد توترها وهي تحاول فتح الصندوق دون أمل عندما تسربت إلى أنفها رائحة الاحتراق الواضحة الناجمة عن الانفجار مما زاد من ذعرها.. هل احترق المحرك؟ هل تعرضوا لهجوم ما؟ مستحيل.. هل الطائرة تهوي؟.. مستحيل.. مستحيل..

ظلت بي ناريا تهمس لنفسها بهذا وهي ترتجف وتشعر أن توازن الطائرة لم يعد ثابتاً وكأنها تهوي بسرعة نحو الأرض.. حاولت مرات ومرات أن تفتح الصندوق وهي تصرخ منادية وقد بات اهتمامها باختبائها منعدماً.. ثم جاء الارتطام القوي الذي تضعضعت له أجزاء المركبة وهي تصدر صريراً قوياً وهديراً صمّ الآذان قبل أن تفقد بي ناريا وعيها لقوة الارتطام..

وعندما فتحت عينيها، بعد مدة لا تعلمها، صدمت بي ناريا للهدوء والسكون اللذين يحلان بها، بالإضافة إلى الظلام الدامس.. وبعد سقوط الطائرة العنيف لم يبق لديها تعقل وهي تصرخ وتضرب جوانب الصندوق بقوة بيديها.. لم يعد يهمها أن ينكشف أمرها، ولم تخشَ من محاولة إعادتها للقصر ولمانيم.. كل ما كانت ترغب به أن تخرج من هذا الصندوق الشبيه بالقبر.. صرخت وصرخت حتى بحّ صوتها دون أن تجد استجابة.. بينما انتشر الألم الحارق في ذراعيها لكثرة ما ضربت بهما الصندوق الثقيل..

يبدو أن الصناديق كانت محصنة بشكل جيد كي لا تتأثر من الاهتزازات أثناء الطيران أو الهبوط، وهو ما حافظ على حياتها.. كما أن تصميم الطائرات الحديث يجعل أي احتراق يصيبها ينحصر في جزء بسيط ولا يتعداه إلى باقي الطائرة، وإلا لقضت بي ناريا نحبها محترقة أو على الأقل مختنقة.. لكن هل هو حظ حسن؟ يصعب

قول هذا وهي في هذا الصندوق المغلق بإحكام..
ظلت بي ناريا تصرخ بهستيرية وهي للمرة الأولى في حياتها تجد نفسها حبيسة في مكان مغلق وضيق كهذا.. لم تعهد في نفسها كل هذه الهستيرية، لكن الصمت المخيم خارجاً أبعد عنها كل تعقل.. هل غادروا وتركوها؟ هل ماتوا؟ ما الذي حدث للجندي الذي وعد بإنقاذها؟ ظلت في قلقها وحيرتها والذعر يزداد في صدرها مع مرور الوقت..
في تلك الأثناء، وبينما كان المستشار ينهي بعض الأعمال المستعجلة التي لم يمكنه إرجاؤها حتى الصباح في غرفة قريبة من قاعة العرش، وجد جندياً يدلف إلى الغرفة بعد طلبه الإذن، وقال وهو ينحني "لدي تقرير عاجل أيها المستشار.. يجب أن يبلغ الملك في أسرع وقت"
تساءل المستشار وهو يذيل بعض الأوراق بتوقيعه "ما هو؟ أبلغني وأنا سأرى أهمية الأمر"
قال الجندي "الطائرة التي كانت تقل الوالي الجديد.. لقد أسقطها الثوار في إقليم هيمانيا"
تجمدت أصابع المستشار عن الحركة ووجهه يشحب بشدة، ثم رفع رأسه إلى الجندي متسائلاً بتوجس "أي والٍ تقصد؟"
قال الجندي "الوالي على سربين.."
اتسعت عينا المستشار بانفعال صارخ جعل الجندي يتساءل عن أهمية هوية الوالي المقصود من بين الولاة، لكن المستشار تساءل وهو يمسح عرقاً تصبب على وجهه بمنديله "ولماذا عبرت الطائرة إقليم هيمانيا الثائر مع ما في هذا من خطورة؟"
قال الجندي "رئيس الطائرات الملكية قد حدد هذا الطريق لقائد الطائرة لأنه الأسرع.. ولم يكن يعلم أن الثوار يملكون وسيلة لإسقاط طائراتنا.. فهذه هي الحالة الأولى.."
صاح المستشار بحدة "فليخضع رئيس الطائرات الملكية للاستجواب حالاً.. هل تأكدتم من نجاة ركابها؟"
قال الجندي "فرقة من الجنود تحاول الوصول إلى المكان من العاصمة الهيمانية قبل أن يصلها الثوار.."
نهض المستشار وهو يشير للجندي للمغادرة والقلق يبدو على وجهه شديد الوضوح.. وغادر الغرفة بدوره دون أن يتجه إلى مانيم.. قبل أن يعلم مانيم بما حدث، يجب أن تعلم الملكة الأم بالأمر.. كانت جوين قد أبلغته بطريقتها الخاصة أن بي ناريا قد تم تهريبها في الطائرة التي تحمل والي سربين، ورغم أنه لم يعلم بالطريقة التي تم فيها هذا، لكنه يخشى مما حدث لها في سقوط الطائرة.. هل هي حية؟ ولو كانت كذلك هل انكشف أمرها؟ الخوف كل الخوف من وصول فرقة الجنود إلى الطائرة قبل أن تتمكن بي ناريا من الهرب، وعندها ستسقط رؤوس كثيرة، أولها رأس بي ناريا.. هذا إن كانت ماتزال حية..
لم تعلم بي ناريا بأي من هذا وهي ترتجف والبرد يشتد مع مرور الوقت.. لا تدري أين هي الآن، ولا تدري ما الذي حدث.. كل ما كانت موقنة منه أن سقوط الطائرة تسبب في مقتل كل من فيها، عداها هي.. هذا هو التفسير الوحيد للصمت المخيم على المكان.. فلا تشك أن الجندي قد يتخلى عنها ويهرب بجلده..
كانت يداها الناعمتان قد تورمتا وظهرت عليهما كدمات آلمتها.. فظلت تفركهما وهي ترجيء التفكير في حل

لوضعها المتأزم.. كان وقت طويل قد مر عليها وهي على حالها، أو هذا ما تخيّل لها.. لذلك كانت دهشتها عظيمة عندما سمعت أصواتاً خافتة تدل على خطوات تسير في أرجاء المكان.. لم تدر من هو صاحب تلك الخطوات، أهو الجندي قد عاد لإنقاذها؟ أم هم جنود مانيم جاءوا لتفقد الطائرة؟ أم أشخاص آخرون؟..

ظلت صامتة بتوجس وهي تدير الأمر في عقلها، هل تكشف عن موقعها أم تصبر لتعرف هويتهم في البدء؟

سمعت همسات تدور في المكان، ثم اقترب عدد من الأشخاص من موقعها وأحدهم يقول بلهفة "فلنفتش هذه الصناديق بسرعة ونحمل كل ما غلا ثمنه قبل أن يأتي الجنود.. لابد أنهم في طريقهم إلى هنا من العاصمة"

سمعت صوت ضرب على صندوق مجاور وصوت نسائي يقول "وماذا لو فاجؤونا ونحن هنا؟ قد يحسبونا من الثوار، أو يلصقوا بنا تهمة إسقاط الطائرة.. فلنأخذ أول ما تطاله أيدينا ولنغادر"

أجاب صوت ثالث "محال.. لن أغادر قبل أن أفتش الطائرة كلها.. لن نترك ثروة يمكن أن تبدل حالنا للأبد لأجل خوف لا مبرر له.."

قال الصوت الأول "لنسرع في عملنا إذاً.."

تعالت الطرقات على الصناديق حول بي ناريا وهي ترتجف بخوف لا تدري سببه.. من هم هؤلاء؟ وما الذي سيفعلونه عندما يروها؟..

لم تدم أفكارها طويلاً وهي تسمح صيحات فرح ترتفع في المكان.. لابد أنهم عثروا على الممتلكات الشخصية للوالي والتي بدت لأعينهم شيئاً لا يقدر بثمن.. ثم تعالى الطرق على الصندوق الذي تختبئ فيه بي ناريا بقوة جعلها تحيط رأسها بيديها وتعضّ على شفتيها بقوة لتمنع نفسها من الصراخ والهلع يتنامى في صدرها من الطرق المتعالي..

وفي ثوانٍ تحطم الغطاء والخشب يتناثر على رأسها، في نفس اللحظة التي سمعت فيها شهقة نسائية وصاحبته تصيح "ما هذا؟"

اقترب الرجلان اللذان معها مستطلعين، وما إن رأوا بي ناريا التي حاولت تنظيف رأسها من حطام الخشب حتى قال أحدهم "أهذه مزحة؟"

أمسكت المرأة بذراع بي ناريا وأوقفتها بقوة، فصاحت بي ناريا وهي تجذب ذراعها "كيف تجرئين؟"

ظل الثلاثة ينظرون إليها باستنكار وهي تنظر إليهم بغضب.. كانت ثيابهم رثة جداً، رثة لدرجة بدت ثيابها فاخرة بشكل لا يصدق.. بشرتهم سمراء كالحة، وبدت لها يد المرأة التي لامست ذراعها خشنة بشكل لا يطاق..

ثم قال أحد الرجال وهو يعاينها ببصره "هل أنت جارية؟ أهكذا يعامل النبلاء الجواري؟"

صاحت بغضب "لست ولم أكن يوماً جارية.."

فقال بهزء "إذن لماذا يتم نقلك كبضاعة رخيصة؟"

لم تجبه وهي تخرج من الصندوق، فهي ترى أن الرد ليس في مصلحتها.. ولما سمعت صيحة المرأة الظافرة التفتت إليها لتراها قد استولت على صرة نقود استخرجتها من جيب بي ناريا وهي تقول "رائع.. حتى الجواري فاحشات الثراء.."

أدركت بي ناريا أن تلك الصرة قد دستها الملكة الأم في ثيابها لتعينها في بيران، فصاحت وهي تحاول استعادة الصرة "لست جارية.. أعيدي النقود لي حالاً.."

فقالت المرأة بهزء وهي تتجه إلى صندوق آخر "أمرك يا مولاتي.. دعينا ننتهي من عملنا هنا ثم نرى ما يمكننا فعله بك.."

قالت بي ناريا بتوجس "وما الذي ستفعلونه بي؟"

قال أحد الرجال بابتسامة لم ترق لها "لكل شيء في هذه الدنيا ثمن.. ولكل بضاعة مشتري"

اتسعت عيناها استنكاراً، وبدلاً من الاعتراض الذي يبدو بلا فائدة تلفتت حولها فلم ترَ إلا الأشخاص الثلاثة في هذه الغرفة، فأدارت ظهرها لهم وانطلقت هاربة عبر باب الغرفة وهي تسمعهم خلفها يتصايحون.. وكما توقعت سابقاً كان كل من في الطائرة قتلى ودماؤهم تغرق المكان بشكل أفزعها، وقبل أن تفلح بالهرب وجدت من يمسك ذراعها ويلويها خلف ظهرها مؤلماً إياها.. فصرخت وهي تحاول الإفلات من قبضته دون جدوى.. كانت اليد لرجل من نفس عينة الثلاثة الذين تبعوها وأحدهم يقول "أحسنت صنعاً بمنعها من الهرب"

تساءل الرجل الذي يمسكها باستغراب "من تكون هذه؟"

أخبرته المرأة بما حدث وبي ناريا تحاول تحرير نفسها، ثم صاحت بغضب "سأقتلكم.. فور أن أستعيد مكانتي ومنصبي سأقتلكم جميعاً"

تساءل أحد الرجال وهو يحمل ما حصل عليه من الصناديق ويضعه في خرقة قريبة محكماً ربطها "ومن كنت أنت؟ هل كنت وصيفة الملك؟ أم عشيقته؟"

احتقن وجهها للإهانة وآخر يقول "أظننا لو عرضنا بيعها على أحد التجار فسنحصل على مبلغ لا نحلم به.."

وقبل أن تعترض بي ناريا بكلمة على ما يدور فوجئوا بدخول صبي من باب الطائرة المحطم وهو يصيح "الجنود قادمون.."

اتسعت أعين الجميع بلا استثناء وهو يصيح بهلع متنامي "إنهم قريبون جداً.. فرقة كبيرة منهم تتقدم إلى هنا.. فلنهرب وإلا قتلونا.."

ظهر الفزع جلياً على الوجوه وهم يتدافعون حاملين ما طالته أيديهم والمرأة تولول وهي تهرب "لقد حذرتكم من هذا.. حذرتكم.."

وجدت بي ناريا الرجل الذي يمسك بها يفلتها وهو يتناول بضع أوانٍ مذهبة كانت ملقاة على مقربة ويهرب من الطائرة تاركاً إياها خلفه.. فلم تتردد بي ناريا ثانية أخرى وغادرت الطائرة لتجد أنها في صحراء لم تر مثلها من قبل.. القمر ينير الكثبان من حولها، فيما يجدّ الهاربون الخطى بعيداً دون أن يلتفت أحد منهم خلفه.. ومن جهة أخرى بانت عدة أنوار تقترب دالة على مركبات الجنود التي تتقلص المسافة بينها وبين الطائرة بشكل متسارع..

لم ترغب بي ناريا باتّباع هؤلاء الرجال الذين يهددون ببيعها، لذلك أولت ظهرها للطائرة وأسرعت خلف أقرب كثيب عالٍ لتختبيء خلفه عن أعين الجنود، ومن هناك ظلت مثابرة في سيرها رغم أنه سرعان ما تقطعت

أنفاسها لهذا المجهود الذي لم تقم بمثله من قبل.. كان السير على الرمال الناعمة التي تغوص الأقدام فيها أكثر إنهاكاً من السير على الطرقات المعبدة والتي تحفها الأشجار المعتنى بها.. لكنها لم تستسلم وهي ترى من بعيد أنواراً خافتة لما بدا لها كمدينة.. فقررت أن تدور دورة واسعة لتتجنب الجنود وتعود للمدينة التي جاءوا منها..
لم يكن لديها فكرة عما ستفعله عند وصولها للمدينة، ولم يدر بخلدها أن آثارها واضحة لمن أراد أن يقتفي أثرها.. في الواقع لم يكن لديها فكرة عن أي شيء خارج نطاق القصر حيث لا مفاجآت ولا أخطار..
لكن لحسن حظها، فإن فرقة الجنود التي وصلت إلى الطائرة لم تكن تدري بوجودها فيها، ولم يكن اهتمامها يتجاوز تفقد الركاب، والبحث عن المتسببين في إسقاط الطائرة..
لذلك، وبعد تفقد سريع للطائرة واكتشاف الجثث فيها، فإن قائد الفرقة أشار لعدد من جنوده قائلاً "لاشك لدي أن الثوار كانوا هنا.. لابد أنهم جاءوا لتفقد الطائرة والتأكد أن مهمتهم تمت بنجاح.. اتبعوا هذه الآثار المتجهة شرقاً وعودوا بأصحابها قبل أن يفلحوا بالاختباء"
أشار أحد الجنود إلى آثار بي ناريا المتجهة للشمال وتساءل "وماذا عن صاحب هذه الآثار؟"
قال القائد باستخفاف "لابد أنه أحد السكان المحليين الفقراء قد جاء ليبحث في الطائرة عما يسرقه.. ألم تر الصناديق المهشمة والأغراض المبعثرة؟ دعوه فنحن في مهمة أهم من القبض على سارق.. لو قبضنا على هؤلاء الثوار فجائزة كبيرة من الوالي ستكون من نصيبنا"
اتجه عدد من الجنود خلف آثار الرجال الهاربين بينما أسرع القائد يدلي بتقريره للقيادة في عاصمة هيمانيا.. واعداً بالعودة بجثة الوالي ومن معه في الطائرة، بالإضافة لما تبقى من أغراض تخص الوالي القتيل..

****

لم تكن أنوار الفجر قد بانت وبي ناريا تستلقي على الرمال لاهثة بصوت عالٍ غير عابئة بالرمال التي تخللت شعرها وثيابها والآلام المبرحة في أنحاء جسدها تجعلها عاجزة حتى عن النهوض.. كانت تشعر برئتيها يعتصرهما الألم والهواء يدخل إليهما بعسر ومشقة.. وانتفاضة تنتشر في جسدها للمجهود الذي أجبرته عليه..
كان البرد شديداً في الصحراء، لكن جسدها كان حاراً والعرق يسيل على وجهها باستمرار..
كانت المدينة المظلمة قريبة جداً منها.. لكن لم يكن لدى بي ناريا طاقة للاستمرار ولو لخطوات أخرى بعد..
لم تدر كم من الوقت بقيت على حالها، حتى فوجئت بسماع شهقة خافتة وصوت يبتعد صائحاً "أمااااااااااه.. إنها جثة.."
اعتدلت بسرعة رغم آلامها وارتقت الكثيب القريب لتلقي نظرة حذرة لما خلفه.. فرأت فتاة صغيرة تبتعد راكضة تجاه خيالين أسودين لم يبدوا جيداً في الظلام.. ولما أصاخت السمع سمعت صوت امرأة يقول "جثة؟ أأنت واثقة من هذا يا ابنتي؟"
قالت الفتاة لاهثة "واثقة تماماً.. إنها امرأة.. لابد أن الدماء تتصبب من جرح في صدرها أو رأسها بغزارة.."
غمغمت بي ناريا "يا للخيال الشاسع.."

ومع اقتراب الظلال وجدت أنها لفتاتين متفاوتتين في العمر مع أمهم، فلم يبد لها منهم خطر مما جعلها تقف بحذر مقتربة من موقعهم.. فشهقت الفتاة الأولى صائحة "الجثة.. لقد نهضت.."

قالت الأم مؤنبة "لا يجب أن تطلقي هذا اللقب على الناس جزافاً.. هذا من قلة الأدب.."

اقترب الثلاثة من بي ناريا التي صمتت وهي تتأمل ملامح المرأة التي بدا تعبها واضحاً على وجهها رغم الظلام، ويبدو أنها كانت تجمع الحطب كمصدر للرزق بمعاونة ابنتيها، والتي لا يتجاوز عمر أصغرهما العاشرة، والأخرى تكبرها بأربع أو خمس سنوات..

سمعت بي ناريا المرأة تخاطبها قائلة "مرحباً.. هل خرجت أنت أيضاً في هذا الوقت لجمع الحطب؟"

قالت بي ناريا بحذر "لا.. كنت متجهة للمدينة وتوقفت لأخذ قسط من الراحة.."

رفعت المرأة حاجبيها بدهشة قائلة "حقاً؟ كيف قدمت إلى هنا؟ لا تقولي لي إنك ممن نجوا من الطائرة التي سقطت الليلة.."

قالت بي ناريا بسرعة "لا.. لقد كنت مع مجموعة أخرى في طريقنا للمدينة عندما هوجمنا.. استطعت الفرار بصعوبة وأكملت المسافة سيراً على الأقدام"

قالت المرأة بشفقة "يا للهول.. لابد أنهم قطاع الطرق.. لقد تزايد عددهم مع الفقر الذي يهوي إليه شعبنا.. أأنت بخير؟"

تساءلت بي ناريا بعد تردد طال "أي مدينة هذه التي نحن بقربها؟"

تطلعت إليها المرأة بتعجب قبل أن تقول "هيمانيا.. ألم تقولي إنكم كنتم في طريقكم إليها؟"

اتسعت عينا بي ناريا بذهول وهي تتأمل المدينة القريبة التي لم تظهر فيها بقعة ضوء واحدة، ثم همست بصوت مبحوح "هيمانيا؟ العاصمة هيمانيا؟"

قالت المرأة وتعجبها يزداد "أجل.. أهناك ما يسيء؟ تبدين شاحبة.."

غمغمت بي ناريا وهي تتهاوى جالسة "لا شيء.. كنت أريد التأكد من وصولي إليها فحسب.."

صمتت المرأة وهي تتأمل وجه بي ناريا بتعجب.. أما بي ناريا فقد شعرت أن تنفسها يضيق أكثر مما كان عليه.. هيمانيا؟ من بين كل الأقاليم التي في المملكة، تجد نفسها في هيمانيا؟ أي سخرية هذه؟ في البدء ظنت أنها قد وصلت سربين، لكونه أيضاً إقليماً صحراوياً وإن انتشرت الجبال في الجهة الجنوبية منه.. لكن يبدو أن قدرها قد ساقها إلى الإقليم الأبغض إلى قلبها نكاية فيها.. ولم تكن هذه أول ولا يبدو أنها ستكون آخر الصدمات التي حلت بها في اليومين الأخيرين..

قطع الصمت صوت الفتاة الأصغر عمراً وهي تقول "أمي.. تستطيع هذه المرأة أن تساعدك في حمل الحطب.. فأنا لا أستطيع حمله حتى المدينة"

نظرت بي ناريا لها بغيظ.. هذا ما كان ينقصها، أن تساعد الغوغاء في أعمالهم.. لكن الأم أراحتها وهي تجيب الفتاة "لا يجوز هذا يا ابنتي.. إنها غريبة ومتعبة وليس من اللائق إجبارها على العمل.."

وقالت موجهة الحديث لبي ناريا "هل تريدين أن نعينك للعودة إلى المدينة؟ تبدين في غاية الإنهاك.."

قالت بي ناريا محاولة استرداد أنفاسها وثقتها "سيكون هذا جيداً.. فأنا لا أعرف أحداً فيها.."
بقيت جالسة فوق الكثيب محاولة استجماع نفسها بانتظار أن تنتهي المرأة من عملها.. يبدو الالتجاء لمساعدتها حلاً مريحاً في هذه الأوقات.. وبعدها ستحاول تدبر وسيلة تعيدها إلى العاصمة.. فهي غير مقتنعة بحديث أمها عن المستقبل والهواء النظيف.. لا يبدو لها كل ما تراه حولها مستقبلاً نضراً موحياً بالسعادة..

****

بعد أن أنهت المرأة عملها الذي طال، سارت مع ابنتيها عائدات إلى المدينة وكل منهن تحمل كومة حطب بدت أكبر من حجمهن.. بينما تبعتهن بي ناريا بخطوات متثاقلة دون أن تفكر حتى في عرض المساعدة عليهن..
ورغم نظرات الحنق التي تلقيها عليها الفتاة الأصغر سناً إلا أن بي ناريا لم تعبأ بها وهي ترى أن لا حق لهن بطلب ذلك منها هي.. حتى لو لم يكنّ يعلمن بهويتها الحقيقية، لكنها تفترض دائماً أن على الآخرين احترامها مهما وأينما كانت..
بدأ النور يشق السماء خلف المدينة سامحاً لبي ناريا برؤية تفاصيلها ومنازلها التي لم ترحها كثيراً.. كانت مدينة كئيبة، منازلها طينية من طابق واحد تشرخت جدرانها واتسخت في عدة أماكن.. ومن ظهر من السكان في ذلك الوقت المبكر كان في حالة يرثى لها من الكآبة والبؤس بشكل جعل بي ناريا تضيق صدراً وهي ترى هذا كله.. البيوت، والشوارع، والناس، وحتى الحيوانات، كانت تختلف اختلافاً كلياً عن يناسّا..
عَبَرَ الأربعة الشوارع الضيقة الحجرية، حتى وصلوا إلى منزل صغير شبه متداعٍ والمرأة تقول "تبدين متعبة كثيراً.. ابقي هنا حتى أذهب لبيع الحطب وأعود إليك.. لن أتأخر كثيراً.."
وحملت الحطب عن ابنتها الكبرى وهي تأمرها بأن تبقى مع ضيفتهم، قبل أن تبتعد وهي تنوء بحملها والفتاة الصغيرة تسير خلفها متذمرة.. وبعد شيء من التردد، تبعت بي ناريا الفتاة الكبرى إلى داخل المنزل الذي لم يكن حاله بأفضل من خارجه، فقادتها الفتاة إلى غرفة منه بصمت، وتركتها فيها دون أي كلمة..
سارت بي ناريا في الغرفة وهي تتأملها ماطة شفتيها ويدها تعبث بشعرها القصير بحكم العادة.. أي شيء يدعوها للتخلي عن مباهج القصر لتعيش في مثل هذا المكان الضيق القذر؟ كيف ستشعر بالسعادة وهي لا تجد ماءاً نظيفاً ولا طعاماً فاخراً ولا لباساً مبهراً.. حقاً لا يبدو أن أمها الملكة بأتم عافية لترى أن هذه الحياة أفضل من حياة القصر..
وجدت في جانب الغرفة مرآة مشروخة معلقة على الحائط، فتطلعت بي ناريا لوجهها فيها للمرة الأولى بعد مغادرتها القصر.. كان التعب ظاهراً على وجهها وشعرها مبعثر امتلأ بالرمال.. لكن الأهم أنه قد اضحى عسلي اللون قصيراً لا يكاد يتجاوز كتفيها بشكل بدا عليها غريباً.. ووجدت أن بشرتها قد أصبحت على شيء من السمرة يخالف بياضها السابق، وعيناها غدتا عسليتا اللون أدركت أنه بفعل القطرة التي تقوم بتغيير لون العدسة بشكل مؤقت، ولا يزول تأثيرها حتى يتم استخدام قطرة مغايرة فتستعيد العدسة لونها الأصلي..

بدت مع هذا التغيير كفتاة أخرى، بالإضافة إلى الملابس الرثة التي ترتديها والغبار الذي يعلو بشرتها النظيفة عادة، جعلها لا تبدو كمن له صلة بيناسّا وبالقصر الملكي البتة..

غمغمت بي ناريا وهي تمسح الغبار عن وجهها "لا أعتقد أن مانيم سيبحث عني هنا في هذا الإقليم بالذات.. سيكون هذا آخر مكان يفكر في لجوئي إليه.. وحتى الذين سألتقي بهم في طريق عودتي للعاصمة، لا أظن هويتي قد تدور بخلدهم أبداً مهما شكّوا في مظهري.."

كانت قد عزمت على البحث عن وسيلة للعودة إلى يناسّا مهما حدث، ومهما واجهت من عقبات..

دلفت المرأة إلى الغرفة في تلك اللحظة قائلة "هل ترغبين بأخذ حمام دافئ وتبديل ملابسك؟ تبدين في حالة يرثى لها.."

وافقت بي ناريا على الفور، لكنها لم تقبل أخذ أي ملابس منها، فثيابها على اتساخها أقل قذارة من ثياب هذه المرأة..

بعد فترة طويلة، كانت بي ناريا قد استعادت نضارة وجهها رغم أن اللون الذي اكتست به لم يتغير بالماء..

فجلست في جانب الغرفة بصمت تفكر في حالها حتى دخلت الفتاة الكبرى حاملة لها بعض الطعام لتضعه أمامها قائلة "هل ستبقين هنا طويلاً؟"

قالت بي ناريا وهي تتأمل الطعام الذي كان في أسوأ حال "قطعاً لا.. سأغادر مع أول طائرة متجهة للعاصمة يناسّا.."

قالت الفتاة وهي تجلس على كرسي آخر "لكن لا يوجد لدينا طائرات.."

نظرت إليها بي ناريا بدهشة مستفسرة، فقالت الفتاة "الوالي وجنوده هم الوحيدون الذين يستخدمون الطائرات.. ولا أظنهم سيرحبون بك عليها.."

صمتت بي ناريا مفكرة وهي تذوق القليل من الطعام لتطفئ نار الجوع في معدتها، ثم سألت "وكيف ترتحلون من مكان إلى آخر؟"

قالت الفتاة "القوافل تغادر بين وقت وآخر على ظهور التوكور.. فهو وسيلة النقل الوحيدة لدينا"

تساءلت بي ناريا مقطبة "ولم لا تملكون أي وسيلة أخرى؟ لا مركبات ولا طائرات ولا حتى عربات؟ أي حياة هذه؟"

هزت الفتاة كتفيها قائلة "سمعت والدي يقول إن الوالي أراد تجريد الثوار من كل وسيلة تساعدهم على الثورة.. لا أدري ما علاقة المركبات والطائرات، لكن الكل مقتنع أن هذا بسبب الثوار.."

صمتت بي ناريا عن التعليق والفتاة تغادر بعدما سمعت نداء أمها.. قوافل؟ هذا سيستغرق منها دهوراً لتصل إلى يناسّا.. ربما عدة أسابيع لو كانت محظوظة.. هناك إقليمان يفصلان هيمانيا عن الإقليم الرئيسي للمملكة "يانا" وعاصمته "يناسّا".. والإقليمين الواقعين في الوسط "نيما" و "سيرالدا" ليسا بالإقليمين الصغيرين..

زفرت بضيق وهي تزدرد الطعام غصباً عنها لحاجتها الشديدة له.. عليها التخطيط جيداً لخطوتها التالية..

فقضاء عدة أسابيع في الترحال سيثبت عرش مانيم أكثر وينساها الناس أو يركنوا لحياتهم الحالية تحت حكمه

مهما كانت قسوته.. يجب أن تنتزعه من عرشه مادام رخواً قبل أن يشتدّ ويتجذر..
لم تنتبه لما حولها لاستغراقها بالتفكير العميق.. ولم يقطع تفكيرها إلا صيحة حادة لصوت غليظ "ومن تكون هذه؟"
انتفضت مكانها وهي ترفع رأسها لتتطلع إلى رجل ضخم لا يختلف في قذارته عن الآخرين، العرق يغمر وجهه وملابسه ونظراته الغاضبة تكاد تقتلعها من مكانها.. فتحت فمها لتجيب لولا أنه صاح دون اعتبار لها "سياما.."
ظلت تنظر إليه باستغراب حتى حضرت المرأة منتفضة وهي تقول "ما الأمر؟ لم كل هذا الصراخ؟"
أشار الرجل إلى بي ناريا صارخاً "أعود للمنزل لأجد امرأة غريبة تأكل طعامي وتسترخي في منزلي؟ ما معنى هذا؟"
قالت المرأة مهدئة "سأشرح لك الأمر.. لقد وجدتها هذا الصباح بحال يرثى لها وقد تعرضت قافلتها للهجوم من قطاع الطرق.. وهي...."
قال بشدة "ومنذ متى كان منزلي مأوىً للتائهين؟ نحن بالكاد نجد لقمة نأكلها، فكيف نطعم غيرنا؟"
تطلعت بي ناريا إلى الطعام القليل الذي أحضروه لها باستهزاء والمرأة تجذب زوجها بعيداً قائلة "إنها تبدو بحال جيدة.. ولابد عند عودتها إلى بلادها ستكافئُنا على هذا.."
كانت بي ناريا تسمعها بوضوح، مما دلها على أن شيئاً كالكرامة لا معنى له عند هذه العائلة.. مطت شفتيها باستهزاء وهي تغمغم لنفسها "من حسن حظي أنني لم أتربى في بيئة كهذه.. لو لم يتبناني الملك، فلا أظن أنني أحب تخيل ما قد تكون عليه حياتي"
زفرت بضيق وهي تتطلع من أصيص النافذة القريبة إلى الشارع.. وتمنت أن تغادر هذا المكان بغير رجعة بأسرع ما تستطيع..
سمعت المرأة من خلفها تقول بشيء من التملق "أرجو ألا يكون زوجي قد أفزعك يا آنستي.."
قالت بي ناريا دون أن تبتسم "قطعاً لا.."
ابتسمت المرأة قائلة "زوجي سيعمل على إعادتك إلى أهلك سالمة بأسرع ما يستطيع.. فلا تخشي شيئاً"
قالت بي ناريا "أريد الذهاب للعاصمة يناسّا.. هناك أقارب لي، وهم ولا شك سيجزلون لكم العطايا إذا ساعدتموني على العودة"
بدت اللهفة في عيني المرأة وهي تصيح "لا تخشي شيئاً.. سنساعدك.. بكل ما نستطيع سنساعدك.."
وسارعت للخارج لنقل الخبر لزوجها وابتسامة تشيع على وجه بي ناريا.. هؤلاء الفقراء من السهل التلاعب بهم لمصلحتها..

****

استيقظت بي ناريا وهي تنتبه إلى أن الهدوء قد عمّ المدينة مقارنة بالصباح الصاخب، ونور الشمس المحتضرة

يغمر المكان من النافذة الوحيدة في الغرفة.. يبدو أنها غفت وهي جالسة في مكانها بعد أن هدها التعب الذي بذلته في السير في الصحراء..

نهضت من مكانها وخرجت من الغرفة تبحث عن المرأة في أرجاء المنزل لتتباحث معها عن الترتيبات التي سيقومون بها لنقلها إلى العاصمة.. كان المنزل خالياً، لكن عندما توجهت لبابه محاولة الخروج انتبهت إلى المرأة وابنتها وهما تتسارّان بهمس والفتاة الصغيرة تلعب قريباً منهما بكرة بالية..

لا تدري ما الذي دفعها لعدم إعلان وجودها وهي تحاول الإنصات لما يقال.. كانت المرأة تحمل ورقة في يدها تتأملها، والفتاة قربها تقول بهمس "أمتأكدة أنها هي؟ إنها مختلفة بعض الشيء.."

قالت المرأة بلهفة "عدا عن طول الشعر.. فهي ذاتها.. الصورة غير واضحة، لكنها تبدو بنفس الملامح.."

فقالت الفتاة "إنهم يقولون إنها فتاة هاربة من القصر في يناسّا.. لكن لا يبدو على هذه الفتاة أن لها علاقة بالقصر مع شكلها الأشعث.."

قالت المرأة مقطبة "لا ندري ما الوسيلة التي استخدمتها للوصول هنا، لكن ربما كانت هيأتها هذه إمعاناً في تضليلنا.."

وأضافت "ألم تلاحظي عند قدومها أنها كانت وحيدة؟ لو كان الأمر ناجماً عن هجوم قطاع الطرق لرأينا عدداً ممن كان معها في القافلة.. لكن لم نر أحداً خلافها.."

عادت بي ناريا أدراجها بهدوء وقد فهمت الأمر.. يبدو أن مانيم قد أدرك وجودها في هيمانيا بشكل ما ووزع منشورات تطالب بالقبض عليها، لكن هذا حدث بسرعة قياسية تعجبت له.. أسرعت إلى مطبخ المنزل وبحثت بين أدراجه عن سكين كبيرة، فتمسكت بها جيداً وهي تختبيء خلف الباب مصيخة السمع..

بعد لحظات سمعت الفتاة تقول لأمها وهما تقتربان "يجب أن نتأكد أنها لن تهرب قبل قدومهم.."

فتح الباب في هذه اللحظة فشهرت بي ناريا سلاحها وهي تقبض على أولى الداخلتين، وكانت الفتاة، وهي تتراجع قائلة بحزم "لا داعي لإثارة المشاكل أو أي محاولة متهورة.. لن أتردد في إيذاء الفتاة أبداً.."

قالت المرأة بقلق وهي ترى الذعر في عيني ابنتها "إذن أنت حقاً الفتاة الهاربة من العاصمة.. ما الذي ستفعلينه بابنتي؟"

قالت بي ناريا "هذا يعتمد على تعاونك معي.. أريدك أن تدليني على مكان القوافل.. أريد أن أغادر المدينة الليلة.. ولو تفوهت بكلمة عني فلن أرحم الفتاة.."

قالت المرأة وهي تفرك يديها "لا أظن أي قافلة ستغادر الليلة.. القوافل تغادر مع إشراقة الشمس ولا يحدث هذا كل يوم.."

بدت المرأة تماطل في الحديث مما دفع بي ناريا لتصيح بعصبية "لا يهمني.. أريد أي وسيلة للخروج من هنا.."

سمعت الفتاة الصغيرة التي دلفت من الباب في تلك اللحظة تهتف "أبي.. لقد بليت كرتي.."

استدارت بي ناريا بسرعة خلفها لكن ضربة قوية على رأسها أفقدتها الوعي على الفور لتسقط أرضاً.. بينما تناول الرجل الضخم السكين من يدها قائلاً "متى سيصل الجنود؟"

قالت المرأة وهي تربت على كتف ابنتها المذعورة "لست أدري.. لقد أبلغتهم بأمرها بالفعل.. المفترض أن يصلوا بسرعة لو كان أمرها يهمهم.."

فقال الرجل وهو يستدير عائداً إلى غرفته "إذن قيديها حتى يصلوا.. لو كنت تملكين الذكاء الكافي لفعلت هذا وهي نائمة.."

أما بي ناريا، فلم تعلم كم من الوقت بقيت في غيبوبتها، لكن عندما استيقظت شعرت بصداع عنيف في رأسها بسبب الضربة التي بدا أن صاحبها لم يحاول أن يترفق بها أبداً.. وعندما فتحت عينيها وجدت أنها مقيدة إلى كرسي في إحدى الغرف.. كانت الحبال تقيد يديها وقدميها بأجزاء الكرسي الثقيل فلم تستطع تحريكه أو تحرير نفسها..

كان الظلام قد عمّ الدار إلا من إنارة ضعيفة لمصباح جانبي، بينما بدا الشارع مظلماً تماماً من النافذة..

تململت في جلستها محاولة إيجاد مخرج لموقفها المحرج، وهي مدركة أن المرأة ولابد قد أبلغت الجنود عن وجودها في منزلها..

قطع تفكيرها سماعها لهدير المركبات التي قطعت سكون الليل وهي تقترب من المنزل لتقف قريبة منه، ولم تمض لحظات إلا والجنود يملؤون المكان وأحد الضباط يتقدم منها متأملاً وجهها على الضوء الشحيح وخلفه المرأة وزوجها.. فتساءلت المرأة بتوتر "أليست هي؟"

قال الضابط "بل إنها هي بالذات.. رغم بعض الاختلاف"

علقت بي ناريا قائلة "كل هذا الحفل للقبض على فتاة ضعيفة لا قدرة لديها للدفاع عن نفسها؟"

لم يعلق الضابط على قولها وهو يشير لأحد جنوده ليقوم بتسليم الجائزة المالية لأصحاب المنزل.. شعرت بي ناريا بالغيظ وهي ترى المرأة وزوجها يستلمان النقود من الجندي بلهفة وكأنهما قد باعا كومة حطب لتوهما.. وغمغمت لنفسها "هذان ثاني من سأمر بالقبض عليهما، بعد مانيم الوغد"

كان الجنود قد فكوا حبالها وكبّلوا يديها بأقفال إلكترونية والضابط يقول "أريد حراسة تامة.. هذه السجينة يجب أن تصل إلى قصر الوالي بأمان.."

تساءلت المرأة بفضول "من تكون هذه؟"

ركلها أحد الجنود والضابط يتجاهلها متقدماً خارج المنزل إلى مركبته الواقفة بتأهب.. وأُجبرت بي ناريا على الجلوس خلفه بين الجنود وهم متحفزون بأسلحتهم بشكل أدهشها.. حتى لو كان مانيم يرغب بالقبض عليها، فلا خطر فعليّ لها ليستنفر الجنود أسلحتهم بهذا الشكل.. فما سرّ استنفارهم بهذا الشكل؟..

بدأ الموكب الصغير المكون من ثلاث مركبات تتوسطهم مركبة الضابط طريقها إلى قصر الوالي.. فلم تصبر بي ناريا كثيراً لتقول موجهة حديثها إلى الضابط "هل تعلم من أنا؟"

قال الضابط "بالطبع أعلم.."

فقالت "إذن تعلم بالتأكيد أنني سأعود للحكم.. هذا شيء لا جدال فيه.. فلمن تعتقد أن الانضمام سيكون في صالحك؟"

أجاب بلهجة قاطعة "للملك الشرعي قطعاً"
احتقن وجهها للرد المباشر، وقالت بحدة "هذا ليس في صالحك.. أطلقني وأخفِ أمري عن مانيم.. وعندما أعود إلى الحكم، فستكون مقرباً لي وسأنقلك مع كل جنودك هؤلاء للعاصمة حيث العمل أفضل والربح أكثر.. فهل تظن أنني سأصمت لو رفضت هذا وفضّلت معاونة مانيم الخائن؟ ألا تعلم العقاب الذي سيحلّ بكل من تعاون معه ضدي؟"
قال الضابط "هذا لا يهمني لأن ما تحلمين به مستحيل.."
فتحت فمها لتعترض والغيظ يملؤها عندما فوجيء الجميع بانفجار يستهدف المركبة الأمامية جعلها تنقلب والنار تأكلها سادّة الطريق، بينما حاول قائد مركبتهم تفاديها مع صعوبة ذلك بسبب الطريق الضيق الذي يعبرونه..
وأمام عيني بي ناريا الذاهلتين، اصطدمت مركبتهم بالمركبة الأولى بعنف لتطير في الهواء وهي تنقلب مرتين قبل أن تسقط أرضاً على جنبها وتزحف لمسافة قصيرة ثم تعتدل وتسكن تماماً.. في نفس اللحظة التي تعالى فيها انفجار ثانٍ أصاب المركبة الأخيرة ليضمها لرفيقتها الأولى..
حاولت بي ناريا النهوض رغم آلامها وهي تسمع الضابط يصرخ في رجاله ملقياً تعليماته، وسمعت الرصاص يتطاير في المكان مما أجبرها على الجثو مكانها مرتجفة والخوف ينسيها آلامها، بينما تساقط الجنود حولها وهم يبادلون أصحاب الهجوم الطلقات دون فائدة.. فالنار القريبة منهم قد عطّلت أجهزة الرؤية الليلية وأصبحوا صيداً مكشوفاً للمهاجمين المختبئين في الظلام وبين المنازل القريبة، ولم تساعدهم المركبة المكشوفة في حمايتهم..
بعد مدة وجيزة كان الهدوء التام يعلو المكان.. فتحاملت بي ناريا على نفسها لتجلس مزيحة جندياً قتيلاً عنها وهي تسعل بسبب الحريق.. نظرت حولها بعينين دامعتين من الدخان المنتشر في المكان باحثة عن هؤلاء المهاجمين.. فرأت الجنود حولها قتلى ولم تجد أحداً قربها أو تسمع شيئاً، إلا تصايح بضع رجال من بعيد بلكنة هيمانية لم تفهم كثيراً منها، بالإضافة لطلقات رصاص يعلو صوتها بين حين وآخر..
حاولت النهوض واقفة لتهرب قبل أن يحضر المزيد من الجنود.. كانت تلك فرصتها، ويجب أن تستغلها قبل أن يمنعها شيء.. لكنها تهاوت أرضاً فور وقوفها وهي تشعر بألم حارق في ساقها اليمنى.. ولما نظرت إليها هلعت لرؤية الكسر الذي أصابها.. تلفتت حولها بحثاً عن سبيل للهرب، عندما رأت شبح رجل يقترب من بين الدخان بهدوء وثقة إلى مكانها.. شعرت بالهلع يتنامى في صدرها، وهي لا تعلم من يكون وما الذي قد يفعله بها، لكنها غلفت خوفها بغطاء من البرود وهي تنظر إليه بحدة وكأنها تتحداه أن يؤذيها..
لم تستطع رؤية ملامحه وهي تسمعه يصيح بصوت عالٍ "إنها هنا.."
كانت لكنته هيمانية واضحة، وصوته جهوري عميق بدا هادئاً غير مرتبك لما يحدث في هذا المكان.. وقد تجاوز الجثث القريبة وحطام المركبة ليركع قربها قائلاً "مرحباً.."
استطاعت رؤيته بشيء من الوضوح عند اقترابه منها وهي تتراجع بتحفز.. كان يكبرها بست أو سبع سنين على الأقل.. أسمر البشرة ككل الهيمانيين، بشعر كثيف فاحم اللون.. عيناه سوداوان اكتستا بثقة بدت لها أقرب

للغرور وهما تنظران إليها بثبات، بينما على شفتيه ابتسامة ساخرة وكأنه يستهين بكل ما جرى حولها..
وقبل أن تتفوه بكلمة وهي تنظر إليه بتوجس، قال لها "هيا بنا.. يجب أن نبتعد عن هذا المكان.."
سألته بتحفز "من أنت؟"
أجاب وهو يتفحص ساقها المكسورة "بم يمكن أن يفيدك ذلك؟"
وتركها فجأة إلى موضع قريب ثم عاد حاملاً قطعتين خشبيتين مستقيمتين، وأسرع يعالج كسر ساقها بشكل مؤقت بأن وضع القطعتين على جانبي ساقها وربطهما بقطعة قماشية طويلة انتزعها من ثياب أحد الجنود القتلى.. بينما بي ناريا تعضّ على شفتيها متحملة الألم أقصى ما تستطيع وهي تجد التعبير عن آلامها مذلاً..
وبعد أن انتهى بحث في جيوب جثة الضابط حتى وجد مفتاح القفل الإلكتروني ليحرر يديها منه.. عادت بي ناريا تسأله بلهجة آمرة "أخبرني من أنت.. وما الذي تريدونه مني؟"
فقال وبسمته الساخرة تتسع "لو كنت تظنين أن الدنيا ستصبح أسعد حالاً عندما تعرفين هويتي، فسيخيب ظنك كثيراً.."
لكن قبل أن تعترض بحنق فوجئت به يحملها بذراعيه القويتين بسرعة شهقت لها، ثم صاحت آمرة "أنزلني.. لا يحق لك أن تتصرف كما تشاء"
قال لها وهو يركض مبتعداً عن المكان "ألا تريدين الهرب من الجنود؟ أم أنك تظنين ساقك المكسورة ستطير بك قبل مجيء الإمدادات؟"
قالت وقد اغتاظت من سخريته "قلت لك أنزلني.. ستندم إن لم تفعل"
قال مقطباً "هل كنت ابنة عائلة نبيلة في يوم من الأيام؟"
انتفضت وهي تقول بقلق "لا.. كلا لم أكن.."
فقال بهزء "إذن كفي عن التصرف كواحدة.."
اشتعلت غيظاً بشكل لم تعهده وهي تجد نفسها غير قادرة على التحكم بأعصابها، لكنه قال بصوت خفيض مقطباً "صه.. إنهم قادمون.."
واختبأ في زقاق جانبي مظلم وهي تسمع وقع أقدام الجنود المميزة وهم يتراكضون نحو المركبات المحطمة.. ثم وجدته يركض في ذلك الزقاق بخطوات واثقة وهو يتجنب لمس قدمها المكسورة أو تحريكها بعنف لئلا يثير ألمها، ورغم ذلك فقد بدأ العرق ينضح من جبينها وهي تضغط على أسنانها محاولة كتم آلامها المتزايدة.. حتى وصلوا إلى طريق مسدود، فأطلق الرجل صفيراً محدوداً لتجد رجلاً آخر يظهر فوق الجدار الذي يسد الممر والذي كان بارتفاع قامة الشخص العادي.. رفع الرجل بي ناريا ليناولها للآخر قائلاً "انتبه.. ساقها مكسورة.."
وجدت بي ناريا نفسها تنتقل من يد ليد بخفة وسهولة ليحملها الآخر بخطوات واثقة سريعة فوق الجدار الضيق وهي تقول مخطوفة الأنفاس بقلق "سنسقط.. كن حذراً.."
لم يعلق الرجل والآخر يتبعهما بخفة حتى هبطا في حديقة أحد المنازل حيث التقى بهما رجلان آخران وأحدهما يقول "لقد جاءت فرقة من الجنود لا تتجاوز العشرين رجلاً.. سنتخلص منهم مع بقية الرجال.. عودا أنتما

بالفتاة إلى الوكر قبل أن يعثر عليها أحد.."
قال الرجل الذي يحملها "سأبقى معكم.. فلا أود العودة الآن وتفويت تتمة الحفل.. خذها أنت وأسرع بالعودة دون إبطاء"
وأعادها إلى الرجل الذي أنقذها أول مرة مما جعلها تصيح ووجهها يحتقن غضباً "أنزلوني الآن.."
قال لها الذي يحملها "أتودين السير؟"
بدت سخريته واضحة في صوته وهو يركض مغادراً المنزل متخذاً طريقاً يحفظه عن ظهر قلب.. فقالت بثورة "أن يجدني الجنود الآن خير لي من أن أتحمل هذه المهانة.."
قال الرجل بهدوء "لا أحد يهينك.. نحن نسعى لإنقاذ حياتك من المصير الذي قد تلاقينه لدى الجنود.. اصبري قليلاً وستتخلصين من كل ما يزعجك"
صمتت على مضض وهو مستمر في ركضه لزمن طال، ثم سمعته يغمغم "اقتربنا.."
كانا لا يزالان وسط طرقات المدينة لم يغادراها، عندما فوجئت به يتوقف فجأة مختبئاً خلف جدار وهو يغمغم بحنق "تباً.. إنهم يملؤون المكان.. لا يمكننا الدخول عبر هذا المدخل"
واستدار متخذاً طريقاً آخراً عابراً عدة منازل، قبل أن يقف قرب باب أحدها ويطرقه طرقة مميزة متلفتاً حوله بتوتر.. بعد لحظة فتح الباب قليلاً ليظهر من خلفه وجه رجل حذر، ولما رآهما فتح الباب سامحاً لهما بالدخول وهو يهمس "ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هذا ليس الوقت الملائم لهذا"
قال الرجل الذي يحملها وهو يدلف معه إلى المنزل "الجنود يسدّون المدخل إلى الوكر.. لا أستطيع الانتظار إذ يبدو أنهم يمشطون المنطقة بحثاً عنا"
قال الرجل الثاني بتوتر "أجل.. إن الدوريات مكثفة والجنود انتشروا في المكان.. أخشى أن يطرقوا الباب بغية تفتيش المنزل وأنتم هنا.."
ثم نظر إلى بي ناريا مغمغماً "أهذه هي؟"
أجاب الرجل الأول "أجل.. نجحنا في القضاء على الجنود جميعاً وتهريبها قبل أن يحضر الآخرون.. لكنني الآن عاجز عن إيصالها إلى الوكر، وعاجز عن الذهاب إلى المداخل الأخرى فالشوارع تبدو مراقبة بكثافة"
قادهم الرجل الثاني إلى إحدى الغرف حيث وجدت بي ناريا نفسها تجلس على سرير متواضع والرجل الأول يقول "أرجو أن تتحملي الألم قليلاً.. سنرسل في طلب طبيب ليعالج كسر ساقك"
قالت بقلق "طبيب؟ لا.."
قال بسرعة "إنه طبيبنا.. لن يفشي سرك أبداً.. اطمئني"
لم تلمح في صوته السخرية المعهودة، فنظرت إلى وجهه لتراه بوضوح لأول مرة.. عندها أجفلت لمرأى جرح غائر طولي يحتل خده الأيسر حتى ذقنه.. لاحظ الرجل ردة فعلها لمرآه، فابتسم بسخرية وهو يغادر غير عابيء بها..
نظرت بي ناريا إلى يديها محاولة تناسي منظر وجه الرجل الذي اقشعر بدنها له.. كانت طوال عمرها تعيش في قصر، لا ترى إلا الوجوه الوسيمة الناعمة المرفهة.. لا ترى أي شيء يمكن أن يشوه هذه الصورة.. لذلك ساءها

أن ترى منظراً يخالف ذلك..

أزاحت تلك الأفكار من عقلها وهي تفكر في ما حدث حولها.. من هم هؤلاء؟ يبدون مشتركين في المؤامرة التي حدثت للجنود، وكأنهم عصبة واحدة.. لماذا ساعدوها؟ هل يعرفون من هي؟ قطعاً لا.. إذن لماذا يعرضون أنفسهم للخطر بهذه الصورة؟.. لأجل أي هدف يسعون؟.. بل والأهم.. ما مصيرها هي معهم؟..

****

الفصل الخامس:

المتخفية

عن الانتحال

..

والمخططات

..

والوكر السري

..

مضى وقت طويل وبي ناريا تغالب آلامها وهي في الغرفة الساكنة.. اختفى الآخران ولم تجد لهما صوتاً في المكان مما أصابها بتوجس.. وبعد أن يئست من الانتظار رأت الرجل الذي أنقذها يدلف الغرفة مع آخر يرتدي عوينات دائرية ووجهه ليس خشناً كوجوه بقية من رأتهم، يبدو متوتراً وقلقاً وهو يقول "أنت متأكد أن الجنود لم يلمحونا؟ لا أريد أن أفاجأ بهجومهم علينا ليقبضوا عليّ معكم"

قال الرجل الأول بابتسامة "لا تخش شيئاً.. المكان آمن في هذه اللحظة.. عالجها بسرعة كي نعيدك إلى منزلك وتهدأ نفسك"

اقترب الرجل الذي أدركت أنه الطبيب يتفحص ساقها المكسورة، وبي ناريا تلاحظ أن الآخر لم يغادر الغرفة وهو يقف قرب الباب يراقبهما.. وكأنه يتأمل ما يحدث باستمتاع.. فأشاحت ببصرها عنه محنقة وهي تكظم ألمها وغيظها طوال المدة التي قضاها الطبيب في علاجها.. ولما انتهى وجدت بي ناريا أن ساقها قد غطتها مادة صفراء يابسة كأنها الصخر والطبيب يقول "يجب أن تبقى هكذا حتى تلتحم عظامها.. سآتي كل يوم لإعطائها مسكناً عن الألم ولأتفحص ما حدث لساقها.."

سألته بي ناريا بقلق "أأنت واثق أنها ستصبح بخير؟ كيف تكون متأكداً من علاجك دون أن تفحصها بأجهزة متخصصة؟"

قال الطبيب "هذا هو كل ما بوسعي فعله.. الذهاب للمستشفى مستحيل.."

فقال الرجل الأول "سنغادر قريباً إلى المكان المعهود.. وسآتي لأخذك هناك كل يوم"

صمت الطبيب متوتراً وهو يجمع عدته بعد أن حقن بي ناريا بمسكن للألم، ثم غادر متمتماً "تذكر ألا تأت إليّ إلا في جنح الظلام.."

غادر الطبيب مع الرجل بصمت تاركين بي ناريا جالسة وهي لا تجرؤ حتى على الاستلقاء في سريرها في هذا المكان الغريب رغم تعب جسدها.. لم تكن قد اطمأنت بعد إلى هؤلاء الرجال وهي حتى لا تعرف أسماءهم.. وتصرفاتهم تبدو لها غامضة مريبة.. ماذا يريدون حقاً منها؟

عندما أشرقت الشمس في اليوم التالي، دلف الرجل إلى الغرفة ليجد بي ناريا جالسة في سريرها تنظر من النافذة التي سمحت لنور الشمس بالتغلغل في الغرفة الباردة.. ولم تنتبه لقدومه حتى سمعته يقول "أمازلت مستيقظة؟ ظننتك قد نمت.."

قالت ببرود دون أن تنظر إلى وجهه "ما من شخص عاقل يستسلم للنوم في معقل أشخاص لا يعلم إن كانوا أعداءه أم أصدقاءه"

فقال وهو يرخي الستائر على النافذة حاجباً النور والأعين "أعلم أن الجنود يبحثون عنك، وأن مانيم الوغد قد جنّد الجميع للعثور عليك.. لكن أن تعتقدي أن الجميع يعادونك لمجرد أنك أنت؟.. هذه مبالغة كبرى أن تجعلي لنفسك هذه الأهمية.."

قالت بغيظ لم تستطع السيطرة عليه "من تظن نفسك لتخاطبني بهذه الطريقة؟"

قال هازاً كتفيه "أنا هو أنا.. لست أظن نفسي شيئاً أكبر مما هي عليه.. لكن السؤال هو من أنت حقاً؟ لماذا تتصرفين بهذه الطريقة المتعالية دائماً؟ وما الذي يغري مانيم بمطاردتك بهذه الصورة؟ لا أعتقد أن دوافعه هي الإعجاب فقط.."

زفرت بي ناريا بحنق وهي تقول "كونك قد أنقذت حياتي لا يجعلني مدينة لك بأي شيء.. أنا لم أطلب منك فعل ذلك، ولست مجبرة للإجابة عن أي أسئلة"

فقال "مادمت تعترفين أنني أنقذت حياتك.. فأقل ما تفعلينه هو الشكر.. أليس كذلك؟"

أشاحت بوجهها وهي تزفر صامتة، فضحك بسخرية وهو يقول "لم أتوقع أقل من هذا.."

وغادر الغرفة قائلاً "سنبقى هنا لهذا اليوم.. والليلة، سنهرب مستغلين الظلام إلى الوكر.. عندها سيتضح كل شيء"

لم تعقب بي ناريا بكلمة وهي تقبض على يديها بشدة.. الوكر؟ سمعت هذه الكلمة كثيراً.. ما الذي يعنيه بها؟ وكر من؟ ولم صنع؟ هل من الملائم لها أن تصمت على ما يخططه لها؟ أم الأسلم أن تهرب منه قبل أن تكتشف أنها كانت مغفلة للاطمئنان إليه؟.. لكن كيف؟ لازالت ساقها تؤلمها، ولا يمكنها الهرب بجبيرتها أبداً.. كما أن حالتها لا تسمح لها بالهرب من الجنود إن اكتشفوا وجودها.. إذن هي مجبرة على الاستسلام لهؤلاء الرجال، وهم كما يبدو لا يلاحقون عنقها مهددينها بالقتل.. هو استسلام مؤقت، حتى تكتشف نواياهم، وحتى تصبح في حال قادرة على الهرب..

****

ظلت بي ناريا طوال النهار وحيدة في غرفتها، لا ترى أحداً إلا صاحب المنزل الذي كان يحضر لها طعامها.. وحاولت أن تقاوم وتظل مستيقظة تتأمل ما حولها منصتة لأدنى صوت قد يصدر.. لكن سرعان ما تهاوت من الألم والتعب وغرقت في نوم أقرب إلى غيبوبة حتى أظلم المكان..

ورغم تعبها وتضعضع عظامها، نهضت بي ناريا جالسة فور سماعها لصوت خارج الغرفة، وتلفتت حولها في الغرفة المظلمة.. عندها رأت الرجل ذو الجرح على خده يدلف إلى الغرفة وهو يقترب منها قائلاً "هل استيقظت؟ سنرحل الآن، قبل أن يبدأ حظر التجول المفروض على المدينة وتبدأ الدوريات بالانتشار"

تساءلت مقطبة "هل سنسير في الشارع بدون تغطية؟"

قال وابتسامة سخرية ترتسم على شفتيه "نسير؟ تقصدين أسير.. فكل ما عليك فعله هو الصمت التام حتى آخذك إلى الوكر وأفرغ من شأنك"

ثم رمى إليها بمعطف وقبعة، وقد ألصق في القبعة من الداخل شعراً متوسط الطول أشقر اللون.. ليبدو للناظر إليها أن لابس المعطف يملك شعراً أشقراً مقصوصاً بغير عناية.. كانت وسيلة ضعيفة للتغطية.. لكن بي ناريا لم تعلق وهي ترتدي المعطف رغم تقززها إذ يبدو مستعملاً.. وأخفت شعرها سامحة للشعر المستعار بالظهور

بدلاً عنه..
أبدى الرجل استحسانه وهو يتقدم ويهمّ بحملها، لكنها دفعته بأقوى ما تستطيع قائلة من تحت أنفاسها الغاضبة "إياك أن تلمسني.."
فقال مقطباً "هل ستسيرين غير عابئة بما سيحدث لساقك المكسورة؟"
صاحت بغضب "سأفعل ذلك.. أءتني بعكاز وسأسير على ساقي السليمة.. وإن كنت مستعجلاً حقاً فاتركني أذهب في شأني.. أستطيع تدبر أموري جيداً"
حملها غصباً وهو يقول "بودي ذلك.. لكنها الأوامر"
صاحت وهي تدفعه عنها "أنزلني أيها الوغد.."
قال بحدة وغضب "كُفِّي عن هذا.. عليك تقدير الموقف الذي نحن فيه"
أجفلت لنظرة عينيه الغاضبة التي زادها جرح خده توحشاً بشكل أخافها، فأشاحت بوجهها كاتمة اعتراضها وخوفها وهو يخرج بها من المنزل بعد أن أعطاه صاحبه إشارة الأمان.. كان الاستياء يغمرها ممزوجاً بالغضب.. طوال عمرها، لم يجسر أحد في القصر، بخلاف والديها ومانيم المرشح ليكون زوجها، على لمس يدها دون إذن.. لذلك كانت تشعر بالمهانة أن تتداولها الأيدي بهذه الطريقة وكأنها بضاعة وضيعة.. ورغم كسر ساقها، لم تجد لهذا الرجل العذر لما يفعله بها، رغم أنها مدركة أنه لا يعرف هويتها الحقيقية.. ساورتها رغبة بكشف شخصيتها أمامه لتستمتع برؤية ذهوله وتواضعه أمامها، لكنها في ثانية واحدة تخلت عن هذه الفكرة وهي واثقة في نفسها أن رجلاً كهذا لن يتواضع أمامها مهما كانت شخصيتها..
وجدت أنهما عبرا عدة طرقات مستترين في الظلام عن الأعين المتشككة للمارة الذين أخذوا يسرعون إلى منازلهم قبل بدء حظر التجول الذي اقترب موعده..
وعندما وصلوا إلى زقاق خلفي مهجور تملؤه النفايات، اقترب الرجل من فتحة للمجاري في جانب المكان وأنزلها أرضاً، ثم رفع غطاء المجاري بسهولة رغم ثقله تاركاً إياه في موضع قريب.. وقال لها "لا يمكنني حملك والنزول عبر هذه الدرجات الرأسية في آن واحد وإلا سيدق عنقينا معاً.. تمسكي بي جيداً حتى نصل للأسفل.."
اعترضت بحدة "لا يمكن.. هذا ما لن أفعله أبداً"
لكن نظرة غاضبة من عينيه جعلتها تجفل ثم تشيح بوجهها بعيداً بصمت، فأولاها ظهره سامحاً لها بالتعلق برقبته بكلتا يديها.. وما إن فعلت حتى سارع للنزول على السلالم الحديدية داخل الفتحة دون أن ينسى إعادة الغطاء إلى مكانه محيلاً المكان إلى ظلام دامس.. كان الارتفاع طويلاً جعل بي ناريا تتساءل بقلق "ألن نسقط من هذا الارتفاع؟"
لم يجبها الرجل وهو يواصل الهبوط بشيء من البطء بسبب ثقليهما، وبي ناريا تشعر بآلام في يديها لكونها تحمل ثقلها بهما وهي تخشى السقوط وإيلام ساقها من جديد.. وبعد مدة طالت وجدت أنهما وصلا أرضاً، عندها سمح لها بالتخلي عنه، وقال وهو يناولها القبعة التي سقطت من على رأسها أثناء الهبوط "بقيت مسافة غير قصيرة حتى نصل.. أتريدين أن أحملك أم أنك تستطيعين تدبر أمرك هنا؟"

قالت على الفور دون أن تهتم بأمر القبعة "سأتدبر أمري طبعاً.."
غالبت تقززها من المكان وهي تستند بيدها على الجدار وتحاول السير رغم الآلام التي اعترت ساقها المكسورة، ثم وجدت الرجل يضحك بصوت عالٍ وهو يعلق على مرآها "لا تقلقي.. لدينا كل الوقت فالجنود لن يبحثوا عنا هنا.. فلا داعي للاستعجال"
غالبها غيظ شديد وهي تدرك أنه يسخر من بطئها في السير، ثم وجدته يسرع في طريقه في الظلام وهو يقول "نحن بانتظارك.. لا تتأخري"
صاحت بحنق "إلى أين تذهب وتتركني في هذا الظلام؟ ألا تملك ما تنير به المكان على الأقل؟"
لم تسمع منه إجابه وصوت خطواته يختفي.. فقالت بغيظ متزايد "الأحمق.. هل يظنني سأسرع خلفه مطيعة إلى مكان لا أعرفه؟"
حاولت السير في الاتجاه المعاكس، لكنها عجزت عن ذلك مما دفعها لتجلس أرضاً وهي تتأفف بضيق.. كان البرد في هذا المكان الذي لم تقترب منه أشعة الشمس الدافئة أكثر مما قد يتحمله جسدها، فضمّت ثيابها إلى جسدها أكثر وهي تغمغم "أين معطفي الدافئ المصنوع من أفخر فراء في الكوكب كله؟ بل أين ذهب كل ذلك النعيم والثراء الذي كنت أرفل فيه؟ تباً لك يا مانيم.. سأذيقك أضعاف ما أذقتني إياه في هذه الأيام.."
لم يمض وقت قصير، حتى سمعت صوت خطوات تقترب من حيث اختفى الرجل، فأشاحت بوجهها عالمة أنه لابد قد عاد قلقاً بعد تأخرها.. وعندما اقتربت الخطوات منها سمعت صوتاً مغايراً يقول "ها هي.. هارولان الأحمق قد تخلى عنها بكل إهمال"
ظلت تنظر إلى الرجلين اللذين اقتربا متوجسة، ووجدت أنهما يحملان محفة بدائية الصنع قرّباها منها وأحدهما يقول "لقد أحضرناها لننقلك بسرعة إلى الوكر.. فلا نريد إيذاء ساقك المكسورة أكثر من هذا"
لم تحتج بي ناريا لسؤالهما عن هويتهما، فقد أدركت دون جهد أنهما جاءا بأمر من الرجل ذو الجرح كما تسميه.. طاوعتهما صامتة بالانتقال إلى المحفة، ثم وجدت أنهما رفعاها بيسر وحثا السير وأحدهما يقول "المسافة ليست طويلة.. سرعان ما نصل وهناك ستجدين من يعتني بك"
تساءلت بحذر "إلى أين نحن ذاهبون؟"
أجابها رافعاً حاجبيه "إلى الوكر طبعاً.. ألم يخبرك هارولان بهذا؟"
تساءلت "أي وكر هذا؟ لا علم لي عن أي شيء"
قال بدهشة لغباءها "وكر الثوار طبعاً.. ظننت هذا مفهوماً"
ظلت في صدمة للحظات وهي تشك في ما سمعته، ثم غزاها الارتباك ودقات قلبها تتعالى وهي تنظر للأمور بنظرة جديدة.. الثوار؟ أهم ذاتهم من ثاروا على أبيها الملك مطالبين بالحكم الذاتي؟ أهم من أذاقوا ولاته الويل في الإقليم ولم يفلح أحد في كسر شوكتهم إلا مانيم؟ ما عرفته من مانيم إثر رحلته الأخيرة أنه قضى عليهم قضاء تاماً.. أكانوا يخدعونه ويخدعون الجميع مستترين منتظرين الفرصة للانفجار من جديد؟..
غلبتها قشعريرة وهي تتخيل ما قد يفعلونه بها لو علموا أنها الملكة بي ناريا ذاتها.. عندها لن يكون مانيم هو

الوحيد الذي يسعى خلف رأسها.. وستعود لدوامة الهرب من جديد..
ظل عقلها يعمل بسرعة محمومة لإيجاد منفذ لما قد تمر به وهي تراهم يتنقلون في شبكة المجاري الأرضية المعقدة بكل يسر.. ثم وجدت أنهم أصبحوا يسيرون في ممر أصغر وأقل قذارة وإن بدا عليه أنه صنع بشكل مرتجل وسريع.. وفي نهاية الممر الذي بدا لها طويلاً، دلفوا إلى غرفة صغيرة كالحة المنظر ومنها إلى قاعة أكبر حجماً قليلاً وفيها عدد من الرجال وقليل من النساء كل منشغل بعمله.. وتناثرت كراسٍ قديمة المنظر في القاعة وعدد من الطاولات الخشبية الباهتة اللون عليها أوراق ومعدات مبعثرة بدون ترتيب..
ساد الصمت المكان والكل يتطلع إليها بفضول، بينما اتجه بها الرجلان إلى زاوية معينة في القاعة حيث يجلس رجل أكبر سناً بعض الشيء وقد بدا من تحلق الرجال حوله أنه رئيسهم.. وإن لم يبدُ ذا أهمية ومنظره لا يختلف عنهم في شيء..
لم يقل الرجل كلمة وهو يشير لهما ليتبعاه، فسار بهم عبر القاعة إلى غرفة أخرى لا تقل عن غيرها في الإهمال وعدم الترتيب.. في جانبها سرير صغير مقارنة بما تعرفه عن الأسرة الفاخرة الشاسعة في القصر، فوضعها الرجلان بالمحفة على السرير، فيما جلس الرجل على كرسي قريب يتأملها وهو يشير للرجلين بالرحيل..
ظلت بي ناريا تنظر إليه بمزيج الضيق والتحدي.. كانت تحاول إثبات مكانتها وإشعارهم بعدائيتها منذ البداية، لتكسب نقطة واحدة لصالحها.. رسالتها واضحة، وهي "أنتم لا تستطيعون لمسي بسوء.. فلا تحاولوا ذلك أبداً.."
لم يَغِبْ هذا الأمر عن الرجل الذي بدا رئيسهم وهو يقول لها وشيء يشبه الابتسامة على شفتيه "لا داعي لكل هذا العداء البادي في عينيك.. لو كنا نرغب بأذيتك لما اضطررنا لإحضارك إلى هنا.."
لم تعلق أو تبدي حركة، فعاد يقول "من أنت بالضبط؟ ولماذا يجنّد مانيم كل هؤلاء الجنود للقبض عليك وإعادتك للقصر؟"
قالت بغير انفعال "وما الذي يجبرني على الإجابة على هذه الأسئلة؟"
قال بابتسامة "لقد ضحينا بالكثير لإنقاذك من الجنود.. خسرنا ذخيرة تعتبر الأغلى بعد حياة رفاقنا.. عرضنا أنفسنا للخطر، وعرضنا وكرنا للكشف بإحضارك إليه.. لذلك إن لم يكن لديك ما تستطيعين مقايضته بما تكلفناه لأجلك، فعلى الأقل استجابتك لنا هي أقل ما تستطيعين فعله"
قالت بتحدٍ "وإن كنت ناكرة للجميل ولا أهتم بما تبرعتم بدفعه دون طلب من أحد؟ لا أذكر أنني توسلت لك ولرجالك لإنقاذي.. بل لاستطعت إنقاذ نفسي دون التدخل من أحد.."
تنهد الرجل وهو يتأمل وجهها المتحدي، ثم قال "هل يكفيك أن نعرض حمايتنا ورعايتنا مقابل أجوبة من عندك؟ أعتقد أن رميك في المدينة مجدداً بهذه الساق المكسورة ليس بالأمان الذي تنشدينه.."
ظلت صامتة متشاغلة بتأمل الغرفة وهي تقلب الأمر في ذهنها.. لا يبدو أنهم تعرفوا فيها الملكة مع هذا التنكر، وربما لم يكن وجهها مألوفاً في هذه الأجواء، أو أن أمر هربها إلى هنا لم يصل إلى مسامعهم بعد.. لكن مع ذلك بقاؤها هنا فيه مخاطرة كبيرة لن تزول حتى تعود للقصر..

صمت الرجل احتراماً لصمتها، ثم وجدها تتساءل "لماذا أنتم مهتمون بأمري لهذه الدرجة؟ ما الذي ستفعلونه لو أنني كنت فتاة لا أهمية لها؟ قد أكون مجرد لصة هربت ببعض كنوز القصر، أو قد أكون أهنت مانيم إهانة بالغة دفعته للبحث عني والانتقام.."

ضحك الرجل بقوة وهو يعلق "أتمزحين؟ ما تقولينه لا يمكن أن يكون صحيحاً.. ما يفعله الجنود في المدينة منذ يومين، والملصقات التي نُشرت، والمكافأة التي وضعت لأجل أقل معلومة عنك لا تدل على أن مانيم يحمل ضغينة شخصية تافهة تجاهك.. لا تستهزئي بي أكثر من هذا رجاءً.."

قالت مقطبة "هذا لا يدل على ما قد يهمكم في شيء.."

علق قائلاً "وما أدراك؟ كل ما يمكنني تأكيده أنك قادمة من العاصمة، ومن القصر بالتحديد.. سواءً أكنت من النبلاء أو وصيفة أو حتى عاملة في المطبخ أو الاسطبل، فإننا نعرف كيف يمكنك إفادتنا بشكل لا يقدر غيرك عليه.. لا يهمنا ما فعلته، ولن يكون هذا عقبة في رعايتنا وحمايتنا لك.. لكننا لسنا هيئة خيرية ولا نهوى حماية العامة خصوصاً ممن لا ينتمون إلى هيمانيا.."

لم تجادله في شيء وهي تدرك أن هذا بغير فائدة، فزمّت شفتيها بتفكير وهو يضيف "حسناً.. لا أريد أن أبدو قاسياً بالضغط عليك بهذه الطريقة.. سأتركك هذه الليلة لتفكري ملياً في الأمر.. أنت تحتاجين حمايتنا، ونحن نحتاج ما تملكينه من معلومات قد تفيدنا بأي شكل من الأشكال.. وغداً صباحاً سأسمع ردك على أسئلتي، سواءً بالرفض أو الإيجاب.."

وسألها وهو يقف "هل أنت جائعة؟"

همّت بالرفض بكبرياء عندما قال وهو يغادر "لا داعي للإجابة.. وجهك يفضح ذلك بدون كلام.."

قطبت بضيق وهي صامتة، ألهذه الدرجة تردّى بها الحال؟ صحيح أنها لم تذق طعاماً يذكر وقد عافت نفسها أشكال الطعام الرديء الذي لا طعم له ولا رائحة ولا شكل مبهر كالذي تعودته منذ طفولتها.. كما أن الأواني القذرة التي قدّم فيها الطعام لم تكن مشجعة أبداً.. لكن هذا لا يعني أن يظهر جوعها بشكل جليّ على وجهها..

دلفت في تلك اللحظة فتاة باسمة لا تصغرها بالكثير وهي تحمل عكازاً قائلة "مرحباً.. أنا سوبي.. هل تستطيعين السير باستخدام هذا العكاز؟"

نظرت إليها بي ناريا متسائلة، فقالت سوبي "يجب أن أنقلك إلى غرفة أخرى كي تحظي بقسط من الراحة.. هذه الغرفة قريبة من القاعة التي تضجّ بصراخ الرجال والمكان ليس بالنظافة التي قد تُرضي امرأة.."

حاولت بي ناريا النهوض باستخدام العكاز، وببطء سارت محاولة تفادي الضغط على ساقها المكسورة.. كانت خطواتها قصيرة بطيئة تتطلب جهداً كبيراً وقد رفضت معاونة سوبي لها.. وفي النهاية، بعد أن اجتازت ممرات أخرى وأبواباً كثيرة والدهشة تملؤها لوجود هذه المساحة الكبيرة كمخبأ تحت الأرض، وصلت إلى غرفة متوسطة الحجم أكثر ترتيباً وإن كانت تبدو لعينيها لا تختلف في قذارتها عن أي مكان آخر..

جلست بعد جهد على أحد السريرين الموجودين في الغرفة وسوبي تقول لها "لن يزعجك أحد هنا.. وسأعمل على توفير كل مساعدة تحتاجين لها هذه الليلة.. سآتيك بعد قليل بالطعام.."

وخرجت دون أن تعلق بي ناريا على قولها بغير اهتمام واضح.. وقرب الباب، رأتها بي ناريا تحدث الرجل ذو الجرح والذي يبدو أن اسمه هارولان.. لم تخطيء النظرة التي ألقاها عليها والتي بدت لها ساخرة، لكن لدهشتها، لم يلقِ عليها تعليقاً سخيفاً هازئاً من تعليقاته التي لا هدف لها إلا إثارة ضيقها، بل ابتعد مع سوبي ليسود الهدوء المكان.. ففكرت عاضّة شفتها السفلى، هل تشكوه إلى رئيسه غداً كنوع من الانتقام، وهو أقل ما يستحقه؟ أم تتجاهله وكأنه لم يكن؟.. كان هذا أوقح رجل عرفته، حتى بعد أن أصبحت هاربة بلا منصب ولا هيبة، فلم يعاملها أي رجل بهذه الوقاحة والسخرية..

تنهدت وهي تستلقي في سريرها وتغمض عينيها محاولة أخذ قسط من الراحة وإن منعها عقلها من هذا وهي تبحث عن طريقة لتنفذ بجلدها من غضب الثوار الذي تتوقعه.. ولما اتخذت قرارها، فإنها غرقت في النوم العميق فوراً وقد ارتاح عقلها من دوامة أفكاره..

****

في اليوم التالي، وهو ما قدّرته بي ناريا بالنظر إلى ساعة معلقة في الجدار، فالنور لا يتسلل إلى أي مكان في هذا المخبأ، اجتمع بها رئيس الثوار في الغرفة الأولى.. كان المكان صامتاً كالقبر، مما دفعها للتساؤل بتشكك "أين الجميع؟"

ابتسم الرئيس مجيباً "الجميع نيام كالأموات بعد سهر البارحة.. فالثوار كالثعالب، تنام نهاراً وتنشط ليلاً ولا يمكن خداعها.."

كان هذا تلميحاً لها بعدم الكذب، لكنها لم تخف من هذا وهي تقول له "أنت أردت معرفة هويتي وسبب ملاحقة مانيم لي.. لكن ما الذي يضمن لي وفاءك بوعدك وحمايتي؟ قد تقطع عنقي فور أن تحصل على ما تريد من معلومات"

قال على الفور "لا أملك ضماناً إلا كلمتي.. إن كنت ذا عون لنا، فنحن لن نؤذي من يسدي لنا خدمة أبداً.."

ظلت صامتة بضيق، ثم قالت بتردد "حسناً.. يبدو أنني لا أجد وسيلة أفضل من تجربة وعودكم.."

ابتسم لها الرئيس صامتاً، فقالت بعد تنهيدة قصيرة "أنا في الواقع كنت أعمل في القصر كوصيفة للملكة الأم ذاتها، واسمي جوين.. لقد حاولت تهريب الملكة بي ناريا، بأمر من الملكة الأم.. وعندما فشلت الخطة وكشف أمري سارعت بالهرب من القصر.. لقد قتل مانيم كل من تعاون في هذه العملية وفررت أنا بصعوبة.."

تسائل الرئيس "وأين بي ناريا الآن؟"

لاحظت بضيق أنه لم يلقبها بالملكة أو أي لقب آخر، لكنها قالت بغير أن تظهر ذلك "لازالت في القصر.. تحت قبضة مانيم"

عاد يتساءل "وما الذي يدفعه لملاحقتك بهذا الشكل حتى هيمانيا؟"

قالت بابتسامة جانبية "كي لا أعاود المحاولة مرة أخرى.. إنه يخشى أن تهرب بي ناريا بأي طريقة.. ويخشى

من تهديدها لعرشه الزائف.."

ظل الرئيس يفكر وهي صامتة بانتظار رده، ولما طال صمته تساءلت "لقد علمت كل شيء عني، فما المساعدة التي تتوقعها مني؟ بم يمكن أن أفيدكم؟"

قال الرئيس وهو يقف "هناك مرحلة جديدة نعتزم الدخول فيها.. ونحتاج لكل من يعرف ولو أمراً بسيطاً عن العاصمة والقصر.. أي شيء قد يفيدنا"

قالت بحذر "هل تعتزمون الذهاب إلى العاصمة؟"

ابتسم وهو يقول "أجل.. ألم أقل لك إنها مرحلة جديدة؟"

صمتت وهي تراه يبحث في الغرفة صامتاً، ثم رأته يحضر أوراقاً تحمل رسماً للعاصمة يناسبها التي تملك تخطيطاً مميزاً لا يمكن أن تخطئه العين.. فقال لها "هل أنت مستعدة لمعاونتنا؟ نحن نضمن لك الحماية، ونضمن أن نخلصك من مشاكلك بشكل أبدي.."

نظرت إليه بتشكك متسائلة "وكيف تستطيعون ذلك؟"

اتسعت ابتسامته مجيباً "سنسقط مانيم.. طبعاً.."

دهشت لإجابته الواثقة جداً، ورغم أن هدفهم هذا يصبّ في صالحها، إلا أنها سألت السؤال الذي كانت تود معرفته منذ الأزل "ما الذي بينكم وبين ملك المملكة عموماً ومانيم خصوصاً؟ قاربت ثورتكم على إكمال عقد كامل دون نجاح يذكر إلا في زيادة بؤس الإقليم، فلماذا لا تستسلمون وترضون بالانضواء في حكم المملكة كبقية الأقاليم؟"

رغم هدوء الرئيس إلا أن عينيه التمعتا ببغض وهو يقول بصرامة "نستسلم؟ هل لديك أي علم بما يحدث في هيمانيا منذ عقد كامل؟"

لم تجبه وهي تستمع له بفضول وهو يضيف "هيمانيا إقليم صحراوي.. يعيش سكانه حياة قاسية وأجواءً صعبة، لكن كل هذه كانت مصاعب يمكن تخطيها بوجود الكميات الهائلة من البلور المدفونة تحت الرمال.. لقد تم اكتشاف العديد من المناجم في بعض المناطق الصخرية من الإقليم، وكما يقول الخبراء فإن ما بقي تحت الأرض أضعاف ما تم اكتشافه.. ألا تعلمين أي راحة ورغد يمكن أن يتمتع بهما شعبنا من استثمار هذه المناجم؟"

قالت بي ناريا بتعجب "أعلم هذا بالطبع.. الكل يعلمه.. لكن هل تطمحون للاستيلاء على المناجم كلها لكم والانفصال بسببها عن المملكة؟ ألا توفر لكم المملكة الأمان وتساعدكم على التطور مقابل جزء يسير من موارد المناجم؟"

ضحك الرئيس بشيء من الهزء قائلاً "بالفعل.. المملكة لا تطالب الإقليم إلا بجزء يسير من موارد المناجم، لكن ما تبقى منها يصبّ كله في جيب الوالي وحاشيته.. ومع قدوم مانيم، أصبح هناك جيب جديد جشع استهلك كل ما تبقى من استثمارات المناجم تاركاً الشعب بفقره وجوعه.. ألا يكفي شظف عيشنا ليزيدنا جشع ولاتنا بؤساً؟"

قالت بي ناريا مقطبة "ولماذا لم تلجأوا للشكوى لدى الملك الراحل؟ أنت تعلم أنه رجل عادل ما كان ليرضى بظلم

كهذا؟"

ابتسم الرئيس قائلاً "وماذا تعتقدين أننا كنا نطمح إليه بثوراتنا هذه؟ نريد من يسمعنا.. من يحاول إنقاذ شعبنا.. لقد أرسَلَت جميع العشائر في هيمانيا رُسُلاً إلى الملك منذ زمن طويل، لكن الولاة على اختلافهم كانوا يعترضون وصولنا إلى الملك وإلى يناسّا ذاتها بمعاونة رفاقهم فيها وبرشاوي ضخمة من خيرات هيمانيا.. ولما فاض الكيل بنا بدأنا هذه الثورة لعلها تجذب لنا الأبصار والآذان.. لكن الملك السابق، كما بي ناريا، تعامى عن كل هذا وهو يعالج مشاكلنا بمشكلة أكبر.. مانيم، الذي فور وصوله للإقليم، بدأ حملات واسعة من القتل والتشريد والتنكيل، ناهيك عن السرقات التي تتم في وضح النهار وبثقة شديدة.. فهل تظنين بعد كل هذا أن ثورتنا لا داعي لها؟"

صمتت بي ناريا مقطبة وهي تفكر في حال هذا الإقليم والرئيس يضيف وهو يقف "نحن ماضون في أمرنا، بمساعدتك أو بدونها، لكن نرجو ألا تكوني ممن أغمضوا عيونهم وصكّوا آذانهم عن صرخات شعب هيمانيا.."

أدركت أنه ينهي حواره معها، فاستدارت بشيء من المشقة عائدة إلى غرفتها.. لقد أدركت أشياء كثيرة كانت غافلة عنها.. ورغم ضيقها بما وصفه أبيها وهي معه، لكنها عرفت أي طريق ستختار، وأي قرار سيقودها مباشرة إلى عرشها السابق..

****

تعالى صراخ مردين في إحدى الغرف في القصر وهو يصيح في جهاز الاتصال "أفلتت؟ كيف يمكنها أن تفلت من كتيبة كاملة من الجنود؟"

أجاب الطرف الآخر الذي لم يكن إلا الوالي على هيمانيا "لست أعرف التفاصيل.. أرسلت ثلاث مركبات لإحضارها من وسط المدينة، ولما انقطع الإرسال بيننا وبينهم أرسلت فرقة أخرى لاستطلاع الأمر، فوجدوا المركبات الثلاث قد تحطمت والجنود فيها قتلى.. ونحن نبحث عنها في المدينة منذ يومين.."

صرخ مردين "يومان؟ لماذا لم تبلغني بأمرها على الفور؟"

قال الوالي "لم أرغب بإبلاغك إلا بالأخبار السارة.. لكني متشكك في ما حدث.. هناك من تدخل وعاون الفتاة على الهرب.. لا أعتقد أنها وحدها تقدر على فعل هذا.."

قال مردين بغيظ "معاونة ممن؟ إنها غريبة في المدينة بلا أقارب أو أعوان.. كيف استطاعت الهرب من جنودك الأغبياء هؤلاء؟"

قال الوالي "أرجح أنها لقيت معاونة من بقايا الثوار.. نحن نعلم أنهم لا يزالون موجودين في المدينة رغم أننا لم نستطع الإمساك بهم.. ومادامت تحظى باهتمام من العاصمة فبالتأكيد سيسعون للاستفادة منها في النيل منا.."

زفر مردين بضيق والوالي يتساءل "ما الذي سنفعله الآن؟"

صاح مردين بغضب "نفعله؟ تقصد ما الذي ستفعله أنت بعد فشلك الذريع هذا.. الآن، أريدك أن تبذل جهداً أكبر في البحث عنها.. نقّبوا تحت كل صخرة وخلف كل شجرة في تلك المدينة البائسة.. لا أريد أن تأتني بخبر سخيف آخر بعدم قدرتك على إيجادها.."

وأنهى الاتصال بعنف وهو يستدير مغادراً الغرفة بخطوات غاضبة.. وما إن غادرها حتى كاد يصطدم بالمستشار الذي تنحّى من طريقه بصمت، فسأله مردين بتشكك "ما الذي جاء بك إلى هذا المكان أيها المستشار؟"

قال المستشار بهدوء "أرسلني الملك للاتصال بوالي سيرالدا في موضوع مهم.."

تنحّى مردين من طريق المستشار وهو يحدجه بنظرات متشككة وكأنه يودّ لو يصرخ في وجهه "أنت كنت تتنصت أيها الوغد.."

لكن المستشار لم يظهر ارتباكاً أو اهتماماً بما يدور في المكان وهو ينطلق لأداء عمله، بينما غادر مردين وهو يغمغم في سريرته "يجب إقصاؤك من هذا القصر.. فما أنت إلا سوسة تنخر في أمننا في المدينة.. يجب أن يتخذ مانيم إجراءً حازماً بشأنك أيها العجوز.."

****

أشارت بي ناريا إلى الخارطة الخاصة بيناسّا قائلة "يناسّا لها عشرة أبواب.. كل باب تحرسه فرقة من الجنود تتراوح بين العشرة والعشرون.. والدخول إليها سهل لو مررنا من أمامهم دون أن نثير الشكوك.. المدينة مقسمة إلى عدة أحياء كبيرة، وكلما اقتربنا من الوسط كلما ازداد سكانها غنىً، وازدادت الدوريات في الشوارع التي تبقى ساهرة حارسة سكان وأمن يناسّا.."

وتناولت مخططاً آخر مرسوم بغير ترتيب للقصر الملكي وهي تضيف "القصر يقع وسط المدينة، على ربوة عالية، وله خمسة أبواب منها واحد رئيسي.. والبقية تؤدي لمرافق القصر المختلفة.. لا أستطيع الجزم كم من الجنود يحرسون كل باب، لكن يمكن القول إنهم بين الخمسة والعشرة جنود.. وكل باب....."

قاطعها صوت بسخرية "يمكن القول...؟!"

نظرت إلى هارولان بحنق دون أن تعلق.. كان الرئيس يجتمع بها مع جماعة محدودة من الثوار، ولسوء حظها كان هارولان من بينهم.. أكملت وهي تتجاهل تعليقه "كل باب مجهز ليؤدي مهاماً معينة، وسأشرح هذه المهام بالتفصيل لتتمكنوا من اختيار الأنسب للتسلل إلى القصر.."

ثم أضافت بضع خطوط في التصميم وهي تقول "الممرات ينتشر فيها أيضاً عدد غير محدد من الجنود.. هذه قاعة الحكم وفيها ما يقارب العشرة جنود، ولا يمكن الدخول إليها إلا بإذن حتى بالنسبة للعاملين في القصر.. وقربها غرفة المستشار الخاصة بأعماله.. هناك عدد كبير من الأجنحة في القصر.. وهذا هو الجناح الملكي الذي أعتقد أن مانيم قد أقام فيه بعد توليه العرش.."

سمعت هارولان يعلق "تعتقدين؟ ألست متأكدة من شيء أبداً؟.."
صاحت بغيظ "ما الأمر؟ هل تهوى التعليق على كل شيء بسخرية؟"
قال الرئيس "صمتاً يا هارولان.."
قال هارولان معترضاً "لكنها لا تمنحنا معلومات حقيقية.. كل ما أدلت به معلومات غير مؤكدة ولا تفيدنا في شيء.."
قال الرئيس "مهما يكن، لا داعي للمقاطعة.."
صمت هارولان تماماً وبي ناريا تعود لتشرح باقي أجزاء القصر وأركانه.. رغم أنها تحفظ أجزاء القصر بشكل تام، ورغم أنها أشرفت بنفسها على توزيعات الجنود في القصر وترتيب مهامهم مع قائد الجند، لكن الإدلاء بمعلومات دقيقة لابد سيثير شكاً في شخصيتها.. ليس من الطبيعي أن تلمّ وصيفة بكل أمور القصر إلماماً تاماً.. كما أنها لم ترغب في إلقاء جميع ما تملك من معلومات دفعة واحدة كي لا تنتفي حاجتهم لها ومن ثم يتخلون عنها.. كانت تريد أن تمضي في مخططها معهم بخطى مدروسة لتحصد النتائج التي تطمح إليها..
في اليوم التالي، أوكل لها الرئيس إعادة رسم مخطط القصر بدقة أكبر، فانكبت على الأوراق أمامها في القاعة وحيدة وهي تحاول رسم القصر من منظور الوصيفة.. لم تبح لهم بأمر الممرات السرية التي لابد ستقلب الأمور تماماً، وسترجح كفة الثوار بقوة خاصة وأن مانيم كما يبدو لا يعلم عنها شيئاً.. فضّلت أن تكون هذه هي ورقتها الاخيرة، ويجب أن تحسن اللعب بها..
دلفت إحدى الفتيات الى القاعة حاملة بعض الأوراق وضعتها جانباً وتلفتت حولها، ثم سألت "أين الرئيس؟"
أجابت بي ناريا باقتضاب "لا أعلم.."
سمعتا في تلك اللحظة أصواتاً قادمة من الممر المؤدي إلى الخارج، ولم يلبث رجلان أن دخلا إلى القاعة يتبعهما هارولان.. لاحظت بي ناريا انفراجاً في أسارير الفتاة على الفور وهي ترمق هارولان قبل أن تعترض طريقه وتندمج معه في حوار خافت بينما غادر الرجلان.. وبعد لحظات غادرت الفتاة بدورها ووجهها يشع سروراً بينما تأففت بي ناريا وهي تغمغم في سريرتها "يا لتفاهة هاته الفتيات.."
لاحظ هارولان تأففها فعلق "هل تنجزين رسماً للقصر الملكي؟"
لم تعلق بي ناريا وهي مستمرة في عملها، فأضاف "أرجو أن يكون رسمك متقناً، فلسنا بحاجة لأي معلومات تقريبية.."
لعب الحنق برأسها فقالت غاضبة "ما الذي تريده مني بالضبط؟ هل تظنني كنت رئيساً للحرس الملكي أم مستشاراً للملك؟ أي معلومات تعتقد أن مجرد وصيفة في القصر قد تلم بها؟"
قال وهو ينحني تجاهها "معلومات تكفي لتبرير المخاطرة التي بذلناها لأجلك.."
قالت بهزء "لا أذكر أنني توسلت لكم لذلك.."
لم يعلق على هذا وهو يقول "اسمعي.. أنت تظنين أننا حمقى.. لكنني أعلم أنك تخفين الكثير.. في عقلك ما يكفي من المعلومات لتيسير الكثير من أمورنا.. لكنك لا تفصحين عنها بالقدر الكافي.."

قالت مخفية قلقها "أنت تهذي.."

فقال "بالعكس.. أنا أجيد قراءة العيون.. وعيناك تفصحان الكثير.."

أشاحت بوجهها بعيداً لتسمعه يضحك ويقول "ابذلي جهداً أكبر في المرة القادمة.."

وغادر تاركاً إياها ترتجف غيظاً وقلقاً.. هذا الرجل يثير أعصابها.. هي متأكدة أنه لا يعرف شيئاً عنها ويكتفي بإلقاء الأحجار جزافاً باحثاً عن ثغرة، لكنها تخشى هذا.. تمنت لو يفلح جنود مانيم بالقبض عليه لينزاح عن طريقها في هذه الفترة، رغم قسوة هذه الفكرة.. كانت كل أمورها مع الثوار تسير بسلاسة تامة، ولا يفسدها إلا وجوده الذي تبغضه بشدة..

****

الفصل السادس:

الغاضبة

عن الثورة

..

والغضب

..

والألم الحقيقي

..

سارت بي ناريا بشيء من العسر عبر ممرات الوكر بحثاً عن رئيس الثوار.. بعد أسبوع من التخطيط، مازالت تحركات الثوار مبهمة بالنسبة لها.. لا تجدهم يتأهبون للسفر إلى العاصمة كما خططوا ولا يقومون إلا بعمليات محدودة في هيمانيا.. وهذا ما تستغربه.. فما الداعي لاستمرار العمليات في المدينة مع أنهم سيغادرونها قريباً؟ ألا يعني القضاء على مانيم انتهاء مشاكل هيمانيا كلها؟..

عندما اقتربت من إحدى الغرف رأت الرئيس وهارولان مع رجل آخر يتحدثون بصوت خفيض، مما جعلها تلقائياً تقف قرب الباب متنصتة ملاحظة أنهم لم ينتبهوا لصوت عكازها.. كان الرجل يقول "رغم كل ما بذلناه، مازال الجندي يصرّ أنها مجرد فتاة ولا يعرف هويتها الحقيقية.. لا يبدو أن أحداً يعلم من تكون سوى الوالي.. وهذا مما يدعو للدهشة.. لم هي محاطة بكل هذه السرية؟"

قال هارولان "لا أعتقد أن لهذا علاقة بكونها وصيفة.. هناك أمر آخر يخفى علينا.. وهذا ما حذرتكم منه.."

قطبت بي ناريا بقلق وهي تسمع الرئيس يقول "هذا ما لا أعرف كيف أتبينه.. وجودها معنا فيه خطورة لو تبين لنا أنها مدسوسة علينا.. لكني لا أستطيع أن أتعامل معها بشدة فهي مجرد فتاة.. وليس من أخلاقنا إيذاء فتاة.."

علق هارولان "لكني أؤكد لكم أنها تخفي الكثير.. نظراتها الحذرة والمتنبهة لما يجري في الوكر لا تطمئن أبداً.. هناك سر تخفيه عنا وأنا لن أهدأ....."

سمعت بي ناريا في تلك اللحظة صوتاً خلفها يقول بحده "ما الذي تفعلينه؟"

التفتت خلفها مجفلة لتجد رجلاً من الثوار ينظر لها بتشكك، ثم جذبها لتدخل إلى الغرفة وسط نظرات البقية المندهشة.. فقالت بي ناريا بحدة وهي تجذب يدها "أبعد يدك عني.."

سمعت هارولان يقول "هذه نقطة أخرى ليست في صالحك يا فتاة.."

قالت بجفاء "من الطبيعي أن أتنصت عندما أسمع اسمي يتردد بهمس في المكان.. هذا فعل طبيعي خاصة أنني لا أعرفكم حقاً.."

قال الرئيس "ألن تفصحي عن هويتك الحقيقية لنا؟.. لا أريد المزيد من الشكوك أن تثار حولك، فعملنا الحساس لا يجعلنا نتعامل بأريحية مع من نشك فيه.."

أجابت "أنا كما قلت لكم.. وصيفة في القصر حاولت مساعدة بي ناريا على الهرب.. وهذا ما أثار حفيظة مانيم ضدي.. ما الذي لا تصدقونه في كل هذا؟"

تبادل الثلاثة النظرات الصامتة، ثم قال الرئيس "حسناً.. لن نرغمك على قول المزيد.. لكني أتمنى أن تتوقفي عن التصنت على ما يدور في الوكر.. فلا أريدك أن تثيري حنق الرجال عليك.."

استدارت بي ناريا شامخة برأسها وخرجت من الغرفة قاصدة العودة إلى غرفتها، رغم أنها لم تكن تستطيع السير بسرعة بسبب جبيرتها.. لم تكن تريد إثارة المزيد من الشبهات حولها، لكنها لم تستطع منع نفسها من محاولة معرفة ما يدور خلف ظهرها، خاصة مع هؤلاء الثوار الذين لا تأمن جانبهم..

قبل أن تبلغ الغرفة، انتبهت إلى من يسير خلفها، فلم تلتفت وهي تدلف غرفتها وتغلق الباب خلفها، لكنها فوجئت بهارولان يدفع الباب قبل أن تغلقه.. فيدلف خلفها مغلقاً باب الغرفة عليهما.. تراجعت بي ناريا قائلة بهجوم "ماذا تريد؟"

اقترب هارولان منها متسائلاً "أحقاً أنت وصيفة؟ ألا تخفين ما هو أكثر من ذلك؟"

قطبت معلقة وهي تتراجع "أما اكتفينا من هذا الاستجواب؟ هل أرسلك رئيسك إلي لتكمل ما لم ينهِ هو؟"

قال هارولان وهو يمسك ذراعها بقوة ليمنعها من التراجع "لست بحاجة لأمر من أي أحد.. الوصيفة لا تتعامل بالغطرسة التي لا تحاولين إخفاءها.. الوصيفة من عامة الشعب، مهما طال عملها في القصر، ولن تتحلى بهذا الكبرياء والغرور الذي لا تخفيه عيناك.."

صمتت بي ناريا وهي لا تستطيع إخفاء النظرة المتحدية من عينيها، فأضاف "من تكونين حقاً؟ ألست من العائلة الحاكمة في يناسّا؟"

غمرتها نفضة خفيفة وهي تقطب دون أن تبعد بصرها عنه، فلم تفته تلك النفضة وهو يقول "أخبرتك أنني لن أهدأ حتى أكتشف ما تخفينه.. هل ستعترفين أم اتخذ معك تصرفاً آخر؟"

أجابت بعصبية "لا يهمني ما ستفعله، أنا مجرد وصيفة ولن أكذب وأدعي أنني شخص آخر.. إن كنتم لا تصدقونني فدعوني أرحل.. أنتم تزعجونني بما فيه الكفاية.."

ظل هارولان مثبتاً نظراته عليها وهي تحاول التماسك أمامه، وإن ازدادت نفضة جسدها بشكل جعله يفلتها ويزفر متخللاً شعره بيده قبل أن يقول "ستظهر الحقيقة يوماً.. وأتمنى ألا نكتشف أنك على صلة ببي ناريا.."

وغادر تاركاً إياها تجلس على سريرها عاضة شفتيها.. لو اكتشفوا أمرها الآن.. لو عرفوا حقيقتها كملكة لا كوصيفة.. فما الذي قد يفعلونه بها؟.. نبرة هارولان وهو ينطق اسمها جعلت قشعريرة تسري في جسدها لا تدري سببها.. فتنهدت وهي تستلقي وتضع ذراعها على وجهها متسائلة في سرها إن كانت أمورها ستمضي على خير مع الثوار حتى تعود للعرش.. أم أن عليها تدبير خططها الخاصة بعيداً عنهم..

****

رغم مرور ما يقارب الأسبوعان على بي ناريا وهي برفقة الثوار، إلا أنها لم تألف وجودها بينهم ولم تتآلف معهم بعد.. ظلت تقيم الحواجز بينها وبينهم وزادتها تصرفات هارولان، الذي ما فتيء يسخر من كل ما تقوله أو تفعله، بعداً عنهم.. وحتى في قاعة الطعام التي يجتمعون فيها عادة كانت تجلس في جانب المكان منعزلة وتأكل ما تستطيعه من طعامهم الذي تراه خالياً من الشكل والطعم واللذة.. لكن لا يفوتها أثناء ذلك رؤية تهافت بعض الفتيات لخدمة هارولان وتقديم ألذ الطعام إليه وكأنه ملك غير متوج، مما يزيدها حنقاً واستنكاراً.. ما الذي يرينه في هذا الرجل الجلف والذي لا يكف عن السخرية والضحك طيلة النهار؟.. وفي الليلة التي جلست سوبي قريباً منها عند تناول العشاء، قالت بي ناريا بشكل عرضي "ما الذي يجعل الفتيات يتنافسن على اهتمام هارولان

بهذه الطريقة؟ إنه ليس رئيساً للثوار ولا حتى نائباً له.."
قالت سوبي مبتسمة "ألا تحبين المنافسة؟"
قالت بي ناريا معترضة "وهل تريننني أركض خلفه؟ لكني أتعجب من تدافع الفتيات حوله بشكل أحمق.. ألا يجدن عملاً أفضل من هذا؟"
هزت سوبي كتفيها معلقة "كل من تنظم للثوار تجد نفسها منجذبة إليه بشكل خاص.. شخصيته، وهيئته، ومكانته بين بقية الثوار.. من حسن حظهن أنه الآن أرمل.."
تساءلت بي ناريا بدهشة "أرمل؟"
أجابت سوبي "هذا كان منذ زمن بعيد.. يبدو أن أباه قد أجبره على الزواج من ابنة عمه التي بالكاد قد تجاوزت مرحلة الطفولة، وذلك بعد فقدانها لعائلتها، حتى تظل في رعاية هارولان.. لكنها كانت تعاني من المرض وما لبثت أن توفيت قبل أن تكمل الخامسة عشر من عمرها.. هذا الأمر يزيد من شعبيته ويجعل الفتيات يتعاطفن معه أكثر.."
غمغمت بي ناريا وهي تراه يتبادل حديثاً ضاحكاً مع جماعة من الرجال "ويبدو أنه يستمتع بهذا.."
علقت سوبي قائلة "أؤكد لك أنه لا يهتم بأمرهن البتة.. أكاد أجزم أنه لا يفرق بين إحداهن وأخرى.. لكن كل منهن تمنّي نفسها بأنها مختلفة.."
سألتها بي ناريا "وأنت؟"
ابتسمت سوبي مجيبة "أنا أعتقد أن هذه الألعاب الطفولية التي يمارسنها لن تجعله يحبني بالتأكيد.. لو أنه أبدى اهتماماً خاصاً بي فلن يكون هذا لأنني اعترض طريقه كل صباح.. وأنا متأكدة أنك مقتنعة بالمثل.. أليس كذلك؟"
قالت بي ناريا معترضة "أؤكد لك أنه لا يحتل أي حيز من اهتمامي.."
لم تعلق سوبي بكلمة وهي تتناول طعامها بصمت، بينما تشاغلت بي ناريا بتقليب الطعام أمامها وهي تفكر فيما قالته سوبي.. ودون أن تنتبه وجدت عيناها تعودان تلقائياً جهة هارولان، فقالت سوبي بخبث "رغم إنكارك، فعيناك تفضحانك.."
هتفت بي ناريا "قلت لك إنني لا أبالي به.."
جذب هتافها بعضاً ممن جلس قريباً منهما، فخفضت بي ناريا صوتها وهي تقول بغيظ "لا تطلقي الأحكام مرة أخرى دون دليل"
ضحكت سوبي معلقة "مهما كان اعتراضك، فانا أجد في عينيك انجذاباً واضحاً للأرمل الوسيم.."
نظرت لها بي ناريا بغيظ، من أين استنتجت هذه الفتاة شيئاً كهذا؟ غمرها الضيق من هذا الاتهام مما جعلها تدافع عن نفسها مشيحة بوجهها "وسيم؟ لا أرى أمامي أية وسامة.. الجرح في خده يؤذي بصري كلما وقع عليه.. بالإضافة إلى أنه عادي الملامح ربما أقرب إلى بربري منه إلى رجل وسيم كالذين كنت أراهم في العاصمة.."

قالت سوبي وابتسامتها تتسع "حقاً؟.. ربما بربريته هذه هي ما تجعله وسيماً حقاً، لا كالوسامة الناعمة لأولئك الرجال الأقرب إلى فتيات في العاصمة.. كما أن بعض الفتيات هنا يرين جرح هارولان جذاباً أكثر منه منفراً"
نظرت إليها بي ناريا باستنكار، ثم قالت وهي تقف وتستدير بأنفة مبتعدة دون أن تنهي طعامها "أنا لا أحب الرجال الهيمانيين.. في الواقع وجوههم منفرة كثيراً ولكنتهم تخدش مسامعي.. لن أتعود على مرآهم أبداً"
وغادرت وعكازها يضرب الأرض وسط نظرات البقية، وسوبي تتبعها متسائلة بضيق "هل هذا يعني أنك تكرهين لكنتي؟ لم أكن أعرف أنك متعصبة لسكان العاصمة كثيراً"
قالت هازة كتفيها "عشت طوال عمري هناك ولم أحتك إلا بسكانها.. لذلك فكل ما هو ليس مألوفاً بالنسبة لي أجده منفراً.. ولا أعنيك أنت بذلك فعلاً.."
لم يغادر الضيق سوبي مما أشعر بي ناريا بأنها تصرفت بتعالٍ أكثر مما ترغب بإظهاره مما قد يثير الشكوك حولها، فرققت لهجتها وهي تغتصب الجملة التالية من حلقها قائلة "أنت صديقتي الوحيدة.. فكيف تكونين كذلك إن كنت أكرهك بأي شكل من الأشكال؟"
ابتسمت سوبي وبدا التفسير يروقها، بينما صمتت بي ناريا مبتلعة تعاليها وهي تنظر إلى الفتاة.. كانت تأنف من مصادقة الفتيات كما فعلت دائماً، لكنها شعرت أن نثر الكره من حولها لن يعود عليها بفائدة وهي بحاجة لعون هؤلاء الثوار بشدة.. لذلك كان عليها التغاضي عن بعض التنازلات التي عليها تقديمها..

****

جلست بي ناريا في سريرها بانتظار الطبيب الذي أخبرتها سوبي أنه قادم لمعاينتها.. كان قد مر عليها أسبوعان تقريباً منذ كسرت ساقها، قضتهما في الإجابة على أسئلة رئيس الثوار، وانتظار انتهاءهم من ترتيباتهم وخططهم المزمعة للإطاحة بمانيم.. كان الهدوء يعمّ المكان بشكل مريب بعد أن غادر أغلب الرجال لأداء مهامهم الموكلة إليهم، بينما انشغلت النساء بتحضير طعام العشاء في المطبخ البعيد عن غرفتها..
بعد فترة طالت أو قصرت، وجدت بي ناريا الطبيب يدخل صامتاً وهارولان يتبعه متسائلاً "هل سيطول الأمر؟ يجب أن أعيدك إلى منزلك وأنطلق في عملي بأسرع وقت"
قال الطبيب "يجب أن أزيل هذه المادة من ساقها.. وهذا سيتطلب بعض الوقت.."
لم يعلق هارولان أو بي ناريا بكلمة بينما انهمك الطبيب في خلع المادة الصفراء من حول ساق بي ناريا، وتأكد من التحام عظامها بشكل سليم وبي ناريا تتطلع لما يفعله بصمت.. بينما وقف هارولان قرب الباب يتأمل ما يجري.. شعرت به يطيل النظر إليها دون أن تجرؤ على الالتفات إليه محتفظة ببرودها وإن شعرت بضيق شديد.. مجرد وجوده قريباً يجعلها بحالة من الضيق والتوتر لم تعهدها من قبل، ولا تملك لها تفسيراً إلا أن شخصيته بغيضة أكثر مما قد تستطيع تحمله..
بعد أن انتهى الطبيب من عمله نهض ململماً عدته وهو يقول "لقد أصبحتِ على أتمّ ما يرام.. لكن انتبهي لكي

لا تتعرض ساقك للطمة قوية أخرى.. فلا تزال أضعف حالاً من الأخرى.."

وخرج من الغرفة دون أن تشكره بي ناريا بكلمة.. لكن هارولان لم يتحرك من موقعه وهي تتجاهله بشكل تام، حتى سمعته يقول بهزء "سمعت أنك لا تحبين اللكنة الهيمانية..!"

قالت مقطبة "سوبي قالت لك ذلك؟"

هز كتفيه مجيباً "هي أبدت ضيقها من الأمر فقط"

فقالت "أجل.. لا أطيق هذه اللكنة.. أبغض وقعها على مسامعي"

ضحك بشكل فاجأها وهو يعلق "ما كان عليك المجاهرة بذلك.. الهيمانيون يفخرون بلكنتهم ويأنفون من التحدث بلكنة ناعمة مائعة كأهل العاصمة.."

قالت بغير اهتمام "كل له وجهة نظره"

ثم أضافت بحذر "ما الذي أخبرتك به سوبي أيضاً؟"

قال بخبث "وما الذي يهمك فيما قالته؟"

رفعت رأسها قائلة "يهمني ألا تنقل الكلام الزائف على لساني.. هذا كل ما في الأمر"

قال بابتسامة متسعة وهو يبتعد "أنا واثق أنه لم يكن زائفاً.. واثق تماماً"

احمر وجهها وهي تتخيل ما قد تكون سوبي قالته له.. لقد صوّر تفكير سوبي البسيط لها أن بي ناريا واقعة في هوى هارولان.. فهل أخبرته بذلك؟ تأففت محاولة تمالك ضيقها وإحراجها مما قد يدور في ذهن هارولان عنها.. هل سيظنها مدلهة في حبه؟ رأت سوبي تدلف الغرفة في تلك اللحظة قائلة بابتسامة "رائع.. أصبحت طليقة الآن.."

قالت بي ناريا بحنق "ما الذي أخبرته لهارولان؟"

بدت سوبي متفاجئة وهي تقول بتردد "أنا؟"

قالت بي ناريا "أجل.. لقد عرف منك أنني أكره اللهجة الهيمانية.. فما الذي أخبرته عني غير ذلك؟"

قالت سوبي وقد بدا الإحراج على وجهها "لم أقصد أن أشكوك إليه.. لقد كنت متضايقة جداً وهو سألني عن السبب.. هذا كل ما في الأمر"

سألتها من جديد بضيق "ماذا أخبرته غير ذلك؟"

قالت سوبي بسرعة "لا شيء.. هذا كل ما دار بيننا"

فقطبت بي ناريا مغمغمة "لكنه أوحى لي بغير ذلك.."

قالت سوبي مبتسمة "لابد أنه كان يغيظك فقط.. يحلو لهارولان أن يستثير سريعي الغضب مثلك"

زمّت بي ناريا شفتيها بضيق حانق وهي تترك سوبي الحائرة مغادرة الغرفة.. تباً لهؤلاء الاثنين.. لقد جعلاها تنشغل في أمور تافهة وهما يلهوان بمشاعرها.. لكن هذا لن يتكرر حتماً.. لن يتكرر أبداً..

****

تعالت الطرقات على باب ذلك المنزل في وسط المدينة، وبعد لحظة انتظار فتح الباب ليظهر من خلفه رجل يحمل وجهه قلقاً وتوتراً اشتعلا على الفور وهو ينظر إلى الرجلين اللذين سارعا بالدخول إلى داره وأحدهما يقول "جيد أنك هنا.. حظر التجوال قد بدأ والدوريات تملأ المكان.."

قال الرجل بقلق شديد "ما الذي جاء بكما إلى هنا؟ سيثير وجودكما الآن شكاً كبيراً والشكوك تدور حولي بالفعل.."

قال أحد الرجلين "منذ ظهور تلك الفتاة غدا الجنود مسعورون أكثر وهم يشددون حظر التجول ويعتقلون كل من يخالفه ولو لوقت قصير.. لو حاولنا العودة إلى المقر في هذه الأجواء فسينكشف أمرنا ولاشك ويقع الجميع في خطر.."

قال صاحب الدار وهو ينظر من النوافذ المسدلة الستائر "بالفعل.. لقد صارت الدوريات أكثف والقوانين مشددة أكثر وهم يكررون أن من يعاون تلك الفتاة مصيره الموت ولاشك.."

علق أحد الرجلين الآخرين "أتظنان أنها حقاً وصيفة؟ هذا لا يتطابق مع كل الإجراءات المتبعة للقبض عليها.."

غمغم الآخر "من يدري؟ هذا ما تصرّ هي عليه، والجنود رفضوا البوح بشخصيتها في بحثهم عنها"

تعالت في تلك اللحظة طرقات قوية على الباب بشكل أجفل له الثلاثة، ثم أسرع صاحب الدار إلى النافذة لينظر من فرجة في ستائرها، وسرعان ما همس بانتفاضة "إنهم الجنود.."

هبّ الرجلان واقفين وأحدهما يهمس بشحوب "تباً.. ما هذا الحظ السيء؟"

أسرع صاحب الدار يدفعهما قائلاً "اختبئا في إحدى الخزائن.. قد يكتفون بإلقاء بعض الأسئلة ولا يفتشون الدار كلها"

قال أحد الرجلين مقطباً "هذا تصرف أحمق.. اختباؤنا سيدل على أننا نخفي شيئاً ويثير الشك حولنا إن قام الجنود بالتفتيش.. فلنجلس بهدوء ونخبرهم أن حظر التجول منعنا من العودة لديارنا ففضلنا المبيت عندك هذه الليلة"

تعالت الطرقات بعنف أشد مع نداء الجنود، فقال صاحب الدار زافراً "لا بأس.. سأفتح لهم ونرى ما سيفعلونه" وبعد أن تلا بضع صلوات صامتة، فتح الباب لتظهر أمامه فرقة من الجنود يتقدمها أحد الضباط الذي قال وهو يدلف إلى المنزل "ما الذي أخّرك كل هذا الوقت لتفتح الباب؟"

غمغم صاحب الدار ببضع كلمات مبهمة وهو يفرك يديه بقلق، فيما دلف بقية الجنود بإشارة من الضابط لينتشروا في الدار ويبدأوا تفتيشهم، فيما بقي جنديان مع الضابط مشهرين سلاحيهما بتهديد.. عندها قال صاحب الدار بقلق "ما الداعي لكل هذا يا سيدي الضابط؟ ما الذي يجعلكم تفتشون داري بهذه الطريقة؟"

قال الضابط متجاهلاً سؤاله "من هذان؟"

قال صاحب الدار "صديقان لي.. كانا قادمين لزيارتي عندما ابتدأ حظر التجوال ولم يستطيعا العودة لديارهما.."

صمت الضابط يتأملهما بتمعن، ثم عاد إلى صاحب الدار وسأله فجأة "أين الفتاة؟"
بهت الرجل وهو ينظر إلى الضابط بنظرة فيها شيء من الغباء.. ثم قال بكلمات متقطعة "الفـ... الفتاة؟ أية فتاة؟ أنا لا..."
قاطعه الضابط بصرامة "الفتاة التي لجأت إلى منزلك ليلة كاملة قبل أسبوعين.. الفتاة التي قلبنا المدينة كلها رأساً على عقب بحثاً عنها.. الفتاة التي سيطير عنقك إن لم تسلمها لنا حالاً.."
قال الرجل بارتجافة أكبر "أنا لا علم لي عن أي فتاة تتحدثون.. أنا أعيش وحدي كما ترون، ولم أفعل أي شيء يخالف القانون"
قال الضابط وهو يدور حوله "لا داعي للإنكار.. نحن كنا نعرف أنها لجأت لشخص ما في هذه المدينة.. لكن لم نعلم من هو.."
فقال الرجل بشيء من الأمل "إذن ما الذي يجعلكم تشكّون فيّ بالذات؟"
قال الضابط وهو يحدجه بنظرة حادة "استجوبنا الكثيرين من المناطق القريبة من الحادث الذي أصاب الفرقة التي تم تكليفها باستعادة الفتاة.. ومنهم أحد السكان في هذه المنطقة.. وبعد التحقيق العنيف معه، اعترف بأنه رأى رجلاً يحمل فتاة غريبة ويدلف إلى هذا المنزل، وهو يعلم أن هذا منزل رجل وحيد.. ثم يخرج بها بعد يوم بنفس السرية.."
شحب وجه الرجل بدون تعليق، فيما أضاف الضابط "في البدء ظن الأمر مجرد عبث.. لكن بعد التعميمات التي نشرت بحثاً عن الفتاة، ومع الاشتباه بتورطك مع الثوار، فإن هذا كان دليلاً قاطعاً على أنك أنت من خبأ الفتاة ليلة الحادث، وأنت من ساعد على تهريبها لتنضم إلى الثوار.."
هتف الرجل "هذا كذب.. ذلك الرجل يحاول إلقاء التهمة عليّ ليدرأها عن نفسه.."
تلقى لكمة من أحد الجنود ألقته للوراء مسببة ذعراً لرفيقيه، بينما أضاف الضابط وهو يجلس في جانب المكان قائلاً "لا داعي للإنكار.. نستطيع التوصل لما نريد معرفته مهما طالت مقاومتك.."
عاد بقية الجنود وأحدهم يقول "فتشنا المنزل بدقة سيدي ولم نعثر للفتاة على أثر، كما أن المنزل لا يحوي أي مخابيء سرية أو ممرات تؤدي للخارج.."
فقال الضابط وهو يتأمل الرجل بنظرة حادة "أحيطوا المنزل كله وامنعوا أحداً من التدخل.. لن أغادر هذا المكان قبل أن أحصل على ما أريد.."
انطلق الجنود لتنفيذ أمره.. بينما ارتجف الرجال الثلاثة وهم يتبادلون النظرات المرتعبة، ويحدقون في الأسلحة الموجهة تجاههم.. دون أن يعلم أحدهم أتنتهي هذه الليلة على خير أم أن ليلهم سيطول..

****

نهضت بي ناريا من سريرها بعد انتصاف النهار بقليل.. كانت قد سئمت من البقاء في الغرفة وحيدة بانتظار

استدعاء الرئيس لها، والذي لا يبدو أنه سيحدث في وقت قريب.. فخرجت من الغرفة عازمة الذهاب إلى القاعة الرئيسية ومعرفة سبب هذا التأخير..

رغم المدة التي مرت منذ انضمامها للثوار، لكنها لا تدري بعد هل تخطيطها سيؤتي نتائج مثمرة أم لا، وهل يستحق الثوار نيل ثقتها أم لا.. كل ما كان عليها فعله هو المضي قدما في خططها ورؤية النتائج قبل أن تستقر على أي تغيير..

بعد سيرٍ مضنٍ وساقها لم تتعاف بعد بشكل تام، دلفت بي ناريا إلى القاعة باحثة بعينيها عن الرئيس بين الموجودين، فلم تجد له أثراً، ولا لهارولان.. لكن لم يفتها رؤية الوجوه التي علاها الاكفهرار والغضب وهي تنظر إليها، فخطت خطوة للداخل والدهشة تملؤها عندما وجدت من يعترض طريقها قائلاً بغضب "ما الذي تريدينه منا بعد؟"

فوجئت للسؤال الذي لا محل له من الإعراب، وقبل أن تتفوه بكلمة سمعت إمرأة باكية في جانب المكان تصيح "أنت السبب.. قدومك هو سبب ما حدث.. كان يمكن ألا يموت.. كان يمكن ألا يموت"

وغرقت في النواح وقربها عدد من النساء يهدئنها، فيما قال رجل آخر "أجل، هي سبب مقتل موراك والآخران.. لولاها لما اقتحم الجنود منزله وقتلوهم جميعاً"

قالت بي ناريا بحدة "هل لي أن أعرف ما يحدث؟"

أجابها أحد الرجال "موراك.. الرجل الذي استضافك وهارولان ليلة هربك من الجنود، قد هاجمه الجنود بتهمة المعاونة في تهريبك وقتلوه بعد استجواب عنيف.. ومعه كان اثنين من رفاقنا فقدناهما أيضاً.."

لم يؤثر الخبر كثيراً في بي ناريا التي رأت أن من الطبيعي أن يكون الثوار مستهدفين من جنود مانيم، وما وجودها إلا حجة للقبض على أحدهم وقتله، لكنها عزفت عن الافصاح عن آراءها التي ستثير حفيظتهم ولا شك، وقالت عوضاً عن ذلك "كيف أكون سبباً في شيء لم اخترة بإرادتي؟ تهريبي ولجوئي إلى منزل ذلك الرجل كان تخطيطاً منكم.. كنت أستطيع تدبر أموري دون أن تزجوا أنفسكم في الأمر.. فلا تلوموني الآن"

نهضت إحدى الفتيات وقد امتلأت غيظاً وصاحت وهي تركل ساقها المصابة "يا لك من ناكرة للجميل"

أسقطتها الركلة أرضاً وهي تتأوه والألم ينتشر حارقاً في ساقها، وكأنها تعرضت للكسر من جديد.. غالبت ألمها وهي تنظر إلى الفتاة بحنق محاولة مكابرة نفسها وعدم إظهار خوفها مما قد تفعله هي أو غيرها في غضبتهم المجنونة هذه، بينما قال رجل يقف قريباً منهما "لا داعي لاستعمال العنف فلن نسلم من رئيسنا أبداً"

تحاملت بي ناريا على نفسها لتنهض وهي تقول بغضب "لن أنسى هذا أبداً.. أنتم تستهينون بي لأنني وحيدة، لكنني لن أنسى لكم هذا"

صاح رجل آخر وهو يدفعها بقسوة كادت تسقطها أرضاً من جديد "اغربي عن وجوهنا.."

تلفتت بي ناريا في وجوههم والغضب قد أخذ منها مأخذه، ولاحظت سوبي التي كانت تجلس على مبعدة دون أن يبدو في عينيها أي رغبة بإعانتها، فعلمت أن الجميع قد انقلبوا ضدها الآن..

كانت تهمّ بإفراغ غضبها للمعاملة التي لا تستحقها، لكنها غالبت نفسها واستدارت مغادرة القاعة بعرج واضح

وهي تعض شفتيها للألم الذي ازداد في ساقها المصابة.. تحملت وتحملت وهي تسير في الممر الخالي الطويل حتى فقدت القدرة على احتمال الألم وتهاوت أرضاً.. ظلت على جلستها متألمة وهي تجد أن دموعها تتدافع من عينيها غصباً عنها فأخذت تمسحهما بيدين مرتجفتين.. لا تعلم ما الذي فجّر مشاعرها بهذه الطريقة.. لقد مرّ وقت طويل منذ اكتشفت حقيقتها، واكتشفت زيف الحياة التي كانت تحياها، واكتشفت أن عمرها كله كان أوهاماً.. لكنها تصبّرت وتجلدت وحاولت إنقاذ حياتها من قبضة مانيم.. وقعت في عدة مصائب وخرجت منها دون أن تذرف دمعة.. خانها الكثيرون وتناستهم بأسرع من البرق..

لكن الآن..

الآن فقط شعرت أن جسدها لا يحتمل كل هذه الانفعالات.. أن قلبها قد فاض بما به.. وأن ما كانت تداريه أصبح ثقيلاً لا تجد لديها الجهد الكافي لمداراته أكثر من هذا.. الآن فقط شعرت أنها ضعيفة، وأن ابتعاد الآخرين عنها وخيانتهم لها تؤلمها وتجعلها يائسة مهزومة.. تمنت لو وجدت قربها يداً قوية تسندها وتحميها وتعينها على ما تواجهه.. كأبيها الملك الذي كان فقده لا يعوض بالنسبة لها.. لكنها خنقت هذه الأمنية باستنكار وهي تخفي وجهها تحت يديها محاولة تمالك نفسها لئلا تنفجر في بكاء هستيري تأخر كثيراً..

سمعت خطوات خافتة تقترب منها فظنت أنها لسوبي أو لإحدى الفتيات الأخريات لذلك لم تهتم لأمرها وهي لا تغيّر جلستها، عندما سمعت صوتاً أثار نفضة في جسدها رغم خفوته يقول "يا للعجب.. هذه أول لمحة إنسانية تبدر منك.."

رفعت بصرها متطلعة إلى وجه هارولان بصمت من بين دموعها.. كان وجهه خالياً من السخرية والجهامة التي اعتادتها عليه.. بدا سمحاً ينظر إليها بشيء من العجب المختلط بالتعاطف مما جعلها تشيح بوجهها بعيداً..

أيراها ضعيفة الآن؟ أيراها تستحق الشفقة؟..

وجدته يُنْهضها وهو يتساءل "هل أنت قادرة على السير؟"

حاولت أن تعود إلى غرفتها رغم عرج ساقها المصابة، لكنها وجدته يسدّ طريقها ماداً ذراعه وهو يقول "لا داعي للمكابرة.. سأعينك على السير إلى هناك.."

لم تُبدِ اعتراضاً دُهِشَت له وهي تستند إلى كتفه وتسير محاولة عدم الضغط على ساقها المصابة، وبصمت عادت دموعها تسيل على وجنتيها من جديد.. وكأنها أخيراً استسلمت لضعفها وحاجتها للآخرين، وهو ما كانت تكابر عنه طوال الوقت..

سمعته يقول وهو يلاحظ دموعها الصامتة "أتعلمين؟ إظهار القوة والشدة ليس بالأمر المستحب على الدوام.. قد تشعرين أنك لست بحاجة لأحد، وتظهرين هذا للجميع.. لكن في اللحظة التي تساورك فيها الحاجة للآخرين، تجدينهم قد أداروا ظهورهم لك.."

صمتت دون أن تعلق وهو يضيف "إشعار الآخرين أنك ضعيفة، أنك بحاجة للتعاطف والمواساة، أنك بحاجة لقربهم منك هو ببساطة إشعارهم بأنك إنسانة مثلهم.. ولست جهازاً آلياً خالياً من العواطف.."

وصل إلى غرفتها الخالية فتركها تسير لتجلس على سريرها بصمت.. ولما طال الصمت بينهما دون أنه يغادر

قالت بصوت خافت "ألن تسألني ما الذي أبكاني بهذا الشكل؟"
قال بابتسامة جانبية "لا أعتقد أنك ترتاحين لوجودي بشكل كافٍ ليسمح لي بهذا السؤال.. أنت تبغضينني وأنا أدرك ذلك جيداً"
صمتت وهو يضيف "فقط أرجو ألا أكون أنا سبب هذه الدموع.."
هزت رأسها نفياً دون أن تنظر إليه، فقال "ألاحظ أنك لم تنفِ كونك تبغضينني..!!"
قالت مشيحة "أجل.. أنا أبغضك حقاً.."
تساءل "لماذا؟"
أجابت دون أن تتطلع إليه "منذ رأيتك وجدت أنك تستهين بي وتستهزئ بكل ما أقول.. لم يعاملني أحد بقلة احترام كما عاملتني أنت.. وغاظني أنك لا تراني ذات أهمية تذكر"
ابتسم معلقاً "لم أتعمد معاملتك بغير احترام.. لكنك أدهشتني منذ البداية بسلوكك الآمر والعدواني تجاه شخص ينقذ حياتك.. كنت متعجرفة منذ البداية وأنا لا أطيق التعامل مع المتعجرفين.."
تساءلت وهي تنظر إليه "أمازلت تراني متعجرفة؟"
أجاب بابتسامة صغيرة "بل تبدين مختلفة جداً عما كنت عليه في السابق.. وكأنك شخص آخر.."
أطرقت مفكرة في قوله عندما سمعته يضيف "أتعلمين؟ أسلوبك المتعجرف العدائي قد يغطي تماماً على جمال مثل جمالك فلا يرى منك الآخرون إلا ما يبغضونه منك.."
نظرت إليه بدهشة، فقال مشجعاً "الابتسامة ستزيد وجهك جمالاً.."
أشاحت بوجهها دون أن تحاول الابتسام، فقال متنهداً "الطريق أمامك طويلة يا فتاة.."
وغادر الغرفة تاركاً إياها صامتة وهي تقطب بشيء من الغيظ، لماذا قال لها هذا؟ كيف يسمح لنفسه بتجاوز الحدود في الحديث معها؟ والأهم من ذلك كله، لماذا الدماء الحارة تغزو خديها؟ لا تملك مرآة في الغرفة لكنها واثقة أن خديها قد احمرّا بشدة..
غلبها الحنق من نفسها، ألأنه وصفها بالجمال يغزوها الانفعال بهذا الشكل؟ هذا أقل ما قيل عنها منذ وعت الدنيا.. لقد ألِفَت المديح حتى ما عاد يؤثر فيها، فلماذا شعرت بأن كلماته هزّت شيئاً في أعماقها؟..
دلفت سوبي الغرفة بعد فترة من الوقت وهي تنظر إليها بإحراج قائلة "سامحيهم يا جوين.. إنهم مصدومون وثائرون، ولم يجدوا من يردعهم.. ليس من عادتهم التصرف بوقاحة مع أي كان.."
قالت بي ناريا بغيظ "على الأقل كان من المفترض أن تكوني أنت في صفي.."
أطرقت سوبي قائلة "آسفة.. لم أستطع معارضتهم.. لكن لا تقلقي لقد نالوا ما يكفيهم.."
نظرت لها بي ناريا باستفسار، فقالت "لقد أتى هارولان منذ قليل ولقنهم درساً في الأخلاق.. لم يثُر هارولان عليهم بهذا الشكل من قبل وهم مصدومون لذلك.."
خفق قلب بي ناريا وهي تحاول ألا تظهر اهتمامها.. لقد دافع عنها ضد رفاقه، فهو لا يراها مخطئة إذن..
سمعت سوبي تقول "لقد وقف هارولان في صفك مخالفاً الجميع، ألا يسعدك هذا؟"

قالت مقطبة "ولماذا يجب أن يسعدني أي شيء يصدر منه؟"

قالت سوبي "أنت لا تعرفينه بعد، ولو عرفته حقاً لسررت لمجرد أنه بادلك الحديث.."

نظرت لها بي ناريا باستنكار، فابتسمت سوبي لجهلها موضحة "هارولان يعتبر أكثر من مجرد ثائر في أعين الآخرين.. إنه يقترب من كونه رمزاً.. وما مرّ به ليس بالشيء القليل، لذلك الكل يعامله بتبجيل.."

تساءلت بي ناريا "وما الذي مرّ به ليحصل على مثل هذه الهالة؟"

حاولت إخفاء فضولها فبدا سؤالها على شيء من الهزء مما دفع سوبي لتقول مقطبة "آلام الآخرين ليست مادة للاستهزاء يا جوين.. ظننتك تدركين هذا.."

وغادرت الغرفة بشيء من الضيق تاركة بي ناريا تخاطب نفسها مغمغمة بهزء "أية آلام قد مرّ بها شخص لا يكاد يكفّ عن الضحك طوال النهار؟ لابد أنه شيء تافه مما يراه العامة كبيراً.. يا للسخف.."

****

الفصل السابع:

العائدة

عن الارتحال

..

والمخاطر

..

والصدامات الأولى

..

عندما دلفت بي ناريا إلى القاعة في اليوم التالي عند استدعاء الرئيس لها، لاحظت أن النفوس كانت أهدأ حالاً من اليوم السابق.. البعض تجاهلها، والبعض أشاح بوجهه بعيداً، والبعض نظر إليها بما يشبه الاعتذار.. وبينهم رأت هارولان ينظر إليها، ولما التقت عيناها بعينيه ارتسمت ابتسامة مشجعة على شفتيه.. فنظرت بعيداً دون أن تبدي اهتماماً به وإن لم يفتها أن قلبها خفق بقوة للحظة، ولا تعلم سبباً لهذا.. ما الذي تغير منذ البارحة لتنفعل بهذا الشكل لرؤيته؟..

تجاهلت هذا وهي تتجه إلى الرئيس بعرج خفيف وتتخذ مجلسها المعتاد قربه بصمت وهي تدرك أنه لم يعلم بشيء مما حدث بينها وبين البقية في اليوم السابق.. واستمعت لحديثه بنصف وعي وهي تجول ببصرها فيمن حولها.. لا تدري لماذا، لكن بدا لها اليوم أن لهارولان هيبة خاصة بين الجميع.. بدا الجميع يحترمونه ويقدرونه بشكل خاص ومختلف عن الآخرين مادام قد أفلح بتغيير تصرفهم تجاهها في ليلة واحدة.. ترى ما الذي يميزه عن الآخرين بهذا الشكل؟ ما الذي يجعله ذا مكانة بينهم رغم أنه من الناحية العملية مجرد ثائر عادي؟..

قاطع الرئيس أفكارها وهو يقول "بقيت لدينا تفاصيل قليلة ننهيها معك قبل أن نبدأ طريقنا لمهمتنا الكبرى.. لكن سؤالي هو ما الذي ستفعلينه بعد أن ينتهي تعاونك معنا؟ هل ستبقين في المخبأ مع النساء أم تريدين أن ننقلك إلى مدينة أخرى أكثر أمناً؟"

أجابت بحزم "بل سأذهب معكم طبعاً.."

تطلعت الأعين إليها بدهشة والرئيس يكرر "تذهبين معنا؟ أين؟"

قالت "إلى يناسّا.. لا حاجة لي للبقاء هنا، فيناسّا موطني وأريد العودة إليها"

قال الرئيس "ليس من مصلحتك الذهاب للعاصمة في هذه الأجواء المتوترة، عندما تستقر الأمور يمكنك العودة إلى العاصمة وإلى القصر دون خطر يتهددك"

قالت بتصميم "لا.. أريد الذهاب معكم وأنتم وعدتم بحمايتي.. أنا أعلم منكم بأمور العاصمة والقصر وأعرف العديدين ممن سيمدون يد المساعدة لكم للاطاحة بمانيم، لذلك وجودي معكم سيكون نافعاً بلا شك"

ظلت الأعين تنظر لها باستنكار.. عندما ارتفع صوت هارولان يقول "ولم لا؟ أظنها فكرة جيدة"

التقت الأعين عنده باستنكار ودهشة وهو يضيف "بهذا نضمن على الأقل أنها لن تسقط في يد مانيم وتفشي خطتنا قبل وصولنا إلى العاصمة"

ظلت بي ناريا تنظر له بتعجب وهو يضيف مانحاً إياها ابتسامة ذات مغزى "وأنا متأكد أنها لم تمنحنا ربع ما تملكه من معلومات حتى الآن"

أدارت بي ناريا وجهها بعيداً.. هل سينثر الشك حولها الآن؟..

منحتها النظرة الغارقة في التفكير التي تبدت على الرئيس بعض الأمل، قبل أن يقول لها "هذا أمر ليس بالهين، هل تسمحين لي بالتشاور مع بقية الرجال؟ سأعلمك بقراري الليلة"

نهضت بي ناريا بصمت مغادرة المكان عائدة إلى غرفتها، وهو المكان الوحيد الذي تقضي فيه أوقاتها إن لم

تكن منشغلة مع الرئيس.. وهناك، قضت ساعتين على جمر بانتظار قرارهم.. لو أنهم رفضوا ذهابها معهم فليس أمامها إلا الهرب منهم والسعي للذهاب إلى يناسّا والاختباء هناك حتى تثور الأمور بين مانيم والثوار، فتظهر عندها لتستلم الأمور بيدها وتديرها لمصلحتها..

بعد صمت طال، استدعاها الرئيس من جديد في الغرفة الجانبية بمفرده، ولما جلست أمامه قال لها "اتفقنا على السماح لك بمرافقتنا في هذه المرحلة"

ابتسمت بي ناريا بارتياح لكنه أضاف "لكن هناك عدة شروط يجب أن أطلعك عليها.. أولها أن وجودك معنا لو أضرّ بمخططنا أو تسبب في تأخيرنا بأي شكل من الأشكال فلا تلومينا إن تخلينا عنك في أي لحظة.. فالقيام بمهمتنا في هذه المرحلة أهم من أي أمر آخر.."

لم تعلق وهو يضيف "ثانياً أية معلومات نطلبها منك أو مساعدة نحتاجها ستزودينا بها بدون مناقشة.. الأمر لم يعد يدخل في أي مزايدة أو مقايضة.. كل ما عندك هو للثوار.. والأمر الأخير أنك ستعتبرين في هذه المرحلة جزءاً من الثوار، ينطبق عليك ما ينطبق على الجميع.. لا يمكنك مخالفة أي أمر أو مناقشته، ولا يمكنك الانفصال عن الجمع متى شئت.. إن وافقت على هذا فلا مانع لدينا من مجيئك.."

قالت بثقة "لا مانع لدي أبداً.."

فقال وهو يتنهد "إذن سنبدأ مسيرنا خلال أيام معدودة.."

سألته بشيء من الاهتمام الذي حاولت مداراته "ما الذي تنوون فعله حقاً بعد الإطاحة بمانيم؟ هل تنوي أن تصبح أنت الملك؟"

ضحك الرئيس بقوة وقال "لو كانت هذه رغبتي فلن أختلف عن مانيم في شيء.. بل نحن نطمح لشيء أكبر من هذا.. شيء سيضمن لنا العدل والمساواة في الكوكب كله.."

نظرت له بغير فهم، لكنه بدا غير راغب بالمزيد من التفصيل، فعادت تسأله "وماذا عن مولاتي بي ناريا؟ هل ستتركوها سجينة؟"

قال بابتسامة "قطعاً لا.. فهي لم ترتكب ما يوجب العقاب.. سنطلق سراحها، وبعدها سنرى ما سيكون"

وسمح لها بالمغادرة.. فخرجت من الغرفة وهي تقلب ما قاله في رأسها محاولة فهمه.. وأثناء مرورها بالقاعة رأت هارولان يجلس فيها وحيداً يدرس بعض الخرائط، فاقتربت منه وهي تقول "أمورك تثير حيرتي هذا اليوم.."

نظر إليها بتساؤل ودهشة، فقالت "أصبحت تساندني بشكل مريب، ولم تعد تستهزئ بما أقوله أبداً.."

عاد ببصره إلى الأوراق أمامه بصمت، فتساءلت "اعترف.. ما الذي تخطط له؟"

تلاعبت ابتسامة على شفتيه وهو يقول "لا أظنني سأسلم من العقاب لو تكلمت.."

قطّبت قائلة "افصح بالحقيقة.."

فقال وهو ينظر إليها "منذ أن رأيت دموعك البارحة تغيرت نظرتي لك تماماً.. لم تعودي تلك المتعجرفة العنيدة، بل بدوت ضعيفة وبحاجة للحماية.. وأنا لدي ضعف خاص تجاه الدموع.. لذلك لم أجد مفراً من مساندتك رغم

غرابة ما تطلبينه.."
حاولت تمالك غيظها وهي تقول بهزء "إذن ستسعد الأخريات بهذا الخبر، فكلهن يتهافتن لنيل اهتمامك"
علّق بابتسامة جانبية "هذا لن ينفع، فهي حالة خاصة ولا تنطبق على الجميع.."
ونظر إليها بنظرة مختلفة المعاني جعلتها تتساءل بحده "ماذا تقصد؟"
أجابها "لو لم يعجبك حديثي فلماذا تسألينني؟ أنا أخبرتك الحقيقة ولم ألجأ للكذب رغم قدرتي عليه"
قالت وهي ترفع رأسها "أنا لست ضعيفة.. أنا أقوى بكثير مما تظن.. ما رأيته البارحة كانت لحظة ضعف ظهرت في توقيت خاطئ، لكنها الشذوذ الذي يؤكد القاعدة"
فقال بجدية "لحظة الضعف هذه قد نفذت بي إلى أعماقك دون حواجز.. وأنا لا أصدق ما يتفوه به لسانك بل أصدق ما تهمس به أعماقك.. وهي قد باحت لي بالكثير"
احتقن وجهها وهي تقول "لازلت شخصاً بغيضاً.."
وغادرت بشكل عاصف، فضحك وهو يغمغم لنفسه "لديك الكثير من الأسوار حولك يا فتاة.. لكنها ليست منيعة كما تعتقدين.."
أما بي ناريا فقد غلبها الغضب وهي تسير بغير وجهة في أرجاء الوكر.. لا تدري ما الذي يثير غضبها كلما التقت به.. أهي وقاحته؟ أهو أسلوبه المختلف معها؟ أم لأنه اقترب منها كثيراً؟! تشعر بأنه يقرأ دخيلتها أكثر مما فعل غيره من قبل، حتى مانيم الذي عرفها منذ طفولتها والمرشح ليكون زوجها لم يقترب مما تخفيه في أعماقها بهذا الشكل.. أما هارولان، فهو يزيل دفاعاتها بيسر في كل مرة تراه وفوق كل هذا لا يبدو أن له اهتماماً خاصاً بها.. وكأنها فتاة تافهة لا تستحق أي اهتمام، وهو ما يثير غيظها.. وكأنه يتسلى بتجريدها من كل ما تتحصن به دون هدف معين..
نفضت رأسها بحدة وهي تغمغم لنفسها مقطبة "أنا لا أريد اهتماماً منه أو من أي رجل غيره.. الرجال غدارون، وكل ما أطمح إليه هو العرش فقط.. ولن أهدأ حتى أناله.."

****

دلف مردين إلى قاعة العرش بعد أن طلب الإذن بالدخول، وقال لمانيم وهو يلقي بنظرة جانبية على المستشار "هناك أمر استجد يا مولاي.. وأريد رأيك فيه.."
صرف مانيم المستشار قائلا "اذهب وأنجز لي المراسيم التي طلبتها منك أيها المستشار.."
أحنى المستشار رأسه وغادر القاعة والفضول يعتريه بعد أن كثرت لقاءات هذين الاثنين منفردين.. أهو أمر راجع لبي ناريا؟ لقد اختفت ولم يسمعوا عنها شيئاً منذ سقوط الطائرة، كما أن تقارير الفرقة التي استعادت الحطام تنفي وجود شخص خلاف قائدها والوالي والجندي معهما.. مما يعني أنها لم تفقد حياتها في السقوط.. فأين هي الآن؟ وهل حقاً انضمت للثوار في هيمانيا كما سمع والي هيمانيا يردد في جهاز

الاتصال؟..
أما مانيم فقد قال لمردين بحنق "أرجو أن تكون أخبارك هذه المرة سارة.. لقد فشل جنودك في استعادتها واختفت في هيمانيا تماماً.."
قال مردين بسرعة "أخيراً أمسكنا خيطاً جديداً يدلنا عليها.. هناك من قدّم معلومات لنا أن بي ناريا هي عند الثوار بالفعل.."
قطّب مانيم معلقا "إذن فهم من قاموا بتهريبها من الجنود.. ظننت شوكتهم قد انكسرت تماماً بعد مواجهتي الأخيرة معهم ولن تقوم لهم قائمة، لكنهم كالديدان، تقطع رأساً فيظهر لها رأس جديد.."
أضاف مردين "الأهم من هذا.. يبدو أنهم عازمون على القدوم للعاصمة قريباً جداً.. يبدو أنها أفلحت بإقناعهم بمساعدتها في إسقاطك.."
ضحك مانيم معلقاً "يا لها من فتاة.. إنهم حمقى لإطاعتها فسرعان ما سأسحقهم جميعاً.."
ومال باتجاه مردين قائلاً "أريد معلومات كاملة عن رحلتهم هذه، وعن هذا الذي تبرع بخيانتها.. أريد أن أقضي عليها وعلى الثوار في وقت واحد.. قبل أن يروا أسوار يناسّا.."

****

بعد يوم، كانت بي ناريا تتبع الرئيس عبر الممر الذي جاءت منه أول مرة، ملاحظة أنه سلك اتجاهاً مغايراً للذي تعرفه عابراً ممراً جديداً لمسافة متوسطة قبل أن تجد أمامهما بوابة حديدية صدئة بدت أنها أحد مخارج المجاري القديمة والتي تقود إلى جانب غير مأهول من الصحراء.. وفي الخارج، تحت السماء التي أظلمت قبل مدة وجيزة، وجدت جموع الثوار متجمهرين من رجال ونساء ومعهم عدد كبير من حيوانات التوكور بكامل عدته استعداداً للطريق الطويل.. أشار الرئيس لرجاله بالاستعداد، فسارعوا لامتطاء ظهور الحيوانات بيسر بينما التفت الرئيس إلى امرأة كبيرة في السن نوعاً ما تقف قريباً منه قائلاً "لا تنسي ما اتفقنا عليه.. فور مغادرتنا أزيلوا جميع الآثار الدالة إلى المقر وأغلقوا الباب بإحكام، ولا تنسوا تمويه المدخل لئلا يبدو للعيان.. كونوا حذرين حتى نُنْهي مخططنا ولا داعي للفت الأنظار إليكم"
اقترب أحد الرجال منه ممسكاً لجام أحد هذه الحيوانات، فتناول الرئيس اللجام وامتطى التوكور بصمت وبي ناريا تتلفت حولها، ثم سألته "وماذا عني؟"
أجاب الرئيس "سيردفك أحد الرجال خلفه.. فلا أعتقد أنك تجيدين ركوب أحدها بمفردك"
اغتاظت لقوله وكادت تفصح عن إجادتها التامة لهذا، لكن خشيت أن يثير هذا شكوكاً حولها مما دفعها لتصمت، فنادراً ما تجيد الوصيفة وعامة الشعب في يناسّا ركوب التوكور إجادة تامة لاعتمادهم أكثر على المركبات والعربات، بينما تلقت هي تدريباً خاصاً على ركوبه من ضمن إعدادها لوراثة العرش.. في تلك اللحظة رأت هارولان يقترب منها على ظهر التوكور، فقالت بضيق "لا تقل لي إنه أنت؟"

ابتسم وهو يقول "بل هو أنا.. لقد طلب مني الرئيس مراقبتك وحمايتك في الآن ذاته.."
أدارت ظهرها له باحثة عن أي شخص آخر ليردفها، لكن هارولان جذبها من ذراعها بكل يسر ليجلسها أمامه وهو يقول "لا يمكنك الاعتراض على الأوامر.."
أشاحت بوجهها وهي تهمس "بغيض"
ساءتها الضحكة التي أطلقها تعليقاً عليها، بينما اقتربت سوبي منهما متدثرة بوشاح اتقاء للبرد المتزايد، وقالت لبي ناريا "هل ستعودين؟"
أجابتها "لا أعتقد ذلك.."
فغمغمت سوبي مبتسمة "هو الوداع إذاً.."
هزت بي ناريا رأسها إيجاباً دون أن تتلطف بأي كلمات وداعية.. كانت سوبي بالنسبة لها مرحلة مرت من حياتها ولم تعتبرها صديقة حقاً.. التفتت سوبي إلى هارولان قائلة "انتبه لها.. ولنفسك"
ابتسم هارولان قائلاً "لا تخشي شيئاً.."
قاطعهما صوت الرئيس وهو يقول للجمع "فلننطلق.. ولنكن حذرين.."
قال هارولان لبي ناريا "تمسكي.. فسننطلق بسرعتنا القصوى.."
انطلقت القافلة المكونة مما يتجاوز الخمسين توكور بقليل خلف الرئيس وبجواره الدليل الذي سيقودهم عبر صحراء هيمانيا متجاوزين أي نقاط للتفتيش وأي طرق مأهولة قد تكشفهم.. كانوا يحثّون حيواناتهم لتسير بأسرع ما تستطيع ليقطعوا أطول مسافة ممكنة قبل طلوع الشمس حيث عليهم التوقف والراحة بعيداً عن الأعين.. وقد أعانهم الظلام الذي لا يقطعه إلا نور القمر الشحيح في التخفي بين الكثبان العالية..
ارتجفت بي ناريا قليلاً من برودة الصحراء المتزايدة رغم أنها ترتدي معطفاً أعارتها إياه سوبي، لكنه كان خفيفاً لا يقاوم برودة الليل، مما دفع هارولان ليسألها "هل تريدين ما يدفئك؟ الليل قارس وثيابك لا تكفي لمقاومة البرد"
قالت بعناد "أستطيع التحمل أكثر، فلا داعي لإظهار التعاطف الأجوف هذا"
أوقف التوكور فجأة وتناول من الحقيبة المعلقة على ظهر الحيوان وشاحاً غليظاً رماه عليها وهو يقول "أنت مكابرةٌ أيضاً.. يبدو أنك تهوين التحلي بهذه الصفات الغريبة"
وعاد للانطلاق خلف رفاقه وهي تتدثر بالوشاح دون أن تحاول شكره، ولما طال صمتها قال "مازلت أشك أنك كنت تعملين وصيفة في القصر.."
فاجأها قوله فهتفت بخشونه "ماذا تقصد؟"
أجاب مفسراً "لا يمكن أن تكوني قد عملت لدى شخصيات نبيلة بهذا التكبر والعجرفة التي تملكينهما.. لا أتخيلك أبداً تحنين رأسك بطاعة لأحد، ولا أعتقد النبلاء يحبون التعامل مع شخصية صعبة كشخصيتك"
قالت مشيحة "لا تتحدث عما لا تعلمه.."
ابتسم وهو يتأمل جانب وجهها المواجه له ثم قال "أتعلمين؟ لو لم تكوني بهذا التعالي والعجرفة، لو كانت

شخصيتك كما رأيتها ذلك اليوم الذي تغلب فيه ضعفك عليك، لكنت بالفعل أجمل فتاة في هذا الكوكب.."
شعرت بي ناريا أن صوت طرقات قلبها من القوة بحيث يغطي على صوت حوافر التوكور، فقالت بجفاء محاولة التغطية عليه "أخبرتك ألا داعٍ هناك لأي تعاطف أجوف.. حديثك لا يؤثر فيّ البتة"
سمعته يغمغم "أعلم هذا"
ولاذ بالصمت تماماً تاركاً إياها في بحر أفكارها.. كانت تود لو تسأله، كيف رآها ذلك اليوم؟ لماذا يرى أن دموعها وضعفها يزيدان جمالها بينما أصرّ والدها دائماً أن جمالها في قوة شخصيتها؟ لا يهمها حقاً أن تبدو أجمل في عيني أي رجل، لكنها تود لو تعرف أيهما على صواب.. والدها الذي عرفها منذ صغرها وشجعها على التحلي بالقوة والحزم والصلابة، أم هارولان الذي بالكاد يعرفها لكنه يجزم لها أن ضعفها يزيد من قوتها أمام الآخرين؟
سادهما الصمت التام كما ساد باقي أفراد القافلة التي سلكت دروباً متعرجة بين الكثبان الضخمة في بحر الصحراء الذي يبدو لانهائياً.. ومرت عليهم عدة ساعات في سير حثيث ليقطعوا الصحراء بإتجاه إقليم نيما الأقرب إلى هيمانيا..
كما علمت بي ناريا من حديث الرئيس، فهذا سيستغرق منهم مسيرة يومين قبل أن يتجاوزوا صحراء هيمانيا.. ورغماً عنها عادت بأفكارها إلى القصر وإلى حياتها السابقة.. هل كانت تتخيل في يوم أنها ستمتطي التوكور برفقة الثوار قاطعة الصحراء التي لم ترها من قبل؟ هل تخيلت يوماً أنها ستشارك العامة طعامهم، وترتدي ثيابهم، وتنام في أسرتهم هذه المدة الطويلة؟ حقاً ما كانت تتخيل وهي أميرة أو وهي ملكة أن يحدث كل هذا لها، مع ما فيه من إذلال لشخصيتها كما تعتقد دوماً، مما جعلها تطلق اللعنات على رأس مانيم في سريرتها.. مانيم الوغد الذي خدعها.. مانيم الوغد الذي أوهمها أنه غارق في حبها.. مانيم الوغد الذي كال لها المديح المزيف والكلمات الجوفاء تملقاً ومكراً، ثم أسقطها من عرشها فور أن سنحت له الفرصة بكل خسّة.. مانيم الوغد الذي أظهر لها أن الرجال كلهم هم خونة غدارون، ولا يمكنها أن تغفر لهم ذلك..

****

عندما أصدر الرئيس الأمر للثوار بالتوقف، كان النور قد بدأ يشق السماء عند الأفق بخفوت.. توقفت القافلة بين مجموعة من الكثبان العالية التي توفر لهم الحماية والتغطية من كل الجهات.. فنزل هارولان من على ظهر التوكور بخفة ونشاط بينما نزلت بي ناريا مضعضعة الأعضاء وهي ترفض يده الممتدة.. ولم تعلق عندما سمعته يغمغم "عنيدة.."
كان ركوب هذه الحيوانات ليلة كاملة عمل مجهد بشكل كبير.. وبينما تحلق الرجال حول الرئيس الذي قام بتوزيع أدوار المراقبة عليهم، فقد ابتعدت بي ناريا عن الجمع وعن الحيوانات التي وقفت متململة، وجلست تحت أقرب كثيب رملي وهي تخفي أنينها.. وبعد لحظات اقترب هارولان منها ليناولها حصتها من الطعام الذي أحضروه

معهم وبعض الماء قائلاً "خذي قسطاً وافياً من الراحة لتتخلصي من تعب الليلة الماضية، فما سنواجهه الليلة لن يكون أكثر رحمة.."

وجلس غير بعيد عنها متناولاً طعامه المكون من بعض الخبز المحشو بمختلف الأطعمة والذي أعدته الفتيات في الوكر بكميات تكفيهم طوال هذه الرحلة.. وسرعان ما أنهى طعامه ليستلقي جانباً وهو يظلل وجهه بذراعه تحسباً للشمس التي توشك على الظهور.. أما بي ناريا فقد تناولت القليل من الطعام بصمت، ثم لبثت في جلستها دون حراك تراقب الرجال الذين استلقوا متفرقين في المكان، بينما توزع خمسة منهم فوق الكثبان القريبة في نوبة المراقبة الأولى..

لم تفصح بي ناريا عما يدور بذهنها.. كانت هذه هي المرة الأولى التي تلجأ فيها للنوم في العراء.. أن تفترش الرمال وتلتحف السماء سامحة للشمس بالتغلغل في مسام بشرتها دون حواجز.. ظلت تراقب الرمال حولها بحثا عن أي أثر للحشرات، وهي موقنة أنها تختبئ في انتظار إغفاءتها لتهجم على جسدها بلا رحمة.. كما أن نور الشمس الوليد يؤذي عينيها فلا تجد مجالاً للنوم بأي حال وهي التي تعودت على الجناح البارد المظلم وفراشها الوثير العطر..

بعد فترة طالت سمعت هارولان يسألها "لم أنت مستيقظة حتى الآن؟"

غمغمت بعد برهة صمت "لا أستطيع النوم على الرمال.. لم أتعود على هذا.. كما أنني .... أخشى الحشرات.."

وجدته يخلع معطفه الطويل ويناولها إياه قائلاً "لا مجال للدلال هنا.. لن تستطيعي البقاء على ظهر التوكور إن لم تنالي قسطاً وافياً من الراحة.. استخدمي هذا المعطف لتغطية جسدك كله ولا تخشي الحشرات"

تناولت المعطف ولفته حول جسدها بسهولة لضآلتها مقارنة بحجم هارولان، واستلقت جانباً حارصة على تغطية وجهها بالكامل خوفا من الحشرات.. ورغماً عنها تذكرت عطر مانيم الناعم، فرائحة المعطف لا تقارن به البتة، رغم أنها ليست سيئة أو منفرة.. ورغم أنها لم تتعود النوم إلا على الوسائد التي تحمل أجمل الروائح، إلا أنها نوعاً ما شعرت بالأمان والطمأنينة، لتغرق في نوم عميق في الحال..

قرب المغيب، شعرت بيد تهزها لتوقظها من نومها العميق بشكل أزعجها حتى كادت تأمر بطرده وعقلها لم يستفق من غفوته تماماً.. لكن لحسن حظها فإنها انتبهت من نومها قبل أن تفتح فمها، فجلست في مكانها ملاحظة الظلام الذي بدأ يحلّ عليهم وقد تفرق الرجال من حولها، منهم من يتناول وجبته الثانية ومنهم من يجهز التوكور الخاص به، وبعضهم قد تحلق حول الرئيس الذي أخذ يدرس طريقهم لليلة مع الدليل..

بحثت عيناها تلقائياً عن هارولان الذي لم يكن قريباً منها لتجده على أحد الكثبان القريبة يقوم بمراقبة المكان، فعلمت أنه استيقظ قبلها بفترة.. تناولت بعض الماء من الحاوية الخاصة بها، وغسلت وجهها كما حرصت على ترتيب شعرها المبعثر وقد ساءها عدم امتلاكها لمرآة أو مشط وهي التي تكره ظهورها بشكل أشعث..

بعد لحظات استجمعت شجاعتها ونهضت واقفة بشيء من العسر وعظامها تئن بصوت واضح.. وسلكت طريقها باتجاه هارولان عازمة على إعادة معطفه إليه، ولما رآها تقترب سألها "هل تأذيت من الحشرات؟"

هزت رأسها نفيا، فسمعته يقول "جيد.. فميزة حشرات الصحراء أنك لا تدركين وجودها حتى تشعري بوخزها

المميت"
وإزاء نظراتها القلقة ضحك معلقاً "لا تخافي.. كنت أمزح"
للمرة الاولى لم تضِق بمزاحه الدائم وهي تناوله المعطف مغمغمة "شكراً.. لقد أفادني كثيراً.."
ابتسم ابتسامة جانبية وهو يقول "هذه لحظة تاريخية.. أنت تشكرينني للمرة الأولى.."
فقالت بعناد "سخريتك الدائمة مني هي السبب"
فغمغم بهدوء "إن كان كذلك فأنا آسف.. لم أقصد إزعاجك أبداً.."
لم تدر بم تجيبه وقد فاجأها اعتذاره، فاستدارت عائدة إلى موقعها بصمت.. كانت البارحة قد عزمت أن تطلب من الرئيس السماح لها بالركوب مع أي شخص آخر، لكنها عزفت عن هذا الآن وهي تشعر أن هارولان ليس بالشخصية البغيضة كما اعتقدته.. ربما عليها أن تعرفه أكثر وتتجاوز عما يسبب لها الضيق والحنق..
بعد أن أتمّوا استعداداتهم، امتطى هارولان التوكور، وساعد بي ناريا لتركب خلفه قائلاً "اليوم تبدين أهدأ حالاً ولن أخشى أن تحاولي القفز من على ظهر التوكور فجأة.. فتمسكي جيداً ولا تسقطي أثناء سيرنا، فلن تنجِ من الإصابات.."
ولكز التوكور بقوة ليدفعه للجري خلف البقية، فتمسكت بي ناريا بكتفي هارولان بقوة بعد أن لفت الوشاح حول رقبتها اتقاء للبرد.. كانت الشمس قد غربت تماماً لكن الشفق كان ينير جانباً من السماء بألوان زاهية.. لاحظت بي ناريا أن كل ما في الصحراء يزهو بألوان صارخة، فالسماء شديدة الزرقة، والرمال تلتمع بلون ذهبي، وحتى الشفق يزهو بألوان تتفوق على ما رأته في يناسّا من قبل..
مالت بعينيها تجاه الجانب الأيسر من وجه هارولان، وتأملت جرح خده ملياً ربما للمرة الأولى.. ترى ما الذي سبب له هذا الجرح؟ أهو جرح قديم أم أنه حديث راجع لعمله بين الثوار؟ ترى كيف كان يبدو بدونه؟ إنه يبدو وسيماً حتى بوجود هذا الجرح.. ورغم إنكارها السابق إلا أنها تعترف الآن أن ملامحه جذابة جداً بشكل يخالف وسامة رجال العاصمة.. ملامح رجولية قوية تشعر الناظر إليها بالأمان والطمأنينة..
قطبت بي ناريا وهي تجد نفسها مستغرقة في تأمل ملامح هارولان، فأشاحت بوجهها تتأمل الكثبان التي تجري بعكس اتجاههم لتبعد أفكارها عنه.. لقد عاهدت نفسها ألا تنشغل عن قضيتها الرئيسية، وها هي تخالف عهدها قبل مرور مدة طويلة..
رأت في تلك اللحظة الثوار يتوقفون خلف رئيسهم الذي أخذ يتبادل بضع كلمات مع الدليل.. اقترب هارولان منهم متسائلاً "ما الأمر الداعي لتوقفنا؟"
أجاب الرئيس "هناك من هو آت في طريقنا على ظهر توكور، ولسنا متأكدين من هويته.."
تأمل الجمع الظل الأسود القادم باتجاههم بشكل حثيث والدليل يقول "أكاد أجزم أنه أحد الرجال الذين أرسلتهم لاستطلاع الطريق.."
لبث الجميع في أماكنهم دون حراك حتى اقترب الراكب الذي تأكد لهم أنه أحد رجالهم، ولما وصل إليهم بادر الرئيس بالقول "تراجعوا.. هناك فرقة مكونة من عدد من المركبات المحملة بالجنود قادمة بهذا الاتجاه.. سيرونكم

لا محالة إن استمررتم بالمسير"
قال الرئيس وهو ينظر تجاه الدليل "لا يمكننا التراجع بأي حال.. سنسلك طريقاً آخر"
قال هارولان بحماس "لم لا نهاجمهم وهم غافلون ونستولي على مركباتهم؟ نحن نحتاج لوسيلة مواصلات أسرع من التوكور.."
غمر القلق بي ناريا لفكرة مواجهة الجنود فهمست "كلا.."
لم يسمعها أحد إلا هارولان الذي صمت بينما قال الرئيس "لا يمكننا هذا.. لا أريد أن نفقد أحداً من رجالنا في هذه المرحلة، فلا داعي للمخاطرة"
قال الدليل "سنكمل طريقنا باتجاه آخر لنتفادى الجنود.. سنكون بمأمن رغم أن طريقنا سيطول بعض الشيء.."
ولكز التوكور لينطلق في الاتجاه الجديد، فتبعه الرئيس وبقية الثوار بصمت.. وبعد سير قليل، سمعت بي ناريا هارولان يسألها "هل كنت خائفة؟"
صمتت دون أن تجيبه، فقال "لا تخافي من شيء أبداً.. لا يمكن أن أسمح لشيء بأن يؤذيك، وسأحميك مهما حدث"
عادت دقات قلب بي ناريا تختلج رغماً عنها، فغمغمت محاولة ألا يبدو ما تشعر به في صوتها "لا تعاملني كفتاة ضعيفة.."
قال معلقاً وابتسامة ترتسم على شفتيه "لماذا تخشين دائماً أن تُبْدي ضعفك للآخرين؟ ألا تعلمين أن الضعف بالنسبة للمرأة هو مصدر قوة؟ لن يلومك أحد على ضعفك أو خوفك أو احتياجك للآخرين.. فلا داعي لتذكيرنا دائماً بقوتك.."
قالت "هذا ما تعلمته من والدي دائماً.. أن أكون قوية ولا أركن بانتظار الآخرين.."
فقال "بودي مقابلة والدك هذا الذي جعل شخصيتك بهذه الصورة"
صمتت عن التعليق دون أن تذكر له موت والدها، فصمت بدوره والقافلة تسير في طريقها الجديد مبتعدين عن موضع الخطر..
عندما استقرت القافلة في موقعها الجديد، قرب طلوع الشمس، استعد هارولان للقيام بالمراقبة فور وصولهم مما دفعها لتتساءل "ألست متعباً؟ ألن تنال قسطاً من الراحة قبل ذلك؟"
أجابها "هذا دوري لأراقب المكان.. لا نريد أن يباغتنا الخطر ونحن نائمون.. بعد أن تنتهي نوبتي سأنال ما أريد من الراحة.."
فقالت بعد برهة صمت "والمعطف.. ألن تمنحه لي اليوم؟"
ابتسم معلقاً "أصبحت متطلبةً الآن.. هذه صفة جديدة.."
علّقت وهو يخلع معطفه "مادام سيوفر لي الحماية من الحشرات، فما المانع؟"
ناولها المعطف قبل أن يغادر لموقعه، فسارعت لتلف جسدها به وتستلقي في جانب المكان شاعرة بالدفء والأمان

اللذان سيوفران لها نوماً عميقاً مريحاً..

****

عندما سمعت بي ناريا صوت هارولان يناديها، فتحت عينيها بسرعة لتراه ينحني تجاهها قائلاً بلهجة جادة "انهضي بسرعة.. يجب أن نغادر"
اعتدلت جالسة بدهشة رغم اعتراض جسدها الذي لم ينل كفايته من النوم، ملاحظة أن هارولان كان يحمل سلاحاً في يده، وجميع أفراد القافلة مستيقضون يتأهبون للرحيل رغم أن الشمس لم تتوسط السماء بعد..
تساءلت وهي تقف "ما الأمر؟"
رأت هارولان يقترب منها جاذباً لجام التوكور وقال "هناك فرقة من الجنود قادمة تجاهنا.. يجب أن نغادر بسرعة قبل أن يصلوا.."
وامتطى التوكور بسرعة وأردفها خلفه، وما لبث الجمع أن انطلق خلف الرئيس والدليل بصمت وهم يحاولون الابتعاد عن طريق الجنود متخفين بين الكثبان العالية.. وبعد سير ما يقارب الساعة قال الدليل وهو يجذب لجام التوكور ليقف "أعتقد أننا أصبحنا في مأمن الآن.. استريحوا هنا وأنا سأستطلع الأجواء حولنا حتى أتأكد....."
فوجئوا بسماع صوت طلقة نارية أصابت أحد الرجال في مقتل ليسقط عن التوكور ملطخاً الأرض بدمه.. تبعتها عدة طلقات أثارت ذعر الحيوانات والرئيس يصيح فيهم "إنه كمين.. اهربوا.."
انطلق الجمع بأقصى سرعة لتفادي الطلقات النارية التي جاءتهم من عدة جهات.. وكاد قلب بي ناريا ينخلع رعباً وهي تشعر أن إحداها ستستقر في جمجمتها بالتأكيد، بينما غمغم هارولان من بين أسنانه "تباً لهم.. لقد خدعونا.."
كان نور الشمس القوي يكشف موقعهم بكل وضوح بينما اختبأ الجنود خلف الكثبان القريبة متصيدين الثوار بكل سهولة.. رأت بي ناريا بضع رجال يتساقطون من حولها إما قتلى أو بطلقة تصيب التوكور فترديه وتُسقط راكبه.. وفي ثوانٍ لم تدركها سمعت صهيل التوكور الذي يحملهم يعلو متألماً قبل أن يميل ويسقط جانباً، وقبل أن تجد بي ناريا نفسها تحت جسده كان هارولان قد تدارك الأمر ودفعها لتسقط بعيداً..
نهضت بي ناريا من سقطتها واقفة وسط الحوافر التي تركض قربها بجنون مثيرة الرمال وجاعلة الرؤية أكثر صعوبة.. ثم وجدت هارولان يهبّ إليها صائحاً "أسرعي.."
لم تفهم ما الذي عليها فعله، ثم فوجئت به يرفعها عن الأرض بسهولة لتتلقفها يد أخرى لرجل آخر جذبها ليردفها خلفه مستمراً في انطلاقته دون توقف.. تلفتت بي ناريا خلفها بقلق لتجد هارولان يسرع للقفز خلف رجل آخر والثوار مستمرين بالهرب عاجزين عن الرد على مهاجميهم.. وسرعان ما وجدت أنهم قد تفرقوا عن الآخرين والتوكور ينطلق بعيداً دون أن يلتفت صاحبه خلفه.. فتساءلت بقلق "إلى أين أنت ذاهب؟ لقد اختفى

الآخرون.."
أجابها "الرئيس قد أبلغنا أن علينا إكمال طريقنا إلى نقطة التجمع في إقليم نيما في حال تعرضنا للهجوم وتفرقنا.. المسافة ليست بعيدة من هنا وسنصل قبل أن يحل الظلام"
قالت بدهشة "لكن كيف ستعرف الطريق دون الدليل؟"
أجابها "لقد حدد لنا الرئيس الطريق مسبقاً وكلنا نعرفه.. ولا خطر من ضياعنا فنحن على مشارف الصحراء"
عادت تتسائل بقلق أشد "والآخرون؟"
أجابها دون انفعال ظاهر "الأحياء منهم سيلحقوننا إلى هناك.."
شعرت بقلق يشوبه الخوف على مصير هارولان.. هل سينجو؟ هل سيتمكن من الوصول إلى نقطة التجمع سالماً؟ لم تتوقف لتسأل نفسها لم هذا الخوف الشديد على شخص لا يعني لها شيئاً كما تدّعي.. بل أرجات هذه الأفكار وهي منشغلة بالتفكير فيما قد يدور في ساحة المعركة..
ومع غروب الشمس، كانت المناظر حولهم قد تبدلت، فالكثبان الرملية أصبحت سهولاً يغطيها اخضرار خفيف، والأفق الفسيحة قد غمرتها الأشجار في كل الجهات، وكان هذا دليلاً على تجاوزهم هيمانيا ودخولهم إلى نيما الأكثر اخضراراً وثراءً.. وبعد سير حثيث، وجدت بي ناريا أنهم يقتربون من عدة جدران مدمرة وخربة لمنازل قد شيدت هنا منذ زمن.. كان المكان أقرب لأطلال قديمة ومهجورة، وتزيده ظلال المساء وحشة وغرابة..
عند وصولهم إلى الأطلال ترجلوا من التوكور، فقام صاحبه بربطه إلى حائط قريب سامحاً له بأكل ما يطاله من الحشائش والأشجار.. كانوا أول من وصل إلى الموقع، فقال لها الرجل "يمكنك الراحة إن أردت.. سأبقى أنا هنا للحراسة حتى يصل البقية.."
لكنها لم تكن بحال يسمح لها بالراحة، فجلست في موقع يسمح لها برؤية القادمين بيسر، ولم يلبث بقية الثوار أن توافدوا على البقعة والإنهاك قد بلغ منهم مبلغه.. فظلت عيناها تبحثان عن هارولان دون أن تعثر عليه، ولم يزوّدها كل من سألته عنه بأي إجابة مقنعة.. ظلت في موقعها لا تغيره وهي تضم معطف هارولان، الذي لم تجد الفرصة لإعادته، حول جسدها اتقاء للبرد المتزايد.. ولما رأت الرئيس قادماً اقتربت منه على أمل معرفة أي شيء عن مصير هارولان، ولما رآها سألها "أأنت بخير؟ خشيت أن يصيبك مكروه في تلك المعمعة.."
فسألته "ألم تر هارولان؟ هل أصيب؟"
أجابها "لقد رأيته يركب مع أحد الرجال عند هروبنا، لكن تفرقنا بعدها ولا أعلم ما الذي جرى لهما"
صمتت والقلق ينهشها بينما اقترب الرئيس من رجاله قائلاً "ما جرى ليس بالأمر العادي يا رجال.. يجب أن نعلم كيف تمكن الجنود من معرفة مسارنا وتجهيز كمين لنا قبل أن نمضي في أي خطوة جديدة.. لا نريد مفاجآت أخرى تفقدنا المزيد من رجالنا.."
سمعوا صوت حوافر تقترب منهم فالتفتوا متأهبين، ليروا أحد رجالهم يقترب من موقعهم.. ولما رأت بي ناريا هارولان الجالس خلفه تنهدت بارتياح وهي تشعر بأن قلقها وخوفها قد زالا تماماً..
اقترب الرجلان من الجماعة فهبط هارولان بسرعة وتقدم من الرئيس الذي قال له بابتسامة "تسعدني رؤيتكما

أحياء.."
قال هارولان بجدية "الأهم من هذا، لديّ خبر لن يسعد أحداً بالتأكيد.."
أنصت له الجميع فأضاف "لقد شككت بالأمر الذي حدث.. لقد بدا من المستحيل ألا يكون مدبراً.. وفي المعمعة رأينا الدليل يسلك طريقاً مغايراً للذي اتفقنا عليه، فتبعناه دون أن ينتبه، ووجدناه بعد رحيل الجميع ينضم للجنود.."
ظهرت الدهشة والاستنكار على وجوه الجميع، فيما أضاف هارولان "كان غاضباً يتجادل مع أحد الضباط.. يبدو أنهم استعجلوا بإطلاق النار ولم ينتظروا حتى يبتعد عنا كما كان مقرراً.."
بان الغضب جلياً في الوجوه، فيما قال الرئيس "كنت أعلم أن بيننا خائناً.. لكن لم أعلم من هو ولم أستطع إطلاق التهم جزافاً.."
قال أحد الرجال بغضب "لقد فقدنا سبعة من رجالنا.. يجب أن نعاقب الدليل الخائن بالقتل.."
قال الرئيس "ليس هذا وقت تصفية الحسابات.. علينا أخذ المزيد من الحيطة في خطواتنا القادمة.. سنكمل طريقنا ونترك أمر هذا الخائن لوقت آخر.."
تساءل رجل آخر "هل نستطيع ذلك دون وجود دليل؟"
أجاب الرئيس "لا تقلقوا.. الدليل احتجناه لعبور الصحراء فلم أكن أرغب بأن نتيه فيها.. أما إقليم نيما وإقليم سيرالدا ففيهما طرق معبدة واضحة.. ولديّ خارطة تسهل طريقنا عبرهما.."
تركتهم بي ناريا يتجادلون وتنحت جانباً لتجلس على صخرة ضخمة على الأرض وهي تحاول تهدئة نفسها.. فاجأتها كل هذه الانفعالات التي مرت بها خلال الساعات الماضية من خوف ورعب وقلق، فشعرت أن عودة الهدوء إليها يتطلب مجهوداً ليس بالقليل.. لو لم يكن حظها حسناً لما نجت بحياتها من تلك المكيدة..
سمعت خطوات تقترب منها، فالتفتت لترى هارولان يجلس قريباً ويسألها بقلق "هل أنت بخير؟ هل أصبت بأي مكروه؟"
غمغمت "أنا بخير.. فقط متعبة.."
لم يغادر القلق وجهه، فقالت "وأنت.. هل أنت بخير؟ ظننتك لن تنجح بالقدوم إلى هنا أبداً.."
تساءل "هل كنت قلقة علي؟"
أدارت عينيها بعيداً عن عينيه النفاذتين مغمغمة "ليس بالضرورة.."
ابتسم لمراوغتها، ومد يده يزيح خصلة من شعرها المبعثر على وجهها هامساً "لا تقلقي.. لقد وعدت أن أحميك دائماً.. لذلك لا يمكن ألا أكون بخير.."
لم تستنكر أن يمد يده ويلمس شعرها بقدر ما فاجأها هذا، فنظرت إليه بدهشة واستغراب.. وإزاء نظرتها سحب يده مغمغماً "آسف.. نسيت أنك تبغضينني.."
ابتسمت رغماً عنها معلقة "أنت تكرر ذلك لأنك تريد مني إنكاره.. أليس كذلك؟"
تأمل ابتسامتها التي غيّرت ملامحها المتهجمة عادة، فأنارتها لتبدو كفتاة أخرى أكثر رقة وجمالاً ، ثم غمغم

"لا.. تكفيني منك هذه الابتسامة.."

ونهض مغادراً باتجاه الرئيس وهو يخفي بيده الابتسامة التي شاعت على وجهه.. لقد فاجأته ابتسامتها بشكل غير متوقع.. وسارع للابتعاد عنها لئلا يتهور بفعل أو بقول يفضح به دخيلة نفسه..

أما بي ناريا فقد بقيت بعد ابتعاد هارولان مبهوتة وحمرة تغزو خديها بشكل متسارع.. وقد أراحها أنه لم يُطل التحديق بها لئلا يرى تأثرها بكلماته.. ساحت بنظراتها في البقعة حولها بلا هدف قبل أن تعود بنظراتها إلى هارولان الذي انشغل مع الرئيس وبقية الرجال في التخطيط للمرحلة القادمة.. ظلت ترمقه لفترة قصيرة قبل أن تجذب بصرها عنوة بعيداً وهي تتشاغل بما حولها.. ومرة أخرى ترجيء التفكير في علاقتها بهارولان وكأنها لا تريد مواجهة الحقيقة.. لا تريد التفكير في تغيّر حالها معه، وأنها لم تعد تبغضه كالسابق.. ولا تريد التفكير في نظرته لها.. هل هو مهتم بها حقاً أم أنه ينفذ أوامر الرئيس فقط؟..

بعد فترة طويلة قضوها في التخطيط والجدال، وجدته يعود لها حاملاً بعض الطعام قائلاً "مواردنا قد قلّت مع سقوط عدد من الحيوانات في المواجهة السابقة، لذلك سنقتصد فيها قدر ما نستطيع.."

لاحظت رغم قوله أن نصيبها من الطعام يتجاوز نصيب الآخرين، بينما لم يكن في يد هارولان أي نصيب..

فقالت له مقطبة "هل تنازلت عن نصيبك لي؟"

ابتسم وقال "لست جائعاً الليلة.."

فقسمت نصيبها إلى نصفين ومدت يدها إليه بالنصف الثاني قائلة "هذا الطعام الرديء لا يناسبني.. ولا أستطيع تناول الكثير منه"

تساءل وهو يتناوله منها "أتمنى معرفة ما كنت تأكلينه في القصر.."

قالت بلهجة متفاخرة "كنت آكل أفضل الطعام وأفخره.. لا يمكنك أن تتخيل ما يقدم في القصر، وما تأكلونه هنا لا يعد طعاماً مقارنة بما كنت أعرفه"

غمغم "يبدو أن حياتك كانت مرفهة جدًا.."

خففت من لهجتها وهي تعلق "هناك ما عانيت منه طبعاً، فالحياة لي لم تكن كلها رفاهية.. لكنها أفضل حالاً مما رأيته خارج القصر.."

قال هارولان معلقاً "مهما كانت حياة القصر مرفهة، فهي لا تساوي في نظري لحظة حرية أجدها في الاستلقاء على تراب الصحراء وتنشق رائحة الرمال المبللة بعد عاصفة ماطرة.."

لم تفهم بي ناريا منطقه فقالت "هذا يعتمد على نشأتك.. فمن نشأ على الراحة والدعة لن يطيق مغادرتها، ومن نشأ على الحرية والانطلاق لن يطيق القيود.."

سادهما الصمت لبعض الوقت قبل أن تقول متأملة وجهه المتعب "أنت لم تنم منذ الأمس.. أليس كذلك؟"

أجاب "الجنود الأوغاد لم يمنحوني الفرصة لهذا.. لذلك لا مناوبة لي الليلة"

غمغمت "هل نحن آمنون هنا؟ الدليل يعلم بأمر التجائنا لهذا المكان، ويمكن أن يشي بأمرنا للجنود ليباغتونا.."

قال هارولان "الرئيس كان حذراً بما فيه الكفاية.. لأن الدليل كان عنصراً خارجياً ولا ينتمي للثوار فكل ما كان

يعلمه هو حاجتنا للوصول إلى أقرب بقعة من نيما دون أن يحدد له وجهة معينة.. لا تقلقي فنحن أكثر حذراً الآن بعد هجومهم السابق.."

صمتت وإن لم يغادرها القلق بشكل كامل.. ولما رأته يستلقي على الأرض العشبية متوسداً ذراعه ويغرق في النوم بعد مدة وجيزة، نهضت من موقعها باتجاه الرئيس الذي جلس وحيداً بعد أن نام من نام من رجاله، وتفرق من أوكل إليه أمر المراقبة لليلة.. ولما رآها قال لها "أرجو ألا تكوني قد ذعرت بما حدث.."

هزت رأسها نفياً وهي تقول "ليست هذه هي مواجهتي الأولى مع الجنود"

وجلست قريباً متسائلة "ألن تشعل ناراً لتدفئتكم الليلة؟"

أجابها "لا يمكننا أن نعلن عن موقعنا بوضوح ونحن نعلم أن الجنود قد يكونون قريبين ويستهدفوننا.."

سألته "وماذا بعد؟ ما هي المرحلة التالية؟"

قال "الآن نقبع هنا بانتظار رجالنا الذين سيقومون بتوفير عدد من المركبات لنا.. وسنسلك طريقنا إلى العاصمة دون تأخير"

علقت معترضة "ولماذا لم تفعلوا هذا منذ البدء؟ كنا سنقطع الصحراء في يوم واحد.."

قال هازاً رأسه "لو لم تعلمي فإن الولاة ومنهم مانيم قد فرضوا على هيمانيا البقاء دون أدنى أسباب الحضارة التي احتكروها لأنفسهم.. واستخدامنا للمركبات لن يمر دون أن يلفت الانتباه حتى في هذه الصحراء المقفرة.."

رغم أن هذا لم يكن جديداً على مسامعها، إلا أنها لا تزال تستنكره وهي التي كانت تظن الأموال التي تُصرف للإقليم سنوياً تسخّر لتعميره وتلبية طلباته.. حقاً كان الجميع يستغفلها ويستغفل أباها الملك الذي وثق بولاته ثقة مطلقة.. عادت تسأل الرئيس "وكم سيطول ذلك؟"

أجابها "يوماً أو يومان.. لا أكثر.."

نهضت وهي تتنهد وقد ساءها كل هذا التاخير.. وعادت إلى مكانها السابق قريبة من هارولان.. فجلست على الأرض ملتفة بالمعطف ومستندة على نصف جدار قائم خلفها.. وبين فينة وأخرى تلقي بنظراتها على وجه هارولان النائم.. لم تعد تراه منفراً متوحشاً كما رأته أول مرة.. ولم تعد تراه بغيضاً هازءاً كما رأته في الأيام التي قضتها في الوكر.. لا تعرف ما هو شعورها وهي تنظر إليه ولا تعرف بم تصف هذا الشعور.. هل هي فقط تطمئن لوجوده قريباً أكثر من أي شخص آخر؟ أم أن لهذا الاطمئنان أبعاداً أخرى؟ حاولت شغل نفسها بشيء آخر فلم تكن تريد التفكير في هذه المشاعر أكثر من هذا..

****

الفصل الثامن:

العاشقة

عن الحب

..

والصدق

..

وخفقات القلب

..

في صباح اليوم التالي، انتشر الضباب الكثيف مغطياً الأفق ومتسللاً بين الجدران المتهدمة يزيدها وحشة.. ورغم أن الضباب يوفر لهم تغطية ملائمة، إلا أن القلق استعمر الثوار وهم ينتشرون بين الأطلال مراقبين ما يمكنهم مراقبته وسط الصمت التام.. ظلت بي ناريا قلقة بدورها وهي تتوقع هجوماً للجنود في أي لحظة، ولما رأت الثوار يتجمعون حول رئيسهم، أسرعت تقترب منهم لتعرف ما الذي يخططون له.. فسمعت الرئيس يقول لهم "سأرسل خمس فرق عليها أن تجوب المنطقة حولنا وتتحسس الجنود.. كل فريق مكوّن من رجلين، وعليكم التزود بالأسلحة احتياطاً لأي مواجهة قد تتم بينكم وبين الجنود إن عثروا عليكم.. لكنني أشدد على تلافي الاشتباك معهم قدر المستطاع، وأن لا تكشفوا وجودكم لهم.. كونوا حذرين أشد ما يكون.."

ونادى رجاله بأسمائهم معيّناً كل رجلين كفريق ومحدداً وجهتهم.. وكما توقعت بي ناريا كان هارولان من ضمن إحدى تلك الفرق.. ولما امتطى هارولان التوكور ماراً بها ورأى وجهها قال "علام كل هذا القلق؟"

خفضت بصرها دون أن تجيبه وإن بدا انفعالها واضحاً على وجهها، فابتسم قائلاً ليطمئنها "لا تقلقي.. هي مهمة استطلاعية ليس إلا.."

تنحّت عن طريقه بصمت لينطلق مع رفيقه بسرعة في وجهتهما.. ولما ابتعدا قال الرجل لهارولان ملاحظاً الابتسامة التي شاعت على وجهه "لم كل هذه السعادة؟ هل قالت لك شيئاً لم أسمع أنا؟.."

قال هارولان "بلى، قالت لي الكثير.. ألم تفهم معنى نظراتها هذه؟ إنها تعني لي أكثر مما تتخيل.."

أما بي ناريا فقد جلست قريبة من الرئيس متوترة، تستمع إليه يلقي بتعليماته لرجاله صامتة.. وتتأمل المكان حولهم بحثاً عن جندي يباغتهم أو فوهة سلاح توجه إليهم.. كان الانتظار والترقب أصعب من المواجهة، لكنها لم تكن تملك من أمرها شيئاً وهي جالسة بانتظار المجهول.. وبعد مرور ساعة وهم في قمة توترهم، سمعوا طلقاً نارياً تردد صداه في الأجواء محطماً الصمت، تبعته عدة طلقات من جهة بعيدة.. وقفت بي ناريا والقلق يغزو ملامحها بينما هبّ بعض الرجال إلى ظهور التوكور ليستكشفوا الأمر.. لكن الرئيس استوقفهم قائلاً "لا تغامروا.. قد يؤدي ظهوركم إلى كشف موقعنا وتعريضنا للخطر.."

تساءل أحد الرجال "وماذا عن رجالنا هناك؟"

أجابه "إنهم قادرون على حماية أنفسهم.. لا أريد التضحية بالكل لأجل شخصين.."

رغم قسوة قوله إلا أن أحداً لم يعترض عليه.. أما بي ناريا فقد أخذ القلق ينهشها وهي لا تدري في أي اتجاه ترددت تلك الطلقات.. أهو في اتجاه هارولان؟ ولو كان كذلك هل سيكون بخير؟.. هذه المرة اعترفت لنفسها بحقيقة كانت تتفاداها.. إنها تخشى عليه.. تخاف أن يصيبه مكروه ولا تعلم لماذا.. قطبت وهي تفكر في سبب كل هذه المشاعر التي لم تعرفها سابقاً، لماذا تهتم به وهي بالكاد تعرفه؟ ألأنه أبدى بعض اللطف تجاهها منذ ابتدأ الآخرون يعادونها؟ ألأنه مدح جمالها وكرر ذلك دون أن يردعه جفاؤها؟ أم لأنه شعر بما لا تعترف هي نفسها به من دواخلها؟.. ألأنه لمس ضعفها الحقيقي وشجعها على الاعتراف به؟.. لا تدري حقا ما تصف به

شعورها، كل ما تعرفه أن اهتمامها به يتجاوز اهتمامها بأي شخص آخر..
قطع تفكيرها اقتراب عدد من الرجال الذين غادروا مستطلعين إلى الأطلال تباعاً.. وكل منهم يؤكد أن الأجواء حولهم خالية تماماً من الجنود، لكنهم يجهلون سبب الطلقات التي تعالت منذ قليل.. توافدت الفرق الأربعة كلها تباعاً إلا فريق هارولان.. فتركت بي ناريا موقعها لتتقدم إلى طرف الأطلال بانتظار أن ترى لمحة منه.. وبعد مدة طالت والجمع يتجادلون في أمرهم، رأوا الرجلين الأخيرين يتقدمان منهم بسرعة على ظهور التوكور.. ورغم ارتياحها، إلا أن بي ناريا هلعت لرؤية الدماء تغرق ذراع هارولان اليمنى إذ مر بها بينما الرجل الآخر يعاني إصابة في ساقه.. أسرع الرجلان إلى الرئيس لإبلاغه بما حدث، فقال الرجل فور نزوله "الجنود.. وجدنا فرقة منهم تتخفى جنوب الأطلال.. ويبدو أنهم يبحثون عنا"
قال الرئيس مقطبا "إذن موقعنا هنا أصبح خطراً.."
علق هارولان "لا تخف.. لقد قضينا على الفرقة عندما وجدناهم غافلين.. وهم في منطقة بعيدة عنا ولن يستدل من يجدهم علينا بسرعة.."
وأشار إلى ظهر التوكور المحمّل بالأسلحة مضيفاً "وربحنا المزيد من العتاد.."
قال الرئيس "أحسنتما صنعاً.. اذهبا وعالجا جراحكما.. بعدها أريد معرفة ما حدث بالتفصيل.."
وأشار إلى رفيق هارولان قائلاً "بعد أن تعتني بجرحك، لتذهب مع فرقة من الرجال لنقل الجثث بعيداً عن الأطلال وإخفاء آثارهم.."
اتجه هارولان من فوره إلى بي ناريا الواقفة في جانب المكان ووجهها يعتريه القلق، ولما اقترب منها بادرته بهجوم تخفي به قلقها "أنت وعدت أنك ستكون بخير.."
ابتسم لحدتها وهو يتناول قطعة نظيفة من جراب التوكور، ثم جلس على حجر قائلاً "وأنا لازلت بخير.. هذا جرح عادي بالنسبة لي.. هل تساعدينني؟"
غمغمت بقلق "لكني لا أعرف كيف.."
قال "ليس في الأمر معرفة.. اربطي الجرح بهذه القطعة بقوة كي يتوقف النزف.. من حسن حظي أن الرصاصة خدشت ذراعي فقط.."
انتفضت للفكرة وزاد هلعها رؤية الجرح بعد أن كشف عنه، فتراجعت مغمغمة "لا.. لا أستطيع هذا"
قطب متسائلاً "هل تريدين اقناعي أنك لم تتعاملي مع الجروح في القصر أبداً؟!"
هزت رأسها مجيبة "أنا لم أرَ جرحاً كهذا من قبل.."
فعاد يقول "هيا.. لا تكوني عديمة الفائدة هكذا وتتركينني أنزف حتى الموت.."
استشاطت غضباً آخذة مزاحه على محمل الجدّ فقالت بحدة "لا أذكر أن أهمية وجودي في الحياة مرتبط بمهارتي في معالجة جراحك.."
واستدارت مبتعدة عنه وعن الأطلال كلها بغضب.. فسمعته يصيح خلفها "لا تبتعدي عن المكان.. لا يزال خطر الجنود قائماً.."

لكنها لم تعره اهتماماً وهي تبتعد مسافة كافية حتى غابت عن بصره وعن الآخرين، فتنحّت وجلست جانباً على جدار متهدم والغيظ يأكلها.. إنها قلقة عليه وهو يجد الوقت ملائماً للاستهزاء بها.. حقاً ما كان يجب أن تتعب نفسها بالتفكير فيه.. أقنعت نفسها من جديد أنه لا يعني لها شيئا ولا يجب أن تهتم بما يقوله..

بعد فترة صمت والضباب يختفي شيئاً فشيئاً من حولها مع ارتفاع الشمس وتزايد قوتها، سمعت صوت خطوات تقترب منها فتأكد لها أنها لهارولان.. سمعته يقترب فيجلس غير بعيد عنها صامتاً بدوره، فتجاهلته بشكل تام وهي تنظر بعيداً.. ولما طال الصمت بينهما وبدا أنه لن يبدأ الحديث، قالت بضيق "ما الذي تريده مني؟"

قال بعد لحظة صمت "أن أعتذر.."

قالت "وهل يعتذر المرء عن قناعاته الخاصة؟ أنت مقتنع منذ عرفتني أنني لست ذات فائدة.. فاعتذارك الآن لا يعني شيئاً.."

اعترض قائلاً "لم يكن هذا مقصدي.. لقد كنت أمزح وأردت تشجيعك على التغلب على خوفك.. لم أعتقد أنك ستأخذين قولي على محمل الجد.."

فقالت مشيحة "لقد اعتذرت إذن.. فاتركني وحيدة.."

قال بهدوء "لا أستطيع تركك أبداً.. إن لم تعودي إلى البقية فسأبقى معك هنا.."

نظرت له بضيق ملاحظة جرحه الذي ربطه بنفسه كيفما اتفق وقالت "ولماذا تفرض نفسك عليّ بهذه الصورة؟"

ابتسم مجيباً "لأنني أهتم بك.. أيكفي هذا؟"

قالت مشيحة "لو كنت تخشى تأنيب الرئيس لك فلا تخف.. سأبلغه أنني من طلب منك المغادرة.. لست بحاجة لحارس شخصي.."

نهض ليجلس قربها قائلاً "لكنني حقاً أهتم بك ولا دخل لأوامر الرئيس في هذا.. أم أنك لا تصدقين؟"

نظرت له بتشكك، فأضاف "أتعلمين أنني من طلب من الرئيس أن يضعك تحت حمايتي في هذه الرحلة؟ ولم أطلب هذا إلا لأكون أقرب إليك"

ظللتها دهشة عميقة، فتساءلت "لماذا؟ لطالما كنت تسخر مني ووصفتني بالمتعجرفة.. فلماذا الآن؟"

همس وهو يمسك إحدى يديها "لأني اكتشفت أنني أحبك.."

انتفضت وجذبت يدها بقوة وهي تشيح بوجهها مرتبكة مما أدهشه.. حب؟ لا.. ليس هذا ما تبغي سماعه.. ليس هذا ما تبغي مواجهته، وهي لسبب تجهله تشعر أنها مواجهة خاسرة.. حاولت تجاوز ضربات قلبها الهائج وقالت بشيء من الخشونة "هذا لا يعنيني في شيء.. أنا لا أقبل حبك هذا"

قطب متسائلاً "لماذا؟"

قالت بعجرفة محاولة تغطية ارتباكها "لست مطالبة بأن أحب كل من أحبوني.. وأنت لست الأول بالتأكيد.."

صمت مطرقاً يفكر مما أراحها وهي تتمنى أن يصرف النظر عن الفكرة دون مماطلة.. لكنه عاد يقول بهدوء "هل أنت متأكدة أنك لا تحملين لي أي اهتمام؟"

قالت مقطبة "ما الذي هيّأ لك هذا؟"
أجابها "عدة أمور.. سؤالك عني عند وصولك إلى هذا الموقع، وقد أكد لي الجميع أنك سألت عني بإلحاح.. وجهك القلق الذي رأيته عند مغادرتي صباحاً.. والفزع على وجهك عندما عدت والدماء تغرق ذراعي.. كلها أدلة لا أحتاج لسؤالك لأعرف معناها.."
قالت بحدة "أنت تضخم الأمور.. كل هذا لا يعني حباً، نحن رفقاء في السفر، ومن الطبيعي أن أسأل عنك عند غيابك.."
فقال بعناد "انظري لعينيّ وكرري أنك لا تهتمين بي قيد شعرة.. أخبرتك أن عيناك تفضحان الكثير ولن تخدعني كلمات تخرج من طرف لسانك.."
نهضت بعصبية قائلة "أنت لحوح جداً.."
وابتعدت عنه خطوات لكنه أسرع إليها وأدارها لتواجهه قائلاً "لا تهربي مني.."
تراجعت خطوات وهي تقول بعصبية "ما الذي تريده مني؟ أنا لا يمكن أن أقع في الحب.. الحب عبودية، وأنا لن أسقط في فخه أبداً.."
نظر إليها بدهشة مصدومة، ثم تقدم منها وهي تتراجع حتى وجدت جداراً يلمس ظهرها ويوقف تراجعها، أما هارولان فقد استند بيديه إلى الجدار مانعاً هروبها وهو يقول "من الذي ملأ عقلك بفكرة حمقاء كهذه؟ الحب يطلق القلب من كل قيوده، فكيف يكون عبودية؟ لو كان الحب كما تقولين فكيف يمنح صاحبه السعادة؟ لماذا يتحسر من لم يملك الحب؟ ولماذا يكون الغارق في الحب مثار غيرة وحسد الآخرين؟"
أشاحت بوجهها هرباً منه وهي تقول بعناد "لن يغيّر هذا نظرتي للحب.. قلبي كان ولا يزال منيعاً ولن يستسلم لأول كلمات حب تُسْكَب أمامه.."
نظر إليها مغمغماً "أنت تتظاهرين بالقوة.. لكنك في الواقع تهربين.. تخافين من الوقوع في حب قد يسبب لك إذلالاً ، وتخافين أن تخطئي الاختيار.. أليس كذلك؟"
نظرت له بحنق وقد غاظها أنه أصاب الحقيقة، لكن قبل أن تعترض بكلمة واجهتها نظراته القوية التي تشعر بأنها تنفذ إلى أعماقها مما دفعها لتخفض بصرها باضطراب صامتة، فأمسك كتفيها مضيفاً "لو أثبتّ لي أنك حقاً تبغضينني كما تدّعين فسأتركك في حال سبيلك ولن أعترض طريقك بعدها.. لكن لو لم تستطيعي ذلك فمن حقي أن أظن بأنك تبادلينني الشعور.. أليس كذلك؟"
غمغمت بصوت مخنوق "أنت تهدم جميع ما عشت أبنيه من قناعات.. فما الذي سيتبقى لي؟"
قال بلهجة ألطف "ألا تريدين أن تري ما يمكن للحب تقديمه لك؟ لم الحزن على قناعات كئيبة فيما البديل أكثر إشراقاً وسعادة؟"
أغمضت عينيها وهي تقول بصوت مرتجف "لا أدري.. لم أعد أعلم شيئاً الآن.."
كانت تعيش صراعاً داخلياً عنيفاً قلب موازينها.. فمن جهة لم تتخلّ عن قناعاتها كملكة بأنها يجب أن تكون الأقوى.. أن لا تستسلم لمشاعر تعصف بكيانها وتجعلها تدور في فلك رجل.. ومن جهة فقلبها رغم كبتها له إلا

أنه يرتجف سعادة رغماً عنها.. يتوق ليجيب هارولان على حبه، ويتوق ليتذوق هذه السعادة التي يمنحها الحب لها.. ورغم قوة شخصيتها إلا أنها فوجئت بضعفها عن السيطرة على قلبها.. أحقاً سقط قلبها في شباك الحب دون أن تنتبه؟

وضع هارولان راحته على خدها برفق هامساً "لماذا تصارعين ذاتك بهذه الطريقة؟ ما الذي ستخسرينه لو أنك جربت هذا الحب؟ وما الذي تستفيدينه من رفض شيء لم تجربيه؟"

خفضت وجهها قائلة "قلبي لن يحتمل التجربة.. ونفسي أعز من أن تهان ولو لمرة واحدة.."

ونظرت إليه قائلة بارتجافة "ما الذي سأفعله لو أنك استغللت حبي وأذللتني؟ أنت ترى الأمر هيناً لكني أراه كبيراً.. ولا أريد لتجربتي الأولى أن تكون خاطئة.."

جذبها ليحيطها بذراعيه ويحتضنها بقوة هامساً "وهل تظنينني راغباً في إذلالك واستغلالك؟ كيف يكون هذا حباً الذي يسمح بإذلال أعزّ شيء لديّ ..؟"

لاذت بالصمت والخجل يحرق خديها وهي تستمع لقلبه الهائج، والذي دلّها على أنه لم يكن أقل منها انفعالاً..

وسمعته يضيف "لست أدري لم ومتى انجذب قلبي لك، لكنه اختارك أنت من بين الجميع، ولا يمكنني إلا أن أرضى باختياره.. فهل أختارني قلبك حقاً؟ أم أنني كنت أتوهم؟"

قالت مراوغة والاحمرار يغزوها "لماذا تسأل عن شيء أنت متأكد منه؟ أم أن كل ما قلته سابقاً كان تخميناً؟"

نظر إلى وجهها وهو يسألها مجدداً "أريد أن أسمعه منك.. فهل اختارني قلبك؟"

خفضت بصرها واحمرار وجهها يزداد وهي تجد صعوبة في إجابته، فقال بإلحاح "هل تحبينني حقاً؟"

تمالكت نفسها وهزت رأسها إيجاباً بخفة وهي مندهشة لحالها.. لم تعهد في نفسها خجلاً من مجرد نظرات يلقيها عليها أي رجل، ولم تعلم في أعماقها اضطراباً وضعفاً لسؤال لو سأله رجل آخر لرفضته بكل ثقة وكبرياء.. أهذا ما فعله الحب بقلبها؟..

وإزاء إجابتها الخافتة تنهد هارولان بسعادة وهو يضمها من جديد بقوة أكبر.. وهمس في أذنها "أحبك يا جوين.."

انتفضت بي ناريا لسماع الاسم وقد كادت تنسى انتحالها لشخصية جوين.. نسيت هذا وتوقعت أنه يحب الملكة بي ناريا، وظنت أنه سيتلفظ بإسمها في همسه.. لكنها عادت لواقعها عندما سمعت اسم جوين وخفتت حماستها وهي تراه مغرماً بشخصيتها المنتحلة لا بشخصيتها الحقيقية.. فدفعته باضطراب وهي تغمغم "يجب أن أعود.."

فقال وسعادته الغامرة تلهيه عن رؤية وجهها المضطرب "أجل.. فلنعد قبل أن نثير شكوكاً باختفائنا.."

أسرعت في خطوها تسبقه عائدة إلى الأطلال لتجلس في مكانها المعهود وهي تحاول السيطرة على ارتباكها وعلى الأسئلة التي تغزو عقلها.. ترى هل سيحبها إذا اكتشف أنها ليست سوى الملكة؟ لم تحتج لتصريح لتعرف أنه لا يختلف عن بقية الهيمانيين الذين يكرهونها، لكن هل سيشفع حبها لها ويغفر لها جهلها عما كان يحدث لهم؟..

أما هارولان فقد أعمته سعادته عن رؤية تقلبها واضطرابها.. ولم يطق صبراً فور وصوله إلى حيث تجمع الثوار فوقف وسطهم وقال "فليسمعني الجميع.. جوين منذ هذه اللحظة قد غدت لي.. ومن يريد الاعتراض فلن أرحمه أبداً.."

فوجئت بي ناريا بقوله فاحتقن وجهها بمزيج الإحراج والغيظ، وأدارت ظهرها لهم وهي تسمع الرجال يضحكون لإعلانه الاستعراضي ويهنئونه بطريقتهم الجلفة.. أما الرئيس فقد اقترب منها متسائلاً "هل حق ما قاله هارولان؟"

قالت بضيق "ما كان عليه قول ذلك بتلك الطريقة.."

علّق الرئيس قائلاً "هذا يدل على نواياه الواضحة تجاهك.. إنه فتى طيب ومخلص جداً.. لكنني أردت الاطمئنان إلى أنه لم يفرض نفسه عليك، فأنت تحت مسؤوليتي، وأنا لا أريدك أن تتعرضي لمضايقة أبداً.."

ابتسمت بي ناريا بصمت وهي لا تستطيع أن تخبره أن هارولان قد فرض نفسه عليها بالفعل.. ولو لم يفعل لرفضت الحب جملة وتفصيلاً وقضت على بوادره في قلبها تماماً.. وإزاء ابتسامتها الصامتة قال الرئيس "أتمنى أن يزدهر هذا الحب ولا يتعرض لما يحبطه.. فنحن قادمون على مرحلة لا نعلم ما ستكون نهاياتها.."

وعاد إلى رجاله ليقطع أحاديثهم ويعيّن الفرق الجديدة التي ستقوم بتمشيط الجوار.. أما بي ناريا فقد كانت تعلم تمام العلم ما الذي سيحدث في المرحلة القادمة.. ستقود هؤلاء الثوار لمقاتلة مانيم، وعندما يتم القضاء على هذا الوغد ستستلم الحكم من جديد، وستعين هارولان في منصب كبير يليق بمن سيكون زوجاً للملكة.. لا يمكن للحياة أن تكون أفضل من هذا..

****

قبل طلوع الشمس في اليوم التالي، شعرت بي ناريا بهارولان يلمس خدها برفق هامساً "استيقضي يا زهرتي الجميلة.."

فتحت عينيها لتتطلع إليه جالساً قربها وهو يتأملها بنظرة تفيض حباً ويقول بابتسامة مشرقة "كيف حال زهرتي هذا الصباح؟"

اعتدلت جالسة مغمغمة وقد ملأها الإحراج "ألا يمكنك أن تعاملني كما كنت تفعل عادة؟"

اتسعت ابتسامته وهو يجيب "لم أعترف لك بحبي كي أعاملك بجفاء كالسابق.. ما الذي يمنع أن أعبر لك عن حبي بكل صورة ممكنة؟"

قالت مطرقة "لم أتعود على هذا، لذلك فإنه يصيبني بالإحراج.."

أمسك ذقنها لتواجهه وهو يهمس "أحقاً أنت لي؟"

نظرت له بدهشة وهي تتساءل "ما الداعي لمثل هذا السؤال؟"

تنهد وهو يقول "أخشى أن يختطفك شخص آخر، أكثر وسامة أو أكثر لطفاً أو أكثر مالاً.. أخشى أن أفقدك

لأنني لا أملك ما يستحق أن أمنحك إياه.."
فقالت بابتسامة "يمكنك منحي إخلاصك وحبك.. وهذا يكفيني عن كل شيء.."
غمغم بدهشة "حقاً؟"
أجابت "لقد رأيت الكثير الكثير ممن هم في قمة الوسامة والغنى واللطف.. لكنني لم أنجذب إلا لرجل جلف ساخر لم يعاملني بالاحترام الذي رجوته.. لكنه شجاع وقلبه طيب جداً.. وربما هذا ما جذبني إليه"
لم تشعر بمدى تأثره بقولها إلا من نظراته التي أحاطتها، فسارعت لتغيّر الموضوع لتغالب إحراجها متسائلة "ما الداعي للاستيقاظ مبكراً؟ هل جد جديد؟"
أجاب وهو يناولها بعض الطعام والماء "المركبات التي يقودها رجالنا في طريقها إلى هنا.. وسنرحل خلال ساعة على الأكثر.."
لاحظت أن أغلب الرجال قد تفرقوا في الأنحاء مراقبين رغم الضباب الكثيف.. وقبل مرور الساعة تناهى إليهم صوت المركبات المميز يقترب محطماً الصمت.. فتساءلت بي ناريا بقلق حيث جلست جوار الرئيس "هل أنتم متأكدون أنهم رجالكم؟"
أجاب الرئيس "لقد أرسلت رجلين ليتأكدا من هذا بالفعل.."
وخلال فترة قصيرة كانت المركبات تقف عند طرف الأطلال وينزل منها ما يقارب الخمسة عشر رجلاً ، واقترب أحدهم من الرئيس قائلاً "ها هي المركبات الإثنا عشر جاهزة بعتادها.. لم يكن استيلاء هذا العدد سهلاً لكن مرّ الأمر بسلام دون شكوك.. وقد نفذنا عملياتنا في عدد من المدن للتضليل.."
قال الرئيس "أحسنتم صنعاً.. انقلوا عتادنا كله عليها.."
انطلق الجميع لتنفيذ أمره بتجريد حيوانات التوكور مما تحمله من أمتعة وعتاد بينما تساءل هارولان "ما الذي سنفعله بالتوكور؟ هل سنطلقه في العراء؟"
قال الرئيس "لا نملك وسيلة أخرى.. انتفت حاجتنا له ولا نستطيع أخذه معنا أو أخذه لإخفائه في أقرب مدينة.. فهذا العدد منه سيثير الشك ولا بد.."
بعد أن أكملوا عدتهم، توزعوا في ركوب المركبات والرئيس يركب في المركبة المتقدمة حاملاً خريطة مفصلة للإقليم وعليها علامات على الدرب المقرر أن يسلكوه ليصلوا إلى إقليم سيرالدا، بينما أبقى هارولان بي ناريا قريبة منه في مركبة أخرى لتسير القافلة الجديدة بأمر الرئيس بصمت كالعادة.. لاحظت بي ناريا أن الثوار رغم صخبهم الذي عرفته في الوكر، فإنهم هادئون ملتزمون بالصمت منذ بدأت الرحلة إلى يناسّا وكأنهم يستشعرون خطورة رحلتهم في كافة مراحلها.. وحتى هارولان فقد التزم الصمت منذ انطلاقهم وإن ظل محتفظاً بيدها بين يديه..
تشاغلت بي ناريا بالنظر إلى المناظر التي يعبرون بها وهي تلاحظ تبدلها السريع لتصبح أزهى وأكثر ثراء.. ومع مرور الوقت شعرت أن رحلتهم عبر الإقليم، الذي من المفترض أن يتجاوزوه مع انتهاء النهار، قد أضحت أكثر سلاسة ويسراً.. وأن وصولهم إلى يناسّا لن يستغرق وقتاً طويلاً كما ظنت..

****

فتح باب الجناح الملكي الخاص بالملكة الأم، ودلفت منه جوين حاملة بعض الطعام والشراب الدافيء.. اقتربت من الملكة التي لا تبارح سريرها ووجهها شديد الشحوب.. وقالت وهي تضع الطعام جانباً وتقترب لتساعد الملكة على الجلوس "مولاتي.. يجب أن تتناولي بعض الطعام اليوم.. حالك يزداد سوءاً كل مرة أراك فيها.."
غمغمت الملكة الأم وهي تشيح بوجهها "لا أستطيع.. ناوليني بعض الماء فقط.."
اعترضت جوين وهي تزيح خصلات الملكة المبعثرة وتسوّي شعرها "مولاتي.. حالك لا يسرّ أحداً في القصر.. الكل قلق عليك، والمستشار يستجوبني كل يوم ويوصيني بك.."
وابتسمت وهي تقرّب الطعام من الملكة "هيا.. حتى مولاتي بي ناريا ستغضب مني إن رأتك بهذه الحال.."
ندمت جوين على ذكر بي ناريا وهي ترى الملكة تغطي وجهها بيديها منتفضة، فسارعت لتقول "مولاتي.. لا تخافي على مولاتي بي ناريا.. المستشار يؤكد لنا أنها بخير.. لقد استطاع أن يستخلص بعض المعلومات عنها من حديث الملك ورئيس الوزراء.. مولاتي حية، ولم يستطع الملك حتى الآن القبض عليها.."
قالت الملكة بصوت متهدج "إنها في قبضة الثوار.. ألا تعلمين معنى هذا؟.. لا نعلم المصير الذي تلاقيه على أيديهم.. إنهم يحملون حقداً كبيراً على الملك السابق، وقد يعمدون للانتقام من بي ناريا دون أن تجد من يحميها.."
أحاطت جوين كتفي الملكة بذراعها تواسيها وهي تسمعها تضيف بحزن "حاولت إنقاذها، لكنني رميتها في مصير أسوأ.. لابد أنها تلعنني الآن.. آه يا ابنتي الحبيبة.."
وانخرطت في بكاء مرير وجوين تنظر لها بحيرة وهي لا تعلم كيف تهدىء من روعها.. ثم فوجئت بالملكة تتشبث بملابسها وهي تقول من بين دموعها "جوين.. سأطلب منك معروفاً.. أرجوك لا ترفضيه.."
قالت جوين بلهفة "أأمريني يا مولاتي.. سأفعل كل ما أستطيعه إن كان هذا سيزيل الحزن من على وجهك.."
أطرقت الملكة ودموعها تسيل من جديد وهي تهمس "أرجوك.. طمئنيني على بي ناريا.. تقصيّ أخبارها.. لا تعودي قبل أن تعلمي حالها وتأتِني بالخبر الأكيد عنها.."
صمتت جوين قليلاً وهي تتأمل ضعف الملكة وشحوبها، ثم قالت وهي تضغط على كتف الملكة "سأفعل يا مولاتي، إن وعدتني أن تعتني بنفسك أكثر وتستعيدي صحتك وأنت تنتظرينني.."
وحملت الطعام لتقربه من الملكة، وعقلها يفكر في المخاطر التي ستواجهها إن حاولت التدخل في أمر بي ناريا من جديد..

****

كان النهار قد انتصف عندما توقفت قافلة المركبات دون سبب مفهوم.. وحال توقفها هبط هارولان من المركبة التي يستقلونها متجهاً إلى مركبة الرئيس، وقد أصرّ على بي ناريا أن تبقى في موقعها.. ظلت بي ناريا تتطلع إلى ما يحدث عند المركبة الأولى وهي تودّ لو تنضم إليهم.. لا تحب أن تبقى في الظلام.. تودّ لو تعرف كل شاردة وواردة كي تحكم بنفسها كيف تتصرف إزاء المتغيرات التي تمر بهم..

ما إن اقترب هارولان من الرئيس حتى سمعه يقول "أحسنت صنعاً بالمجيء.. أريد توكيل مهمة محدودة إليك.."

تساءل أحد الرجال بضيق "ولماذا دائماً هارولان؟.. ألا نكفي نحن؟"

قال الرئيس "لأن هارولان يعرف بالضبط ما أريده وكيف أريد تحقيقه.. حتى وهو بعيد فإنه يتصرف التصرف المناسب الذي لا يمكنني أن أعترض عليه، ولذلك فأنا أطمئن كلما أوكلت له أمراً.."

وقطب مضيفاً "ثم إنني لا أحب هذه النبرة في الاعتراض.. لو رأيتَ على الرجل ما لا يعجبك فلتتحدث.. لكن أن تعترض دون سبب مفهوم فهذا ما لا أريده أن يحدث بين الثوار.."

صمت الرجل على مضض، فيما قال هارولان "ما الأمر؟.. هل جدّ جديد؟"

أشار الرئيس له ليتبعه، وابتعد الإثنان عن الآخرين مسافة قبل أن يقول الرئيس "الحمولة التي أرسلتها سابقاً.. يبدو أن أمرها كُشف"

اتسعت عينا هارولان بدهشة قائلاً "كيف؟ ومتى؟"

أشار الرئيس لرجل يقف على ظهر توكور قرب المركبة قائلاً "هذا من رجالنا الذين أرسلتهم لحماية الحمولة والتأكد من وصولها إلى هدفها.. لكن يبدو أن أحد الرجال الذين عينتهم قد تم شراؤه.. فقد اختفى فجأة بعد أن أفصح القائد الذي عينته للبقية عن الخطة.. لقد حرصت أن يسير رجالنا في وجهة لا يعلم عنها إلا القائد.. لكن عند اقترابهم من هدفهم يتعين على القائد أن يفصح لهم عن الخطة وأخطارها، كي يكونوا قادرين على تقدير المغامرة التي هم مقدمون عليها والتصرف كما يجب لتفادي أي خطر.. لكن ما إن فعل القائد ذلك حتى تبخر الرجل من بينهم في نفس الليلة"

قال هارولان "أتعتقد أنه خائن حقاً؟"

قال الرئيس زافراً "أنا واثق من هذا.. لا أستطيع لومه حقاً فربما اضطرته ظروفه السيئة وحاجته للمال لخيانتنا ليضمن إعالة عائلته.. أنت تعلم أن عملنا هذا لا ربح له بل خطر الموت يتهددنا في كل ثانية.."

ثم نظر إلى هارولان مضيفاً "لذلك لم أستطع توكيل أحد غيرك بهذه المهمة.. أنا أثق فيك أكثر من أي شخص آخر، كما وثقت في أبيك من قبل.. أما البقية، فقولي إنني لا أثق بهم كفاية يعني اتهامي لهم بالخيانة، ولا أريد أي بلبلة الآن بين صفوف الثوار"

قال هارولان "وما الذي تطلبه مني الآن؟ مرني وأنا سأنفذ"

قال الرئيس واضعاً يده على كتف هارولان "أريدك أن تلحق بتلك الحمولة.. لقد اضطر رجالنا لتغيير مسارهم خوفاً من مداهمة الجنود لهم.. لكن أخشى أن تتسبب هذه الخيانة في تشديد الحصار على المدينة وتكثيف التفتيش على بواباتها، عندها تكون مهمتنا قد باءت بالفشل قبل أن تبدأ.. اذهب وتأكد من إيصال الحمولة إلى

هدفها بأسرع ما يمكن وبأقل شبهة ممكنة.. ولو تمكنت من الإمساك بالخائن، فلا تعمد لعقابه، لكن تأكد أنه لن يشي سرنا لقوات المدينة أبداً.."

ابتسم هارولان معلقاً "أنت طيب القلب حقاً.. لو كنت مكانك لأطرت رأس ذلك الخائن على الفور.."

قال الرئيس بابتسامة خفيفة "عليك تقدير حاجات الآخرين وظروفهم يا هارولان.. لن تعلم ما الظروف السيئة التي دفعت الرجل للخيانة إلا لو تحدثت معه وجهاً لوجه.. عندها قد تدهش لكمّ البؤس الذي يحيط ببعض رجالنا رغم صمتهم.."

قال هارولان "لا حاجة بك للشرح.. أنا أعلم هذا تمام العلم.."

فقال الرئيس "اذهب ولا تتأخر في العودة إلينا.. أنت تعلم مسارنا تمام العلم ويمكنك اللحاق بنا في أي وقت.. وحافظ على حياتك ما استطعت.."

ابتسم هارولان وهو يستدير مبتعداً.. فعاد إلى مركبته ليتناول سلاحه وهو يهمس لبي ناريا "الرئيس أوكل لي مهمة عاجلة.. لن أتأخر طويلاً.."

بدا القلق على وجهها، لكنه سارع ليقول قبل أن تفتح فمها بكلمة "لا تحملي هماً.. سأكون بخير هذه المرة.."

والتفت إلى أحد الرجال قائلاً "سأعهد لك بجوين يا تيمين.. حافظ عليها واحمها من أي خطر يتهددها.."

قال تيمين مقطباً "وما الذي سأجنيه من هذا؟"

قال هارولان بسخط "سأقتلك يا تيمين.."

فقال تيمين ضاحكاً "لا تخف أيها العاشق.. أميرتك ستكون بخير.."

انتفضت بي ناريا وهي تنظر إلى تيمين، ورغم أنها تعلم ما قصده بذلك التعبير المجازي، لكنها لم تستطع إيقاف القلق الذي اشتعل لدى سماعها ذلك اللقب..

شعرت بيد هارولان تضغط على يديها لتهدئها، ثم ابتعد بسرعة لينجز مهمته وبي ناريا تتابعه ببصرها وتراه يمتطي التوكور برفقة الرجل الآخر.. ثم سمعت تيمين يعلق "ما الذي أعجبك حقاً في ذلك الرجل الجلف؟"

لم تجبه بي ناريا أو تلتفت جهته مما دفعه ليقول "بل ما الذي أعجبه بك؟ أنتما ثنائي عجيب حقاً.."

أما هارولان، فقد انطلق بالتوكور برفقة الرجل الذي قال له "سنستغرق عدة ساعات للوصول إلى هدفنا.. فهل تقدر على الصمود حتى ذلك الوقت؟"

قال هارولان بابتسامة "أقدر على ما هو أكثر.. فعليّ إنجاز مهمتي والعودة بأسرع ما أستطيع قبل أن أزيد قلق زهرتي الرقيقة"

نظر له الرجل بتعجب وصمت دون أن يعلق على قوله بكلمة..

****

الفصل التاسع:

المصدومة

عن الكراهية

..

والفراق

..

ودموع الندم

..

بدأت الشمس رحلتها نحو المغيب، صابغة الموجودات بألوان نارية مذهلة.. ورغم ذلك لم يبدُ لهذا المنظر المبهر من تأثير على الثوار الذين استمروا في طريقهم والصمت يعلوهم كالعادة.. وكذلك لم تكد بي ناريا تراه وفكرها مشغول بهارولان.. كانت عدة ساعات قد مضت منذ غادرها، وهو قبل رحيله لم يقل لها كم ستستغرق مهمته تلك وأين موقعها بالضبط..

وقبل الغروب، التقى الثوار بإثنين من رجالهم قادمين من إقليم سيرالدا القريب حيث قال أحدهما للرئيس بعد توقف المركبات "لقد استطلعنا الطريق حتى دخولنا إلى إقليم سيرالدا، الطريق آمن تماماً ولا أثر لحركة مشبوهة للجنود فيه.."

وأشار إلى موقع في الخارطة التي يملكها الرئيس مضيفاً "هذا موقع آمن يمكنكم قضاء الليلة فيه.. إنه بعيد عن أي طريق مستخدم، وأقرب قرية تبعد عنه أميالاً.. حتى لو أشعلتم النار فلن يعرضكم هذا لخطر.."

قال الرئيس "أحسنتم عملاً .. سنتجه إلى هذا الموقع على الفور.. يمكنكم المضي قدماً في طريقكم وسنلتقي عند حدود إقليم يانا"

غمغمت بي ناريا متسائلة وهي تسمع نقاشهما "إلى أي مدىً أرسل الرئيس رجاله في استكشاف الطريق؟"

أجابها تيمين "لقد أرسل عدداً من رفاقنا لاستكشاف الطريق بطوله إلى يناسّا، والبحث عن أنسب الأماكن وأءمنها لمبيتنا.. إن التحرك بمجموعة كبيرة من الثوار من الخطورة بمكان.. وهجوم الجنود علينا يعني القضاء على مجموعة كبيرة منا دون قتال"

قالت "لكن الجنود هجموا علينا في هيمانيا ونجونا بأقل الخسائر"

قال "لو فكرت في الأمر جيداً لوجدت الجنود قد استعجلوا بإطلاق النار علينا.. لقد قادنا الدليل إلى هذا الكمين عمداً وأوحى لنا أنها بقعة آمنة.. ولو انتظروا حتى نزولنا عن ظهور التوكور لكانت خسارتنا بالغة.."

عادت تسأله "وماذا عن أجهزة الإرسال؟ الثوار يملكون عدداً كافياً منها كما رأيت في المخبأ.. فلم لا يستخدمونها في التواصل بدل قطع المسافة هذه كلها ذهاباً وإياباً؟"

أجاب تيمين "حذر الرئيس الشديد دفعه لاتخاذ هذه الخطوة.. إمكانياتنا التقنية متدنية، ولن يصعب على مانيم التنصت على حواراتنا بإمكاناته التقنية العالية.. وهذا ليس في صالحنا بالتأكيد.."

غمغمت بغير تصديق "هذه مبالغة في الحذر.."

قال تيمين "بل هي مبالغة في الحرص على حياة كل هؤلاء الذين تقع مسؤوليتهم عليه.."

استمرت القافلة بالتحرك في طريق جديد بإتجاه البقعة التي حددها الرجال على الخارطة.. ولم يكد الظلام يخيم عليهم حتى كانوا قد استقروا في معسكر صغير بعيد عن الطريق ووسط الاشجار التي تناثرت مانحة المكان وحشة أكثر.. لم تتعود بي ناريا على قضاء الليل في أحضان الطبيعة، لذلك ما إن يحل الليل حتى تشعر بأن المناظر البهيجة والجميلة صباحاً تتحول إلى لوحات موحشة وكئيبة تفزعها.. ومهما تغير المنظر تظل الوحشة هي ذاتها.. ورغم ذلك، شعرت هذه الليلة بالوحشة تزداد وبالغابة تكاد تطبق على أنفاسها.. تعجبت من حالها..

أهذا بسبب غياب هارولان عنها؟.. تذكرت ما كانت عليه وما كانت تؤمن به في حياتها كأميرة في يناسّا.. أهذا هو الحب حقاً؟ ما الذي يجعلها تشعر بالأمان لوجود رجل بعينه؟ رغم الكثيرين المحيطين بها والذين لا تشك أن أحدهم سيحميها من أي خطر يتهددها، لكنها في تلك اللحظة لم تشعر إلا بحاجتها لوجود رجل واحد.. شعرت بصدرها يضيق بأفكارها وتفكيرها المنحصر في هارولان.. ماذا لو أخطأت الظن به؟ ماذا لو كان قاسياً؟ لو كان نذلاً كما كان مانيم؟ ألن تنكسر روحها إن حدث شيء من ذلك؟ ألن تفقد ثقتها بنفسها وتلعن قلبها الذي تذلل بحثاً عن الحب؟..

تنهدت بصمت وهي ترى الرئيس يقوم بتعيين مناوبات المراقبة، والرجال يقومون بإشعال عدة نيران ليتحلقوا حولها.. فاقتربت بي ناريا من إحداها بحثاً عن الدفء الذي لم تذقه منذ عدة ليال.. وتناولت حصتها من الطعام القليل الذي أحضروه لها ثم لفّت جسدها بالمعطف وظلت رابضة في موقعها تراقب النيران.. حسب تقديرها بقي يومان على وصولهم إلى يناسّا، وعندها ستبدأ الأحداث الحقيقية.. تنهدت وهي تفكر في أمرها مع هؤلاء الثوار.. هل تكشف لهم حقيقتها قبل وصولهم إلى يناسّا وتتفق معهم على المضي في الخطة مقابل أن تمنحهم ما يرغبون به بعد العودة إلى العرش؟ لكن هناك احتمال أن يتخلوا عنها عند معرفة هويتها.. فهم رغم زعمهم المضي لتحريرها من يد مانيم فإنهم لا يخفون كرههم لها.. أغلب الظن أنهم يحاولون خداعها ليستفيدوا مما تملكه من معلومات، أما غرضهم الحقيقي فهو الإطاحة بمانيم وبها من الحكم معاً..

الحل الآخر هو أن تتكتم على شخصيتها حتى يتمكنوا من النفاذ إلى القصر.. وهناك، حتى لو اكتشفوا أمرها، فإن من تثق بهم من الجنود الذين ظلوا على إخلاصهم لها ولأبيها الملك الراحل سيمنحونها الحماية الكافية ضد هؤلاء الثوار.. عقدت عزمها على الحل الأخير وهي لا تنوي تسليم رقبتها لهؤلاء الثوار.. يجب أن تلعب هذه اللعبة بذكاء وتحذر من الجميع حتى تعود إلى القصر حيث هي الأقوى..

بعد فترة طويلة من الصمت، نهضت بي ناريا وهي عاجزة عن النوم كما فعل الرجال الذين لم يقوموا بالمناوبة، واتجهت إلى الرئيس الذي كان منعزلاً عن البقية فسألته "أين هارولان؟ لقد مضى وقت طويل ولم يعد حتى الآن.."

رفع الرئيس رأسه إليها مجيباً بابتسامة "لا تقلقي.. سيعود فور إنهاء مهمته.."

عادت تسأل "متى؟"

قال الرئيس هازاً كتفيه "لا علم لي بالتأكيد.. لكن لن يكون هذا الليلة قطعاً"

قالت مقطبة "إن لم يعد الليلة فسيغدو من الصعب عليه اللحاق بنا.. كيف سيستدل على موقعنا إن ابتعدنا أكثر من هذا؟.."

قال الرئيس وهو يعود لأوراقه التي يتأملها بلا انقطاع "قلت لك لا تقلقي.. سيعود.. هذا كل ما يمكنني قوله"

شعرت أنه لا يريد الاستفاضة بالحديث، فعادت وشيء من الحنق يتسلل إليها.. يبدو لها الرئيس غير مهتم حقاً بما يحدث لرجاله.. فإن أصاب هارولان ضرر هذه المرة لن تصمت على هذا أبداً.. لن تصمت البتة..

****

في اليوم التالي، قطعت القافلة حدود سيرالدا مع نيما بيسر لخلوها من أي مراقبة.. واتخذت القافلة خط سير غير معبد في أغلبه مبتعدين عن القرى المتفرقة والمدن المتوسطة الحجم.. ورغم سلاسة الطريق حتى الآن، فإن التوتر يزداد بالثوار أكثر فأكثر كلما اقتربوا من يناسّا.. في صباح ذلك اليوم، حاولت بي ناريا استدراج الرئيس ليفصح عن خطتهم المزمع تنفيذها في يناسّا، لكنه رفض بإصرار دون أن يتخلى عن حذره الشديد وهو يقول لها مكرراً "لكل شيء أوانه.."

كانت تخشى أن يعتمدوا على خطة هزيلة توقعهم في قبضة مانيم منذ اللحظات الأولى، خاصة وأن ما يعرفه الثوار عن يناسّا والقصر لا يتعدى ما زودتهم به، لكن الرئيس قد استبعدها تماماً من خططه واحتفظ بها بينه وبين بعضٍ من أخص رجاله.. لذلك فقد كان قلقها يزداد أكثر فأكثر وهي ترسم في ذهنها خططها الخاصة..

وعند حدود يانا، توقفت القافلة للمرة الأخيرة مع حلول الظلام في بقعة انتشرت فيها غابة مترامية الأطراف..

وقفت بي ناريا تنظر للغابة حولهم في جميع الاتجاهات بانتظار أن تلمح هارولان قادماً تجاههم.. طال غيابه كثيراً وهي غدت بأشد القلق عليه، لكن هدوء الرئيس كلما سألته يجعلها تسكن قليلاً، لكن في أحيان أخرى يثور غيظها من بروده الشديد..

تنهدت وهي تتطلع للسماء باتجاه يناسّا التي لا يطالها بصرها من هذا البعد، وقلبها يخفق قلقاً ولهفة.. قلقة خوفاً مما سيحدث، ومن عدم تمكن هارولان من اللحاق بهم، ولهفة للعودة إلى مدينتها الحبيبة، ولاستعادة كل ما فقدته.. بقيت مسافة لا تتجاوز نصف نهار وسيصلون إلى أسوار يناسّا الرائعة..

ظلت واقفة مكانها وهي تتنهد، وتستمع إلى الرئيس الذي جمع رجاله حوله قائلاً "غداً هو اليوم الموعود يا رجال.. غداً مع حلول الظلام ستحين ساعة الصفر، وعندها يجب أن نفلح بالتغلغل في المدينة واتخاذ مواقعنا لنبدأ عمليتنا وننتهز غفلة مانيم وجنوده.."

قال أحد الرجال "إنهم يعلمون بقدومنا.."

علّق الرئيس قائلاً "يعلمون بقدومنا لكن لا يعلمون متى.. مانيم يظننا نرتحل على ظهور التوكور، ورحلة كهذه تستغرق أكثر من أسبوع وزيادة.. لن يتوقع أن نصل بهذه السرعة.."

وعينّ فرق المناوبة لهذه الليلة قبل أن يعتزلهم مع عدد قليل من رجاله يتفحصون الخرائط التي يملكونها ويراجعون خطتهم للمرة الأخيرة.. تمنت بي ناريا لو تقترب منهم لتستمع لخططهم، لكن خوفها من إثارة الشبهات بإصرارها منعها من هذا وهي تجلس قرب إحدى النيران التي تضيء الغابة..

مرت الليلة بطيئة للغاية، ورغم محاولة بي ناريا البقاء مستيقظة ما استطاعت في انتظار هارولان، إلا أن التعب غلبها فغفت وهي تتدثر بمعطف هارولان الذي تركها تحتفظ به وكأنها تحاول طمأنة نفسها أنه سيعود لها.. كان قلقها الشديد عليه قد تغلغل في أحلامها، فرأت وهي بين النوم واليقظة عدة مناظر أرعبتها وهي لا تدرك ما الواقع منها وما الحلم.. رأت هارولان ينظر لها بكراهية.. ورأته أرضاً والدماء تتصبب من جراح في صدره

وعنقه.. ورأته يهجم عليها حاملاً خنجراً مسلولاً.. كانت تلك الرؤى تصيبها بالذعر وهي تشعر بالعرق يتجمع على جبينها.. رأته أخيراً جالساً قربها ينظر لها بحنان دافق، ويلمس خدها بأصابعه برقة.. انتبهت في تلك اللحظة للملمس البارد على خدها، فنهضت مفزوعة وهي تنظر للجالس قربها والظلال تتماوج على وجهه..
شهقت بشيء من الذعر لدى إدراكها أنه ليس حلماً، عندما سمعت همسه يقول "هذا أنا يا فتاتي.. لا تخافي.."
فهمست بدورها بصوت حاولت السيطرة على رجفته "هارولان؟"
شاهدت بسمة ترتسم على شفتيه وهو يحيط وجهها بيديه مغمغماً بحنان "أجل.. عدت إليك يا زهرتي.."
حاولت بي ناريا تهدئة نفسها ودقات قلبها المتسارعة.. لكن قبل أن تتفوه بكلمة سمعت الرئيس ينادي هارولان، فقال لها "عودي لنومك يا زهرتي.. لم أرغب بإيقاظك، لكن لم أستطع فور وصولي إلا أن أُطَمْئِن قلبي برؤية وجهك الحبيب.."
ووقف مبتعداً تجاه الرئيس فيما جلست بي ناريا بعد أن طار النوم من عينيها.. تنهدت بارتياح وهي ترى وجه هارولان على ضوء النيران التي يجلس قربها الرئيس، وتأكد لها أنه بخير لم يصب بمكروه..
اقتربت من النار القريبة منها محاولة الحصول على بعض الدفء وهي تفكر في المهمة التي استغرقت من هارولان كل هذه المدة.. خاصة أنه ذهب لينجزها بمفرده دون الاستعانة بأحد.. لكنها علمت أنه لن يفوه بكلمة مما جرى له..
أما هارولان، فقد بادر الرئيس فور جلوسه قربه بالقول "لا تقلق.. لقد أتممت مهمتي على أفضل وجه.. أما استطعت تركي لأنعم ببعض الوقت مع فتاتي؟"
ابتسم الرئيس معلقاً "بودي ذلك طبعاً.. لكن ما نحن فيه أهم من أي شيء آخر.. أخبرني بما فعلته منذ مغادرتك حتى الآن.."
قال هارولان "لقد وصلت إلى موقع الحمولة فاطمأننت أن الجنود لم يعلموا بموقعها بعد.. لقد أحسن الرجال بتغيير موقعهم لكي لا يداهمهم الجنود على حين غرة.. فقُدْتُهم إلى المدينة بعد أن موّهنا الحمولة لكي لا ينكشف أمرها أمام الجنود.. وأرسلت عدة رجال قبلنا يستطلعون الأمر، فعادوا بخبر مذهل عن وجود مدخل خلفي للمدينة، ويبدو أن الجنود لا يعلمون عنه شيئاً"
قال الرئيس بدهشة "مدخل خلفي؟ كيف؟"
أجاب هارولان "مدخل لن يخطر على بال أحد.. وقد لمح رجالنا بعض المتسللين يستخدومنه بالصدفة البحتة.. لكنه للأسف لا يتحمل دخول هذا العدد الكبير من الثوار وإلا انكشف أمره على الفور.. لكن لكي نستطيع إدخال الحمولة عبره كان علينا الحفاظ عليها من البلل، لذلك...."
قاطعه الرئيس بغير تصديق "البلل؟ لقد أفسدت الحمولة تماماً أيها الأحمق"
ضحك هارولان معلقاً "وهل أنا أحمق بالفعل لأعرضها للبلل وأنا أعلم ما تحتويه؟ لقد تفادينا هذه النقطة بحيلة بسيطة تماماً.. غطيت الصناديق بشكل محكم بمادة يستخدمها المزارعون لحفظ حبوبهم من البلل، جلبتها من

مزارع قريبة من المدينة بمبلغ كبير.."
تساءل الرئيس "وكيف عرفت بوجود مثل هذه المادة وأنت لا خبرة لك في الزراعة وأدواتها؟"
أجاب هارولان "كنت أبحث بالواقع عن صناديق محكمة ضد البلل، لكن أحد المزارعين قد دلّني على هذه المادة ووصفها بأنها أفضل في الحفاظ على محتوى الصناديق.."
قال الرئيس "أتمنى ألا تكون قد كشفت هويتك أو محتوى الصناديق لهم؟"
هز هارولان رأسه نفياً قائلاً "اطمئن.. بعد ذلك تسللنا بالحمولة كاملة على عدة مراحل مستغلين الظلام وكون الكشافات المستخدمة في الأبراج القريبة لا تكشف تلك البقعة.. وفور تجاوزنا للسور عملت على إيصالها لموقعها الذي حددته لي وسلمتها لرجلك شخصياً.. ولقد تأكدت أنها سليمة لم يمسسها البلل البتة بعد وصولها.."
قال الرئيس زافراً "أحسنت صنعاً.. تلك كانت أهم عقبة في طريقنا وقد تجاوزناها.. لكن هل تستطيع أن تدلني على موقع ذلك المدخل؟ سأضعه في حسباني فقد أحتاج لاستخدامه عند دخولنا.."
استخرج خارطة من جواره وفتحها، فنظر هارولان إليها للحظات قبل أن يغمغم قائلاً "أعتقد أن هذا هو موقعها.. لست متأكداً قرب أي مدخل كنا لأن المدينة دائرية وجميع تفاصيلها الخارجية من أبواب وأبراج وقنوات متشابهة.. كما أنني لم أكن أحمل أي خارطة لأتأكد من موقعي.."
بعد جلسة طالت مع الرئيس، رأى هارولان بي ناريا تقترب منهما وهي تقول "ألم تنتهيا من حواركما بعد؟ يجب أن تنال قسطاً من الراحة يا هارولان فغداً يومنا حافل.."
جلست قربه عند النار وهو يبتسم مجيباً "تكفيني رؤية وجهك الجميل لأشعر بالراحة"
تورد خداها لقوله لكنها قطبت معلقة "هذا قول فلسفي.. عندما نبدأ بالرحيل غداً ستكون قد استنفدت طاقتك وستستسلم للنوم دون اعتبار لأحد"
ضحك هارولان معلقاً "يا للرقة.. وهل اعترافي بمكنون نفسي قول فلسفي؟"
قاطعهما الرئيس وهو يقول "غداً يوم حافل بالفعل.. انعما بالراحة فقد لا تحصلان على راحة أخرى قبل انقضاء الأمر كله.."
غمغمت بي ناريا "أتمنى أن لا تطلع الشمس بعد غد إلا ونحن منتصرون على مانيم"
ضحك الرئيس معلقاً "أنت متفائلة.."
فقال هارولان بجدية "أريد أن تلجأ جوين إلى مخبأ آمن في المدينة.. لا أريد تعريضها للخطر في هذه المرحلة"
نظرت له بي ناريا بدهشة وضيق فيما قال الرئيس منقلاً بصره بينهما "هي لم تقطع هذه المسافة معنا كي تختبئ عند اشتداد الأحداث.. نحن بحاجة لها في القصر وهي قد وعدت بمساعدتنا"
قالت بسرعة "هذا ما سيحدث.. يمكنني المساعدة بعدة طرق ولست أخاف من الخطر"
اعترض هارولان قائلاً "لكن ما سيحدث في العاصمة يختلف تماماً عن كل ما مررنا به في طريقنا إلى هنا.. أخاف أن يمسّك سوء وسط المعمعة التي ستحدث دون أن أتمكن من حمايتك.."
قالت معترضة "لكني يجب أن أعود إلى القصر.. أنا الوحيدة بينكم التي تعلم بموقع بي ناريا.. ويمكنني معرفة

الجنود المخلصين لها وإقناعهم بالانضمام إليكم في التخلص من مانيم.. أنتم بعددكم الضئيل هذا لا يمكنكم التغلب على جنود مانيم كلهم.."

قال هارولان بجدية "الأمر ليس بالعدد بل بالخطط.. وأنا لا أقبل تعريضك للخطر مهما حاولت اقناعي.."

فقال الرئيس "لا يمكنك أن تقرر شيئاً كهذا الآن يا هارولان.. على جوين مساعدتنا في التسلل للقصر وجمعنا بالجنود الذين تثق بهم.. وفور أن تتم مهمتها يمكنها اللجوء للاختباء وانتظار انتهاء ما بقي من المراحل الخطرة.."

ظهر الضيق جلياً على وجه هارولان، فيما هزت بي ناريا رأسها موافقة.. وعندما التفتت إلى هارولان وجدته واجماً بصمت والقلق ظاهر على وجهه، فمالت بي ناريا تجاهه هامسة "ألم تعِد أن تحميني دائماً؟"

قال بضيق "حمايتك هنا أمر وحمايتك وسط الجنود أمر آخر.."

صمتت بي ناريا دون تعليق وهو يعزف عن الحديث بدوره.. لكن قطع صمتهم صوت حوافر تقترب منهم بشكل حثيث، فوقف هارولان متأهباً ويده تمتد إلى سلاحه بسرعة، لكن إشارة من أقرب الرجال الذي يراقب الموقع أنبأتهم عن حقيقة القادم الذي لم يكن إلا أحد رفاقهم.. فهدأ هارولان من جديد والرجل يتقدم من الرئيس ويهبط عن ظهر التوكور ليقترب من النار مغمغماً "البرد شديد هذه الليلة.."

سأله الرئيس "ما الذي جاء بك من يانا قبل موعد التقائنا؟ هل جدّ جديد؟"

قال الرجل وهو يفرك يديه أمام النار "بلى.. أثناء اختبائنا رأينا جنديين يتسللان في الجوار، كدنا نطلق عليهما النيران لكن وجود فتاة معهما منعنا من هذا فقبضنا عليهم خوفاً من كشفهم لموقعنا أو اقترابهم من موقعكم وإفشال خطتنا.."

تساءل الرئيس "وبعد؟"

قال الرجل مكملاً "كانت الفتاة تهذي بكلام كثير.. عرَفَت أننا لا ننتمي لمانيم ولست أدري كيف عرفت أننا من الثوار.. وهي تسألنا عن بي ناريا بإلحاح"

قطب الرئيس مفكراً في معنى ما سمعه بينما ارتجفت أعماق بي ناريا وهي تدرك أن أمرها سيفتضح ولا شك.. سمعت الرجل يضيف "تقول الفتاة أن بي ناريا ليست في القصر ولا في يناسّا كلها، وأنهم يبحثون عنها بأوامر من الملكة الأم.. يبدو أنها أفلحت بالهرب من مانيم"

تساءل الرئيس "ألا يعلمون إلى أين هربت؟"

قال الرجل وابتسامة ساخرة لم تفت بي ناريا ترتسم على وجهه "يبدو أنها هربت إلى هيمانيا.."

امتزج الاستنكار بالسخرية في وجوه الرجال من حولها ممن كان مستيقظاً، مما جعل بي ناريا أكثر قلقاً وارتباكاً.. وهي تصغي للرجل يضيف "ماذا نفعل بهم؟ نحن لا نثق بهم تماماً ونخشى إن أطلقناهم أن يبادروا لإبلاغ مانيم بأمرنا.."

قال الرئيس "لا يمكن أن نطلقهم ونحن على أبواب بدء مهمتنا.. أحضروهم إلى هنا وسأحقق معهم بنفسي.. ولا تنسوا تجريدهم من الأسلحة.."

فقال الرجل وهو يمتطي التوكور من جديد "حسناً.. موقعهم بعيد بعض الشيء.. لذلك سأحاول إحضارهم قبل طلوع الشمس.."

وانطلق مسرعاً كما أتى، بينما غمغم الرئيس متنهداً "هذا يغير أموراً كثيرة"

بينما بقيت بي ناريا تحدق في النيران واضطرابها يتزايد.. من هم هؤلاء الذين يبحثون عنها؟ هل تعرفهم؟ وهل سيتعرفونها بتنكرها هذا إن رأوها بين الثوار؟ قضت الساعات الباقية على النهار في ارتباك متزايد وهي غير قادرة على تهدئة نفسها أو العودة للنوم.. بينما انشغل هارولان مع الرئيس في حديث جانبي لم تسمع منه شيئاً..

وقرب الفجر، ومع إدراك بي ناريا أن قدوم الرجال مع الجنديين من العاصمة قد اقترب، لم تستطع السيطرة على قلقها الذي انقلب خوفاً مذعوراً.. كان الجمع قد استيقظ وجلسوا بانتظار رفاقهم قبل بدء المسير إلى يناسّا.. ففكرت بي ناريا أنه من الأفضل لها الإبتعاد والإختباء حتى تتأكد من هوية القادمين من يناسّا.. لا تريد لأمرها أن ينكشف وهي قاب قوسين من النجاح.. فنهضت من مكانها بغية المغادرة، لكن هارولان أمسك يدها متسائلاً "إلى أين؟"

قالت دون أن تفلح في إخفاء اضطرابها "أريد الابتعاد.. أخشى مقابلة أناس من القصر.. ولا تنسى أنني مطلوبة من مانيم.."

جذبها لتجلس من جديد قائلاً "لا تخشي شيئاً وأنا معك.. لن يجرؤ أحدهم على مسّك بسوء.."

ظهر القلق والتوتر جلياً على وجهها، فأحاط كتفيها بذراعه وأمسك يديها المشتبكتين بيده مغمغماً "ألا تثق بي زهرتي؟"

خفضت بصرها هامسة "أثق بك، لكني لا زلت خائفة.."

فقال "لقد طلبتِ مني حمايتك.. فعلى الأقل امنحيني ثقتك.."

منحته ابتسامة مضطربة وهي تقول "لم أتردد في الثقة بك يوماً.."

لمس خدها هامساً "أحقاً أنت لي؟"

تطلعت إلى وجهه الحاني والدفء يغمرها قائلة بصوت خافت "أنا لك دائماً.."

ابتسم هارولان بسعادة غامرة وهو يضم كتفيها بقوة أكبر، فيما أراحت بي ناريا رأسها على كتفه وشيء من الهدوء يتسلل إلى أعماقها مزيلاً اضطرابها..

بدت لها مخاوفها بعيدة وكأن لا وجود لها.. من المستحيل أن يسمح هارولان بأي ضرر أن يصيبها.. من المستحيل أن يسمح لرفاقه بأن يؤذوها مهما كان غضبهم شديداً.. بل من المستحيل أن يغضب هارولان أو يكرهها لو عرف حقيقتها..

شعرت أن هذا هو المكان الذي لا تود مغادرته، إلى جانب هذا الرجل.. ولدهشتها لم تبد فكرة الانضواء تحت جناحه مرعبة لهذه الدرجة.. في الواقع وجوده قربها منحها شعوراً بالأمان لم تقدر الجيوش المحيطة بالقصر منحها إياه.. ابتسمت وهي تتخيل ردة فعل والدتها للتغيّر الذي ألمّ بشخصيتها.. قد لا تصدق أنها هي ذاتها

بي ناريا التي كانت تصفها بالقسوة وانعدام المشاعر.. أما الآن.....

ظهر عدد من الثوار في تلك اللحظة يحيطون بالجنديين والمرأة الذين قبضوا عليهما، وفور أن ظهر وجه المرأة لبي ناريا جلياً اعتلاها الذعر وهي تتعرف جوين التي أخذت تتلفت في وجوه الجميع قلقة.. فهبّت بي ناريا على الفور مديرة ظهرها وهي تنوي الابتعاد قبل أن تقترب أكثر وتراها، لولا أن استوقفتها شهقة جوين المندهشة وهي تصيح "مولاتي..؟!"

تجمدت بي ناريا مكانها والصمت يسود البقعة وكأنه كان هناك منذ الأزل.. شعرت بارتباكها يشعل لهيباً في أعماقها، فيما انساب العرق البارد على صدغيها وهي تشعر بأنظار الجميع سهاماً ساخنة تخترق ظهرها.. لم تتوقع أن ينكشف أمرها بهذه السرعة.. لكنه حدث.. وعليها مجابهة الأمر رافعة رأسها كملكة.. استدارت نحو جوين وهي تشعر بالعيون متعلقة بها باستنكار مذهول.. فيما أسرعت جوين ومن خلفها الجنديين بالركوع أمامها وجوين تقول بغير تصديق "مولاتي الملكة.. من كان يتوقع أن أجدك هنا ومع هؤلاء؟ ستسعد الملكة الأم بسماع هذا الخبر.. ستسعد حتماً"

تصاعد الاستنكار واللغط من حولها وهي تشعر بضيق لم تظهره.. ألهذه الدرجة أنت حمقاء يا جوين؟ كان عليها الانتظار حتى تخلوان معاً، لا أن تكشفها بهذه الطريقة وأمام الجميع..

تابعت جوين وبي ناريا ترى دموعاً تحتشد في عينيها "لقد طلبت مولاتي الملكة الأم أن أنطلق بحثاً عنك.. لقد أكلها الخوف عليك طوال هذه المدة، ولم تسكن وهي لا تعرف أنجوت من سقوط الطائرة أم لا.. إنها مريضة جداً، وهي كانت تود أن تراك ولو لمرة قبل أن تموت"

قالت بي ناريا بقلق "الملكة مريضة؟ ما بها؟ ماذا قال الأطباء عنها؟"

قالت جوين بمرارة "مانيم قد منع جميع الأطباء من الاقتراب من جناحها، وهي محجوزة هناك حجزاً إجبارياً منذ شك بمساعدتها لك في الهرب.. ولو كان قادراً على قتلها لفعل منذ أمد بعيد"

سمعت بي ناريا الرئيس يقاطعهما قائلاً ببطء وهو يقف "أأنت حقاً الملكة؟ الملكة بي ناريا ذاتها؟"

أجابت بي ناريا رافعة رأسها "أجل.. أنا الملكة بي ناريا.."

زيّن لها غرورها للحظة أنها سترى الرجال يركعون لها، لكن بدا أن عكس هذا قد حدث، إذ نهض الجميع وقوفاً بوجوه قاتمة مرعبة، فيما قال الرئيس وكأنه يحاول الاستيثاق من الأمر "لكنني رأيت صورة الملكة، وأنت لا تشبهينها كثيراً"

قالت بي ناريا "لا تتوقع مني أن أجول بهيئتي الحقيقية.. لكنني أنا الملكة بي ناريا ذاتها.."

كانت مثبتة بصرها على وجه الرئيس متجنبة النظر إلى وجوه الآخرين.. لكن رغماً عنها وجدت نفسها تنظر إلى وجه هارولان الواقف إلى جوارها.. لم تتبين حقيقة مشاعره تماماً.. كان مذهولاً... جامداً... مستنكراً... مرتعباً... أي من هذه المشاعر وربما كلها.. من بين الجميع كانت مشاعره هو أكثر عنفاً..

لم تستطع الصمود أمام نظراته المثبتة على وجهها فالتفتت إلى الرئيس مجدداً مغالبة ضعفها لتقول "ربما ترغبون مني تفسير ما يحدث.. لكني لا أجد أنني مطالبة بتفسير أي شيء"

قال الرئيس مبتلعاً دهشته "لا نريد منك أي تفسير.. فسبب ما فعلته واضح وضوح الشمس"
قطبت وهي تحاول فهم قوله، عندما شعرت بهارولان يتقدم منها خطوة مغمغماً بأنفاس ثقيلة "أنت الملكة؟"
انتفض قلبها لصوته الذي يحمل رنة لم تسمعها من قبل، لكنها لم تلتفت إليه لئلا تظهر ضعفها وهي تجيب شامخة "لست بحاجة لأن أكرر ذلك.."
فوجئت بالرئيس يقول بصوت عالٍ ولهجة حازمة "قف مكانك يا هارولان.."
نظرت تلقائياً إلى هارولان فوجدته ينظر إليها بنظرة أرعبتها ووجهه يحمل غضباً هائلاً لم تعرف سببه، عندما عاد الرئيس يقول بصوت أشد "ابتعد عن هذا المكان حتى تهدأ.. الآن"
ظل هارولان ينظر إليها بنظرات ملتهبة، ثم استدار على الفور وجدّ الخطى بعيداً دون أن يعلق فرد على ما حدث.. بينما ظلت بي ناريا تنظر إلى حيث اختفى وهي تشعر بارتجاف أعماقها.. أهو غاضب لهذه الدرجة لأنها خدعته؟ لا يستحق هذا كل ما قرأته في عينيه..
قطع تفكيرها قول الرئيس بصوت هادئ "هذا يغير كل شيء.."
قالت بي ناريا متحدية "ما الذي تغير؟ أنتم كنتم ذاهبين للعاصمة لتحرير الملكة.. وها هي محررة أمامكم.. فلم لا تمضون في مخططاتكم؟ ألم تكونوا راغبين بإزاحة مانيم؟ إذن أهدافنا واحدة"
قال الرئيس "الأمر ليس بالسهولة التي تظنينها.. وأظنني بحاجة للتشاور مع رجالي حول الخطوة التي سنتخذها الآن.. بعد إذنك طبعاً.."
فهمت من تلميحه أنه يود الاختلاء برجاله، فابتعدت بي ناريا بوجه مرفوع وهي تشير لجوين لكي تتبعها.. ولما اختلتا بعيداً عن الآخرين قالت لها بغضب "ما زلت حمقاء كما عرفتك دائماً.. ألم تدركي أنك تعرضين حياتي للخطر؟"
شحب وجه جوين بشدة وهي تغمغم "لم أقصد ذلك مولاتي.. عندما علمت أنهم الثوار الذين قدموا لقلب العرش على مانيم، جعلني هذا آمن جانبهم وأثق أنهم معنا في صف واحد"
قالت بغيظ "إنهم ثوار.. يريدون قلب الحكم، عليّ أو على مانيم لا فرق.. ولولا أن رئيسهم حكيم وغير متسرع لمزقوا أعناقنا جميعاً في ثانية واحدة"
انحنت جوين قائلة "سامحيني مولاتي.. أعترف بغبائي واندفاعي.. لكنني دهشت عندما رأيتك بينهم، وظننت أن الجميع يعرفون هويتك"
زفرت بي ناريا مغمغمة بحنق "كيف لي أن آمن وأنا محاطة بمن يكرهونني؟"
ثم حاولت تجاوز أفكارها هذه وهي تقول لجوين آمرة "أخبريني بكل ما دار في القصر منذ هروبي.. ماذا فعل مانيم الحقير بالملكة؟ أرجو ألا يكون قد مسّها بسوء"
قالت جوين والضيق يبدو على ملامحها "منذ هروبك قَلَبَ مانيم القصر رأساً على عقب بحثاً عن الخونة الذين ساعدوا في تهريبك.. ولم يكن صعباً عليه أن يشير إلى الملكة الأم بالاتهام.. حاول منها أن يعرف المتعاونين معها في ذلك، أو يعرف إلى أين هربتِ وكيف.. لكنها رفضت الإدلاء بكلمة واحدة.. فما كان منه إلا أن حجزها

في جناحها بحراسة مشددة لا يسمح لأحد بالدخول عليها سواي، كي أزودها بالطعام والشراب.. وقد تعهدها بأن يقتل مولاتي الملكة أمام عينيها، وبعد ذلك سيقتل الملكة الأم ويرمي الجثتين خارج القصر دون دفن يليق بهما عبرة للآخرين.."

قطبت بي ناريا بغضب وجوين تضيف "بدأت الملكة تمرض وهي أسيرة أفكارها وخوفها عليك.. مهما حاولتُ تهدئتها كانت تزداد مرضاً وهواجساً.. صرت أخاف أن تنام فلا تستيقظ.. ومنذ أيام قليلة طلبت مني أن أبحث عنك وأعود إليها بأخبارك.. أوصتني ألا أعود إليها قبل أن أصل إليك.. حاولت العثور عليك مولاتي بأسرع ما أستطيع كي أعود إلى الملكة الأم لأطمئنها وأعتني بها قبل أن تسوء حالتها أكثر من ذلك....."

سألتها بي ناريا "وكيف علمتم أنني هنا؟"

قالت جوين "لقد أبلغنا المستشار بوجودك في هيمانيا وأنك ربما لجأت للثوار.. لم أستطع الذهاب إلى هيمانيا جواً لكي لا ألفت الأنظار لكون الطائرات المسموح لها بالنزول في ذاك الإقليم تتبع الوالي فقط.. لذلك قررنا سلوك الطريق البري الممتد عبر سيرالدا ونيما حتى الوصول إلى هيمانيا.. ومن حسن حظي أننا التقينا بك هنا غير بعيد عن يناسّا.."

وتطلعت إلى بي ناريا قائلة "يجب أن نعود بأسرع ما يمكن يا مولاتي.. مولاتي الملكة بحال سيئة.. ولابد ستصبح أفضل حالاً عندما تراك وتطمئن عليك.."

قالت بي ناريا "لابد أن أنتظر رأي الثوار فهم سيمنحوني الحماية اللازمة في المدينة والقصر.. وماذا استجد في القصر والمدينة غير ذلك؟"

انطلقت جوين تشرح لها ما رأته ولاحظته تحت حكم مانيم، وبي ناريا تستمع إليها وغضبها يتزايد لحظة فلحظة.. الويل لك يا مانيم.. الويل لك..

****

بعد أن أنهت بي ناريا حديثها مع جوين، لم تجد بداً من العودة إلى بقية الرجال وقد عزمت على الاتفاق مع الرئيس كي يستطيع كل منهما تحقيق أهدافه.. هي بالعودة إلى العرش والانتقام من مانيم، وهو بتحقيق العدل الذي ينشده.. كانت لا تعلم ما هي فكرته عن العدل، لكنها قررت أن هذا أفضل شيء لتقنع الثوار بمساعدتها، ومتى تولت الحكم، فلكل حادث حديث..

عندما وصلت إلى حيث اجتمع الآخرون بحثت تلقائياً ببصرها عن هارولان.. فلم تعثر عليه بينهم.. غمرها شيء من القلق عليه واستدارت لتتبع الطريق الذي رأته يتخذه عندما غادرهم.. ماذا تقول له؟ بأي كلمة ستبدأ؟ بأي شيء ستبرر ما فعلته؟ هو الذي وثق بها ومنحها حبه وحمايته.. وهي التي خدعته.. هل سيصدق أن خوفها من خسرانه هو الذي جعلها تحتفظ بصمتها مدة أطول بعد أن اعترف بحبه لها؟ ليته يفعل.. قد يعذرها إذ ذاك..

رأته جالساً فوق العشب وحيداً وإن لمحت غضبه من كتفيه المشدودتين وعروق رقبته النافرة.. توقفت مترددة

لثانية، ثم اقتربت بهدوء هامسة "هارولان.."
فوجئت به يقفز واقفاً وهو ينظر إليها بعينين مرعبتين، فتراجعت خطوة وهي تقول متوترة "هارولان.. ما بك؟"
قال من بين أنفاسه الثائرة "لماذا كذبت عليّ؟"
قالت وهي تخفض وجهها "لم أقصد أن أكذب عليك.. خشيت أن تبتعد عني إن عرفت حقيقتي.. أردت أن استوثق من حبك لي قبل أن أكشف كل شيء.."
بدا اشتعال غضبه واضحاً لعينيها وهو يصيح "خشيت؟ هذه كذبة جديدة.. كنت تتلاعبين بي، كما تلاعبت بالجميع.. لكني كنت أحمقاً.. كان يجب أن أرى حقيقتك مع كل ذلك الكبرياء والعجرفة اللذين تتحلين بهما.. ربما كنت ستستمرين بكذبك حتى جلوسك فوق العرش.. ماذا كنت ستفعلين عندها؟ تأمرين بقتلنا جميعاً؟"
هتفت بعينين متسعتين "أقتلكم؟ كيف يمكن أن تظن هذا بي؟ أقتلك أنت؟ أبهذا السوء تراني؟"
قال من بين أسنانه التي يضغط عليها بشدة "بل أسوأ.."
بهتت لقوله وهي تنظر إلى وجهه محاولة استشفاف حقيقة ما يقوله.. إنه يمزح.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً.. ثم قالت له بهمس "ألم تعد تحبني؟"
أدار ظهره لها وهو يقول بحدة "الملكة بي ناريا لا تستحق حب أحد.."
احتقن وجهها لتجريحه هذا، ثم صاحت بغضب "أنا لا أفهم سبب رفضك لي.. لماذا؟ مهما اختلفت هويتي، فوجهي هو ذاته.. فلماذا تكرهني؟"
قال بغضب شديد "وهل الوجه هو كل شيء؟ مهما كان وجهك فاتناً، ما دمت أنت من أنت فهذا ينسف كل شيء.. لقد أحببت قلبك الذي كنت أحسبه طيباً ونقياً.. ولم أكن أعلم أنك تخدعينني"
قالت بحدة "أنا لم أخدعك.. لو كان ما تقوله صحيحاً فما الذي تغير؟ أنا مازلت أنا.. لكنك أنت من تغير"
فقال وصوته يعلو بشدة "بالطبع تغيرتِ.. هناك فرق كبير بين الوصيفة جوين وبين الملكة بي ناريا.. فرق أكبر من أن تدركيه وأنت عشت مرفهة في القصر.. لا تبالين بالجثث التي تيسرين عليها ولا بالدماء التي تسيل حول القصر، مادامت لن تلطخ أطراف ثوبك الحريري.."
احتقن وجهها وهي تقول "هذا.. هذا كان سابقاً.. الآن أنا تغيرت.. عندما عرفتكم أدركت ما كنت أجهله سابقاً.. بعد أن عرفتك أنت يا هارولان تغيرت.. صرت أدرك أن الحياة ليست كلها حكماً وسياسة.. هناك شيء أجمل فيها، شيء لم يعلمني إياه أحد غيرك.. فهل ستنبذني الآن؟"
قال مشيحاً بوجهه عنها "إنسي كل ذلك إذن.. فكل ما بُني على خداع كان زيفاً"
بهتت لقوله لحظة، ثم غمغمت بغير تصديق "زيفاً؟.. إذاً ما الحقيقة؟"
قال بصوت جاف "الآن أنا لا أطيق النظر إلى وجهك"
وغادر المكان بسرعة تاركاً إياها ترتجف، لكن كبريائها منعها من إظهار ضعفها وهي تشمخ برأسها وتستدير عائدة إلى البقية بخطوات واثقة مدمدمة لنفسها "فليكن ما يكون.. هذا يثبت لي أنني حقاً لا أنتمي لهذا العالم.. مكاني هناك، في القصر، وفوق العرش.. هذا هو المكان الوحيد الذي أنتمي إليه"

حاولت أن تتجاهل قلبها الذي يخفق بألم.. أن تتجاهل عينيها اللتين احتشدتا بالدموع.. أن تتجاهل الغصة التي تشعر بها.. لكنها عندما عجزت عن ذلك، قالت بحنق "تباً لهارولان.. من يظن نفسه؟ أيحسب أنني سأنهار عندما يصدّني وأرجوه أن يعود إليّ؟ صدّه لي لن يجعلني أفقد ثقتي في نفسي.. لن يجعلني أبكي أو أحزن.. أنا قوية وسأبقى كذلك"

لكن روحها التي هوت في الحضيض أنبأتها أنها تكذب على نفسها.. دموعها التي تساقطت على وجنتيها أكدت لها انهيار قلبها.. تباً لك يا هارولان.. ما الذي فعلته بي؟..

****

اقترب الرئيس من هارولان الذي كان جالساً فوق صخرة يتأمل الأفق المنير الذي دلّ على قرب طلوع الشمس.. لا يكاد يأتي بحركة تدلّ على أن روحاً تسكن جسده.. فربت الرئيس على كتفه دون أن يلتفت هارولان إليه.. ثم قال "أفهم ما تشعر به.. تلك كانت صدمة كبيرة لنا جميعاً.. لكنها كانت صدمة بشعة عليك"

أطرق هارولان بصمت والألم يفيض من عينيه، فأضاف الرئيس "ورغم كل ذلك، أطلب منك الانتظار.. لا تُقْدِم على فعل شيء قد يضرّ بنا وبما نطمح لتحقيقه"

غمغم هارولان بمرارة "تقصد ألا أقتلها الآن؟"

أومأ الرئيس إيجاباً وهو يجلس إلى جواره قائلاً "هذا ما عنيته بالضبط.. وإن كنتُ لست متأكداً أنك مازلت عازماً على ذلك"

شعر هارولان بغصة في حلقه وهو يقبض بشدة على قلادة فضية في يده، ثم قال مكتئباً "ما عدت أعرف ما يجب عليّ فعله.. كيف لي أن أنسى؟ كيف لي أن أتجاوز الأيام التي قضيتها والكوابيس تلاحقني كل ليلة؟ صرت حائراً بين ما أريده الآن وبين ما كنت أريده"

سأله الرئيس مبتسماً "أنت تحبها مهما كان الأمر، أليس كذلك؟"

قال هارولان بمرارة "لا أستطيع أن أتناسى كل المشاعر التي احتلت صدري منذ عرفتها.. لكنني أيضاً لا أستطيع نسيان ما أصبحت عليه بسببها وبسبب أبيها.. كيف أنسى من أفقدتني إياهم؟ كيف أخونهم وأخون الوعد الذي قطعته على نفسي وأنا أرى أجسادهم غارقة في الدماء من حولي؟ لو أنني لم أقع في شراكها، لقطعت رأسها فور أن أدركت هويتها قبل أن ينتبه أحدكم لشيء.. أما الآن...."

قاطعه الرئيس بهدوء "أنت متأكد أنها شراك نصبتها لك؟ أليس حباً حقيقياً ما غزل خيوطه بينكما؟"

هتف هارولان بانفعال حاد "حباً؟ أتسمي تنكرها وخداعها حباً؟ أتسمي كذبها وادعائها حباً؟ شخص مثلها لا يمكن أن يحب إلا نفسه.. لقد كذبت عليّ، وأوهمتني أنها تحبني كي تحقق أهدافها.. كانت تريد العودة إلى العرش من جديد، وهي قد استخدمتني كوسيلة ليس إلا، كما استخدمتكم جميعاً"

قال الرئيس "ضع نفسك مكانها.. كيف تتوقع منها الاعتراف بهويتها أمام أعدائها ومن يرغبون بالإطاحة

برأسها؟ كيف لها أن تخبرك بحقيقتها وهي قد عرفت منذ البداية أنك تكرهها؟ لقد عَرَفَت منذ مدة أنها لو أخبرتك الحقيقة فستخسرك على الفور، وهو ما حدث بالفعل"

صمت هارولان مطرقاً دون تعليق، فعاد الرئيس يربت على كتفه قائلاً "ربما من المفترض أن أقول لك أن تنسى الماضي وتتبع سعادتك.. إن الانتقام لن يفيد.. لكني لست متأكداً أن هذا القول سيشفي غليل قلبك أو سيجعل جراحك تلتئم.. هذه حياتك ولك مطلق الحرية فيما تفعله فيها.. كل ما أطلبه أن تنتظر حتى نحقق حلمنا بنشر العدل في كوكبنا.. بعدها افعل ما تريد"

غمغم هارولان بخفوت "أنا أدرك ذلك.. لا تقلق فلن أخالف أمرك"

غادر الرئيس المكان بصمت تاركاً هارولان الذي لم تفارق عيناه القلادة وهو يشدّ عليها بيده بقوة.. وتمتم لنفسه بمرارة "كيف لي أن أصبر وأنا أراها كل يوم؟ كيف أصبر وأنا أراها تضحك بسعادة بينما أنا فقدت كل شيء؟"

****

جلست بي ناريا بصمت في موقع بعيد قليلاً عن الثوار المجتمعين، وجوين قريبة منها تتأملها بصمت بدورها، بينما وقف الجنديين على مبعدة يراقبان بتحفز رغم أن الثوار قد جردوهما من أسلحتهما.. وبين لحظة وأخرى تغمغم بي ناريا بحنق "لقد تأخروا.. هل يستحق تداول الأمر بعد اكتشافهم حقيقتي كل هذا الوقت؟"

تساءلت جوين "هل تثقين بهم يا مولاتي؟"

قالت بي ناريا مقطبة "قطعاً لا أثق بهم ثقة مطلقة.. ما يجمعنا هو حاجة مشتركة، لكنهم كذبوا علي ولاشك في رغبتهم تحريري.. أغلب الظن أن هدفهم الإطاحة بي أيضا.."

فقالت جوين "أليس من الأفضل أن نهرب منهم قبل أن يعمدوا إلى أذيتنا؟"

قالت بي ناريا "ليس الآن.. إنهم رغم كرههم لي لا يمكنهم ايذائي.. أنا أعرفهم جيداً وأعرف أنهم لا يمكن أن يفعلوا هذا، وربما أقصى ما سيفعلونه هو حبسي.. لن أضيّع فرصة التعاون معهم وأستسلم للشك"

ابتسمت جوين معلقة "لقد تغيرت مولاتي كثيراً في الأسابيع الماضية"

تساءلت بي ناريا بضيق "ماذا تعنين؟"

قالت جوين "أصبحت أكثر نضجاً، وأكثر صلابة من ذي قبل.. وكأنك قد كبرت عدداً من السنين دفعة واحدة"

قالت مقطبة "ما مررت به خلال هذه الاسابيع أسوأ مما رأيته طوال حياتي في القصر.. ولابد أن يؤثر هذا فيّ.."

رأت الرئيس يقترب منها مما دفعها لتقف وتسأله "علام استقررتم؟ هل تقبلون عرضي لكم؟"

قال الرئيس بهدوء "لا يزال الأمر يحتمل الجدال.. لا أريد أن نخطو خطوة قبل أن أطمئن إلى موافقة جميع الرجال عليها.. خذي قسطاً من الراحة فقد بقيتِ مستيقظة الليلة بطولها.. سأبلغك قرارنا قبل انتصاف

النهار.."
ظلت تنظر له بحنق وهو يبتعد وهي تغمغم لنفسها "تباً لكم.. لم كل هذه المماطلة؟"
رأته يقف فجأة قائلاً لها "أتمنى ألا تحتكي كثيراً بهارولان.. فهذا أأمن لك حالياً.."
نظرت له بدهشة وهو يبتعد، مقلبة ما قاله في عقلها ومحاولة استنتاج أسبابه.. هل أصبح هارولان خطراً عليها الآن؟.. جلست تحت أقرب شجرة وهي لا ترغب بالتفكير في أمره أكثر وإيلام قلبها به أكثر وأكثر.. والتفّت بمعطفها وهي تقول لجوين "سأرتاح قليلاً الآن.. أيقظيني قبل انتصاف النهار.."
اقتربت منها جوين وهي تنزع معطفها المصنوع من الفرو قائلة "تدثري بهذا يا مولاتي.. البرد شديد وهذا المعطف البالي لن يدفئك.."
نظرت بي ناريا إلى معطف جوين النظيف عطر الرائحة، وإلى معطف هارولان الذي بَلِيَ لكثرة الاستخدام، ثم قالت وهو تضم المعطف أكثر حولها "سأكتفي بهذا.."
استعادت جوين معطفها وهي تنظر لبي ناريا بعجب.. رغم أن معطف جوين، والذي منحته إياها الملكة الأم، لا يقارن بمعاطف بي ناريا المتعددة والغالية الأثمان، لكنه أفضل حالاً من هذا المعطف الذي اهترأ وحال لونه، ولا تعرف سر تشبث بي ناريا به وهي التي لم تكن ترْضَ بالقليل..
أما بي ناريا فقد حاولت النوم هرباً من كل الإحباطات التي مرت بها، وكأنها ترغم عقلها على عدم التفكير في أي شيء الآن.. رفعت ياقة معطفها وهي تدفن وجهها فيه مستعيدة ذكرى لحظاتها القليلة برفقة هارولان.. تمنت لو يكون بقربها الآن.. تمنت لو يمنحها الأمان والدفء لتنام بقلب قرير.. لكن تفكيرها فيه قد أبعد النوم من عينيها وهي تتساءل عن حاله.. لقد صُدِم بحقيقتها، وهي صدمت بقسوته عليها وإنكار حبه لها.. أحقا زال حبه لها لمجرد أنها أصبحت بي ناريا وليست جوين؟ هذا أمر مستحيل، لكنها لا تستطيع الاستيثاق من أمره الآن وهو في فورة غضبه..
ومع ارتفاع الشمس في كبد السماء، اجتمعت بي ناريا بالثوار ملاحظة جلوس هارولان في جانب المكان وهو لا يرفع بصره عن يده القابضة على شيء ما، ولم يلق عليها أي نظرة منذ قدومها.. حاولت ألا تظهر اهتماماً به وهي تسأل الرئيس "إذن.. ماذا قررتم بشأني؟"
قال الرئيس بعد لحظة صمت "أغلب رجالي هنا يرفضون قدومك معنا، ويطالبون بتركك ترحلين مع جنودك.."
تساءلت بانزعاج "والخطة؟"
قال الرئيس "الخطة ستمضي كما هو مقرر لها.. بدونك.."
فقالت بحدة "لماذا؟ هدفنا واحد، فما الذي يمنع معاونتكم لي حتى أعود للقصر؟"
ابتسم الرئيس معلقاً "هدفنا هو إزالة مانيم وإقامة مجلس حكم يحكم المملكة، بدل استفراد ملك واحد بها يلقي بأوامره جزافاً كما يشاء.. كنا نريد تعاون الوصيفة لتسهيل دخولنا إلى المدينة والقصر.. أما أنت، فأشك أن تكوني ذات عون لنا، هذا إذا أمِنّا عدم انقلابك ضدنا وأنت محاطة بجنودك"
قالت بعصبية"مجلس حكم؟ أنت تمزح.. أليس كذلك؟"

لم يبد في نظراته الجادة أي دليل على هذا، فقالت وحدتها تزداد "لكن أنا ملكتكم ووريثة العرش كما أوصى الملك الراحل.. لا يمكنكم معاملتي بهذه الطريقة وإزاحتي كما تشاؤون.."

قال الرئيس وصوته يكتسب صرامة "أنت ملكة نفسك ولا حكم لك علينا.. لم نلق في ولايتك وولاية الملك الراحل إلا العذاب والدمار، فهل تظنين أننا سنعيدك للحكم بهذه السهولة؟"

فهتفت بحنق "وهل تظن الجيوش الموالية للملك ستستسلم بهذه السهولة؟"

أجابها "ستستسلم لو أن هذا كان بإرادة شعب يناسّا والمملكة كلها"

فهمت من حديثه أنهم ينوون تأليب الشعب كله على حُكْم المملكة.. فعضت شفتها السفلى بغيظ، ثم قالت "ولا سبيل هناك لأي هدنة؟ يمكنني معاونتكم في خطتكم هذه أكثر من السابق، وعودتي للعرش لا تعني أنه لا يمكن إنشاء مجلس للحكم.. هذا حل وسط يرضي الجميع.. أنا لم آت من هيمانيا إلى هنا لأتخلى عن هدفي الآن.."

قال الرئيس بهدوء "لا يمكن هذا بأي حال.. نحن نتخلى عن حمايتك ومعاونتك ونطلب منك الرحيل مع أتباعك.. وأضمن لك ألا يتعرض رجالي لكم بسوء.. لكن إن تقابلنا في يناسّا فهذا أمر آخر.."

ظلت بي ناريا تتلفت بينهم وهي تفكر بشكل محموم.. هل تلقي بورقتها الاخيرة؟ كانت تلك الورقة هي وسيلتها الوحيدة لكسب معركتها ضد مانيم، فهل تشركهم فيها على أمل أن يتعاونوا معها أم تبقيها سراً مدة أطول؟..

عقدت عزمها فتقدمت من الرئيس قائلة بحزم "أريد محادثتك على انفراد.."

تساءل "إن كان هذا محاولة لإقناعي فالأمر لا يستدعي هذا.. قرارنا لن يتغير.."

قالت "إسمع ما أريد قوله وقرر بعدها"

نهض مبتعداً عن رجاله وهي تتبعه بصمت ملاحظة الأعين التي تحدق بهما.. ولما ابتعدا عن مسامع الآخرين سألها "ما هو هذا الأمر المهم؟"

جلست على صخرة قريبة وهي تقول "أملك معلومة أخيرة أخفيتها عنكم، من شأنها أن تقلب كفة النجاح لصالحكم بالتأكيد.. لكن استفادتكم بها مرهون بمعاونتي في العودة للقصر"

قطب الرئيس معلقاً "وما هو هذا الأمر؟.."

أجابت "هناك ممرات سرية في القصر.. لها مخارج ومداخل مخفية وتقود إلى أرجاء القصر كله.."

اتسعت عيناه بدهشة متسائلاً "أليس القصر مصنوعاً من البلور؟ كيف يمكن إخفاء ممرات سرية بين جدرانه؟"

لوحت بيدها قائلة "الجدران الخارجية فقط مصنوعة من البلور، أما الجدران الداخلية فهي من أحجار عادية.. هذه فكرة خاطئة شائعة عن القصر"

قال مفكراً "لكن مانيم لن يتيح لنا استغلال هذه الممرات بحرية"

ابتسمت بثقة مجيبة "أؤكد لك أن مانيم لا يعلم عنها شيئاً.. ولا أي شخص آخر في القصر.. الملك الراحل كان الوحيد الذي يعلم بأمرها، وقد سلمني خرائط هذه الممرات بما أني سأرث العرش.. ولا أظنك تعتقد أنني سأخبر مانيم عنها بطيب خاطر"

قطب الرئيس مفكراً وهي تضيف "هذه المعلومة لن تفيدكم في شيء ما لم أتعاون معكم وأدلكم على موقع هذه

الخرائط وكيفية فتح أبواب هذه الممرات.. وأؤكد لك أنكم مهما ضغطتم عليّ لن تحصلوا على أي معلومة ما لم تضعوا أيديكم في يدي وتقبلوا معاونتي"

فقال لها "من جهتي الأمر لا يحتاج لتفكير.. مع عددنا هذا يغدو من الصعب التغلب على مانيم دون أن نملك ما يجعلنا متفوقين عليه.. لكن إن لم أحظ بموافقة رجالي فقد يتخلون عني وقت حاجتي لهم.."

قالت مقطبة "أنت تكثر من مشاورتهم في جميع الأمور.. لو كنت تريد طاعتهم لك يجب أن تفرض أمرك فرضاً"

ابتسم قائلاً وهو يبتعد "هذا هو الفرق بين ما نطالب به وبين حكمك.."

ظلت بي ناريا جالسة تراقبه وهو يتقدم من رجاله الذين صمتوا متسائلين.. وما إن أبلغهم بقراره، دون أن يأتي على ذكر الممرات، حتى رأت الاستنكار واضحاً على الوجوه وبعضهم يعترض بكلمات واضحة.. وأكثرهم اعتراضاً كان هارولان الذي تراه غاضباً ويصرخ بحدة على رئيسه للمرة الأولى.. أما الرئيس فقد كان هادئاً كعادته وهو يقنعهم بمنطقه دون أن يبوح لهم بأمر الممرات إمعاناً في الحذر، ليحصل على موافقة البعض ومماطلة البعض الآخر.. أما هارولان فقد صاح بغضب "كيف تأمنون لها بعد كل ما فعلته بنا؟.. وفوق كل هذا هي استغفلتنا طوال هذه المدة مستغلة حمايتنا ورعايتنا وهي تسخر منا.. هل نسيتم أنها كانت طرفاً من المأساة التي مررنا بها جميعاً؟ كيف تعيدونها للحكم لترتكب المزيد من المآسي؟!"

قال الرئيس "نحن لا ننوي إعادتها للحكم.. الاتفاق أن نذهب بها إلى القصر فقط لتدلنا على ما يعيننا في حربنا.. أما ما يلي ذلك فكما خططنا سنشرك شعب المملكة كله فيه.. سنستفتيهم ونرى ما يختارونه.."

اقتربت بي ناريا منهم قائلة "لو أن الشعب كله قد اختارني.. هل ترضون بهذا؟"

صدّ هارولان عنها وهو يكتم غيظه بينما أجابها الرئيس "طبعاً لا يسعنا إلا أن نرضخ لهذا.."

صاح هارولان "أنت مغرورة لو كنت تظنين أن هذه الملايين التي تسكن الكوكب تذوب شوقاً لتطئيها بحذائك.. رباك الملك الراحل على الغرور والتكبر والجبروت، فأي شيء نرتجيه في حكمك؟.."

احتقن وجهها وهو يكيل لها الاتهامات، بينما قال الرئيس محتداً "نحن لسنا هنا لنكيل التهم ونتجاوز احترام الآخرين يا هارولان.. تحدث بالمنطق أو التزم الصمت فهذا أفضل للجميع"

صمت هارولان وهو يلقي عليها نظرة كره عارمة، قبل أن يستدير ويغادرهم بخطوات غاضبة.. لاحظت بي ناريا وهي تراقبه أن شيئاً لامعاً قد سقط منه دون أن ينتبه، فاقتربت من موقعه وانحنت تلتقط الشيء الذي لم يكن إلا قلادة فضية ناعمة على شكل زهرة صغيرة.. بدت لعينيها رخيصة مقارنة بجواهرها الملكية المرصعة بأغلى الجواهر، فتعجبت من احتفاظ هارولان بها.. التفتت لترى الثوار منخرطين في الجدال من جديد، ثم تركتهم لتتبع هارولان وسط نظرات جوين المندهشة، والتي ابتسمت بشيء من الاستغراب وهي ترى اهتمام الملكة منصباً على الرجل ذو الجرح على خده.. ثم غمغمت لنفسها "لقد تغيرت مولاتي حقاً.."

أما بي ناريا، فقد عزمت على إعادة القلادة إلى هارولان وسؤاله عن صاحبته.. أهي زوجته الراحلة؟ أم أنها لشخص آخر؟..

عندما رأته جالساً على جذع شجرة سقط أرضاً وهو يرفع بصره إلى السماء ساهماً، اقتربت منه بخفوت وهي

تتأمل ملامحه التي علاها حزن شديد مقارنة بغضبه الذي احتل وجهه قبل قليل.. ولما انتبه هارولان لقدومها قال بجفاء على الفور "لم أتيت إلى هنا؟ عودي إلى الآخرين"

قالت بهدوء "ولم لا أبقى هنا؟"

قال بحدة "لقد حاولت تمالك نفسي كثيراً منذ عرفت حقيقتك.. ولو بقيتِ دقيقة أخرى معي فلن يلومني أحد لما سأفعله"

قالت مبتسمة "تقصد قتلي؟"

نظر إليها بمزيج الحدة والدهشة سائلاً "ما الذي يدعوك لهذا الظن؟"

قالت هازة كتفيها "لقد حذرني الرئيس من الاحتكاك بك كثيراً.. كان غامضاً في حديثه، لكنني فهمت أنك كنت عازماً على قتلي قبل أن تلقاني، ولم يكن من الصعب استنتاج أنك مازلت عازماً على ذلك"

أشاح بوجهه قائلاً بخشونة "إذن ابتعدي عني وعودي إلى الآخرين فهذا آمن لك"

لكن عوضاً عن ذلك اقتربت لتجلس على ذات الجذع ملاحظة توتره الذي ازداد على الفور، ثم همّ بالنهوض مبتعداً، لكنها أمسكت يده تمنعه وهي تمد يدها الأخرى بالقلادة.. نظر هارولان إلى يدها بدهشة لثوانٍ، ثم اختطف القلادة من يدها وهو يصيح بغضب "إياك أن تلمسيها.."

قالت بحدة "لماذا؟ أتخشى أن تلوثها يداي؟"

وقف قائلاً بخشونة "بالضبط.. من هي مثلك لا يحق لها أن تلمس شيئاً نقياً كهذه القلادة"

وقفت بدورها والغضب يجعلها تصرخ "لماذا؟ ما الذي فعلته لك؟ لماذا بتّ تكرهني وتحتقرني لهذه الدرجة؟"

قال لها وهو ينظر إليها بغضب "تريدين أن تعرفي ما الذي فعلته لي؟ وما الذي سيفيد ذلك؟ لن يمكنك أبداً أن تصححي ما مضى.."

فهتفت بإصرار "لكنني أريد أن أعرف.. ربما أستطيع تعويضك عن أي ضرر سببته لك دون أن أدري"

فوجئت به يمسك ذراعها بقوة آلمتها وهي تجفل لنظرة عينيه اللتين تحملان كرهاً عارماً لها.. وقال بأنفاس ثائرة ضاغطاً على أسنانه "تعويضي؟ عن ماذا؟ هل ستعيدين والديّ اللذين قتلهما جنودك؟ هل ستعيدين أخي الذي قتله جنودك؟ هل ستعيدين ابنتي التي قتلها جنودك أمام عيني؟ هل ستعيدين شقيقتي التي اختطفها الجنود وعذبوها لأسابيع قبل أن تنتهي مقتولة بدورها؟ هل ستُنسيني إياهم وهذا الجرح في وجهي يذكرني بهم كل ثانية من عمري؟ هل تستطيعين إعادة الماضي؟ بأي شيء ستعوضينني يا جلالة الملكة؟"

ودفعها بعيداً لتتهاوى أرضاً بذهول وهي تنظر إلى وجهه الذي حمل غضباً ومرارة شديدين، ثم همست بصوت متحشرج "لكنني لم أفعل ذلك.. لابد أن هذا كان من فعل مانيم.. لا علم لي بأي شيء حدث هنا"

قال بصوت حمل احتقاراً شديداً "كان الجنود يحملون أمراً من والدك الراحل بقتلي والقضاء على كل أفراد عائلتي.. أنت ابنته، وهذا لا يشرفك كثيراً.."

ثم أدار ظهره لها وهو يقول "منذ الآن وحتى تنتهي حاجتنا لك، بالنسبة لي أنت لا وجود لك.. وعندما يعلن الرئيس أنك ما عدت ذات فائدة لنا...."

ونظر إليها بنظرة قاسية من فوق كتفه "ستكون تلك لحظتك الأخيرة في هذه الدنيا.."
وغادر بخطوات سريعة متوغلاً في الغابة تاركاً إياها والذهول لا يغادرها.. ثم تحاملت على نفسها وعادت مرتجفة الخطى إلى البقية لتقف في مواجهة الرئيس الذي أخذ ينظر إليها بهدوء، ثم سألته بصوت مرتجف "أخبرني حقاً بما جرى لهارولان.. أصحيح أن الملك الراحل أصدر أمراً بقتله وجميع أفراد عائلته؟"
قال الرئيس "سنتحدث عن هذا لاحقاً.."
قالت بحدة ولهجة آمرة "أريد أن أعرف الآن.."
أخذ الجميع يتطلعون إليهما وفي العيون مزيج الدهشة والضيق والغضب لتصرفها مع رئيسهم.. لكن الرئيس نهض قائلاً "لنَسِر قليلاً حول هذا المكان.."
تبعته وهي صامتة متلهفة لما سيقوله.. ولما ابتعدا عن الآخرين قال لها الرئيس "يحسن ألا تتحدثي عما جرى في الماضي أمام الآخرين.. فلكل منهم جراحه التي مازالت تؤلمه"
قالت "ما يهمني هو ما حدث لهارولان.. أخبرني عما أجهله"
فقال الرئيس وهو يتطلع إلى ما ظهر من السماء عبر فرجة الأشجار "حدث هذا في زمن الملك الراحل.. إن هارولان من أوائل الذين انضموا إلى المقاومة في إقليمنا.. لكن تم كشفه من قبل أحد الجواسيس أثناء إحدى العمليات التي قمنا بها ضد الوالي.. ولم تمض أيام قليلة حتى فوجيء بالجنود يقتحمون منزله الذي كنا نظنه آمناً.. كان ذلك قبل طلوع الفجر، ولم يتسن لهارولان الوقت الكافي لطلب مساعدتنا.. حاول مقاومتهم بكل ما يستطيع، لكن بدا أن مانيم قد جهز فرقة كاملة للتخلص منه ومن عائلته كلها.. تلك الليلة رأى هارولان مقتل أبويه اللذين لم يرحم الجنود عجزهما وكبرهما في السن، كما قتلوا أخيه الذي لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره بطلقات رشاشاتهم، وقتلوا ابنته ذات الثلاثة أعوام دون أن يرحموا صغر سنها أمام أبيها.. وقد كادوا يقتلون هارولان بعد أن تركوه آخر واحد ليشهد مقتل الجميع بعينيه، لكن بضع أفراد من جماعتنا تنبهوا لما يحدث ونجحوا في تهريبه من بين أيديهم، بعد أن حمل جرحاً عميقاً في خده، وجرحاً أعمق في روحه"
فقالت مرتجفة "وشقيقته؟ لقد تحدث عن شقيقة له.."
قال الرئيس "شقيقته كانت في منزل آخر بعيد حيث تعيش مع زوجها، ولما هرع إليها هارولان وجد الزوج مقتولاً في فراشه، ولم يجد أثراً لها في أي مكان مهما بحث.. وبعد عدة أسابيع، ومحاولات كثيرة من هارولان للانتقام من مانيم، فوجيء بوجود شقيقته في قبضة مانيم الذي حاول استدراجه وقتله مقابل الإفراج عنها.."
وتنهد مضيفاً "لكن رغم محاولات هارولان، لم يستطع إنقاذها من قبضته، وانتهى بها الأمر مقتولة بيد مانيم الذي رمى جثتها من فوق سور القصر الذي يسكنه إمعاناً في إذلال هارولان.."
ظلت بي ناريا واقفة بصمت والارتياع لا يغادرها لما تسمعه.. أحقاً أمر والدها بهذا؟ هل كان والدها بهذه القسوة فعلاً؟ ثم قالت باعتراض "لكنني واثقة أن الملك لم يعلم عن شيء من هذا.. الملك طيب جداً، ولم يكن ليرضى بوحشية كهذه أبداً.. لقد حضرت الكثير من اجتماعات الملك حول هيمانيا، ورأيت الكثير من المراسيم التي صدرت بحقه، لكن لم يصدر أمر متعسف كهذا من الملك أبداً.."

قال الرئيس ناظراً إلى وجهها "مادام الملك قد رضي بتولية مجرم كمانيم على هذا الإقليم، وأغلق أذنيه عن صرخات الأبرياء فيه، فهو مشترك معه في الجريمة...."

هتفت بي ناريا "أنا لا يمكن أن أوافق على هذا الإجرام.. لم أعلم أبداً بما كان يفعله مانيم.. فما ذنبي ليكرهني هارولان بهذا الشكل؟"

قال الرئيس هازاً رأسه "أنت فعلت الشيء ذاته بعد توليك الحكم دون أن تتعظي مما حصل في السابق.. لا يحق لأي حاكم أن يدّعي عدم معرفة ما يقترفه ولاته.. فهو عندما سلمهم رقاب الرعاة مشترك معهم في كل ما يفعلونه.."

فقالت بي ناريا بصوت مرتجف "وما ذنب هارولان بالذات؟"

أجاب الرئيس وهو يبتعد "هذا ما يجب أن تسألي مانيم عنه.."

تهاوت بي ناريا أرضاً والارتياع يثير رجفة في جسدها ودموعها تسيل على وجنتيها مثيرة حزناً ومرارة شديدين في صدرها.. غطت وجهها بيديها وبكت دون أن تجد سبيلاً لتهدئة نفسها والسيطرة على حزنها.. رغم رفض هارولان لها سابقاً، إلا أنها كانت نوعاً ما متأكدة أنه لم يكن صادقاً مع نفسه.. كانت متأكدة أنه يحبها ولا يستطيع كرهها حقاً، لكنه بحاجة لبعض الوقت لتجاوز صدمته.. أما الآن، فهي قد تأكدت تماماً أنها خسرت هارولان ولا أمل لها في رجاء عودته.. ومن الآن، وبعد أن كان يمثل لها الحماية والأمان والحنان، صار عليها الحذر والتوجس كلما تراه.. صار عدوها، كما كانت هي دوماً عدوته..

****

الفصل العاشر:

الضائعة

عن الغابات

..

والقرى

..

وجراح الجسد

..

في تلك الليلة، ظلت بي ناريا مستيقظة لا يغمض لها جفن وهي تفكر في كل ما حدث.. تفكر في مانيم، الذي لم يكتف بتحطيم حياتها، بل استغل اسمها واسم والدها لتحطيم حياة العشرات والآلاف من المسالمين في هيمانيا.. وهي حقاً تستحق الاتهام لأنها عميت عن رؤية حقيقته.. ورغم أن المستشار حذرها بكلمات مبهمة، لكنها لم تتعب نفسها في تقصي الحقائق لتُجنّب نفسها وشعبها هذا الظلم.. بدت لها مأساتها لا تقارن بمأساة هارولان الذي فقد كل شيء، وكل من أحبهم.. ومع هذا كانت تراه في الوكر دائم الابتسام والضحك مشيعاً البسمة من حوله.. الكل أحبه والكل اعتبره كمثل أعلى في تحمل المصاعب والمضيّ قدما.. أما هي فقد عاملت الكل بجفاء، ومنذ خسرانها لجميع ما تملكه فقد تزايد جفاؤها وتكبرها على الآخرين.. وكأنها تستحق معاملة خاصة لمجرد أنها هي..

لم يحبها أحد قط لذاتها، بخلاف والديها الذي كان حبهما غير مشروط.. وبخلاف هارولان الذي تخلى عنها فور معرفته لشخصيتها، إثباتاً أنها كبي ناريا لا تستحق أي حب أو احترام..

تنهدت بي ناريا بمرارة وهي تتأمل السماء السوداء فوقها عندما سمعت خطوات تقترب منها.. التفتت أملاً في أن ترى هارولان يقترب منها كعادته، لكنها رأت الرئيس يقف غير بعيد عنها قائلاً "لقد وافق الأغلبية على مرافقتك لنا شرط أن تعاونينا بالشكل الذي ذكرته.. ولو كانت هذه خدعة منك فأنا لن أحميك من غضبة رجالي.."

قالت بي ناريا بهدوء "أعطيك كلمتي كملكة سابقة.. ستحصلون على الخرائط فور وصولنا إلى القصر.."

هز رأسه موافقاً واستدار ليغادر، لكنها سألته "وهارولان.. هل وافق؟"

قال وهو يبتعد "سيرضخ في النهاية.."

ملأها الحزن وهي تفكر فيه من جديد.. كيف تمسح الماضي؟.. لو استطاعت أن تستبدل مُلْكها بعائلته التي قتلت لوافقت على الفور.. فملكها الآن لا يساوي في نظرها بسمة ترتسم على شفتي هارولان..

تنهدت من جديد وهي تحاول الاستسلام للنوم ملقية بنظرة على جوين التي نامت غير بعيد عنها.. أما الجنديين فقد تناوبا على حراستها بصمت.. فأغمضت بي ناريا عينيها وهي تسلم عقلها لنوم إجباري استعداداً للغد..

كان موقع بي ناريا متطرفاً عن البقية لذلك لم ينتبه الثوار للحركة الخافتة التي دارت هناك بعد انتصاف الليل بقليل.. صوت شهقة مكتومة تصدر غير بعيد عن موقعها.. وصوت جسد هامد يلقى خلف إحدى الاشجار..

وصوت خطوات تتسلل مستغلة الظلام ونوم الجميع.. وبعدها صوت شهقة بي ناريا المكتومة وهي تشعر بمن يكبل حركتها ويضع منديلاً برائحة قوية على أنفها وفمها.. وقد تسببت شهقتها لدى استيقاظها فزعة في تنشق المزيد من المادة التي خدرت جسدها بسرعة وعقلها يغيب عن الوعي خلال لحظات..

تلفت صاحب المنديل حوله متاكداً أن جوين تغط في النوم، ثم حمل بي ناريا على كتفه مغادراً بصمت كما جاء.. وبعد فترة لا يعلمها أحد، تململت جوين في نومها والبرد يتسلل من ثنايا معطفها، وفتحت عينها المغمضة

لتلقي نظرة على بي ناريا القريبة منها.. ولما رأت موقعها خالياً نهضت جالسة بتوتر متلفتة حولها، ثم أسرعت تبحث عن الجنديين لتسألهما إن رأيا بي ناريا تغادر موقعها..

وفي المعسكر الهادئ، حيث تجمع بعض الثوار ممن بقي مستيقظاً، راعتهم تلك الصرخة العالية التي انطلقت من موقع بي ناريا.. فهبوا إلى هناك ليجدوا الوصيفة ترتجف وهي تتطلع إلى جسد أحد الجنديين الملقى خلف شجرة قريبة وقد تحطمت رقبته تماماً.. تجمد الجميع وهم ينظرون للجثة وقد أخذتهم المفاجأة، فيما التفتت الوصيفة إليهم صائحة "أين مولاتي؟"

قال الرئيس وهو يتفحص الجندي القتيل "لم نرها منذ غادرتنا.."

صاحت بإلحاح "استيقضت فلم أجدها في الجوار.. ولم أجد الجندي الآخر.. أين هي؟"

وسألت هارولان الذي اقترب من موقعهم "ألم ترها؟ ألم تأت إليك؟"

هز رأسه نفياً وهو يتأمل ما جرى، فصاحت جوين وهي ترتجف "لقد اختُطفت.. اختطفها الجندي الحقير، رغم أنه أقسم على الولاء لها"

وهبّت إلى هارولان متوسلة "ابحث عنها أرجوك.. إنه سيقتلها ولاشك"

ابتعد الرئيس بعدد من رجاله وهو يقول لهم "مشطوا الجوار بحثاً عنهما على ظهور التوكور، فلا يمكن أن يكونا قد ابتعدا.. جثة الجندي الآخر لا تزال دافئة فلابد أنه قتل منذ مدة قصيرة.."

اقترب أحد الرجال من الرئيس قائلاً "لقد سُرق توكور من الذين حضر بهم رجالنا بالجنديين والوصيفة.. ويبدو أنه كان حذراً وتغافل رجالنا الذين يراقبون المنطقة بمهارة.."

قال الرئيس "مهما يكن، تظل حركته بطيئة ويمكننا اللحاق به.. هارولان....."

لكنه رأى هارولان يسبقه بالفعل وهو يمتطي ظهر توكور آخر وينطلق بصمت، فأشار الرئيس لأربعة من رجاله "انطلقوا أنتم أيضاً لتمشيط الاتجاهات الأخرى.. اقتلوا الجندي دون تفاهم واحرصوا على سلامة بي ناريا.."

انطلق الرجال كما أمرهم، بينما تنهد الرئيس قائلاً "كان يجب أن أتوقع هذا.."

في وقت لاحق، انتبهت بي ناريا من غيبوبتها لتجد أنها ملقاة على ظهر التوكور الواقف بصمت وسط الغابة التي انتشر فيها النور الوليد.. لم تدر كم دامت بها الغيبوبة، لكن بدا أن عدة ساعات قد مرت منذ فوجئت باليد التي قامت بتخديرها.. وجدت يديها مقيدتين بحبل غليظ ولم تر أحداً جوارها.. حاولت النهوض والاعتدال مما تسبب في سقوطها أرضاً سقطة مؤلمة.. فحاولت النهوض واقفة بسرعة لكنها فوجئت بالسلاح الذي لمس صدغها، وأحد الجنديين اللذين حضرا مع جوين ينظر لها بابتسامة مغمغماً "صباح الخير يا مولاتي.. أرجو أن تكون رحلتنا مريحة بالنسبة لك"

سألته مقطبة تخفي قلقها "ما الذي تنوي فعله؟"

أجاب "ما طلبه مني مولاي مانيم.. أن أستعيدك وأعيدك إليه مهما يكن.."

فقالت بتوجس محاولة استغلال الوقت بالتفكير في وسيلة للهرب "ولماذا لم تفعل هذا منذ الليلة الأولى لوصولك؟"

هز كتفيه مجيباً "الأوغاد جردوني من سلاحي.. لذلك تأخرت حتى استطعت سرقة هذا السلاح والتوكور دون

أن ألفت الانظار.. الأهم من هذا...."
وضغط السلاح على وجهها أكثر مضيفاً "مولاي في الواقع لم يطلب عودتك حية، بل اكتفى بطلب رأسك.. وهو أخف حملاً من إحضار جسدك كله إليه، وأكثر ضماناً.. أليس كذلك؟"
قالت بصوت مرتجف "لست تجرؤ..."
مط شفتيه معلقاً "بالفعل.. إطلاق النار على رأسك قد يغير معالمه فيتهمني الملك بالكذب"
وحرك السلاح إلى موضع قلبها مضيفاً "هكذا أفضل.. أليس كذلك؟"
بدافع من الذعر غير المتعقل، لطمت بي ناريا السلاح بعيداً بقبضتي يديها المربوطتين، وركلته في ساقه بأقوى ما تستطيع لتتسبب في سقوطه، ونهضت في الآن ذاته مستغلة الفرصة الوحيدة لديها لتركض بعيداً وقلبها يطرق بشكل متسارع ليزيد ذعرها.. أما الجندي فقد نهض متناولاً السلاح وهو يصيح "نكتة جيدة.. سنرى إن كانت ستُضحك أحداً.."
وامتطى التوكور ليلكزه فيجري خلفها وسط الغابة.. أما بي ناريا فقد ركضت بأسرع ما تستطيع وسط الاشجار الكثيفة وهي تبحث عن طريقة للاختباء أو التغلب عليه.. كان كلا الحلّين عسير التحقيق ويأسها يتزايد وهي تسمع حوافر التوكور تقترب منها بسرعة حثيثة.. وسمعت طلقة طاشت قريباً منها مما دفعها لتهمس بذعر من بين أنفاسها المتقطعة "ماذا أفعل.. ماذا عساي أن أفعل الآن؟ هارولان، أين أنت عندما أحتاج إليك؟ أيها الوغد الكاذب.."
وكأن الأمور لم تكن لتسوء أكثر، إذ تعثرت في ركضها وعجزت عن إيقاف سقوطها وهي تهوي أرضا.. ولما وقف التوكور عند قدميها والجندي الغاضب يقترب منها ملوحاً بسلاحه في وجهها، رفعت ذراعيها تحمي رأسها وقلبها لا يكف عن ضرب صدرها بقوة.. أهذه هي نهايتها؟..
وعندما تعالى صوت الطلقة وسمعت أنّة أطلقها الجندي فتحت عينيها بدهشة لترى الجندي مصاباً في ذراعه، وبسرعة تدارك أمره فأدار سلاحه ليرد على مهاجمه بعدة طلقات قبل أن تجرده طلقة أخرى من سلاحه، بينما هرب التوكور الخاص به فزعاً من صوت الطلقات.. ظل الجندي ينظر لهارولان الذي تقدم بالتوكور من موقعهما موجهاً سلاحه للجندي.. فسأله الجندي بغيظ "كيف استدللت على موقعي؟"
قال هارولان ببرود "هذه منطقة غير مأهولة، لذلك ليس صعباً تعقب آثار توكور وحيد يتجه لطريق يخالف ما حضر منه رجالنا منذ عدة أيام.. كما أن صوت الطلقات واضح من على مبعدة في هذه الغابة الساكنة"
قفز الجندي محاولاً استعادة سلاحه، لكن هارولان عاجله بطلقة في رأسه أردته على الفور، وبي ناريا تغمض عينيها بفزع.. وبعد لحظة صمت شعرت بهارولان يمزق قيودها، فتطلعت إليه بصمت، قبل أن تغمغم بلوم محاولة تمالك دموع الفزع من الهطول "تأخرت كثيراً.."
لم يعلق بكلمة وهو يرمي الحبال بعيداً وهي تتأمله، ثم قالت مرتاعة "أنت مصاب في كتفك.."
لم يجبها بكلمة وهو يبتعد عنها فيجلس جانباً ويخلع قميصه ليستخدمه في الضغط على الجرح الذي تتصبب الدماء منه.. لم يظهر الألم على وجهه وهو يتجاهل وجودها تماماً.. ثم نهض وبحث في جراب التوكور عما يصلح

لربط الجرح.. ولما لم يجد اتجه إلى الجندي القتيل ومزق جزءاً من ملابسه، وحاول ربط جرحه بشيء من العسر.. فتقدمت بي ناريا منه مغالبة فزعها وهي تقول "دعني أربطه لك.."
قال بهزء "لا داعي.. لا تخدشي احساسك المرهف بمرأى مثل هذا الجرح.."
ساءتها سخريته لكنها لم تجد ما تقوله فالتزمت الصمت.. ولما فرغ اقترب من الجندي وفتشه جيداً بحثاً عن أي أسلحة أخرى أو أجهزة إرسال قد يكون استخدمها لإبلاغ القصر بأمر بي ناريا والثوار.. ولما تأكد أنه خالٍ من أيها امتطى التوكور ومد يده يعين بي ناريا ليردفها خلفه.. ولما استقرت خلفه لكز التوكور بسرعة عائداً إلى الثوار، فتمسكت به وهي تتفادى كتفه المصاب، الذي لاحظت أن الدماء تغرق أربطته بغزارة.. غلبها القلق عليه، لكنها علمت أنه يكره أي مشاعر قد تظهرها تجاهه..
غلبها الأسى لما آل إليه حالهما فغمغمت بحزن "لماذا عدت من أجلي؟ لماذا لم تتركني أموت بيد ذلك الجندي ما دام هذا ما تتمناه؟"
بدا لوهلة أنه لم يسمعها، ثم سمعته يقول ببرود "الرئيس يحتاجك، وعندما ينتهي الأمر كله أريد أخذ ثأري بيدي"
صمتت بحزن مطرقة طوال طريق العودة.. أحقاً غدت علاقتها بهارولان أمراً ميئوسا منه؟...

****

كانت الشمس قد ارتفعت في السماء عندما وصل الإثنان إلى موقع الثوار.. عندها فوجئا برؤية المكان يخلو من أي أثر لرفاقهم، عدا عن آثار النيران التي أُشعِلت الليلة الماضية.. فغمغمت بي ناريا بقلق "هل رحلوا وتخلوا عنا؟"
قال هارولان بصوت متعب "أغلب الظن أنهم تقدموا تجاه العاصمة، وسينتظروننا هناك"
قالت مقطبة "ولماذا الاستعجال؟ ألهذه الدرجة لا يهمهم أمرنا؟!"
علق وهو يستدير بالتوكور "سنعرف عندما نلحق بهم.."
وانطلق من جديد فيما بي ناريا تفكر بقلق فيما أقدم عليه رئيس الثوار.. كيف تخلى عنها بهذه السهولة رغم أنهم بحاجة لها؟ هل اعتقدوا أنها لن تنجو من الجندي الذي حاول قتلها؟..
قطع أفكارها تَرَنُّح هارولان قبل أن يفلت اللجام من يده ويهوي أرضاً بشكل فاجأها..
أسرعت تلتقط اللجام وتوقف تقدم التوكور بمهارة، ثم تهبط من على ظهره وتسرع إلى هارولان الذي حاول الجلوس بمشقة فأعانته وهي تسأله بقلق عارم "هل تأذيت؟ ما الذي جرى لك؟"
قال هارولان بعسر "الجرح ينزف بغزارة، وقد فقدت الكثير من الدماء.. يجب أن يُعالج الجرح قبل أن يزداد سوءاً"
حاول الوقوف وهي تعينه، واتجه بخطى مترنحة ليجلس تحت أقرب شجرة، بينما ربطت بي ناريا التوكور على

مقربة لكي لا يفقدوا وسيلة تنقلهم الوحيدة.. ولما عادت إليه وجدته قد نزع الأربطة الغارقة في الدماء عن جرحه، وقال لها "أشعلي ناراً.."

نظرت له بدهشة متسائلة "لماذا؟ وكيف؟ أنا لم أفعل هذا من قبل مطلقاً"

شرح لها الطريقة بكلمات موجزة ثم قال "يجب أن نكوي الجرح لنوقف تدفق الدماء.. أسرعي"

لم تفهم ما المطلوب منها، لكنها أسرعت لالتقاط بعض الأخشاب القليلة وحاولت جهدها إشعال النار.. وبعد عدة محاولات فاشلة تمكنت من إشعال نار صغيرة غذتها بالمزيد من الأخشاب، ولما عادت إلى هارولان الذي كان يراقبها مرهقا، قال لها وهو يخرج من جيبه خنجراً صغيراً "قومي بتسخين الخنجر على النار، وحاذري أن تحترق أصابعك"

فعلت ما طلبه منها بصمت، ثم قالت "ما فائدة ما أفعله هذا؟"

أجابها "لنضمن ألا يتلوث الجرح.. والآن عليك استخراج الرصاصة من الجرح"

نظرت إليه بعينين متسعتين وهتفت "مستحيل.. لا أستطيع هذا"

قال بحدة "يجب أن تفعلي هذا.. موقع الجرح لا يُمَكّنني من استخراجها بنفسي، ولا يمكن إبقاء الرصاصة فيتلوث الجرح أكثر.. يجب أن تفعلي هذا أنت.."

هزت رأسها بقوة رافضة وهي تتراجع، فأسند رأسه إلى الشجرة قائلاً "إذن سارعي لأخذ التوكور والانطلاق إلى العاصمة.. أنا لن أستطيع بلوغها حياً على كل حال"

عضّت شفتها السفلى بقوة دون أن تفطن إلى أنه يحاول الضغط عليها بقوله هذا، ثم قالت بصوت مرتجف "سأفعل.. سأحاول أن استخرجها"

فقال لها وهو يمسح الدماء عن الجرح ليمنحها رؤية أفضل "حاولي استخراجها بسرعة دون أن تسببي المزيد من الدمار للجرح"

غالبت بي ناريا قشعريرة سرت في جسدها، وبيد ترتجف استخدمت الخنجر في استخراج الرصاصة التي غاصت عميقاً في الجرح.. كان عملاً صعباً بالنسبة لها وهي التي لم تر جرحاً في حياتها ناهيك عن لمسه، وكلما نظرت إلى هارولان وجدت الألم ناضحاً على وجهه مما أربكها أكثر وهي تحاول أن تنتهي بسرعة.. وبعد فترة رأتها بي ناريا كدهر، استطاعت استخراج الرصاصة بنجاح، فرمتها وضغطت على الجرح بقوة محاولة إيقاف النزيف الذي تزايد، وهي تسأل "والآن ماذا أفعل؟"

قال لها بتعب "قومي بتسخين الخنجر من جديد واستخدميه لكوي الجرح.."

غمغمت بقلق "ولكن.."

قال بحزم "هذه هي الوسيلة الوحيدة لإيقاف الدماء بسرعة.. افعلي هذا"

قامت بما طلبه منها وهي تستخدم النار في تسخين الخنجر فترة طويلة حتى بدأت تتوهج، واقتربت من هارولان قائلة "سأبدأ الآن.."

دفعت نفسها دفعاً لتكوي الجرح بظاهر الخنجر دون أن تملك الجرأة لفتح عينيها ورؤيته.. حتى سمعت هارولان

يقول "يكفي هذا.. سخني الخنجر وكرري الأمر من جديد في جهة أخرى.."
كررت الأمر وجسدها كله ينتفض، وكلما لامست الجرح بالخنجر وسمعت هارولان يكتم ألمه بأنين خافت، وشمّت رائحة الاحتراق الكريهة، شعرت أن وعيها يكاد يفلت منها، لكنها تتحامل على نفسها وتفكيرها منحصر بهارولان وما قد يعانيه من آلام.. بعد لحظات بدت لها طويلة جداً سمعت هارولان يقول بصوت متحشرج "يكفي هذا.."
نظرت إلى الجرح المكوي والذي غدا بشع المنظر، وإلى وجه هارولان الناضح عرقاً وألماً، وهمست بصوت مرتجف "أنا آسفة.. لقد آلمتك كثيراً.."
غمغم وهو يغمض عينيه "شكراً لك.."
شعرت أنها تريد الفرار من المكان كله، فحملت قميصه الملطخ بالدماء والأربطة المتسخة وركضت مبتعدة تابعة صوت خرير ماء قريب.. أخذت دموعها تهطل على وجهها وهي تنشج باكية فزعاً من مرأى الجرح والدماء، وألماً لمرأى هارولان يتعذب.. بعد سير قصير وجدت جدولاً صغيراً يجري وسط الغابة تهاوت قربه وهي تشعر بجسدها ينتفض بقوة.. غسلت وجهها بالمياه الباردة محاولة تمالك نفسها ونسيان تلك التجربة البشعة.. ميزة أن تعيش مرفهاً في قصر أنك لا ترى إلا ما هو جميل ومبهر، ولا تجرب إلا كل ما هو مسلٍ وممتع.. لم تعتقد يوماً أنها ستعالج جراح شخص ما بهذه الطرق البدائية.. وكونه كان شخصاً تهتم لأمره جعل الأمر أسوأ.. لذلك بالكاد تحملت ما مرت به..
بعد أن هدأت نفسها، غسلت القميص والأربطة من الدماء جيداً، وعادت إلى موقع هارولان الذي تركته دون كلمة.. وجدته تحت الشجرة صامتاً دون حركة، فلم تدر أهو نائم أم فاقد للوعي.. اطمانت إلى أنه لا يزال يتنفس، لكنه لم يفتح عينيه عندما اقتربت منه ولم يُظهر حركة تدلّ على استيقاظه.. جلست قربه واستخدمت الأربطة النظيفة لتمسح الدماء التي أغرقت جسده.. كانت الدماء قد توقفت عن النزف من الجرح مما أراحها.. ولم يبدُ أن عملها قد يوقظه من غيبوبته، فالتزمت الصمت حتى أنهت عملها، ثم خلعت معطف هارولان الذي كانت تحتفظ به ووضعته على جسده، ملاحظة القلادة الصغيرة التي أصبح يرتديها حول عنقه، ثم جلست قربه بانتظار أن يستفيق بمفرده..
ظلت صامتة وبصرها بين فترة وأخرى يعود تلقائياً للقلادة.. هل كانت ملك زوجته الراحلة؟ شعرت بشيء كالنار في صدرها وهي تتأمل وجهه النائم وتحاول تخيل تلك المرأة.. لاشك أنها تفوق تلك المرأة جمالاً وفتنة.. لكن رغم ذلك كان مجرد تذكرها يملؤها بالضيق وتشعر أن صدرها يضيق عليها ويشتعل ناراً.. أهذه غيرة؟ فكرت باستنكار.. لا يمكن أن يصل حبها له لهذه الدرجة..
عادت تنظر للقلادة وهي تودّ لو تمد يدها وتنزعها من عنقه.. ثم غمغمت لنفسها "إنها صغيرة جداً وناعمة.. لابد أنها كانت لابنته.. فليس هناك من داعٍ لاحتفاظه بأثر من زوجته.."
مر وقت طويل وبي ناريا جالسة بصمت تنتظر استيقاظه، وتطمئن بين فينة وأخرى أنه لا يزال حياً.. ولما فتح عينيه ونظر إليها، قالت بقلق "هل أنت بخير الآن؟"

لم يتحرك من مكانه وهو يجيب بصوت متعب "أفضل حالاً.. لكن الدماء التي فقدتها لن يتم تعويضها بسهولة.."
نهضت إلى التوكور، فبحثت في جرابه عن بعض الطعام والماء.. لتجد من الطعام ما يكفي حصتين، وحاوية الماء خالية تقريباً.. ناولت هارولان الحصة الأولى قائلة "تناول هذا لتستعيد شيئاً من قوتك.. وسأحضر أنا الماء من جدول قريب.."
وغادرت عائدة إلى الجدول، وهناك شربت الكثير من المياه تعويضاً عن الطعام الذي فضلت إبقاءه لهارولان، وملأت الحاوية بالماء قبل أن تعود إلى موقعه وتناوله الحاوية.. فسألها "ألن تأكلي؟"
ابتسمت مجيبة بكذب "لقد أنهيت حصتي أثناء نومك.. فأنا لا أطيق الانتظار عند جوعي.."
لم يعلق وهو ينهي طعامه بصمت، فسألته "متى ترى أن بإمكاننا إكمال المسير خلف البقية؟"
أجاب "أحتاج ليوم راحة على الأقل لأسترد قوتي.. لكن أشك بقدرتي على قيادة التوكور بحالتي هذه.. بكتف وذراع ملأى بالثقوب.."
فقالت "لم يسألني أحد عن رأيي حتى الآن، لكني ماهرة بامتطاء التوكور.. وربما كنت أكثر منك مهارة.."
تطلع إليها بدهشة مغمغماً "أنت؟"
فقالت بابتسامة "لا تستهن بملكة سابقة.."
لكنها ندمت على جملتها هذه على الفور لدى رؤية النظرة التي التمعت في عينيه قبل أن ينظر باتجاه آخر..
فوجمت وهي تؤنب نفسها على تذكيره بشيء لا يود تذكره.. ثم غمغمت "ألن تصفح وتنسى يا هارولان؟"
قال بلهجة يمتزج فيها الغضب بالأسى ويده تمتد لتمسك القلادة الفضية الصغيرة "أنسى؟ تريدين أن أنسى أحبابي؟ تريدين أن أنسى ابنتي يا جلالة الملكة؟ كانت أجمل شيء حصلت عليه في عمري، وكل ما أمر به كان يهون بمجرد بسمة من شفتيها.. لكن لم تشفع لها براءتها وسنواتها الثلاث وجنودك يغتالونها بكل قسوة.. فما الذي تريدين مني أن أنساه؟"
همست بصوت مرتجف "أنا آسفة لما حصل لك.. لكن لا ذنب لي في هذا.. صدقني لقد استغفل مانيم والدي الذي لم يكن يرضى بالظلم، وما أظنه كان يعلم بشيء من حقيقة ما حدث لك.. ما الذي أستطيع تقديمه عوضاً عما فقدته؟"
قال بلهجة حادة "مادام الوصول إلى الملك الراحل مستحيلاً، فموتك هو التعويض الوحيد، وموت مانيم أيضاً"
صاحت "وهل موتي سيعيدهم؟ لو كان هذا سيحدث فأنا أرضى به.. لكن موتي لن يعيد أحداً.. هل ستكون سعيداً بسفك دمي حقاً؟ أهذا ما يرضيك؟"
جزّ على أسنانه مجيباً "هذا سيشفي غليلي.."
ظلت تنظر إلى الكره في عينيه، والذي علمت أنه لن يزول من ذاكرتها أبداً.. ثم تنحت بعيداً عنه وهي تدفن وجهها بين ذراعيها المستندتين على ركبتيها.. كانت تود لو تجهش بالبكاء لتتخلص مما فاض من مشاعر الألم والحزن واليأس في صدرها.. لكنها أبت ذلك لكي لا يعتقد أنها تستجدي مشاعره.. فآخر ما تبغيه هو أن تذل نفسها أكثر مما فعلت.. لقد حاولت عدة مرات أن تنال صفحه وحبه من جديد، لكنه لم يتوان عن رفضها في كل

مرة.. فحتى متى ستظل تدور في فلكه وتبحث عن رضاه؟ شتمت في سريرتها ضعفها الذي قادها للرضوخ له عندما سعى لفرض حبه عليها بالقوة، ولو رفضت لبقيت قوية ولما شعرت أنها في موقف مذل كالذي تمر به الآن..

لقد ابتعدت عن هدفها كثيرا.. وآن الأوان لتسترد مسارها الصحيح.. وليس هارولان إلا وسيلة للوصول إلى هدفها الكبير..

****

عندما اصطبغت الغابة بألوان الغروب، تحامل هارولان على نفسه ليقف، وتلفت حوله بحثاً عن بي ناريا التي تركته وحيداً منذ مدة طويلة.. فتبع صوت الماء في الاتجاه الذي سلكته بي ناريا حتى وصل إلى الجدول الصغير حيث جلست قربه صامتة.. ولما شعرت به والتفتت إليه قال لها "لا تبقي بعيدة عني.. الظلام سيحل والغابة ليست آمنة تماماً.."

لم تعترض على قوله، وتبعته بصمت إلى حيث وقف التوكور متململاً يتناول ما يطاله من الحشائش والأشجار..

رأت هارولان يحاول إشعال النار من جديد بعد أن انطفأت النار السابقة، فعزفت عن مساعدته وهي تجلس قرب الشجرة تراقبه.. ولما فرغ تناول ما بقي لديهم من طعام واقترب من بي ناريا ليناولها أكثره، فأشاحت بوجهها قائلة "لا أريده.. استعد طاقتك بسرعة لنتمكن من المغادرة فلا أريد البقاء هنا أكثر"

قال مقطباً "لا يمكنك أن تبقي دون طعام.."

صمتت دون أن تتجاوب معه، فزفر وهو يعيد الطعام إلى جراب التوكور دون أن يتناول منه شيئاً ويعود للجلوس تحت الشجرة قرب النار بصمت..

بعد حلول الظلام، انطوت بي ناريا في المعطف وهي جالسة واضعة رأسها على ذراعيها المستندتين على ركبتيها، وأغمضت عينيها منصتة للأصوات الصادرة من الغابة وسط هدوء الليل ودفء النار.. نظرت إلى هارولان بطرف عينها فرأته ساهماً ينظر للنار بصمت، وبين فترة وأخرى يغذيها بالمزيد من الخشب ليطيل عمرها.. فتنهدت وهي تغمض عينيها من جديد محاولة الحصول على بعض الراحة.. شعرت أنها منهكة لا تقدر على البقاء مستيقظة أكثر من هذا، وقد هدها التعب والجوع والانفعالات التي مرت بها طوال النهار..

أما هارولان فقد التزم الصمت تماماً وإن عجز عن الاستغراق في النوم.. بقاؤه وحيداً في الغابة مع بي ناريا جعله يخشى مما قد يواجههم لو غفلت عينه ولو لدقائق.. والآلام المتزايدة في ذراعه تمنع عنه النوم.. ظل ينظر للنار مستغرقاً في أفكاره دون أن ينظر تجاه بي ناريا.. شعر بضياع تام.. رغم استيقانه وعزمه على الوفاء بوعده الذي لا يمكن التنازل عنه، لكن الصدمة التي واجهها بمعرفة هوية بي ناريا بعد أن وقع في حبها جعلته مزعزع الفكر.. وكل ساعة تمر تجعله يعيد التفكير مرة بعد مرة عما يفترض به أن يفعله.. حاول تناسي آلامه والحرارة التي يشعر بها متمركزة في ذراعه.. وهو يضع المزيد من الأخشاب في النار متمنياً ألا تنطفيء قبل

انقضاء الليل..

قبل شروق شمس اليوم التالي، نهضت بي ناريا من نومها على صوت التوكور الذي كان يتململ في لجامه مصدراً صوتاً متذمراً.. تلفتت حولها بشيء من عدم الفهم، ولما استوعبت ما حدث لهم في الليلة الماضية نظرت إلى هارولان القريب منها.. وجدته لايزال غارقاً في النوم، لكن بعد برهة انتبهت إلى العرق الذي يغمره وتعابير وجهه الناضحة بالألم.. اقتربت منه وهزته قليلاً هامسة "هارولان.. استيقظ.. هل أنت بخير؟"

راعتها حرارة جسده المرتفعة، بينما فتح عينيه قليلاً مغمغماً "لا تخافي.. سأكون بخير.."

قالت بقلق "لا تكابر.. يبدو أنك محموم.. هل يؤلمك الجرح؟"

قال وهو يمسك ذراعه "ليس جرح كتفي.. لقد نسيت الجرح السابق في ذراعي.. ويبدو أنه التهب.."

تساءلت بقلق متزايد "هل في هذا خطورة؟"

حاول هارولان النهوض قائلاً "يجب أن أبحث عن علاج.. لا يجب أن أبقى هنا أكثر من هذا.."

كان يسير بعسر شديد وهي تلاحظ رجفة في أطرافه مما دلها على سوء حالته، فنهضت وأسرعت إلى التوكور تفك رباطه، وقربته من هارولان قائلة "هل تستطيع الركوب؟ سآخذك إلى أقرب طبيب"

امتطت التوكور بسهولة، ومدت يدها محاولة مساعدته، لكنه لم يعرها بالاً وهو يمتطي التوكور بعسر شديد، وجلس خلفها محنياً رأسه متلاحق الأنفاس.. وبعد أن استقر، لكزت التوكور لينطلق وسط الغابة بأسرع ما يستطيع.. كانت الغابة مترامية الأطراف، يصعب على السائر فيها استدلال طريقه.. فما بالك بفتاة لم تغادر ربوع القصر والربوة المحيطة به بتاتاً؟..

وبين وقت وآخر، كانت بي ناريا تقف متلفتة حولها محاولة العثور على فرجة بين الأشجار.. وتلقي بنظرة قلقة على هارولان الذي بالكاد يتشبث بسرج التوكور مقاوماً السقوط.. ثم تعاود السير وهي تغمغم لنفسها "ليس هذا بالوقت الملائم للتيه في الغابة.. كيف يمكنني استدلال الطريق وحدي؟"

مرّ وقت طويل وهما يدوران في الغابة دون وجهة محددة، وازداد قلق بي ناريا وهي تلاحظ ازدياد تعب هارولان.. توقفت عن السير بعد أن انتصف النهار وقالت له "فلننزل حتى ترتاح قليلاً.. سيزيد إنهاكك ما لم ترتح وتتناول بعض الماء والطعام.. وبعدها نكمل سيرنا.."

هز رأسه مجيباً "إن نزلت عن التوكور فلن أقدر على الصعود عليه مرة أخرى.."

اعترضت "ولكن...."

قاطعها وهو يتلفت حوله "أما من لمحة حولنا عن وجود أي حياة قريبة؟"

تلفتت بدورها مجيبة "لا.. يبدو أن الوقت سيطول بنا قبل أن نتمكن من الخروج من الغابة.."

تناولت حاوية الماء من جراب التوكور.. وساعدت هارولان ليشرب قليلاً منها ليعوّض ما فقده بسبب الحمى التي لا يبدو أنها ستخف قريباً.. ثم وجدته يأخذ الحاوية ليسكب معظمها على رأسه.. فقالت في قلق "هذا كل ما نحمل من ماء.."

لم يعلق هارولان بكلمة، عندها عادت تلكز التوكور لتدفعه للسير مجدداً وقلقها يزيد.. هل سيصبح هارولان

بخير؟.. غمرها الإحساس بالذنب لأن ما أصابه وانفصاله عن رفاقه كان بسببها..
قطع تفكيرها صوت هارولان يقول "أشم رائحة دخان.."
أوقفت التوكور وتلفتت حولها قبل أن تقول "بالفعل.. لكنها خفيفة جداً.. كيف نستدل على موقعها؟"
تلفت هارولان متأملاً ما حولهما وهي تراقبه صامته، ثم أشار لإحدى الجهات قائلاً "الريح قادمة من تلك الجهة حاملة الرائحة معها.. اتبعيها.."
انطلقت بي ناريا في ذلك الاتجاه وشيء من القلق يعتريها.. إنهما محتاجان للوصول إلى من سيؤمن لهارولان الرعاية الطبية، لكن هل سيكونان بأمان هناك؟ مازال خطر الجنود يتهددهما.. ومازالا لا يعلمان هل أمر القبض عليها منتشر في الأقاليم أم أن مانيم متكتم عليه بين الجنود وفي هيمانيا فقط..
بعد مسير قصير وجدت بي ناريا الأشجار تنفرج عن بضع منازل وسط مساحة مفتوحة في الغابة.. محاطة بمساحات مزروعة، وأصوات مختلف الحيوانات تصدر من تلك البقعة.. وفي جانب الموقع كومة من الأوراق الجافة التي يتم حرقها وهي ما شموا رائحته من قبل.. وقفت بالتوكور متخفية بين الأشجار متسائلة "هل تأمن أنهم لن يتعرفوا هويتي ويسلمونا للجنود؟"
لم تجد استجابة من هارولان، فالتفتت إليه لتجده قد غرق في غيبوبة وهو يكاد يسقط عن التوكور.. عندها سارعت لتسنده وهي تناديه بقلق.. ولما لم يستجب لها نزلت من التوكور لتفسح له مكاناً وجعلته يستلقي على التوكور.. وسارعت لتجذب اللجام وهي تسير بسرعة باتجاه تلك المنازل.. مع سوء حالة هارولان يغدو التفكير في خطر الجنود ثانوياً..
رأت بي ناريا عدداً من الرجال يعملون في الحقول القريبة التفتوا إليها على الفور باستغراب.. فصاحت وهي تسرع إليهم "هل يستطيع أحد مساعدتنا؟ هذا الرجل محموم وبحاجة لعلاج عاجل.."
اقترب أحد الرجال منها وهو يتساءل "من أنتما؟ عابرا سبيل؟"
قالت بلهفة "أجل.. نحن مجرد عابري سبيل.. لكن هذا الرجل أصيب بحادث والآن جراحه ملتهبة.. هل تملك علاجاً له؟"
أشار لها الرجل لتتبعه، فسارت خلفه بعد أن استلم لجام التوكور منها وهي تلاحظ نسوة يتوقفن عن عملهن في قطف الثمار ويلقين بنظرات فضولية عليها.. بينما بضع صبية يتراكضون بين الأشجار قد توقفوا بفضول مماثل..
تجاهلت بي ناريا الجميع وهي تسرع خلف الرجل الذي قادهم بين المنازل التي لا تتجاوز الخمس حتى توقف قرب أحدها.. كان منزلاً حجرياً صغير الحجم، لا يبدو أنه بقادر على إيواء أكثر من ثلاثة أشخاص بنظر بي ناريا.. سقفه منخفض عما اعتادت عليه في القصر، وفي جانب السقف مدخنة حجرية بنى طائر ضخم عليها عشه..
ربط الرجل لجام التوكور في جانب المنزل، وقام بحمل هارولان بخفة على كتفه إلى الداخل.. لم تعلق بي ناريا بكلمة رغم استيائها مما تراه على الرجل من قذارة والتراب يغطي يديه وثيابه جراء عمله في الحقل، وتبعته إلى

الداخل حيث عبروا باب المنزل والرجل يقول بصوت عالٍ "عماه.. نحن بحاجة إليك فهلا أتيت؟"
لم تدرِ سبب صياحه وهي تراه يدلف إحدى الغرف ويضع هارولان على سرير فيها.. ثم سمعت صوت خطوات تسير فوق السطح.. مرت لحظات قبل أن يظهر صاحبها داخلاً المنزل متذمراً "ما الأمر المستعجل؟ أنت تعلم أنني يجب أن أصلح السقف قبل أن يفاجئني المطر بالهطول.."
توقف متفاجئاً لدى رؤية بي ناريا وهي تنظر إليه بدهشة بدورها.. كان كبير السن لحيته ابيضت رغم ما بدا عليه من نشاط وقوة..
قال الرجل من خلفها "هذان عابرا سبيل قدما قبل قليل.. أحدهما مصاب بالحمى ويبدو أنه يعاني من بعض الجراح.. هلا اعتنيت به؟"
اقترب الرجل بعد أن حيا بي ناريا بهزة من رأسه تجاهلتها بدورها.. وتفحص هارولان للحظات والرجل الأول يغادر بعد أن قال لبي ناريا "لا تقلقي عليه.. فالعم لديه من الخبرة الكثير في هذه الأمور.. نحن جميعاً نعتمد عليه إن واجهتنا أية مشاكل صحية.."
لم تعلق بي ناريا وهي تسمع العم يقول "يبدو أن جرح ذراعه ملتهب بشدة.. لقد أهمله فترة سمحت للإصابة بأن تتلوث مسببة له هذه الحمى التي يحاول بها جسده مقاومة الالتهاب.."
والتفت إلى بي ناريا مضيفاً "هذه إصابة برصاصة.. فمن الذي تسبب بها؟"
تلعثمت بضع لحظات وهي تحاول التفكير في عذر مقنع دون ذكر الجنود.. لكنه أعفاها من هذا وهو يغادر الغرفة قائلاً "لا داعي لكل هذا.. يجب أن أعالجه الآن بسرعة وبعدها سأعرف ما حلّ بكما.."
تساءلت بقلق "المهم.. هل سيكون بخير؟"
تساءل العم وهو يفحص جرح كتفه "متى أصيب بهذه الجراح؟"
قالت "جرح كتفه أصيب به البارحة.. لكنني كويت موقع الجرح حسب وصيته لي لأوقف النزيف وأعقم الجرح.. أما الإصابة الأخرى في ذراعه فهي لعدة أيام مضت.. لكني ظننت أنه عالجه.."
قال العم وهو يخرج من الغرفة "ربما لم يكن يملك الأدوية الملائمة"
صمتت بي ناريا والقلق ينهشها عليه لما تراه من شحوب وجهه والحرارة تغمر جسده بالعرق.. مسحت وجهه بيدها وهي تغمغم "هارولان.. لم لا تستيقظ؟ لا تزدني قلقاً عليك أرجوك.."
سمعت العم يقول من خلفها "إن الإنهاك الذي أصابه والحمى القوية تجبره على البقاء فاقداً الوعي.. الأفضل أن نسرع بمعالجته حتى يستيقظ فلا يسبب القلق لفتاة جميلة مثلك"
رأته يحمل عدة طبية بسيطة، فتنحت جانباً لتفسح له مجال عمله، وجلست على أريكة قريبة زافرة.. بودها لو تنام على سرير مريح، فقد ملّت من النوم في العراء وشعرت أن عظامها مضعضعة تحتاج لراحة شهر حتى تغدو بخير.. قال لها العم وهو يعمل "من أين أتيتم؟ لا يمر عابروا السبيل من هذه الغابة عادة بل يتخذون طريقاً أبعد تجاه الشمال.."
أجابت بي ناريا بعد لحظة صمت "نحن قادمان من نيما.. كنا ذاهبين لزيارة قرية قريبة، لكن فاجأنا بعض

اللصوص وحاولوا سرقتنا.. وهذا سبب إصاباته.."
قال العم بشيء من الدهشة "لصوص؟.. هذا أمر نادر في المنطقة.."
صمتت دون تعليق.. فهذا هو العذر الوحيد الذي استطاعت إيجاده لتبرير إصابات هارولان.. ولم يسألها العم عن المزيد وهو مستمر في عمله.. مما أراحها.. فهي غير واثقة من قدرتها على المزيد من الخداع والأكاذيب..

****

عندما فتح هارولان عينيه، كان الظلام يعمّ الغرفة كلها إلا من نور الفجر الوليد القادم عبر النافذة.. رغم إنهاكه الشديد إلا أنه شعر بتحسن حالته.. رأى الضمادات تغطي جرحه، ورائحة دواء قوية تنسل من الأربطة.. اعتدل جالساً متلفتاً حوله، ليرى بي ناريا نائمة على أريكة قريبة متدثرة بغطاء خفيف رغم برودة الجو.. لم يحاول إيقاظها وهو يستلقي مجدداً محاولاً الحصول على مزيد من الراحة.. طال به الوقت في مكانه حتى شعر بالملل، فخرج عازماً على استكشاف المكان حولهم..
ارتدى معطفه الذي كان مرمياً على الأريكة، وخرج بصمت من الغرفة.. وجد طاولة في طريقه تحوي بعض الطعام المغطى، فلم يملك جوعه وتناول معظمه بسرعة علّ هذا يساعده في استعادة صحته.. وعند انتهائه توجه خارج المنزل وسط ضباب كثيف ليقف قريباً منه يتأمل المنازل القريبة رغم أن ملامحها لا تظهر واضحة بشكل كافٍ..
بعد فترة قصيرة سمع خطوات متعجلة خلفه قبل أن يجد يداً تجذبه ليلتفت، ورأى وجه بي ناريا القلق وهي تسأله متلاحقة الأنفاس "هل أنت بخير؟"
نظر إليها بدهشة مجيباً "أفضل حالاً بالتأكيد.."
وجدها تتنهد واضعة يداً مرتجفة على جبهتها، قبل أن تغمغم "نهضت ووجدت فراشك خالياً.. فظننت أن أحداً ربما عرف هويتك وسلمك للجنود.."
قال بتعجب أكبر "لا أظن أحداً هنا يعرف هويتي ليفعل شيئاً كهذا.."
أجابت "البارحة سمعت الرجال يتحدثون عن أمر صدر من مانيم بالقبض على أي هيماني يشاهد في غير هيمانيا.. يبدو أن أمر الثورة لم يعد بالسرية التي ترجونها.."
علق هارولان قائلاً "طبعاً.. بعد الخيانة التي واجهناها من ذلك الدليل.."
فقالت له "ألا يمكنك أن تفعل شيئاً بلكنتك هذه؟ إنها ثقيلة وواضحة جداً لا يمكن إخطاؤها.. وستعرضنا كلنا للخطر"
أجاب هارولان "لا أستطيع التحدث بغير هذه اللكنة.. لكن يمكنني أن أتظاهر بالبكم لكيلا أضطر للتحدث بها"
سألته بشيء من القلق "أتظن هذا ينجح؟ متى تعتقد بإمكاننا مواصلة الرحلة إلى يناسّا؟"
قال "يلزمني المزيد من الراحة فلا أضمن ألا تعود الحمى من جديد.. أين التوكور؟"

قالت "أخذوه لحظيرة قريبة واعتنوا به.. لقد حرصت على اللحاق بهم لمعرفة موقعه في حال احتجنا للمغادرة سراً.."

وأضافت متأملة المكان حولهما "إنهم أناس طيبون.. لم يسألوا الكثير عنا ولم يتوانوا في تقديم المساعدة.. عندما أعود للعرش سأمنحهم منازل في أقرب مدينة وأوفر لهم عيشاً كريماً بدل حياتهم البائسة هذه.."

علق هارولان "تغيير حياة هؤلاء ليس بأفضل ما تفعلينه لهم بالضرورة.. يجب أن تعرفي ما يرغبون به وتقدميه لهم.."

وأضاف بتعجب "لقد تغيرتِ نوعاً ما.. فما أظنك في السابق تهتمين بما يريده الشعب منك.."

صمتت عن التعليق.. لا تريد في هذه اللحظة أن تقول له أنها تغيرت بعد لقائه.. أن كل حديث يدور بينهما يجعلها تدرك أشياء عديدة كانت غافلة عنها، وأنها بعد لقائها بهارولان الذي لا تعرف كيف تعلقت به وأحبته لهذه الدرجه بحيث جعلها هذا تتغاضى عن أصله الأقل من عادي وتصرفاته غير المهذبة ووجهه بالجرح الكبير فيه، أصبحت أكثر اهتماماً بالعامة وإدراكاً لاحتياجاتهم ومشاعرهم..

بعد طلوع الشمس وانقشاع الضباب، تعالت أصوات القرويين وهم ينطلقون في أعمالهم اليومية، وضج المكان بأصوات حيواناتهم التي خرجت تجول في المساحات العشبية المحيطة بالمنازل.. وفي المنزل الصغير، استسلم هارولان للعم الذي كان يبدل ضماداته وبي ناريا تراقبهما بصمت.. ثم سمعت العم يتسائل "هل تشعر بأنك أفضل حالاً اليوم؟"

لم يجب هارولان بكلمة وهو ينظر جهة بي ناريا التي سارعت لتقول "إنه أبكم.. لكنه أفضل حالاً اليوم بالتأكيد.. الشكر لك على هذا.."

نظر إليها العم بدهشة لم تفهم سببها لثوان قبل أن يعاود عمله بصمت.. وقال قبل أن يغادر "سيصل فطوركما خلال لحظات.. أنا أعيش بمفردي لذلك تقوم النسوة المجاورات لي بتحضير طعامي وإحضاره كل يوم.."

غمغمت بي ناريا بكلمات مبهمة، فخرج العم بصمت من الغرفة ليعيد عدته الطبية مكانها، عندما اقترب منه الرجل الذي حمل هارولان إليه بالأمس وقال "مرحباً أيها العم.. كيف ضيفيك هذا النهار؟"

جذبه العم لإحدى الغرف وأغلق الباب عليهما قبل أن يواجهه هامساً "الفتاة تدّعي أن الرجل أبكم.. لكني أجزم بأنني سمعت صوته قبل طلوع شمس هذا النهار.. لقد تركت نافذتي مفتوحة وسمعتهما يتحادثان، وإن كان الصوت خافتاً لم أفهم حديثهما منه.."

تساءل الرجل متعجباً "وما حاجتهما للكذب في هذا الأمر؟"

قال العم مفكراً "لاأعلم.. هناك سر يشوبهما.. لا تنس أن الرجل كان مصاباً بأكثر من رصاصة.. وعذرهما بهجوم اللصوص عليهما ليس مقنعاً بالمرة.."

قال الرجل "إذن؟ من هما حقاً؟"

قال العم "يجب أن نراقبهما بحذر اليوم.. من يعلم، قد يكونون لصوصاً هاربين من الجنود.. قد يعمدون إلى سرقتنا والهروب فور تعافي الرجل.."

وأضاف قبل أن يخرج "أبلغ جميع الرجال أن يأخذوا حذرهم لدى رؤيتهما.. لا نريد أن نندم على ضيافتنا لهما.."

خرج الرجل لينفذ أمره، بينما أشار العم لفتاة دخلت لتوها حاملة طعام الإفطار لتضعه وتستدعي ضيفيه ليشاركاه في تناوله..

****

بعد انتصاف النهار، خرجت بي ناريا بطلب من هارولان لتأخذه حيث تركوا التوكور.. كان يشعر بشيء من عدم الأمان يجعله راغباً في التأكد من وسيلة نجاتهم إن اضطروا للهرب..

سارا عبر المنازل وبي ناريا تلاحظ ثقل خطوة هارولان وتعبه الذي بان بوضوح بعد سير قصير بسبب عدم اهتمامه بصحته، لكنها لم تعلق بشيء تعلم أنه لن يتقبله.. وقادته إلى حظيرة كبيرة متطرفة تحوي عدداً كبيراً من الحيوانات، وفي جانب منها رأيا التوكور الخاص بهما وقد وضع أمامه ما يكفيه من العلف والماء..

ربّت هارولان على التوكور وهو يطمئن عليه، فيما لاحظت بي ناريا النظرات التي ألقاها عليهما أحد القرويين وهو يعمل في الحظيرة، قبل أن يقترب منهما متسائلاً "هل أنت بخير اليوم؟ كنت في حالة مزرية البارحة"

سارعت بي ناريا لتجيب "إنه أفضل حالاً اليوم.. لقد اعتنى به العم كأفضل ما يكون.."

عاد الرجل يتساءل "من أي مدينة أنتما؟ سمعت أنكما قادمان من نيما، لكن لكنتكِ لا تشبه سكان نيما، بل هي أقرب لسكان يناسّا.. فما الذي جاء بكما إلى هنا؟"

قالت بي ناريا محاولة مغالبة ارتباكها "لقد كنت من سكان يناسّا سابقاً.. أما الآن فنحن قادمان من مدينة بعيدة في نيما.. و..."

قاطعها هارولان وهو يجذبها محبياً الرجل بهزة من رأسه وهما يغادران الحظيرة، ولما ابتعدا عن مسامعه همس هارولان "ارتباكك وترددك سيثيران الشكوك أكثر من لهجتي الهيمانية.."

قالت مقطبة "لست معتادة على الكذب والمداراة.. فلا تلمني على هذا.."

قال بشيء من السخرية "لكن لم يرفّ جفنك وأنت تصوغين كذبتك في هيمانيا.."

صمتت بحنق وهي عازفة عن مجادلته.. وبعد سير قصير لاحظا أن كل من يمر بهما يلقي عليهما بنظرات متشككة، فقالت بي ناريا مقطبة "ما الأمر؟ البارحة كانوا يعاملوننا بلطف، فما الذي تغير؟"

علق هارولان بخفوت "يستحسن أن نغادر بأسرع ما يمكننا.. إذ يبدو أن لطفهم لن يدوم.."

لم تجادله بي ناريا وهي تسير معه بصمت حتى وصلا إلى أطراف القرية قرب الغابة كثيفة الأشجار، فتأمل هارولان البقعة وهو يقول "لست متأكداً من طريق العودة عبر هذه الغابة.. لقد عبرنا مسافة كبيرة فيها أثناء قدومنا إلى هنا ولم أكن بوعي كافٍ لتذكر الطريق"

والتفت إليها مضيفاً "يجب أن تسألي أحدهم عن الطريق إلى أقرب مدينة.. فلا يمكننا أن نغامر بالدخول في

الغابة دون وجهة محددة فنتيه فيها بضعة أيام.."
غمغمت "لست أدري إن تمكنت من استيعاب الطريق الذي سيوصف لي.."
قال هارولان بابتسامة "لن أطالبك بهذا بالتأكيد.. سأكون قريباً وهذا كافٍ.."
انتبهت بي ناريا لحركة قريبة وإن كانت خافتة، فأشارت لهارولان بالصمت وهي تتحرك تجاه الصوت بخفة..
سمعت صوتاً خافتاً لصبي يهمس "لقد سمعته.. إنه هيماني.. أنا واثق من هذا.."
أجاب آخر بعصبية "إذن سيقتلنا.. كل الهيمانيين مجرمون.. يجب أن أخبر أبي بسرعة"
قال الأول "إن هربنا الآن سيرانا ويقبض علينا.."
استدارت بي ناريا خلف جذع شجرة ضخمة لترى صبيين لا تتجاوز أعمارهما العاشرة، نظرا إليها بدهشة سرعان ما تحوّلت إلى ذعر وأحدهما يصيح "اهرب الآن.."
اندفعت بي ناريا محاولة الإمساك بهما، لكنهما أفلتا وهما يتراكضان بخفة بين الأشجار عائدين إلى القرية، فصاحت بهارولان "اقبض عليهما.. سيؤلبان علينا القرويين.."
قال هارولان "لا وقت لهذا.. يجب أن نغادر"
وأمسك يدها ليجذبها خلفه ويعود ركضاً إلى الحظيرة التي تحوي التوكور، وهناك كان الرجل مازال مستغرقاً في عمله.. فنظر إليهما بدهشة قائلاً "ما الأمر؟"
تجاهلته بي ناريا وهي تقول لهارولان بأنفاس متقطعة "أنت لازلت منهكاً من الحمى.."
لكن هارولان أخرج التوكور وامتطاه وهو يمد يده تجاهها، فظلّت مترددة وهي تدرك أنه قد ينهار من التعب في أي لحظة.. في تلك اللحظة سمعا صراخ بعض الرجال في الخارج قائلين "إنه هيماني.. هيماني.."
فصرخ فيها هارولان "هيا.."
مدت يدها إليه فجذبها بقوة ليردفها خلفه والرجل يهتف رافعاً الأداة التي كان يعمل بها "تباً لك.. توقف.."
لكن هارولان لكز التوكور بقوة ليندفع خارجاً من الحظيرة.. وتجاوز عدداً من الرجال الذين لم يتمكنوا من إيقاف اندفاعه ليكمل طريقه نحو الغابة.. كانت القرية كلها قد خرجت محاولة الإمساك بهما وقد تسلح كل رجل منهم بسلاح ارتجالي من أدواتهم الزراعية، لكن لحسن حظهم لم يتمكنوا من الاقتراب من التوكور بالسرعة الكافية ولم يكن أي منهم يملك سلاحاً نارياً.. وخلال لحظات معدودة كان التوكور يترك القرية خلفه ويتوغل في الغابة بعيداً عن الرجال الذين لم يتمكنوا من اللحاق به.. فقال هارولان عندما توغلوا في الغابة "حظنا كان حسناً هذه المرة.. نجونا دون إصابات.. وأشك أن أحدهم سيتحمس لدرجة اللحاق بنا في الغابة.."
قالت بي ناريا بقلق "وماذا عن الحمى؟ قد تعاودك في أية لحظة"
قال هارولان "أرجو أن نصل إلى يناسّا قبل ذلك، فهناك سيسهل علي إيجاد من يعالجني.."
صمتت بي ناريا بغير اقتناع، فرغم أن يناسّا تقع عند أطراف هذه الغابة، إلا أن معرفة الاتجاه الآن مستحيل، ولا يعلمان إن كانا بسيرهما هذا يقتربان من المدينة أم يبتعدان عنها..

****

فتح هارولان عينيه متطلعاً حوله بعد مدة لا يعلمها.. كان يستلقي على الأرض، وقد فُرش معطفه تحته، وأشجار الغابة محيطة به في كل الاتجاهات.. ومن النور الذي بدأ بالخفوت والاحمرار أدرك أن غروب الشمس ليس بعيداً.. اعتدل جالساً شاعراً بتعب شديد في جسده وهو لا يذكر ما الذي حدث له بعد هروبهم من تلك القرية الصغيرة.. أعاد النظر حوله بحثاً عن بي ناريا فلم يجدها في أي مكان حوله ولم يجد التوكور مما أقلقه.. نهض مغالباً تعبه وهو لا يعرف إلى أي اتجاه يجب أن يذهب بحثاً عنها.. بحث في كل اتجاه محاولاً ألا يبتعد عن موقعه السابق في حال عادت إليه.. مضت ساعة طويلة وهو في حيرة وقلق من أمره والتعب قد بلغ منه مبلغه قبل أن يسمع حوافر التوكور تضرب الأرض، فعاد إلى موقعه السابق ليرى التوكور تقوده بي ناريا حتى وقفت قريباً وهبطت بسهوله لتقترب منه قائلة "لماذا نهضت؟ يجب أن ترتاح مدة أطول"

سألها بحيرة "ما الذي حدث لي؟ وإلى أين ذهبتِ؟"

قالت وهي تجلس قرب الشجرة لترتاح "بعد مغادرتنا القرية بوقت قصير، غبتَ عن الوعي مرة أخرى وكدت تسقط من فوق التوكور المندفع.. يبدو أنك لم تتعافَ بعد من الحمى.. فتركتك هنا لترتاح وذهبت أبحث عن أي مصدر للمياه أو طريق يقودنا إلى يناسّا.."

سألها "وهل وفّقت في ذلك؟"

ابتسمت مجيبة "أجل.. وجدت نهراً صغيراً، وقربه وجدت آثار طريق قديم.. لا أعلم إن كان سيصلنا بيناسّا أم لا لكن على الأقل سيُخرجنا من الغابة.."

وناولته حاوية الماء قائلة "اشرب قليلاً.. هذا أفضل من لاشيء.."

بعد قليل، كان الإثنان يتجهان إلى الطريق القديم، وقد أصرت بي ناريا على قيادة التوكور محتجة بتعب هارولان الذي لم يغادره.. وخلال نصف ساعة، كانا يقفان عند النهر الصغير الذي يجري بسلاسة بين الأشجار، وقد بدت كثافة الغابة حولهم أقل مما كانت عليه سابقاً، فقالت بي ناريا بابتسامة "يبدو أن المخرج قريب.. لنسرع.."

انطلقوا على الطريق الذي لا تكاد معالمه تتضح من بين الأشجار التي قضت على معظمه.. كان سيرهم سلساً لا يعطله شيء والأشجار تتباعد أكثر فأكثر حتى رأيا أمامهما سهولاً فسيحة مخضرة تملأ الأفق.. ووسط تلك السهول، على مبعدة منهما، كانت مدينة يناسّا تربض بسكون بأسوارها العالية وضخامتها مقارنة بعاصمة هيمانيا.. فقالت بي ناريا بصوت مختلج "لقد وصلنا.."

كانت السعادة تغمرها برؤية مدينتها الحبيبة، وأحست بشيء من الأمان والراحة لعودتها إلى موطنها رغم كل المخاطر التي تحيط بها في تلك الساعة.. فلاشيء بنظرها يعادل يناسّا في جمالها وهدوءها ورقيها..

سمعت هارولان يقول "أجل.. أخيراً وصلنا.."

أعادها صوته لواقعها فالتفتت تنظر إليه لترى النظرة التي أرعبتها سابقاً تظهر من جديد، فقالت وهي تبعد ناظريها عنه "الآن، كيف يمكننا الدخول إليها مع كل الحراسة التي على أبوابها؟"

قال هارولان "لن يتعرفك أحد بتنكرك هذا، فأنت لا تشبهين الملكة بي ناريا في شيء.."
قالت بقلق "لكن.. سيدركون أنك هيماني ما إن تفتح فمك.. وعندها سنقع في ورطة شديدة.."
أجابها "ليست لدينا طريقة أخرى.. يجب أن نتحايل على الحراس وندخل المدينة.. فقد تأخرنا بما فيه الكفاية.."
تساءلت "أتظن أمر الثوار انكشف في المدينة؟ لقد مضى يومان منذ انفصلنا عنهم، وأمر مانيم القبض على أي هيماني خارج هيمانيا دليل استعداده لقدومكم.."
أجاب هارولان "الساعات القادمة ستبين لنا الأمر كله.."
ظلت بي ناريا في مكانها تتطلع إلى مدينتها الحبيبة بمزيج اللهفة والقلق.. لهفة للعودة إلى المكان الذي لا تنتمي إلا إليه، وقلق مما قد تواجهه حتى تستعيد ما فقدته.. ثم تنهدت ولكزت التوكور لينطلق باتجاه البوابة الضخمة للمدينة، والطريق الحجري المؤدي إليها.. وكلما اقتربا، لاحظا الزحام المتزايد قرب البوابة.. مئات العربات والمركبات، وقربهم المئات من المشاة الذين تنحوا عن الطريق ليجلسوا بجانبه بحثاً عن الراحة، مكومين أغراضهم بجانبهم..
قطبت بي ناريا متسائلة "ما الأمر؟ الزحام نادر الحدوث قرب بوابات المدينة.. يبدو أن أمراً ما استجد"
لم يعلق هارولان وهي تقود التوكور وسط الزحام لينسل بين العربات والمركبات بحجمه الصغير.. وعند اقترابهم من البوابة، تناهى إلى سمعهم صراخ دائر بين اثنين وجمع من الناس يحيطون بهما.. رأت بي ناريا صاحب أحد العربات المحملة بأنواع مختلفة من الأغذية يصيح في أحد الجنود عند البوابة بلا خوف.. كان يقول بحنق شديد "حتى متى؟ بضاعتي ستفسد حتى يرفع الحظر عن المدينة.. فماذا أنتم فاعلون بشأن هذا؟ كيف ستعوضونني؟"
قال له الجندي بصرامة "هذه هي أوامر الملك ولا يمكن أن نحيد عنها لأيٍ كان.. ولا يهمنا ما سيحل ببضاعتك.. ابتعد وعد أدراجك فهذا أفضل لك.."
صاح الرجل "ما الذي سيجنيه الملك من منع دخولنا إلى المدينة؟ لماذا هذا التشديد غير المنطقي؟"
عاد الجندي يقول بصرامة أشد "إنها أوامر الملك.."
فقال الرجل بسخرية "ألا تملك إلا ترديد هذا القول كالآلة؟ تنحى عن طريقي فسأدخل مهما اعترضتم.."
وتقدم جاذباً التوكور الذي يجر العربة، لكن تلقفه الجندي بضربة قوية من سلاحه أوقعته للوراء، وتقدم عدد من الجنود من الرجل ليوسعوه ضرباً وركلاً بالإضافة إلى إلقاء ما تحويه العربة من صناديق تحت أقدامهم دون أن يجرؤ شخص ما على التدخل، بل تراجعوا بشيء من الخوف مكتفين بالفرجة.. أما هارولان فقد تمتم بغيظ "هذا مما يزيد من رصيد مانيم عندي.. وهو رصيد آخذ بالتضخم كل ثانية"
لم تعلق بي ناريا والحنق يغزوها بدورها مما تراه.. لم تكن هذه المناظر مما تحبها، فهي مهما كانت متشددة إلا أنها لم ترض بالظلم يوماً، ولم تتوانى عن معاقبة مرتكبيه..
وجدت هارولان يتناول لجام التوكور من يدها ويقوده بعيداً عن التجمع بصمت، فتسائلت بدهشة "إلى أين؟ يجب أن نحاول دخول المدينة دون إبطاء.."

أجاب بعد أن ابتعدا من التجمع "مادام مانيم قد وضع حظراً على دخول المدينة، فلا يمكننا لفت الأنظار بمحاولة الدخول إليها عنوة.. سندخل، لكن ليس عبر هذه البوابة"

صمتت ودهشتها متعاظمة.. مادام أمر مانيم يطبّق دون استثناء فهذا يعني أنه سارٍ على جميع البوابات.. فمن أين يمكنهم دخول المدينة وأي طريق بدون المرور بالبوابات هو المستحيل بعينه؟..

****

الفصل الحادي عشر:

المتسللة

عن يناسّا

..

وأسوارها

..

وخبايا منازلها

..

دار هارولان بالتوكور قرب سور المدينة الضخم، والذي يرتفع عالياً مغطياً المنازل والقصور التي يضمها في قلبه تغطية تامة.. ظلت بي ناريا تنظر لتصرف هارولان بتعجب وهو يحث التوكور على السير رافعاً بصره بين فينة وأخرى ليتأمل أبراج المراقبة الموزعة على مسافات متساوية وقريبة من بعضها.. ثم غمغمت "كيف تنوي أن تتسلل للمدينة؟ هل تنوي القفز من فوق السور بالتوكور؟"

لم يبتسم لمزاحها وهو يقترب من إحدى القنوات المائية التي تعبر المدينة والسور لتنطلق وسط الساحات العشبية حتى تصب في بحيرة صغيرة تتوسط الغابة القريبة.. كانت المدينة تمتلك سبع قنوات مائية موزعة بشكل متساوٍ في أنحائها مستغلة كثرة المصادر المائية الطبيعية قرب يناسّا من بحيرات وأنهار ومنابع.. علقت بي ناريا وهي تراه يراقب المكان "لا تفكر في الأمر.. القنوات محمية ببوابات حديدية تمنع المتسللين للمدينة، وإلا ما فائدة الأسوار إذاً؟"

غمغم "هل تصمتين قليلاً حتى أنتهي؟ لست بالحمق الذي تظنينني به"

أطبقت بي ناريا فمها بشيء من الحنق.. لماذا يعاملها الجميع كشيء مهمل لا داعي لاعتباره؟.. وبعد لحظات صمت طويلة، ترجل هارولان عن التوكور وهو يقول "تظاهري بأنك تعبئين الماء في الحاوية لديك"

تبعته نازلة من التوكور وتناولت الحاوية من جرابه، لتنزل الدرجات القليلة المؤدية إلى القناة المنخفضة، وانشغلت بتعبئة الحاوية بالماء وهي ترى هارولان يغسل وجهه من مياه القناة التي كانت على شيء من البرودة قبل أن يغمغم "سنبقى هنا حتى حلول الظلام.. ثم سنسلك طريقنا إلى المدينة عبر هذه القناة.."

قالت بي ناريا مقطبة "هل سمعت شيئاً مما قلته قبل قليل؟ كيف تنوي تجاوز البوابة الحديدية؟ وألم تلاحظ أن ستة جنود على الأقل يراقبونك من الأبراج القريبة؟"

لم يعلق على اعتراضها، فزفرت بضيق وهي تجلس على حافة القناة صامتة.. ولم تلبث أن رمت حذائيها جانباً ودلّت قدميها في الماء متأملة نقاوته ومستشعرة برودته.. تنهدت وهي تود لو ترمي نفسها في الماء، فقد مرت عدة أيام منذ حظيت بحمام نظيف، هذا إن كان يمكن اعتبار ما تستخدمه في الوكر حماماً.. التفتت إلى هارولان لتجده يقترب ممسكاً بلجام التوكور ليقربه من الماء ويسمح له بشربه.. كانت تودّ لو تلحّ عليه بالسؤال عن خططه، لأنها تخشى أن يقعا في قبضة الجنود وهي قاب قوسين أو أدنى من النجاح.. لكنها عزفت عن ذلك مع معاملته الجافة لها وتجاهله لتساؤلاتها..

مر وقت ليس بالقصير وهما يتشاغلان قرب القناة متظاهرين بانتظار رفع الحظر عن المدينة.. ولكن عندما غابت الشمس وعمّ الظلام التام المكان، كان هارولان وبي ناريا يتسللان مقتربين من سور يناسّا ومن الفتحة التي تخترقها القناة عبر السور والمحمية بباب حديدي قوي ذو أعمدة غليظة.. أشار هارولان لبي ناريا لتبقى مختبئة في موقعها، ونزل إلى القناة العميقة بهدوء وغاب فيها تماماً..

انتظرته بي ناريا والحيرة تكتنفها مما يفعله، ثم التفتت إلى حيث تركا التوكور متسائلة إن كانت خدعتهما ستنجح في تضليل الجند عند الأبراج القريبة.. بعد فترة قصيرة ظهر رأس هارولان من المياه واقترب من بي ناريا هامساً "ليست هذه المقصودة.. لنذهب إلى الجهة الأخرى.. سنحاول في القناة التالية.."

قطبت بي ناريا متسائلة "ما الذي تحاول فعله بالضبط؟ أخبرني كي أوفر عليك العناء.."
قال باقتضاب "اتبعيني واتركي الأسئلة لوقت لاحق.."
ثم مد يده إليها متسائلاً "هل يمكنك السباحة؟"
أجابت دون أن تقبل يده "بالطبع يمكنني.. ولو أنني لا أدرك فائدة هذا كله.."
وانزلقت في المياه بهدوء تابعة هارولان عبر القناة متسائلة "وماذا عن التوكور؟ هل سنتركه هنا؟"
قال هارولان "إنه ليس مربوطاً بإحكام.. بعد فترة من الوقت سيحرر نفسه وينطلق في حال سبيله.. فلم تعد له حاجة الآن"
وصلا إلى الجانب الآخر فارتقيا الضفة وسارا قرب جدار سور المدينة محاذرين أن يسقط عليهم ضوء الكشاف الخاص بأقرب برج مراقبة والذي يتحرك بشكل مستمر كاشفاً مساحة واسعة من الأرض في كل مرة..
فغمغمت بي ناريا وهي تتخلل شعرها بيدها لتنفض الماء عنه "أنحن ذاهبون إلى القناة الأخرى؟"
لم يجاوبها هارولان مما عنى موافقته على ما قالت، فهمست بشيء من الحدة "أتعلم كم تبعد عنا؟ لم لا نستخدم التوكور للوصول إلى هناك فهو أسرع"
قال هارولان مقطباً "هل تريدين كشفنا بهذه السرعة؟ تحلّي بالصبر فهذه هي وسيلتنا الوحيدة للدخول"
غمغمت بضيق "لو أنك تفصح بما في ذهنك بدل هذا التكتم غير المفهوم"
صمت هارولان من جديد، فزفرت بضيق وهي تتبعه والبرودة تتخلل ملابسهما المبللة جاعلة ضيق بي ناريا يتزايد..
في تلك الأثناء، وقف أحد الجنود عند برج المراقبة يحدق في القناة القريبة منه لمدة طالت، ثم التفت إلى جندي آخر قائلاً "هل يستطيع ضوء الكشاف أن يصل إلى تلك البقعة؟ حاول إضاءتها قليلاً.."
أطاعه الجندي مديراً الكشاف العملاق ليسقطه على البقعة التي كان يحتلها هارولان وبي ناريا، فتسبب الضوء المفاجيء بإفزاع التوكور الذي أطلق صهيلاً محدوداً قبل أن يفر راكضاً مبتعداً عن المدينة.. عندها غمغم الجندي "هناك أمر مريب يحدث.. لقد شككت في هدوء هذين الاثنين منذ مدة طويلة، والآن مع هروب التوكور فإن أحدهما لم يحرك إصبعاً.."
قال الجندي الثاني "أرسل فرقة من الجنود تتحقق من أمرهما.. لا يجب أن نهمل هذين مع كل التحذيرات التي أوصانا بها القائد العام"
سارع الجندي ليتحدث عبر جهاز الاتصال، وخلال مدة قصيرة، جاءت فرقة من الجنود من البوابة القريبة وسط دهشة الجمهور المتجمع قرب البوابة بين نائم ومستيقظ.. فاقتربت الفرقة من موقع هارولان السابق ملاحظين الشخصين النائمين على ضفة القناة بهدوء متلفعين بمعاطف طويلة تغطي جسديهما كله.. فصاح أحد الجنود "هيه.. أنتما.. انهضا وابتعدا عن القناة فبقاؤكما هنا ممنوع"
جاوبه الصمت التام، فهبّ إلى أقرب الجسدين ورفع المعطف بسرعة، ليرى تحته كومة من الرمال تشكل جسداً كرجل نائم تمت تغطيتها بالمعطف بشكل تام.. فصاح وهو يكشف الجسد الآخر "يا للأوغاد.. لقد خدعونا.."

وسارع للاتصال بالجنود القائمين عند الأبراج ليحذرهم ويطلب منهم البحث عن الاثنين المختفيين، فتساءل أحد الجنود قربه "وما الخوف من هذين الاثنين؟ لا يمكنهما الدخول إلى المدينة مهما حاولا فالأبواب محمية بعناية"
قال الجندي مقطباً "هناك أمر مريب فيهما.. انعزالهما عن البقية كل هذا الوقت، وبذلهما الجهد لخداعنا بهذه الطريقة، كل هذا دليل على أنهما ينتويان شيئاً.."
غمغم الجندي الأول "لكن متى تسنى لهما نقل كل هذه الكمية من الرمال وسط نظر الجنود على الأبراج؟"
قال الجندي الثاني وهو يعود أدراجه "لا يهم هذا الآن.. المهم أن نقبض عليهما ونستجوبهما، قبل أن يفعلا ما جاءا لأجله"
في نفس الوقت كانت بي ناريا تجلس قرب ضفة القناة الثانية تحاول التقاط أنفاسها بعد أن سارت مسافة طويلة ما بين القناتين.. لكن لم تكد تنل ما يكفيها من راحة حتى رأت رأس هارولان يبرز من الماء ويقول لها "هيا بنا.. لقد عثرت على بغيتنا.."
تساءلت "وما هو؟"
أجابها "فتحة في الباب الحديدي.. لقد عثرت على هذا المدخل في مهمتي السابقة.. مدينة مهمة كيناسّا لابد لها من مدخل خلفي.. فلابد أن هذه الفتحة قد صنعها بعض المتسللين السابقين للمدينة.."
أدركت بي ناريا أنه يتحدث عن الأيام التي تركها فيها في إقليم سيرالدا حتى عودته في الغابة القريبة من يانا.. عندها سألته "وما كانت مهمتك هذه؟"
قال مقطباً "أتظنين الوقت مناسباً لاستجوابي؟"
صمتت بضيق وهو يضيف "حتى لو كان لدينا الوقت كله، ما أظنني في يوم قد أفصح لك عن شيء من أسرارنا.."
كادت بي ناريا تعلق على قوله بغيظ، لكن فوجئوا بنور كشاف أقرب برج إليهم يسلط عليهم معشياً أعينهم، تعالى بعده صياح الجنود يأمرونهم بالتوقف.. فقال هارولان بحدة "أسرعي.. خذي نفساً عميقاً وغوصي خلفي.."
نزلت بي ناريا بسرعة إلى الماء وأخذت نفساً عميقاً، ثم غاصت في المياه الباردة خلف هارولان.. كان الكشاف المسلط عليهم قد تسلل إلى مياه القناة المظلمة مانحاً إياهما مجالاً أوسع للرؤية، فأمسك هارولان يد بي ناريا وجذبها وهو يسبح بسرعة إلى الباب الحديدي القريب والذي يقف حاجزاً بين موقعهم ودخول المدينة عبر القناة، سامحاً فقط للمياة المتدفقة من سلك طريقها عبر القناة إلى المدينة حيث تلتقي القنوات جميعها في المنتصف في قناة عريضة تدور حول القصر الملكي عازلة إياه عن باقي أحياء المدينة وما من سبيل إليه إلا عبر جسور عليها حراسة مشددة..
عندما اقتربوا من الباب الحديدي تمكنت بي ناريا من رؤية فتحة صغيرة فيه تمت بنزع أجزاء من أعمدة الباب الحديدية.. كانت الفتحة تتسع لشخص واحد، فعبر هارولان الفتحة، ووقف قربها حتى عبرتها بي ناريا، ثم ارتفعا إلى سطح المياه بهدوء.. لكن لم يكادا يظهران وبي ناريا تتنفس بقوة لتعويض حاجتها للأكسجين، حتى

سمعوا صراخ الجنود وهو يقتربون من حافة القناة بعد أن أنذرهم الجنود الرابضين على البرج القريب بوجود المتسللين.. في نفس اللحظة التي سقط عليهم فيها ضوء الكشاف من أقرب برج مراقبة..

جذب هارولان بي ناريا لتغوص من جديد وسبح بأسرع ما يستطيع محاولاً تجاوز ضوء الكشاف الساقط عليهم والذي يكشف موقعهم بوضوح.. شعرت بي ناريا ببضع طلقات من الرصاص تخترق المياه قريباً منهما دون أن تصيبهما، لكنهما لم يتوقفا وهما يعبران بقعة الضوء التي عجزت عن متابعتهما وهارولان يجذبها خلفه ليعينها على السباحة بسرعة.. بعد مدة قصيرة، جذبت بي ناريا يدها ليفلتها وظهرت على السطح وقد عجزت عن الاستمرار أكثر من هذا.. فأخذت تشهق بقوة وهارولان يظهر قربها ليرى الجنود يفتشون القناة قريباً منهم حاملين كشافات صغيرة لتضيء القناة وقد عجزوا عن رؤية هارولان وبي ناريا في الظلام المحيط بهما.. عندها همس هارولان "لنسرع بالهروب.."

واتجه إلى ضفة القناة المعاكسة للتي وقف عليها الجنود، فرفع نفسه بخفة عليها ثم عاون بي ناريا على الخروج.. وما كادت تفعل حتى جذبها من جديد راكضاً إلى المنازل القريبة منهم وهي تحاول مجاراته وعسر التنفس يجعل من الصعب عليها إتيان هذا المجهود.. في تلك اللحظة، رأوا نور الكشاف يسقط عليهم من الخلف من جديد والجنود يتصايحون محاولين عبور القناة من أقرب جسر للحاق بهم، فهتف هارولان بسخط "تباً.. يجب أن نختبيء.."

غمغمت بي ناريا متقطعة الأنفاس "وأين يمكن أن نختبيء؟ منزل جوين بعيد من هنا، ولا نعلم إلى من يمكن أن نلتجيء دون أن يخوننا بكشف أمرنا للجنود.."

وصلا إلى المنازل القريبة الساكنة فعبرا الأزقة بين المنازل بسرعة محاولين الاختباء قبل وصول الجنود من الضفة الأخرى للقناة.. كان تصميم المدينة يشبه الشمس حيث القصر والربوة حوله هي المركز، والمنازل المصطفة طوليا باتجاه القصر هي الأشعة.. ركض الاثنان بلا وجهة بين المنازل وهما يسمعان صياح الجنود خلفهما ووقع الأقدام الثقيلة المميزة لهم.. وفجأة سطع نور في وجهيهما أجبرهما على التوقف وهما يسمعان مزيداً من وقع الأقدام يحيط بهما.. فتحت بي ناريا عينيها بشيء من العسر لتجد أنهما أصبحا محاصرين بعدد من الجنود، ووقع الأقدام التي تقترب يدلهما على اقتراب المزيد من الجنود من خلفهما مما يجعلهما في موقف أسوأ..

فهمست بقلق "ما الذي سنفعله الآن؟ أخشى أن يتعرفوا عليّ"

شعرت بهارولان يضغط على يدها وهو صامت وأحد الجنود يتقدم منهما قائلاً بصرامة "توقفا وإياكما محاولة الهرب من جديد.."

كان الجندي يرفع سلاحه في وجهيهما فيما وقف البقية متحفزين لأقل حركة.. لكن ما إن اقترب حتى اندفع هارولان وأمسك سلاحه بقوة وهو يلكمه في وجهه بيده الأخرى ألقته للوراء.. في نفس اللحظة كان هارولان قد جذب بي ناريا من يدها محاولاً الاندفاع بين الجنود في أضعف بقعة من الحصار وهو يرفع سلاحه ويطلقه عليهم بغزارة.. تراجع الجنود وقد أخذتهم المفاجأة والرصاص يصيبهم بإصابات متفرقة وإن تماسك البقية وهم يرفعون أسلحتهم بدورهم ويندفعون نحوهما محاولين إيقافهما..

تنصل هارولان من الجنود الأقرب إليه وكاد يفلت من الحصار عندما فوجيء ببي ناريا تفلت يده وأحد الجنود يجذبها بعنف ممسكاً ذراعها بشكل آلمها حتى سقطت أرضاً وهي تشهق بألم.. فصاحت بشدة وقد نسيت حذرها "كيف تجرؤ أيها الوغد؟.."

بهت الجندي وهو يتطلع إلى وجهها على ضوء الكشاف فيما وضعت بي ناريا يدها على فمها بشيء من الذعر.. مستحيل أن يكون قد تعرفها.. أيمكن هذا؟.. التفتت خلفها بحثاً عن هارولان لينقذها من هذا الموقف، كعادته، لكنها رأت الجنود يتراكضون باحثين عنه وقد اختفى من المكان كلياً..

ظلت تنظر لموقع اختفاءه بذهول غير مصدق وأحد الجنود يقترب منها قائلاً بسخط "لقد أفلت ذلك الرجل بخفة من بيننا.. تخلى عن الفتاة وهرب دون أن يلتفت خلفه.."

غمرت نفضة جسد بي ناريا وهي مصدومة لتخلي هارولان عنها عندما سمعت الجندي الذي أوقعها يقول "أنت.. بي ناريا؟"

تحولت نفضة بي ناريا إلى ارتجافة واضحة وهي تقول بصوت متحشرج من الذعر "من.. أنا؟"

قال الجندي وهو يسلط الضوء عليها أكثر "أجل.. أنت بي ناريا.. أليس كذلك؟"

قال الجندي الآخر "أنت تهذي.. هذه الفتاة لا تشبه الملكة السابقة في شيء.."

قال الجندي بغير تصديق "لكني أذكر هذا الصوت، وهذه النبرة المميزة.. لقد عملت في القصر لفترة وأعرف بي ناريا عن قرب.."

تطلع الجندي الآخر إلى بي ناريا الصامتة برعب وهو يقول مدققاً في وجهها "كلا.. لا يمكن.. هذه سمراء البشرة وعينها بنية اللون.. صحيح أنها جميلة، لكن جمالها لا يقارن بجمال بي ناريا.."

ثم أنهضها بقوة وهو يسألها "من أنتما؟ وكيف أمكنكما التسلل إلى المدينة رغم وجود البوابات الحديدية على القنوات؟ بل لماذا تسللتما في الأصل؟"

صمتت بي ناريا وهي تتلفت حولها ملاحظة أن جميع الجنود الذين كانوا قربها قد توزعوا في الأزقة القريبة بحثاً عن هارولان، فهزها الجندي من جديد "أجيبي.. من أنتما حقاً؟"

حاولت بي ناريا إفلات يدها من قبضته وهي تقول وذعرها يتحول لغضب، من تخلي هارولان عنها، ومن معاملة جنودها السابقين لها بالطريقة الجلفة هذه "اتركني يا هذا.."

قال الجندي وهو يجرها معه "محال.. سنحتجزك حتى نقبض على رفيقك الهارب، ثم سنزج بكما في...."

قطع حديثه بآهة ألم عندما اخترقت ذراعه الممسكة ببي ناريا رصاصة أطلقت من موقع مجهول تبعتها رصاصة أصابت كتفه.. وقفت بي ناريا تنظر إليه مذهولة فيما صاح الجندي الآخر "الوغد.. أين هو؟"

سمعت بي ناريا صوت هارولان يهتف بها "اهربي.."

نفذت أمره على الفور بعد أن اعتادت على تلقي الأوامر منه ولم تعد تستنكر ذلك.. حاول الجندي الآخر القبض عليها لكنها كانت على مبعدة منه مكنتها من الفرار وهي تتجه لأقرب زقاق مظلم.. سمعت الجندي خلفها يصيح رافعاً سلاحه "تباً لك.. توقفي.."

تبعها صوت طلقة أثارت رجفة في بدنها، لكنها لم تتوقف وهي تسمع الجندي يصيح ساخطاً.. لم تنظر خلفها وهي تندس في الزقاق الذي بدا لها الأقرب للجهة التي سمعت فيها صوت هارولان.. وظلت تجري لاهثة دون أن يفوتها صوت الأقدام التي جذبها الطلق الناري في الليل الهادئ.. خشيت بي ناريا أن يقتفي الجنود أثرها بسرعة، ولم تستطع رؤية هارولان أو العثور عليه وهي غير قادرة على مناداته لئلا تجذب المزيد من الانتباه.. وأثناء مرورها بأحد المنازل شعرت بيد تجذبها لتدخل باب المنزل المظلم، فشهقت بخوف وهي تحاول دفع تلك اليد عنها.. لكنها سمعت صوت هارولان وهو يهمس "إنه أنا.. لا تخافي.."

زال خوفها وإن لم يتخل قلبها عن ضرباته المتلاحقة، فهمست بحدة "لقد تخليت عني.."

قال وهو يجذبها خلفه داخلاً المنزل "أتعتقدين ذلك؟"

صمتت بمضض وهي مدركة أنه أنقذها بطريقته الخاصة، ثم تساءلت "ألن يثير قدومنا انتباه أصحاب المنزل؟"

أجابها "المنزل مهجور.. لقد تأكدت منه بعد هربي من الجنود.. والآن نستطيع الاختباء من ملاحقينا حتى نتمكن من الوصول إلى بقية الثوار"

غمغمت مقطبة "لابد أن الجنود سيفتشون المنطقة جيداً.. ولن يفوتهم تفتيش هذا المنزل.."

أجاب هارولان بابتسامة "هذا إن وجدونا فيه.."

قادها عبر الغرف إلى سلم يتوسط المنزل ويقود للأعلى.. وخلال لحظات كانا ينظران إلى باب يفصلهما عن سطح المنزل.. حاول هارولان فتحه عدة مرات دون أن ينجح في ذلك.. عندها قام بلطم الباب بكتفه السليمة عدة مرات بقوة حتى استسلم الباب وفتح بعنف.. وإن لم تخف مظاهر الألم على وجهه عن بي ناريا، لكنها لم تعلق وهي تعلم بكراهيته لاهتمامها به.. عبرا الباب وسارع هارولان لإغلاقه وسدّه بقطعة حديدية وجدها ملقاة أرضاً، ليبدو الباب مغلقا لم يعبر منه أحد.. وعلى السطح، أسرع هارولان إلى حافة المكان قائلاً "المساحة بين المنازل صغيرة ويمكن تجاوزها.. سنقفز من منزل لآخر مستغلين بحث الجنود عنا في الأسفل وغفلتهم عما يحدث بالأعلى"

ترددت بي ناريا وهي تتطلع إلى المسافة الفاصلة بين المنزلين بقلق، فجذب هارولان يدها وهو يقول "اقفزي بأقوى ما تستطيعين دون تفكير.. وأنا لن أفلتك أبداً"

هزت رأسها موافقة، ومعاً قفزا المسافة بنجاح ليهبطا على سطح المنزل الآخر وبي ناريا تكاد تفقد توازنها.. ودون التقاط الأنفاس استمروا بالركض عبر السطح إلى منزل آخر وهارولان يقول لها "كوني معي على خطوة واحدة ولا تترددي ثانية واحدة"

استمرا بالقفز من منزل لآخر مسافة طويلة.. وبعد مدة توقفا وهارولان ينظر للشارع القريب منهما ويصيخ السمع.. ولما تأكد لهما أن الصمت يسود الأجواء بدون أن يسمعا هدير مركبات الجنود المميز أو وقع أقدامهم العالي في هدوء الليل، قال لها وهو يجذبها إلى زاوية في السطح تخفيهما عن الأعين "سنبقى هنا حتى الصباح فأنت تبدين في حال سيئة، وغداً نحاول الذوبان بين الناس حتى نصل لوجهتنا.."

لم تعترض بكلمة وهي تحاول التقاط أنفاسها.. رأته يجلس على الأرض، فجلست غير بعيد عنه وهي تلف

جسدها بذراعيها بقوة، فلم تزل ثيابها مبللة، وهي قد اضطرت للتخلي عن معطفها لخداع الجنود ليتمكنا من التسلل للمدينة.. كانت يناسّا مشهورة بين الأقاليم أن بردها يتجاوز الدرجات المعتدلة.. وظنت بي ناريا وهي عاجزة عن إيقاف اصطكاك أسنانها أنها قد تقضي نحبها متجمدة قبل طلوع الشمس..

عندما انتبه هارولان لارتجاف جسدها جذبها قربه وأحاطها بذراعه .. فاستكانت بي ناريا له وهي تشعر بالدفء في جسدها بالإضافة لدفء قلبها.. تمنت لو يصرّح لها بحبه من جديد.. لو يعود كما عرفته سابقاً رجلاً مغرماً يمنحها حبه بلا قيود.. بدا وكأنه سمع أفكارها وهي تسمعه يهمس متجاوزاً الصمت بينهما "أحقاً أنت لي؟"

ارتجفت وهي تتطلع إليه بدهشة، ورغم أن عينيه القويتين كانتا تنظران إليها بثبات، إلا أن حيرة واضحة كانت تطل منهما.. فقالت بي ناريا بصوت مرتجف "أنا لك دائماً.."

وجدت يده تمسك بيدها وتضغط عليها بقوة، فأسندت رأسها إلى كتفه وهي تحاول كتم سعادة غمرتها.. هذه هي المرة الأولى التي يسألها فيها هذا السؤال منذ عرف هويتها وصرّح بكرهه لها.. هذا كان إعلانا منه أنه لا زال لها في قلبه مسكن، وأنه لا يزال حريصاً على حبها وحياتها.. ولشد ما أسعدها هذا رغم الظروف التي يمرون بها..

ورغم أنه عاد يلتزم الصمت التام، إلا أنها قالت بهمس "نارياسّا.."

التقت نظراته المستفهمة بنظراتها اللامعة وهي تضيف "هذا لقب أحبه كثيراً.. لم أسمح لأحد آخر بمناداتي به من قبل، عدا عن والدي، ولم أعتقد أنني سأسمح بهذا إلا لمن يمتلك قلبي.."

ظلت نظراته تجوب وجهها بصمت وهي بانتظار أن تسمعه يناديها بهذا اللقب لتتأكد أنه قد غفر لها كل ما سبق.. لكنه تنهد وهو يلتفت بعيداً مغمغما "من يدري، أتسمعينه في يوم أم لا.."

كان هذا رفضاً صريحاً لعرضها بفتح صفحة جديدة في علاقتهما ونسيان الماضي، فصمتت بي ناريا والوجوم يغزوها مزيلاً السعادة التي شعرت بها للحظات.. وأغمضت عينيها محاولة الهرب من هذا الموقف بالنوم مستجيبة لجسدها الذي أنّ محتجاً.. أما هارولان، فقد ظل يتأمل وجهها الساكن وقلبه ممزق.. لو كان وفياً لعهده السابق لما كانت بي ناريا تتنفس بسلام قربه.. لكنه يحبها.. بل يعشقها.. رغم أنه لم يهتم بها كثيراً في السابق، إلا أن رؤية دموعها وضعفها ذلك اليوم قد قلبا كيانه.. أصبحت في كل ساعة يراها تتغلغل أكثر في قلبه وتزيل دفاعاته.. فكيف يستطيع إيذاءها؟ كيف يطاوعه قلبه برؤية ألمها أو التفكير بالتخلي عنها في أي وقت؟..

ضمّها أكثر إليه ملاحظاً انتظام أنفاسها وقد آلمه أكثر اطمئنانها إليه بهذه الصورة المطلقة.. وكأنها تثق فيه أكثر من ثقته بنفسه.. فتنهد وهو يهمس "ما الذي فعلته بي يا نارياسّا.. ما الذي فعلته بي؟!.."

****

لم يكن الظلام قد زال عندما استيقظت بي ناريا على همس هارولان.. نهضت متوجسة لتسمعه يقول "يجب أن ننطلق الآن.. يكفي ما نلناه من راحة، فهربنا في النهار أصعب من الآن.."

نهضت بصمت وهي تجد جسدها أكثر تعباً بعد نومها جالسة في هذا البرد الشديد.. وتبعت هارولان الذي لم يبد أنه غفا للحظة واحدة مغمغمة "ألست متعباً؟ أخشى أن ينهار جسدك دفعة واحدة كما حدث من قبل"
لم يعلق بكلمة وهي تتبعه إلى حافة سطح المنزل.. فراقب هارولان الشارع ليتأكد من خلوه من الجنود، ثم قال "المكان آمن الآن تقريباً.. هناك من التمديدات على ارتفاع المنزل ما يمكننا من الهبوط بأمان"
قالت بي ناريا بقلق "ولم لا نهبط من السلم الداخلي فهو أءمن لنا"
قال هارولان "لا أريد لأصحاب المنزل أن يكونوا شهوداً علينا.. هل يمكنك فعل ذلك؟"
قالت بتوتر "لا.. لست واثقة أنني أستطيع.."
فقال "إذن تمسكي بي وأنا سأهبط بك للأسفل"
اعترضت "لكن.. أنت جريح.."
فقال هارولان مقطباً "لا تتسببي في تأخيرنا.. أطيعيني في كل ما أطلبه حتى نتمكن من الوصول إلى هدفنا بسلام"
أذعنت له وهو يدير لها ظهره فتمسكت بعنقه، وعلى الفور بدأ بالهبوط وهي تنظر للأسفل بذعر شاعرة أنها قد تسقط في أية لحظة، وزاد قلقها الصوت الصادر من الأنابيب الحديدية تحت وطأة ثقليهما معاً.. ولما تجاوزا ثلثي المسافة قال لها فجأة "تشبثي.."
وما كادت تفعل حتى قفز هارولان ما بقي منها ليهبط أرضاً على قدميه.. فغمغمت وهي تتخلى عنه "أنت تهوى إفزاعي.."
لم يعلق بكلمة، فلم تفتها ملامح الألم التي تغزو وجهه.. فغمغمت بتذمر لتخفي قلقها "أنت بالكاد تستطيع أن تبذل مجهوداً كهذا الآن مع هذه الإصابات.. لو هاجمنا الجنود فهل ستقدر على الهرب منهم؟"
قال هارولان باقتضاب "لن يهاجمونا إن أحسنّا التنكر.."
وأشار لها لتبقى مختبئة خلف جدار المنزل.. فقبعت في موقعها وهي متعجبة من ثقته، فبماذا سيتنكرون وهم لا يملكون شيئاً؟ وأي تنكر سيعمي أبصار الجنود عنهما؟.. رأت هارولان يمسك سلاحه الذي لم يستخدمه منذ فترة، خشية جذب الانتباه، مقلوباً في يده.. وتسلل بين المنازل مشيراً لها لتتبعه بعد أن يطمئن لخلو المكان من ملاحقيهم.. وبعد فترة قصيرة، أشار لها بالسكون، ونظر من خلف جدار المنزل مراقباً جنديين يقفان قريباً وكل منهما يحمل سلاحاً بيده ويقف متحفزاً.. لاحظ هارولان أن كلاً منهما كان يضع يداً قرب أذنه منصتاً بصمت، فأدرك أنهما يتلقيان أوامر من قائدهما.. عندها استغل انشغالهما وتسلل خلفهما بصمت ليهجم على أقربهما ويضربه بمؤخرة سلاحه في رأسه.. لم تكن الضربة بالقوة الكافية مع ضعف هارولان والخوذة التي يحتمي بها الجندي.. لكن هارولان الذي رأى الجندي الآخر يوجه سلاحه تجاهه وهو يشتم سارع لضرب يده المسكة بالسلاح لتطيش طلقته وهو يركل الجندي الأول في الوقت ذاته ليلقيه أرضاً.. ثم استدار إلى الثاني الذي عاد يوجه سلاحه إليه فلكمه بقوة متفادياً السلاح.. وبلكمتين أخريتين كان الجندي قد وقع أرضاً فاقد الوعي، في نفس اللحظة التي سمع فيها هتاف بي ناريا المرتاعة "انتبه خلفك.."

جذب هتافها انتباه الجندي الأول الذي كاد يصيب هارولان بسلاحه، لكن ضربة أخرى من مؤخرة سلاح هارولان على رأسه أفقدته الوعي ليسقط أرضاً بدوره.. وقف هارولان لحظات يحاول التقاط أنفاسه بعد هذا المجهود، مما دلّ بي ناريا أنه لا يزال منهكاً من إصاباته السابقة، ثم رأته يجذب أحد الجنود إلى زقاق جانبي مظلم قبل أن يعود ليجذب الآخر وبي ناريا تتبعه متعجبة.. وهناك، قام بتجريد أصغرهما حجماً من ملابسه وناولها لبي ناريا قائلاً "استبدلي ملابسك بهذه.. بهذا يمكننا التنقل بحرية أكثر.."

نظرت في وجهه وهي تغمغم "أنت تمزح.. أليس كذلك؟"

قطب هارولان معلقاً "ليس هذا هو الوقت الملائم للعجرفة والتكبر.. حياتك على المحك، وإن كنت تريدين النجاة فأطيعيني بصمت.."

ورمى الملابس عليها مستديراً إلى الجندي الآخر مضيفاً "لديك عدة دقائق لتنتهي قبل أن يمتلئ المكان بالجنود.. وإلا تركتك هنا.."

نظرت بي ناريا إلى الملابس باشمئزاز.. أن ترتدي ملابس امرأة من العامة شيء، وأن ترتدي ملابس جندي مليئة بالعرق والقذارة كما تراها، فهذا شيء آخر.. بعد تردد غمغمت "هل يمكنني ارتداؤها فوق ملابسي؟"

قال هارولان وهو يسارع لارتداء الملابس بدوره "افعلي ما يروق لك.. لكن سيبدو شكلك مضحكاً.."

لم تهتم بي ناريا بذلك وهي ترتدي الملابس فوق ملابسها شاعرة بالضيق، ولاحظت أن النور قد بدأ ينتشر مع مطلع الشمس الوشيك، فقال لها هارولان "هل أنت واثقة من الطريق المؤدي لمنزل الوصيفة؟"

قالت بي ناريا "أجل.. إنه قريب من هنا، لا يفصلنا عنه إلا بضع أحياء.."

فقال وهو يمسك بسلاح الجندي "إذن هيا بنا.. هل تجيدين استخدامه؟"

أمسكت بي ناريا سلاح الجندي الآخر مغمغمة "أنت مدرك أنني لابد قد تدربت على استخدامه.. أليس كذلك؟"

لم يعلق وهو يجد السير وهي تتبعه بخطوات سريعة.. سارا في الطرقات محاولين إظهار الثقة في مظهرهما لكي لا يثيرا الشك، وإن تجنبا الاحتكاك مباشرة بالجنود مكتفين بالاستماع إلى قناة الإرسال العامة للجنود التي تحمل التعليمات الرئيسية للكل عبر جهاز صغير مثبت في ياقة القميص تمتد منه سماعات وضعاها في أذنيهما، والتي أظهرت لهم تخبط الجنود في البحث عن بي ناريا مع العديد من التقارير الخاطئة عن مكان تواجدها، فغمغم هارولان "بهذا يمكننا معرفة مدى الخطر الذي يتهددنا.. فلنسرع.."

عبرا عدة طرقات قبل أن يصلا للشارع الرئيسي الذي بدأت فيه حركة الناس مع مطلع الشمس والجميع يسارع لقضاء حاجاتهم والتوجه لأعمالهم.. وسرعان ما ذاب الاثنان بين الجموع مستغلين عدم اهتمام أحد بشخصيتيهما أو بلبس الجنود المعتاد في هذه الأماكن..

****

عندما تعالت الطرقات على باب منزل جوين، توجس جميع من بالمنزل من الثوار وهم يستلون أسلحتهم وأقربهم للنافذة يلقي نظرة على الطارق، فغلبه القلق وهو يهمس "إنهما جنديان.."

اتسعت الأعين بذهول وقلق عندما لحظ الرجل أن أحد الجنديين قد رفع خوذته لتكشف وجهه واضحاً، عندها تنهد بارتياح قبل أن يشير للبقية قائلاً "لا تقلقوا.. إنه هارولان.."

فتح أحدهم الباب ليدلف منه هارولان وبي ناريا.. كان السرور بادياً على وجوه الجميع لعودة هارولان سالماً، بينما وجدت بي ناريا جوين تهب إليها وتعانقها قائلة "خشيت أن لا تستطيعي الوصول إلينا سالمة.."

اقتربت والدة جوين بدورها قائلة "مرحباً بك في منزلنا المتواضع يا مولاتي.."

والتفتت إلى هارولان مضيفة "شكراً لك لأنك حافظت عليها"

لم يعلق هارولان بكلمة بينما اقتربت بي ناريا قائلة للرئيس بحدة "كيف تتركنا وترحل بالرجال دون أن تعلم إن كنا سننجح باللحاق بكم أم لا؟"

ابتسم الرئيس لغضبها وهو يقول "لكنكما لحقتما بنا.. أليس كذلك؟ لقد وثقت بهارولان.. وهو لم يخيب ظني أبداً.."

ازداد غضبها وكادت تفرغ ما يجول بذهنها أمامه، لكنه قاطعها قائلاً "رقاب الرجال أمانة في عنقي.. ولو تأخرنا مدة أطول فقد لا نستطيع دخول المدينة البتة، كما حدث معكما.. لذلك احتطت لأضمن سلامة البقية من رجالي.. وكنت سأرسل من يبحث عنكما لو تأخرتما في المجيء.."

قطبت بي ناريا بحنق، ثم سمعت والدة جوين تقول لهارولان بقلق "أنت في أسوأ حال.. هل أنت متأكد أنك بخير؟"

قال رئيس الثوار وهو يقترب منه بدوره "هل أصبت مرة أخرى؟ أنت رث الحال وكأنك غبت عنا شهراً.."

أجاب هارولان "لا تقلقوا.. سأكون بخير.."

اندفعت بي ناريا لتقول "لقد أصابه الجندي الذي اختطفني في كتفه، وفقد الكثير من الدماء.. كما أن جراحه السابقة التي لم يعالجها بشكل صحيح قد التهبت وسببت له حمى شديدة.."

نظر لها هارولان بضيق وهي تضيف "لقد تلقى علاجاً محدوداً على يد قروي لجأنا عنده ليوم واحد، لكن اكتشافهم لأمرنا اضطرّنا للهرب قبل أن يسترد صحته تماماً.."

فعلق الرئيس "يجب أن تعالج الآن بسرعة قبل أن تتفاقم حالتك أكثر من هذا.. وإلا اضطررت لإعفائك من مشاركتنا مهامنا.."

صدم هارولان بهذا وهمّ بالاعتراض، لكن والدة جوين صاحت منادية أحد أولادها الذي كان يجلس في جانب المنزل يتأمل الجموع حوله بفضول ورهبة "اذهب إلى طبيب الحيّ واستدعه بسرعة.. قل له أن جدتك مريضة جداً ولا تأت بدونه"

ثم نظرت إلى الرئيس مضيفة "هذا الطبيب ثقة.. وإن تصادف وجود شخص آخر معه فلن يشك بشيء فنحن عادة ما نستدعيه لعلاج الجدة"

هز الرئيس رأسه برضى، ثم قاد هارولان ليجلس في جانب المكان قائلاً "أخبرني بما فعلته في اليومين الماضيين.."

تركتهم بي ناريا تابعة جوين بصمت إلى إحدى الغرف لتستبدل ثيابها الرثة وتغسل جسدها المنهك.. وأثناء ذلك كان هارولان يوجز للرئيس ما حدث لهما منذ انفصلا عن البقية، وحتى دخولهم المدينة.. فقال الرئيس تعليقاً "لقد أصبحوا يعرفون بوجودنا في المدينة.. لقد عرفوا بأمرنا منذ دخول أولنا إلى يناسّا.. لكننا أفلحنا بالهرب منهم والاختباء مع وجود العديد من المناصرين لنا هنا.. أما الآن وقد علموا بوجود بي ناريا، فسيكثفون جهودهم للبحث عنها وسيسخّرون الجنود جميعهم لتفتيش المنازل بحثاً وعن مخبأنا.. يجب أن نتحرك سريعاً.. فما عاد التأخير بصالحنا.."

قالت والدة جوين وهي تناول هارولان شراباً دافئاً "المكان آمن هنا.. الحيّ كله يساندكم ويتمنى الخلاص من مانيم.. ولو اقترب الجنود من أطراف الحي سيصلنا خبرهم في الآن ذاته.. لقد بدأ مانيم فور اعتلائه العرش في القضاء على معارضيه، بل وعلى جميع من ينتمي إليهم دون رادع.. ولم يسْلم سكان يناسّا من شره مع قوانينه الجائرة.."

قال الرئيس "ومع ذلك، يجب علينا زيادة حذرنا.. لقد وزعت عدداً من رجالنا فوق أسطح المنازل القريبة ليتحسسوا أي تحرك مريب للجنود.. ومع ذلك يجب أن نحتاط أكثر.. فليذهب خمسة من الرجال إلى الأحياء القريبة لمراقبتها وإبلاغي بأي تقدم للجنود.."

انطلق خمسة من رجاله لتنفيذ الأمر دون جدال، فيما انفردت بي ناريا بجوين في الغرفة وسألتها "هل يعلم أحد في القصر بمغادرتك المدينة بحثاً عني؟"

قالت جوين "لا.. لقد اعتذرت عن العودة للقصر مدعية الإصابة بزكام قوي، وطلبت ممن أعرفهن الامتناع عن زيارتي لئلا تصيبهن العدوى.."

فقالت بي ناريا "يبقى أمر الجندي الذي اختطفني.. وجوده معك يعني أن مانيم يعلم بأمر خروجك واستغلك ليدس الجندي بهدف قتلي.. لذلك فعودتك للقصر ستكون خطرة"

علقت جوين "مستحيل أن يعلم مانيم بما فعلته.. الملكة كانت حريصة جداً، وبناء على أوامرها اخترت جنديين أعرفهما جيداً ممن يعملون في المدينة وليست لهما علاقة بالقصر.. وفور موافقتهما وإقسامهما على الولاء لك انطلقنا دون أن أترك لأحدهما فرصة لقاء أحد من القصر.. كما أنني تأكدت أنهما تخلصا من أجهزة الإرسال لئلا يستخدمها أحدهما في الاتصال بجنود آخرين.."

قطبت بي ناريا قائلة "لكن الخائن أخبرني أن مانيم قد أرسله.."

فقالت جوين "أغلب الظن أنه كان يود التقرب من مانيم بقتلك ونيل حظوة عنده.. لابد أن أمر إحضارك لمانيم قد صدر للجنود جميعهم.."

غرقت بي ناريا في التفكير وجوين تراقبها للحظات قبل أن تتساءل "ما الذي تخططين له الآن؟"

قالت بي ناريا وهي تتأكد أن أحداً من الثوار لم يقترب من الغرفة التي هما فيها "أريدك أن تعودي للعمل في القصر كالعادة.. اقضي بعض الوقت في إنجاز أعمالك المعتادة، وعندما ينشغل الآخرون عنك، توجهي إلى جناح الملكة الأم.. طمئنيها أنني بخير، وتفحصي الخرائط التي تملكها للممرات السرية، وابحثي عن أنسب

مدخل لنا للقصر.. ولا تنسي إحضار القلادة التي ستفتح باب الممر السري.. إياك أن ترتبكي أو ينتبه أحد لما تفعلينه.. وإياك ثم إياك أن يعلم الثوار بأمر وجود الخرائط عند الملكة الأم"

وإزاء نظرة الدهشة التي تبدت في عيني جوين قالت بي ناريا "لو علموا بمكان الخرائط فسيستغنون عني.. فقط سأخبرهم أنك ستُؤَمنين لنا المدخل إلى الممرات السرية، وأنا من سيحضر لهم الخرائط"

ناولتها جوين بعض ملابسها النظيفة قائلة "لا تقلقي يا مولاتي.. سأكون حذرة ولن أخيب ظنك.."

تناولت بي ناريا الملابس دون اعتراض وذهبت لتستحم، بينما عادت جوين إلى حيث الثوار مجتمعين تستمع لهم بصمت وتعاون والدتها وشقيقتها الصغرى في خدمتهم.. كان الثوار قد توزعوا على بضع منازل في الجوار بانتظار أوامر رئيسهم، وبقي خمسة عشر شخصاً منهم مع الرئيس في منزل جوين يخططون للمرحلة القادمة.. وبعد فترة قصيرة دلف شقيق جوين ومعه رجل في منتصف العمر حاملاً حقيبة أدواته الطبية وهو يتساءل "ما الذي أصاب الجدة؟ هل عادت لها الآلام في صدرها من جديد؟"

تلقته والدة جوين وهي تقول "ليست الجدة هي المريضة.. بل ضيف شاب .. أرجوك أن تعالجه وتتكتم على ما يحدث هنا أيها الرجل الطيب.."

غمغم الطبيب وهو يتأمل جموع الثوار في المنزل بشيء من الدهشة "عندما أخبرني أحد رجال الحي عن قرب الثورة الوشيكة على الملك، لم أعتقد أنهم متمركزون في منزلك.. ألا تخشين العواقب؟"

ابتسمت والدة جوين وهي تقوده إلى الغرفة التي تركوا هارولان يرتاح فيها "لا أخشى أكثر مما يحدث في مدينتنا بالفعل.."

اقترب الطبيب من هارولان يتفحص جراحه ملاحظاً تعبه الشديد والحمى التي لا تكاد تفارقه، ثم استخرج أدواته من الحقيبة قائلاً "جرحه ملتهب بشدة.. يبدو أنه تم علاجه بشكل مبدئي لكن ليس بشكل تام.."

قال رئيس الثوار وهو يقف قربه "هل يمكنك علاجه بسرعة؟ نحن بحاجة إليه قريباً، وأشك أن يخنع للراحة متى ما بدأنا العمل.."

قال الطبيب وهو يقطب "يمكنني حقنه ببعض المنشطات.. بالإضافة لعلاج جرحه والحمى التي يعاني منها.. لكن إن قام بإجهاد نفسه بشدة قبل أن يتعافى تماماً فسيواجه مضاعفات قوية قد يتأذى منها.."

قال الرئيس مبتسماً "أقنعه هو بهذا.."

لم يعلق الطبيب وهو يبدأ علاج هارولان الذي صمت بدوره عن التعليق وتفكيره يدور في الأحداث القادمة.. مهما كانت حالته، لا يمكنه أن يركن للهدوء والراحة وهو قاب قوسين من هدفه الذي انتظره زمناً طويلاً..

****

رفع مانيم رأسه عن أوراقه قائلاً بحاجبين مرتفعين "ماذا تقول؟ بي ناريا؟ أأنت متأكد؟"

قال القائد العام للجند وهو يشير إلى جندي متوتر قربه "أجل يا مولاي.. هذا الجندي متأكد أن الفتاة التي

قابلها البارحة كانت هي بي ناريا ذاتها، وقد تعرف عليها من صوتها رغم تنكرها.."
سأله مانيم مقطباً "وكيف تسللت للمدينة رغم حظر الدخول إليها؟"
أجاب القائد "كانت هي ورجل آخر أغلب الظن أنه هيماني، كما بدا من لكنته، قد تسللا للمدينة عبر فتحة في بوابة إحدى القنوات لم نعلم عنا شيئاً قبل البارحة.. وقد أفلتا من جنودنا وسط المدينة واختفيا تماماً"
تلاعبت ابتسامة على شفتي مانيم دهش لها القائد قبل أن يقول بصرامة "ابحث عنها.. استنفر جنودك جميعهم لتفتيش المناطق المختلفة من العاصمة، ولا تأتني إلا بأنباء سعيدة"
انحنى القائد والجندي قبل أن يغادرا القاعة تاركين مانيم يبتسم معلقاً "عدت إليّ أخيراً أيتها الجميلة.. يبدو أن قدرك يحتم أن تقعي في قبضتي، مهما طال هروبك.."

****

تلك الليلة، ظل الرئيس يتأمل خارطة مفصلة للمدينة، ومجموعة محددة من رجاله حوله صامتين بانتظار أوامره.. مرّ وقت طويل والرئيس يدرس الخطة ويقلبها من جوانبها للمرة الأخيرة، ثم التفت إلى رجاله قائلاً "هذه هي المرحلة الأخيرة يا رجال.. وهي أخطر مرحلة.. من كان منكم يريد لنفسه السلامة، ومن كان قلقاً على أهلٍ تركهم في الديار، فليغادرنا من الآن.. ما إن نبدأ العمل هذه المرة، فلا مجال للتردد أبداً.."
قال أحد رجاله "نحن لم نقطع هذا الدرب كله لكي نتراجع الآن.. ونحن واثقون من عزم رجالنا كلهم.. فلا تقلق من هذا الأمر.."
تنهد الرئيس صامتاً لثوان، ثم قال "سأفصّل لكم الخطة الآن، لكنها لن تتجاوز هذه الغرفة بأي حال.. أنتم قادةٌ على بقية الرجال، وأنتم من سيضمن سير الخطة بنجاح.."
وأشار إلى الخارطة مضيفاً "سنتوزع إلى أربع فرق.. الأولى ستتجه إلى محطة البث التابعة للمدينة وتستولي عليها.. الحراسة ليست هينة هناك، فهذه المحطة هي المسؤولة عن بث جميع الأخبار إلى الأقاليم كلها.. وإن سيطرنا عليها فسنضمن أن تصل أخبار الثورة إلى أرجاء الكوكب، وهيمانيا ليس الإقليم الوحيد الذي يتمنى الخلاص من هذا الحكم.. لكن البث لن يتم قبل أن تتحرك الفرق جميعاً وفق المخطط الذي سأبينه بعد قليل.."
وأشار إلى أطراف القصر قائلاً "الفرقة الثانية ستقوم بعمليات محدودة في جوانب مختلفة من القصر.. والهدف هو إلهاء الجنود وتشتيت انتباههم لكي يتيسر لنا دخول القصر عبر الممر السري الذي ستزودنا به جوين غداً.. هذه العمليات يجب أن تكون بأعلى صخب ممكن، لكن يجب أن تتفادوا الاشتباك المباشر مع الجنود، لأنهم أكثر استعداداً وتسليحاً منا.. ولا أريد خسران أي رجل الآن.."
وأشار إلى طرف من أطراف المدينة مضيفاً "الفرقة الثالثة مهمتها تدمير مخازن الذخيرة والمركبات والاشتباك مع الجنود قرب بوابة المدينة.. لابد أن نحرم الجنود من الموارد التي يتفوقون بها علينا، ولا تنسوا الاستيلاء على ما تقدرون على حمله من ذخيرة لتساعدنا في القتال.."
ثم أشار إلى قلب القصر قائلاً "الفرقة الرابعة بقيادتي ستتسلل إلى قلب القصر مستغلة الصخب الدائر في

الخارج، سنقوم بعدد محدود من العمليات في أرجاء القصر لجذب الجنود بعيداً عن موقع مانيم.. بعدها سنحدد موقع مانيم بالضبط ونقضي عليه.. إن تمكنا من الوصول إلى مانيم والتخلص منه، فستسقط مقاومة الجنود ونسيطر على القصر كله بلمح البصر.. أما إن تمكن مانيم من الهرب، فستزيد مقاومة الجنود لنا ومحاولتهم إستعادة السيطرة على القصر.."

ثم نظر إلى رجاله قائلاً "فور أن نحصل على وسيلة لدخول القصر، سأحدد الوقت الملائم لكل الفرق كي تبدأ عملها.. في البدء ستبدأ الفرقة الثالثة بالهجوم في المناطق المتفق عليها، والفرقة الثانية ستساندها بالهجوم على القصر.. وأثناء تسللنا إلى قلب القصر، ستقوم الفرقة الأولى بالاستيلاء على محطة البث وبث خبر الثورة إلى أرجاء الكوكب كله.."

وقام بتوزيع رجاله على الفرق كلها، لكنه لم يكد يفعل حتى هبّ هاولان قائلاً "لماذا تضعني في الفرقة المسؤولة عن السيطرة على محطة البث؟.. يجب أن أكون معك، في القصر.."

تنهد الرئيس قائلاً "هذا شيء لا يمكنني فعله.. وجودك قريباً من مانيم سيجعلك متسرعاً، وقد تقوم بإفساد الخطة كلها وإحباط عمل الثوار جميعهم.."

قال هارولان بعصبية "مستحيل.. لن أفعل هذا قطعاً.. لكن لا يمكنك استبعادي.."

أجاب الرئيس بصرامة "بل يمكنني ذلك.. أطِع الأوامر إن كنت لا ترغب بأن أستبعدك من الثوار كلهم.."

عضّ هارولان على شفته وصمت يستمع لبقية ما يقال بنصف عقل.. شعر بالغضب، والرغبة بالثورة.. هل كان الرئيس يستغفله؟ هل كان يكذب عليه عندما وعده بتمكينه من الوصول إلى مانيم؟ صحيح أن الثورة مهمة بالنسبة إلى هارولان.. لكن القضاء على مانيم هو الأهم.. والجميع يعلم هذا.. فكيف يستبعده الآن؟..

عندما انتهى الاجتماع وتفرق الجمع عائدين إلى رجالهم، جلس هارولان في زاوية منزل جوين ساهماً والضيق يبدو جلياً على وجهه.. حاول البحث عن طريقة لتنفيذ أمر الرئيس وتحقيق ما يرغب هو بفعله في الوقت ذاته.. لم يكن يريد كسب غضب الرئيس، لكن التنازل عما أقسم على فعله الآن كان يعني بالنسبة له خيانة لكل من فقدهم..

بعد فترة قصيرة سمع صوت جوين يسأله "ما الأمر؟ تبدو في غمّ شديد.."

قال هارولان بضيق "لا شأن لك بهذا.."

قالت جوين مبتسمة "بل لي شأن بهذا.. فأمرك يهمني.."

قال هارولان بسخرية "حقاً؟ أهو أمري ما يهمك أم معرفة ما دار في الاجتماع؟"

قالت جوين "بالطبع يهمني معرفة ما دار في الاجتماع، لكن أمرك يهمني، مادام يهمّ مولاتي.."

ألقى هارولان بنظرة على بي ناريا، التي جلست بعيداً تحاول إظهار عدم اهتمامها.. لكن النظرات التي تلقيها عليهما جعلته يوقن أنها من أرسل جوين تستفسر عن أمره.. وبعد لحظات تفكير، وبعد أن تأكد أن بقية الثوار على مبعدة منهما لا يمكنهم الاستماع لما يقولانه، قال هارولان دون أن ينظر إلى جوين "لقد استبعدني الرئيس من الفرقة الذاهبة إلى القصر.."

ارتفع حاجبا جوين بدهشة معلقة "أنت؟ مستحيل.. أنت كذراعه اليمنى.. كيف يستبعدك من خطوة مهمة كهذه؟"
أجاب هارولان "إنه يظنني سأفسد الأمور كلها بتسرعي ورغبتي القضاء على مانيم.. لذلك يفضّل أن يرسلني في مهمة أخرى.."
صمتت جوين وهي تلقي بنظرة على بي ناريا، ثم قالت لهارولان بصوت خافت "هذه مسألة حلها بسيط.. يمكنني مساعدتك.."
التفت إليها هارولان قائلاً "حقاً؟"
ابتسمت جوين معلقة "طبعاً.. بشرط أن تكون لطيفاً مع مولاتي، ولا تعاملها بجفاء.."
قال هارولان وهو يحاول منع ابتسامة ظفر من الظهور على شفتيه "أعدك طبعاً.. لكن كيف؟"
اقتربت منه هامسة "قبل أن تذهب في المهمة الموكلة إليك، سأعطيك نسخة من الخارطة التي تدلّ على مدخل القصر السري.. يمكنك بعد أن تنهي مهمتك اللحاق برفاقك في القصر.. ولن يعترض الرئيس على ذلك مادمت قد أنهيت مهامك.. أليس كذلك؟"
ابتسم هارولان معلقاً "رائع.. أدين لك بالكثير إن فعلت ذلك لي.."
لوحت جوين بإصبعها قائلة "لا تنس ما وعدتني به.."
وعادت إلى بي ناريا التي نظرت إليها باستفهام، فيما التفت هارولان إلى النافذة القريبة وهو يبتسم بظفر.. لو لم يَنَل حب بي ناريا، لما كان سهلاً عليه الحصول على معلومات كهذه.. أهم أمر بالنسبة له الآن الوصول إلى رقبة مانيم، وكم هو بشوق لتلك اللحظة.. لو دفعوا له أموال الدنيا كلها لما عوضته عن النشوة التي سيشعر بها وهو يطبق بيديه على رقبة ذلك المأفون..
نظر إلى بي ناريا التي كانت تتهامس مع جوين، ملاحظاً أنها قد استعادت سواد شعرها وبياض بشرتها بعد أن تخلصت من تنكرها السابق، بالإضافة إلى استعادتها للون عينيها الأزرق الصافي، فبدت مختلفة عن الفتاة التي عرفها في هيمانيا.. بدت بشكلها هذا، عدا عن قصر شعرها، أكثر شبهاً بالملكة بي ناريا التي كان يبغض مجرد ذكر اسمها..
تنهد مشيحاً ببصره بعيداً..... بي ناريا.... هل حقاً يريد قتلها؟ هل حقاً يريد الانتقام منها؟.. لا يدري حتى الآن.. إنه يفضّل إرجاء التفكير بأمرها إلى أن ينتهي من مانيم.. وبعدها، عليه تحكيم قلبه وعقله في آن واحد في أمرها..

****

الفصل الثاني عشر:

المحاذرة

عن المعارك

..

والخطط

..

والمهمات الكبرى

..

في فجر اليوم التالي، وقبل أن تطلع الشمس على المدينة، ارتدت جوين معطفاً فوق ثيابها اتقاء للبرد.. وهي تستمع لبي ناريا التي كانت تقول لها بصوت خفيض "طمئني الملكة الأم بسلامتي.. لكن حذار من أن تلفتي الأنظار أو تثيري الشبهات.. الكل يعلم الآن بقدومي إلى المدينة، وأي لمحة تردد تبدر منك ستثير شبهة قوية تجاهك وتطيح بنا جميعاً.."

قالت جوين مبتسمة "لا تخشي شيئاً يا مولاتي.. سأكون حذرة.."

قالت والدة جوين وهي تمسك يدي ابنتها بقلق "هل ستكونين بخير؟ ألن يتعرض أحد الجنود لك بأذى؟"

قالت جوين وهي تربت على كتف والدتها "لا تخشي شيئاً يا أمي.. سأعود لك بعد أن أنهي مهمتي هناك.. وسأكون بخير فلا تقلقي.."

قالت الأم وهي تنتفض "لا أريد أن يتكرر ما حدث مع أباك.. بسبب الجنود فقدناه.. والآن.. لا أريد أن أفقدك أنت أيضاً.."

ضغطت جوين على يدي أمها قائلة "لا تخافي.. لن يحدث هذا مجدداً.. أرجوك ألا تخافي، ولا تثيري ذعر إخوتي فهم مذعورون برؤية الثوار وليسوا بحاجة للمزيد.."

صمتت الأم بقلق، فيما خرجت جوين بصمت متجهة إلى القصر.. سارت في الطرقات الضيقة التي تميز ذلك الحي متوسط الحال، مارة بالمنازل المتفاوتة الأشكال والتي لم ينشط أهلها ويبدأوا نهارهم بعد.. كانت تعلم أن العديد من الثوار متمركزين فوق المنازل في الحي يراقبون من يدخل ويخرج، وأن العديد منهم قد رأوها بالفعل.. ضمت معطفها إلى جسدها اتقاء للبرد المتزايد وحثت السير باتجاه الشارع الرئيسي لتستقل عربة تأخذها إلى القصر..

بعد فترة وجيزة، كانت جوين تحمل طعام الملكة متجهة إلى جناحها الخاص وهي تشعر أن القصر كله يراقبها.. كل نظرة تلقى عليها من الجنود الذين تمر بهم تشعرها أنها نظرات اتهام، وكل لفتة من إحدى الوصيفات تشعرها أنها محط مراقبة الآخرين.. زفرت جوين محاولة البقاء ثابتة النفس حتى وصلت إلى الجناح، فطرقت بابه بخفة ثم دلفت بصمت.. وضعت الطعام على طاولة وسط الجناح وتقدمت من السرير هامسة "مولاتي.. لقد عدت إليك.."

فتحت الملكة الأم عينيها دفعة واحدة ونظرت إليها.. كان شحوب الملكة متزايداً وعيناها غائرتان.. وخرج صوتها ضعيفاً شحيحاً وهي تقول "جوين؟ هل عدت؟"

أمسكت جوين يدها هامسة "أجل يا مولاتي.. عدت بأخبار رائعة.. لكنك وعدتني بالاعتناء بنفسك خلال غيابي، فما الذي حدث لك؟"

تمسكت بها الملكة بيدين ضعيفتين وهي تقول "بي ناريا.. أين هي؟ كيف هي؟"

قالت جوين مربتة على يد الملكة "هي بخير، لا تقلقي.. الثوار أنقذوها من الجنود وعاملوها معاملة حسنة.. هي الآن هنا، في يناسّا.."

اتسعت عينا الملكة هامسة"هنا؟"
ابتسمت جوين مجيبة "أجل.. ستأتي لرؤيتك قريباً.. لذلك عليك استرداد صحتك لكي لا تؤنبني إن رأتك بهذه الحال.."
أراحت الملكة رأسها بتعب على الوسائد الوثيرة مغمغمة "كيف يمكنني رؤيتها؟ إن حاولت القدوم إلى القصر ستقع في قبضة مانيم.. وسيقتلها إذ ذاك ولاشك.."
فقالت جوين "لذلك طلبت مني أن أحضر لها الخارطة التي تحوي الطريق إلى المدخل السري للقصر.. عبره يمكنها أن تأتي إليك وتخرج دون أن يكشفها الجنود أو يعثر عليها مانيم.. سأحاول إحضارها لرؤيتك الليلة.."
اغمضت الملكة عينيها متنهدة، ثم غمغمت "لست أدري إن كنت سأعيش حتى الليلة.."
هتفت جوين "لا تقولي هذا يا مولاتي.. ستكونين بخير.. بعض الطعام سينعش قواك.. لولا أمر الملك الظالم لأحضرت لك طبيب القصر ليعالجك ويعيد إليك صحتك السابقة.."
سألتها الملكة بصوت ضعيف "هل تكرهني بي ناريا الآن؟ أظن أنها كذلك بعد أن اكتشفت كل ما فعلته ووالدها الملك بها، وبعد أن ألقيت بها في براثن أعدائها.."
قالت جوين هازة رأسها "كلا يا مولاتي.. مولاتي بي ناريا لا تكرهك بل هي مشتاقة لرؤيتك.. لقد سألتني مراراً عنك وغضبت لما علمت بمعاملة الملك السيئة لك.. سترينها الليلة وتطمئني عليها فابذلي جهداً لاستعادة صحتك.. والآن انهضي وتناولي القليل من الطعام.. وبعدها دليني على خرائط الممرات السرية لآخذها لمولاتي بي ناريا.."
جلست الملكة بصعوبة بمساعدة جوين.. وتنهدت مرة أخرى وهي تفكر ببي ناريا.. إن التعب والمرض الذي تشعر به لا يوحي لها بأنها على ما يرام.. تشعر أن نهايتها قريبة، لكنها تتمنى لو ترى بي ناريا للمرة الأخيرة.. لو تضمها، وتعتذر منها للمرة الأخيرة أيضاً..

****

بعد أن أنهت جوين عملها في جناح الملكة الأم، خرجت من الجناح وقد لفّت نسخة من الخارطة التي تدلّ على مدخل الممرات السرية بين طيات ملابسها، ومعها القلادة ذات البلورة الوردية.. وسارت حاملة ما بقي من طعام الملكة إلى الملاحق الخاصة بالقصر حيث يتم إعداد الطعام وإنجاز بقايا المهام الخاصة بالقصر كغسل الملابس الفخمة والفرش المطرزة الغالية، وتربية الحيوانات اللازمة لإعداد طعام المئات الذين يسكنون القصر من الملك حتى أصغر خادم فيه، والعناية بالعربات الملكية وبمجموعة التوكور ذات السلالات الأصيلة التي لا يمتلك أحد في الكوكب مثلها والمخصصة للملك وحاشيته..
كانت جوين تسير باتجاه مطبخ القصر وطرقات قلبها تكاد تبدو واضحة على صدرها لقوتها، لكنها حاولت ألا تظهر شيئاً وهي تبتسم لمن تمر به وتتقبل تعليقاتهم حول غيابها الذي طال.. وتنهي ما بقي لها من أعمال في الملاحق بصمت.. وكلما ظهر أحد الجنود هناك تشعر بقلبها يغوص في أعماقها وكأنه قادم للقبض عليها هي

بالذات..
بعد فترة رأت أحد الجنود يقترب منها منادياً اسمها، فارتجفت بشيء من الوضوح وهي تكاد تسقط ما في يدها، لكنها حاولت تمالك نفسها وهي تقترب منه متسائلة، فقال لها "هناك صبي صغير يسأل عنك بإلحاح.. يقول إن والدتك مريضة وعليك العودة بسرعة للمنزل.."
فشكرته وهي تخفي تنهيدة ارتياح كادت تفلت منها، ثم أسرعت إلى المرأة المسؤولة عن الوصيفات تبلغها بضرورة عودتها لمنزلها بسرعة.. كان هذا بتخطيط من بي ناريا التي رأت ألا تبقى جوين في القصر حتى انتهاء عملها الذي يطول لوقت متأخر مساءً.. مما سيؤخر خطتهم أكثر مما تحتمل..
بعد أن أخذت جوين الموافقة من المسؤولة، ارتدت معطفها وهي تتأكد من إخفاء الورقة والقلادة جيداً بين ملابسها، وأسرعت إلى بوابة القصر الخلفية التي لا يستخدم الخدم غيرها في الدخول للقصر.. وهناك، رأت أخاها الذي يصغرها يقف بانتظارها بقلة صبر، وما إن رآها تقترب منه حتى صاح "لقد تأخرت كثيراً.. والدتي مريضة جداً ويجب أن نعود فوراً.."
أحنت جوين رأسها للجنود عند البوابة وهي تجذب الصبي بعيداً.. وما إن غادرا حتي همس الصبي "ما رأيك؟ هل كان أدائي مقنعاً؟"
ابتسمت جوين وهي تربت على رأسه مغمغمة "أنت رائع.."
وأسرعت عائدة إلى منزلها وهي تشعر أنها أفلتت من ورطة كادت تهلكها.. فلم تكن لتقدر على الحفاظ على ثبات أعصابها أكثر مما فعلت في القصر.. ولو بدر منها أي تصرف مشكوك فيه، فمع كل التوجس والريبة الذي يخيم على جنود القصر سيلاحظها الجميع فوراً وتقع في أيديهم لتقع بي ناريا بعدها بالتبعية..

****

سلمت بي ناريا خارطة مدخل الممرات السرية إلى رئيس الثوار قائلة "هذا هو المدخل.. ومتى ما صرنا في الممرات السرية سأسلمكم باقي الخرائط.. حتى لا يكون لديك شك في نيتي التعاون معكم.."
تأمل الرئيس الورقة وهو يغمغم "لم أشك بذلك مطلقاً.. فمصالحنا متداخلة، وحتى نقضي على مانيم سنظل بحاجة لمساندة بعضنا البعض.."
ثم رفع بصره إلى جوين متسائلاً "ما الأحوال في القصر؟ هل تقصيت الأنباء من العاملين هناك؟"
قالت جوين وهي تفرك يديها بتوتر "لم أستطع إثارة الشبهات حولي بهذه الأسئلة.. لكني لاحظت استنفاراً عاماً في القصر والجنود عند البوابة متشددون كثيراً وقد فتشوني عند الدخول.. لكن لحسن حظي لم يفكر أحد بتفتيشي عند الخروج.. يبدو أن مانيم يتوقع أن تدسّ مولاتي من يحاول قتله.."
عاد الرئيس يتأمل الورقة بين يديه وجوين تلخص له الموقف في القصر، عدد الجنود عند البوابات، وتوزيع الحراسة في أنحاء القصر والأجنحة الملكية، وعدد الجنود المسؤولين عن حراسة مانيم وقاعة العرش.. لم تغفل

عن أي نقطة ولو كانت تافهة كما أوصاها الرئيس سابقاً، ولما انتهت ابتسم الرئيس وهو يضع علامات محدودة على الورقة قائلاً "شكراً يا جوين.. لقد أسديت لنا خدمة لن ننساها.."

ثم التفت لبي ناريا مضيفاً "سننطلق الليلة.. لذلك كوني على أهبة الاستعداد.."

كانت هذه إشارة لها للمغادرة ليتسنى له التخطيط مع رجاله كما هي العادة، فغادت الغرفة التي اتخذوها كموقع للاجتماعات في منزل جوين والأخيرة تتبعها هامسة "سأعود معكم الليلة يا مولاتي.. أنا قلقة على مولاتي الملكة كثيراً، وأريد الاطمئنان عليها وسط الأحداث الخطيرة التي ستحدث في القصر.."

قالت بي ناريا "لن ترضى أمك بهذا أبداً.. لقد رجتني ألا أحاول اصطحابك معي إلى القصر.."

هزت جوين رأسها قائلة "بل يجب أن أفعل.. مولاتي الملكة منزلتها كأمي تماماً، ولا أستطيع التخلي عنها في هذه الأزمة خاصة مع حالتها الصحية السيئة.."

لم تجادلها بي ناريا وهي تسأل بصوت خافت "هل قمت بما طلبته منك؟"

أجابت جوين وهي تتلفت حولها "أجل يا مولاتي.. لقد استطعت الحصول على ثقة بعض الجنود الذين شعرت أنهم لا يزالون موالين لك ورافضين لحكم الملك.. وسأجمعك بهم في القصر عندما نصل إليه.."

رمقتها بي ناريا بتشك، لكن قبل أن تفتح فمها سارعت جوين لتقول "لا تقلقي.. لم أخبرهم أنك قادمة للقصر، فلم يخرج هذا السر من فمي أمام أحد إلا الملكة الأم.. فقط جسست نبضهم دون تفصيل لمقابلتك لهم..

صمتت بي ناريا دون تعليق وهي تتركها وتجلس قرب نافذة المنزل تتأمل الشمس التي اتخذت طريقها نحو الغروب ويدها تتأكد من وجود القلادة ذات البلورة الوردية حول عنقها مخفيّة بعناية تحت ملابسها.. الليلة سيتحدد كل شيء.. الليلة هي التي انتظرتها منذ أسابيع طويلة، وكم هي في لهفة لانتهاء هذا كله وعودتها لموقعها الصحيح في ذاك القصر..

بعد حلول الظلام التام تلك الليلة، كان جميع الثوار قد تجهزوا واستعدوا بأسلحتهم موزعين لفرقهم المحددة من قِبَل الرئيس.. ومعهم استعد جمع غفير من رجال يناسّا وقد شدوا العزم على الانضمام للثورة والإطاحة بالظالم لتحقيق العدل في البلاد..

وفي منزل جوين، كان الرئيس يقف وسط قادة فرقه وهو يتأكد من سير خطته بالتواقيت المحددة بدقة سلفاً.. وقال لرجاله "اهتموا بأدق التفاصيل في مهماتكم ولا تغفلوا أي شيء.. ولا تنسوا التزود بذخيرة كاملة من الحمولة التي أوصلها هارولان كما تقتضي مهماتكم.. التخبط هو عدو النجاح، لذلك كونوا واثقين من مهاراتكم ومن رجالكم ولا تتراجعوا مهما حدث، إلا لو كان تراجعكم هو الحل الوحيد للحفاظ على الرجال.. وليكن في علمكم أن كل ما تفعلونه له أهمية قصوى في سبيل نجاحنا.. وفي إيصال العدل لهيمانيا.."

وأشار لهم لينطلقوا في مهامهم، فسارع الرجال لتنفيذ أمره والتصميم يلتمع في الأعين.. فأخيراً بعد صبر طال سينالون ثمار عملهم وتضحياتهم التي قدموها لسنين طوال في هيمانيا..

التفت الرئيس إلى هارولان الذي تأخر عنهم قائلاً "أنجز ما طلبته منك يا هارولان ولا تخيب ظني فيك.."

قال هارولان بصوت خافت "هل ستأخذ بي ناريا معك إلى القصر؟"

ابتسم الرئيس مجيباً "أجل.. لكن لا تقلق، لن أعرضها لأي خطر إلا لو أقحمت هي نفسها فيه.. سأحميها فانطلق في مهمتك ولا تشغل بالك بها.."

صمت هارولان وهو يحمل سلاحه ويخرج من الغرفة التي كانوا فيها.. ألقى نظرة سريعة على بي ناريا لم تفهم معناها قبل أن يغادر المنزل بصمت ويده تقبض على الورقة التي أخفاها في جيبه، وكأنه يتأكد أنها لن تختفي قبل أن يحقق هدفه منها.. بعد قليل خرج الرئيس من الغرفة بدوره برفقة رجلين من أخلص رجاله وقال لبي ناريا "سننطلق الآن.. أرجو أن تتبعي تعليماتي ولا تشذّي عن الفريق فهذا أضمن لسلامتك.."

لم تعقب بي ناريا بكلمة وهي تتبعه خارجين من المنزل، وأسرعت جوين خلفهم تاركة أمها وإخوتها ينهشهم القلق عليها.. لكن هذا لم يكسر عزمها وهي تسير معهم نحو القصر والمزيد من الثوار يتدافعون من المنازل القريبة لينضموا إليهم معلنين بدء المرحلة الأخيرة والحاسمة من الثورة..

****

في تلك الليلة، بعد أن توغل الوقت وعمّ الهدوء الشوارع بعد أن أوى الجميع لمنازلهم، أخذ الجندي المكلف بحراسة مستودعات المركبات الخاصة بالجنود يذرع المكان متلفتاً حوله بين فينة وأخرى، ثم التفت إلى جندي آخر يجلس قريباً يتناول لقيمات يسد بها جوعه وقال "لم لا يكتفي القائد العام بأجهزة المراقبة؟ هل لابد أن نتواجد هنا كل ليلة لقضاء وقت ممل ومتعب مع الهدوء الذي يعم المدينة؟"

قال الآخر دون أن يتوقف عن الأكل "إن أردت الشكوى فتوجه بها إلى القائد.. لا تصدّع رأسي بها وأنا مثلك لا أملك من الأمر شيئاً.."

عاد الأول لأداء مهمته وهو يتململ من التعب، عندما سمع صوتاً خافتاً مع نور شق السماء جهة الشرق.. فالتفت مع رفيقه إلى موقع النور وهو يضيّق عينيه باستغراب.. سمع الأصوات الخافتة تتابع دالة على بعد موقعها مما جعله يتساءل "ما الأمر الذي يجري هناك؟ هل تعتقد أن خطراً ما يتهددنا مع كل التحذيرات التي كالها لنا القائد؟"

غمغم الجندي الثاني وهو يقف بدوره "لست أدري.. سيأتي الخبر قريباً.."

سمعا في تلك اللحظة دوياً مزعجاً أجفلا له من جانب آخر من المدينة مع نور مبهر.. تبعه طلقات رصاص متتابعة قبل أن يسمعا دوياً آخر صمّ أذنيهما.. فرفع الجندي سلاحه قائلاً بتوتر "إنه هجوم.. لا تقل لي إنه في اتجاه مخزن الأسلحة القريب من مبنى الجنود.."

سمعا في تلك اللحظة صوت خطوات خلفهما فاستدارا بتحفز ودهشة شاهرين سلاحيهما والأول يهتف "من هناك؟"

جاوبهما الصمت التام والإنارة الضعيفة لا تسمح لهما برؤية مسافة بعيدة، فاقترب الجندي من موقع الصوت وهو يصيح "أظهر نفسك.. ليس من مصلحتك الاختباء.."

سمع الخطوات في موقع آخر، فركض تجاهها وهو يصيح برفيقه "ابق قرب البوابة ولا تتحرك.. سأنهي المسألة بسرعة وأعود.."

انطلق الجندي خلف الصوت تاركاً الآخر يقف بتوتر متحفزاً لأي حركة تبدر من تلك الجهة، ولم ينتبه للخطوات التي تقترب منه بخفة حتى فوجيء بضربتين قويتين على رأسه أسقطته فاقد الوعي.. أسرع الرجل الذي ضرب الجندي بسحبه بعيداً عن المستودعات التي تحوي المركبات، وجرده من سلاحه ومن ثيابه ليسارع بارتدائها.. ثم سمع خطوات من خلفه، فالتفت ليرى رجلاً آخر من الثوار يقترب حاملاً الجندي الذي كان يلاحقه، فوضعه أرضاً وتناول سلاحه مغمغماً "ما أهمية أن نرتدي ملابسهما؟ سننجز مهمتنا هنا ونرحل سريعاً.."

قال الأول "سنأخذ مركبتهما الواقفة خارج المستودع ونحاول الاندماج بالجنود.. بهذا يمكننا أن ننقل أخبارهم بدقة أكبر إلى الرئيس، ولا تنس أجهزة الإرسال المثبتة في ملابسهم"

وافقه الثاني وهو يفعل المثل، وبعد أن أنهيا عملهما، فتحا بوابة المستودع القريب منهما، ومن حقيبة يحملها كل منهما، استخرجا بضعة مكعبات سوداء صغيرة قاما بتوزيعها كما خطط لهما بسرعة، ثم تراجعا خارجين والأول يقول "فلننه عملنا في المستودعات الأخرى ونغادر قبل قدوم أحد.."

مرت نصف ساعة انهمك فيها الرجلان بإتمام عملهما في المستودعات الخمس الأخرى، ثم عادا أدراجهما إلى مركبة الجنود الواقفة قرب المستودع الأول فركباها وانطلقا مسرعين ليغيبهما الظلام.. وبعد لحظات من ابتعادهما، توهج نور قوي في المستودعات الست وانفجارات متتابعة تنبع من قلبها مكونة دوياً قوياً صمّ المنطقة كلها.. وسرعان ما اشتعلت المستودعات بالنار وهي تتهاوى لتقضي على ما بقي من المركبات سليماً بعد الانفجار..

وعلى الصوت المدوي، نهض الجنديين منتفضين، قبل أن يصرخ الأول وهو يهب واقفاً "الثوار الأوغاد.. لقد دمروا كل شيء.. يجب أن أبلغ القائد العام"

قال الثاني بشيء من السخرية "هل نظرت إلى نفسك؟"

انتبه الجندي الأول أنه مجرد من ملابسه ويقف بملابسه الداخلية فقط، فيما أضاف الثاني "أراهن أنهم دمروا مركبتنا أيضاً.. لكن هذا الاحتفال كله لابد قد وصل إلى سمع القائد، وسنجده فوق رؤوسنا بعد قليل.."

ظل الإثنان يراقبان الاحتراق والنار تلقى ظلالها الحمراء على وجهيهما اللذين يعبران عن أقصى علامات الغيظ والتعاسة..

****

هبّ القائد العام للجند من كرسيه صارخاً في جهاز الاتصال "ماذا قلت؟ متى حدث كل هذا؟"

جاوبه قائد إحدى الفرق عبر الجهاز قائلاً بتوتر "سيدي لقد حدث كل شيء خلال نصف ساعة فقط.. ابتدأ بتفجير مهبط طائرات قواتنا، تلاه انفجارات استهدفت مخازن الذخيرة والذي أصاب جزءاً من مبنى الجنود

القريب.. والآن مستودعات المركبات الست كلها تحترق وقد دمرت المركبات فيها تماماً.."
صاح القائد "من هم الفاعلون؟ ألم يبلغك جنودك الأغبياء بهويتهم؟"
قال قائد الفرقة بسرعة "لقد فوجئ الجنود بالهجوم المتتابع وقد بدا أن المهاجمين يعرفون المنطقة جيداً.. لكن أحد الجنود الذي كان قريباً من مخازن الذخيرة يجزم أن الفاعل كان هيمانياً.. يبدو أنه التحم معه في قتال قصير قبل أن يفلح الهيماني بالإطاحة به وإفقاده لوعيه.."
صرخ القائد بغضب وهو يضرب الطاولة بيده "لقد أنذرتكم أيها الأغبياء.. أنذرتكم من احتمال حدوث هجوم من الثوار الهيمانيين.. فأنتم تعلمون أنهم في المدينة لكنكم تقاعستم في التفتيش عنهم قبل أن يفعلوا فعلتهم.."
أجاب قائد الفرقة وتوتره يزداد "سيدي لقد ذابوا في المدينة تماماً.. لا يمكن أن يحدث هذا لو لم يكن لهم معاونين من سكان المدينة.. ولقد سخرنا قواتنا جميعها للبحث عنهم لكن لم نتوقع حدوث هجوم علينا بهذه السرعة.."
سمع القائد صوت جدال يدور في الجهة الأخرى من الاتصال وقائد الفرقة يسب بعصبية، ثم قال للقائد "سيدي.. لقد حدث هجوم جديد.. استهدف هذه المرة البوابة الشمالية للمدينة.. هناك فرقة كاملة من الثوار مشتبكين مع جنودنا قرب البوابة في قتال محدود.."
صاح القائد "أرسل فرقتان من جنودنا لدعمهم والإطاحة بهؤلاء الأوغاد.. أنا قادم حالاً.."
وأنهى الاتصال بعنف ليسارع بالخروج من مكتبه الواقع في جانب من القصر وهو يلقي بأوامره على أحد نائبيه لتجهيز مركبته الخاصة بالإضافة لفرقتين من الجنود ليرافقوه.. وانطلق في طريقه إلى جناح الملك الواقع في الجانب الآخر من القصر.. وهناك، أدى الجندي المسؤول عن حراسة باب الجناح التحية والقائد يقول له "استأذن لي عند الملك.. هناك أمر مهم يجب أن أبلغه به في هذه الساعة مهما كان غضبه عليّ شديداً.."
أسرع الجندي لتنفيذ أمره فيما وقف القائد يزفر وهو يذرع الممر قرب الباب بتوتر وغضب شديدين.. لقد حدث ما كانوا يخشونه، وتبعة كل ما حدث ستقع عليه هو فقط..

****

في مركز البث البعيد شيئاً ما عن القصر، والمكوّن من مبنيين أحدهما أكبر من الآخر، وتتوسطهما ساحة متوسطة الحجم يرتكز فيها برج البث الذي يحمل الإرسال من المحطة ليبثه إلى الأقاليم كلها على امتداد الكوكب، والمحاط بسور مكهرب لإبعاده عن الأيدي العابثة.. قال مدير المحطة وهو يخاطب أحد معاونيه عبر جهاز الإرسال "أنت متأكد من هذا الخبر؟ ما هي مصادرك؟"
قال المعاون وأصوات إطلاق نار وقتال تجعل فهم ما يقوله صعباً "لقد شهدت هذا بنفسي ولست أعتمد على رواية أحد.. المعارك حامية في الحي الصناعي والسكان قد التزموا منازلهم.. الجنود يتكدسون في كافة الطرقات محاولين القضاء على الثورة دون فائدة.."

تساءل المدير "لقد أكد لي القائد العام للجند عندما حادثته أنها مجرد مناوشات محدودة سبّبتها مجموعة من الخارجين على القانون.."

هتف المعاون "كذب.. إنه يحاول خداعك بكل تأكيد.. الوضع منفجر هنا، ولا يمكن تسمية ما أراه بمناوشات محدودة.."

ثم همس بصوت عالٍ، إن جاز التعبير، محاولاً تجاوز الإزعاج قربه "إنهم الهيمانيون.. لست أدري كيف تمكنوا من تجاوز التحصينات الأمنية حول المدينة، لكني تأكدت أنهم هم من يقود الثورة يساندهم العديد من أهل يناسّا"

صمت المدير بدهشة والمعاون يضيف "ما العمل الآن؟ هل تريد مني تسجيل ما يحدث؟"

قال المدير بحيرة "لكن يمنع علينا أن نعرض شيئاً لم يوافق القصر على عرضه أو يسيء للملك بأي حال من الأحوال.."

قال المعاون بحماسة "لكن هذه فرصة لن تتكرر.. سواء فشلت الثورة أم نجحت فهذا تسجيل لحدوثها وسنندم على تضييع الفرصة بذلك.. أنت تعلم أننا الوحيدون المصرح لنا بالتسجيل في يناسّا، ووكالات الأنباء الأخرى لا يسمح لها بدخول المدينة وتسجيل أي أمر فيها بدون دعوة من القصر.."

ظل المدير يفكر والحيرة تكتنفه، عندما أضاف المعاون "لقد التقيت ببعض الثوار بالفعل.. عندما علموا بانتمائي لمركز البث رحبوا بي واقتادوني لرؤية القتال عن قرب، مع ضمانهم لحمايتي.. إنهم راغبون بشدة في إعلان ما يجري للعالم كله وسط التعتيم الذي يحصل من القصر وقوات الملك.."

فقال المدير بحسم "حسناً.. سجل كل ما تقدر عليه.. ولا تنسى إجراء أحاديث مع قادة الثوار عندك.. وسأرسل من يتقصّى الأمور في القصر.. حتى لو مُنعنا من بثّ هذا، فلن أفوّت فرصة تسجيل هذه الأحداث.. فقط أتمنى ألا نحاسب على هذا.."

وأنهى الاتصال ليغادر غرفته المنعزلة في المبنى إلى قاعة البث الرئيسية قائلاً لرجاله "استعدوا يا شباب.. هناك تسجيلات مهمة سيتم بثها من أرجاء المدينة.. وأريد منكم توثيقها وفرزها بعناية.."

انتبه إلى الصمت الشامل في القاعة، والرجال، ممن بقي ساهراً تلك الليلة في عمله، متجمدون في أماكنهم وعيونهم يعلوها قلق وتوتر.. ورأى أحد معاونيه ينظر إليه بعينين متسعتين ثم يحوّل بصره لشخص ما جواره.. وقبل أن يلتفت المدير وجد فوهة سلاح تلتصق برأسه وصوت واثق يقول قربه "هذا ما جئنا لكم بشأنه بالذات"

نظر المدير إلى صاحب الصوت بدهشة ليرى هارولان قربه رافعاً سلاحه بوجهه، وخلفه عدد من الهيمانيين شاهرين أسلحتهم في وجوه الجميع، وانتبه في تلك اللحظة لوجود عدد منهم وسط القاعة محيطين برجاله بتهديد.. فتساءل بدهشة "ما الأمر؟ من أنتم؟"

قال هارولان وهو يدفعه ليجلس في جانب القاعة "نحن ثوار هيمانيا.. لقد أتينا إليك في مهمة محدودة.. لن يصاب أحد هنا أو نلمس أجهزتكم بتخريب لو أطعتنا بدون اعتراض.."

ثم انحنى تجاهه وهو يضيف بصرامة "ولو تم إبلاغ مانيم بأي حرف مما يحدث هنا فنهايتك ستكون على

يدي.."
شحب وجه المدير وهو يتلفت في وجوه الثوار بقلق، ملاحظاً الذعر الذي انتاب رجاله وسط تهديد السلاح..

****

كانت المدينة تضج بالدويّ الذي حطم سكونها منطلقاً من أجزائها المختلفة، والجنود يتدافعون نحو الجهات التي اندلع عندها القتال محاولين إنهاءه بأسرع ما يمكن اتباعاً لتعليمات القائد العام.. تلك الليلة، حصل استنفار عام في القصر ومانيم الحانق يقضي ليلته في قاعة العرش يراقب الأحداث عبر اتصالات القائد العام بالفرق الموزعة في المدينة، بينما تمركز العديد من الجنود قرب بوابات القصر بتحفز خشية استهداف القصر من قبل الثوار..
وفي جانب من المدينة، وسط حيّ لا يبعد كثيراً عن أسوار القصر المحمية بتشدد، اختبأت فرقة من الثوار مع الرئيس وبي ناريا وجوين متلفعين بمعاطفهم ذات غطاء الرأس الذي يخفون به وجوههم.. ظلوا رابضين في مواقعهم بصمت وهم ينتظرون بصبر والرئيس ينظر للخارطة في يده بين فينة وأخرى يطابق بينها وبين المنطقة المحيطة بهم ليتأكد من موقعهم بالضبط.. وبعد فترة، طالت أو قصرت، رأوا عدداً من المركبات تتوسطها مركبة مميزة بلونها تخرج من بوابة القصر مسرعة وهي محملة بالجند.. فهمست جوين مشيرة للمركبة المتوسطة "هذه هي مركبة القائد العام للجند.."
علق الرئيس "يبدو أنه خرج للإشراف على القتال الدائر في أنحاء المدينة بنفسه.. هذا لحسن حظنا.."
ثم همس للبقية "لقد حان دورنا.. سيبدأ الاحتفال قرب بوابة القصر البعيدة بعد قليل.."
لم يعقب أحدهم بكلمة والرجال يشدّون أيديهم على أسلحتهم، فيما ازدادت ضربات قلب بي ناريا وهي ترى قصرها.. موطنها.. البقعة التي شهدت طفولتها وشبابها، تربض أمامها.. كانت تعلم دائماً أنها ستعود.. لم يساورها شك أبداً أنها ستدخل القصر مجدداً، لذلك فقد علتها ابتسامة ظفر وهي ترى هذا وتتخيل ما قد يدور بخلد مانيم لو علم بالأمر..
قطع تفكيرها صوت انفجارات متتالية في الجانب الآخر من القصر أضاءت السماء، تبعها إطلاق رصاص كثيف والجنود عند البوابة المواجهة لهم يتوترون ويتخبطون.. بعضهم يصرخ في جهاز الإرسال وبعضهم الآخر يسارع منسحباً داخل القصر ليتجه إلى حيث اندلع القتال..
عندها قال الرئيس "حان الوقت.. لنستغل الفرصة قبل أن تصل الإمدادات.. كونوا على مقربة مني لكن ليتحرك كل اثنان منكم معاً.. دخولنا كجماعة واحدة سيجذب الانتباه.."
هزوا رؤوسهم موافقين.. فانطلق الرئيس أولاً مع أحد رجاله متتبعاً المنازل القريبة التي تخفيه عن أعين الجنود المنشغلين قرب البوابة، ثم تبعته بي ناريا مع رجل آخر، وخلفها جوين وبقية الرجال.. ولما وصلوا آخر منزل مستترين بالظلام البعيد عن أنوار القصر، تبقى أمامهم شارع واسع يفصلهم عن القناة المائية التي تحيط بالقصر كاملاً، ولا يقطعها إلا جسر واحد عند كل بوابة من بوابات القصر..

كانت أنوار أبراج القصر القريبة تلقي ضوءها المتحرك على كل المناطق القريبة من القناة والشارع المحيط بها.. فاستغل الرئيس اللحظة التي يعم فيها الظلام الشارع أمامه لينطلق مع رجله عابراً المسافة التي تفصلهم عن القناة ليحتمي بالسور الحجري الذي يعزل القناة عن الشارع.. وبعد أن غمر الضوء المكان في دورته وعاد الظلام من جديد أشار لرجاله بالتقدم.. فتقدمت بي ناريا مع الرجل الآخر بأسرع ما تستطيع وهي تتعجب من كون هذا الشارع الذي بدا عادياً مرت قربه آلاف المرات من قبل، قد غدا كأنه ساحة قتال خطرة ومساحته شاسعة بحيث ظنت أنها لن تقدر على اجتيازه أبداً قبل عودة الضوء.. وما كادت ترمي نفسها قرب السور الحجري لاهثة الأنفاس حتى غمر الضوء المكان من جديد وهي تنظر للشارع الذي أصبح مكشوفاً بالكامل.. لو تأخرت ثوانٍ معدودة لكشف أمرهم تماماً وضاعت جهودهم أدراج الرياح..

تتابع الرجال الباقين على دفعات والرئيس يراقب الأبراج القريبة من القناة من خلفهم بصمت.. ولما اجتمعوا جميعهم قربه، همس لهم "الآن كونوا أكثر حذراً.. فور اجتيازنا هذا السور سنكون مكشوفين حتى نصل إلى مدخل الممر السري.. لذلك سنبقى على تشكيلنا السابق ولن يغادر أي فريق قبل أن يتأكد من وصول الفريق الآخر إلى المدخل.."

كالعادة جاوبه الصمت فيما التمعت الأعين بعزم الرجال على إطاعته لأقصى حد.. وبعد مرور الضوء في دورته المعتادة، هبّ الرئيس واقفاً وقفز بنشاط رغم عمره فوق السور الحديدي مع أحد الرجال ليهبط في الجانب الآخر الذي يقل ارتفاعه عن الشارع بشيء قليل، وسار راكضاً بظهر محني عبر الشارع الضيق الذي يفصل السور عن القناة حتى وصل أسفل الجسر المؤدي لبوابة القصر، بعد أن تأكد أنه بعيد عن أعين الجنود الذين بقوا قرب البوابة..

تتابع بقية الرجال متتبعين خطواته بين مرور الضوء واختفائه.. فيما كان صوت القتال الدائر في الجانب الآخر من القصر يزداد حدة وعلواً مما جعل بي ناريا تغمغم "أرجو ألا يتحمس رجالك فيحرقوا القصر كله.."

علق الرئيس "لديهم أوامر محددة عن المدى الذي يمكنهم اتخاذه في القتال.. فلا تقلقي.."

ونظر إلى الأبراج القريبة منهم متأكداً أن ضوء كشافاتهم لا يصل تحت الجسر، ثم همس لرجاله "لننطلق.."

بدؤوا في النزول في مياة القناة المثلجة بهدوء ودون إصدار صوت، وانطلقوا يسبحون نحو الجانب الآخر من القناة لا يظهر منهم إلا رؤوسهم.. ورغم البرودة الشديدة، إلا أن بي ناريا لم تتفوه بكلمة وهي تلاحظ أن القناة ليس بها تيارات قوية قد تتعبهم أو تدفعهم بعيداً عن الظل الذي يلقيه الجسر على المياه تحته والكشافات قرب البوابة تنيره من الأعلى بشكل كامل..

نظرت بي ناريا إلى جوين التي كانت غير ماهرة بالسباحة تماماً والتي استعانت بأحد الرجال حتى لا تغرق في مياه القناة العميقة، ثم عادت تنظر للضفة التي اقتربت منهم كثيراً.. ولما وصلتها وجدت أحد الرجال يجذبها من يدها ليساعدها في الخروج من المياه، ثم يتركها لمساعدة جوين التي وصلت بعدها بقليل.. نفضت بي ناريا المياه عنها وتبعت الرئيس إلى الحائط الذي يقع أسفل الجسر والذي بدا عادياً لا فرق بينه وبين سائر السور الشاهق للقصر شيء.. نظر الرئيس إلى الحائط مغمغماً "هذا هو المكان.. هل تعرفين كيف تفتحين البوابة؟"

لم تعلق بي ناريا بكلمة وهي ترى العمودين المزينيين للحائط مستغربة أنه لم يثر تعجب أحد لغرابة موقعه.. ثم مدت يدها واستخرجت القلادة من حول عنقها فلوحت بها أمام العمود الأول دون أن تجد نتيجة، ثم اتجهت للعمود الآخر.. وبعد ثوانٍ رأت النور الخافت الذي دلّ على استجابة الجدار للمفتاح.. ورأى الثوار الجدار بين العمودين ينزاح جانباً ليتسع لدخول شخص واحد، فأشار الرئيس لرجاله بأن يسرعوا بالدخول.. دخل الثوار شخصاً شخصاً في كل مرة يتبعهم رئيسهم.. فيما توقفت بي ناريا قبل دخول الممر ناظرة خلفها بصمت، عندها همست جوين "لا تخافي يا مولاتي.. سيلحق بك هارولان قريباً.. أنا واثقة أن لا شيء سيردعه عن المجيء.."

غمغمت بي ناريا "لست أدري إن كان يجب أن أسعد بهذا الخبر أم أقلق.. إنه يسعى خلف عنقي.."

ابتسمت جوين معلقة "محال.. لن يؤذي هارولان شعرة من رأسك.. لو كان فاعلاً لما كان الأسبق للحاق بالجندي الذي اختطفك في الغابة.. وأنت أعلم مني بهذا"

صمتت بي ناريا بدون تعليق متأملة القناة المظلمة والشارع خلفها، ثم اندست مع جوين في الممر الضيق مغلقة الباب الحجري خلفها وهي تسير خلف الثوار في الممر المظلم الرطب الذي لا ينيره إلا مصابيح أشعلها الثوار.. الآن، يمكنها أن تقول إن الساعات الأخيرة لصراعها مع مانيم قد بدأت.. وفي هذه الساعات سيتحدد مصيرها ومصير المملكة كلها.. للأحسن أو للأسوأ..

****

قال هارولان بصرامة "هل أنت واثق مما عليك فعله؟"

اعترى التغيّر وجه مدير محطة البث العامة وهو يقول بصوت متحشرج "أجل.. لكن هل تعلمون ما نتائج أفعالكم هذه؟"

قال هارولان "لم نطلب رأيك يا هذا.. الإرسال يجب أن يبدأ خلال ربع ساعة.. وسيتم كل شيء كما اتفقنا عليه وإلا لن أردع رجالي عن أذيتك"

جفف المدير عرقة الغزير وهو يغمغم "حسناً.. لا داعي لكل هذا التهديد.. سأفعل ما تأمرونني به حرفياً.. لكن إن سَلِمْتُ من رجالك فلن أسلم من غضبة الملك.."

ونهض حاملاً الأوراق التي خطط فيها النقاط الأساسية التي ينوي بثها بعد قليل، واتخذ مجلسه أمام العدسات التي تبث عن طريق محطته المركزية.. نظر في ساعته بقلق وجفف عرقه مرة أخرى مغمغماً "أنا جاهز.."

أشار هارولان للرجال المسؤولين عن تسجيل الحديث وبثه بعدها إلى الشاشات العامة في كل المدن الرئيسية التي تتبع الملك.. فبدأوا عملهم والأسلحة موجهة لظهورهم تهديداً لهم عن التلاعب بالخطة الموضوعة..

كانت الخطة تقضي أن يتم تسجيل كل الحديث وإذاعته بعدها بربع ساعة، وإيهام الجميع أنه بث مباشر، ضماناً لئلا يتدخل جنود مانيم ويفسدوا المخطط قبل بث الرسالة كاملة.. وعند الإشارة، تنحنح المدير لثوانٍ قبل

أن يقول بصوت متحشرج "إلى العالم كله، إلى سكان الأقاليم التسع وثلاثون المكونة لكوكبنا المجيد.. أعلن لكم بدء الثورة ضد الملكية المركزية في يناسّا.. اليوم، وفي هذه اللحظة، يقاتل ثوار هيمانيا ضد مانيم الظالم القاتل.. و....."

مال تيمين على هارولان معلقاً بهمس "الرجل متردد وغير مقنع.. عيناه تصرخان أن كل هذا كذب وخداع.. كيف تتوقع نجاح هذه الخطة؟"

لم يعلق هارولان وهو ينظر إلى المدير بشيء من الحنق.. كان يودّ الانتهاء من عمله هنا لينضم إلى البقية في القصر.. يودّ أن تجري الساعات بسرعة حتى تقف في اللحظة التي تهوي فيها جثة مانيم عند قدميه.. يودّ أن يرتاح من الذكريات التي تثقل صدره وتقضّ لياليه منذ تلك الليلة.. والذي يحدث هنا هو مجرد تأخير لتحقيق هدفه، وهو مما لا يطيق..

بعد لحظات من الصمت، ناول هارولان سلاحه لتيمين، وتقدم من المدير مشيراً للرجال بألا يوقفوا التصوير، فضرب الطاولة بيديه بشكل أفزع المدير وجعله يبتلع لسانه، وقال مواجهاً العدسات بصوتٍ عالٍ وواثق "هذا ليس حديثاً رسمياً.. وليس خطة استراتيجية.. هذا حديث من القلب من ثوار هيمانيا التي عانت ظلماً وجوراً لسنين طوال، في حكم مانيم وقبله في حكم الملك السابق.. هيمانيا التي مُنعت أبسط حقوقها، وهو الشكوى، والتي لازالت تعيش في أحوالٍ متدنية وظروف معيشية قاسية، والسبب هو في وجود بضع مناجم ضخمة للبلور، وهو المادة الرئيسية التي يعيش عليها كوكبنا.."

ظل الجميع يستمعون إليه بدهشة وصمت وهو يضيف "الثورة قائمة والنصر سيكون حليفنا.. لكننا لا نبغي استرداد حقوق هيمانيا فقط.. بل ندافع عن كل مظلوم مغبون حقه في هذا الكوكب.. كم من مدينة وجدت أنها مجرد آلة لتوريد البلّور للعاصمة؟ كم من شخص قضى نحبه في العمل في المناجم؟ كم من عائلة منعت حقوقها الأساسية في عيش كريم لينعم بها السادة في يناسّا؟ أما آن أوان كل هذا أن ينتهي؟ أما آن للناس أن يحصلوا على حقوقهم دون استجداء؟ هذا هو ما نطالب به، وما نسعى لتحقيقه.. هذا ما يموت رجالنا الآن بالذات، لتنعموا به أنتم غداً.."

وشدّ جسده قائلاً وقد تزايد حماسه "كل ما نطالب به هو إلغاء الملكية المتفردة.. لماذا تبقى مصائرنا معلقة بمزاج شخص واحد، قد ينهض من نومه بمزاج متعكر، ليذيق بضعة آلاف من البشر الويل بقرار متعسف؟ من الرقيب على قراراته وأهوائه؟ ومن الذي يجرؤ على محاسبته؟ لأي شيء نصّب نفسه ملكاً ومتملكاً هذا الكوكب كله؟ حتى أموال الملك كلها لا تكفي لشراء إقليم واحد من أقاليم هذا الكوكب، فكيف يزعم أنه مالك للكوكب كله؟ إن كان أجدادنا قد سلّموا أنفسهم وقيادهم لرجل واحد، فلا شيء يلزمنا بفعل الشيء ذاته.. لاشي يلزمنا بالانصياع لحكم ظالم.."

وضرب الطاولة من جديد بيده صائحاً "نحن لا نسعى لنشر الفوضى كما زعم مانيم.. ولسنا قتلة متعطشين للدماء.. ليس هدفنا انشقاق هيمانيا ولا نتمنى أن تعمّ الفوضى كوكبنا الهادئ.. كل ما نطالب به هو إنشاء مجلس للحكم تكون قراراته فوق قرارات الملك.. نريد عنق مانيم، وهو الذي قتل ويتّم الآلاف من الهيمانيين دون

رادع ودون رحمة.. بعدها يمكن للعالم كله انتخاب ملك واحد نرجو أن يكون عادلاً ويتعظ من كل ما يحدث الآن.. ونريد إنشاء مجلس للحكم، يضمّ رجلاً مختاراً من كل إقليم من الأقاليم التسع وثلاثون، هدفه تحقيق العدل والمساواة بين الأقاليم، وتقييم الملك وقراراته، ومنع الظلم والتعسف الناجم من استفراد شخص واحد بالحكم.. عندها، يمكنني وبكل ثقة القول بأن العدل سيسود كوكبنا، وسيخشى الملك، أي ملك، من ظلم أحد بجرّة قلم.."

صمت قليلاً والمدير جواره ينظر له بدهشة ممزوجة بذعر خوفاً مما قد يلاقيه من جزاء على يد مانيم، ثم أضاف هارولان "كل ما نريده هو أن نأمن على صغارنا من أن يواجهوا ظلماً كالذي واجهناه.. ليس أقسى على النفس من أن ندفن رؤوسنا بين أرجلنا ونحن نعلم أن ما سيواجهه أبناؤنا قد يكون أقسى وأشدّ.. لنتخذ الخطوة الحاسمة الآن، ولندع أبناءنا ينعموا بحياة أكثر أمناً وعدلاً.."

وغادر الموقع بعد أن أنهى جملته تاركاً الجميع في صمت تام.. وبإشارة من يده تم إيقاف التسجيل، والجميع يسارعون لتأدية مهامهم استعداداً لبث الإرسال إلى العالم كله.. بدا أن حديث هارولان قد رفع الخوف والقلق من صدورهم ورفع شبح خيانة الملك من كواهلهم..

أما تيمين فقد تلقى هارولان بابتسامة وهو يناوله سلاحه قائلاً "لم أعلم أنك تتمتع بميزة الإقناع.. تبدّت حولك هالة من الإبهار أثارت إعجابي شخصياً.."

قال هارولان بدون تأثر بمزاحه "أنهيت مهمتي هنا، وفور أن يبدأ البث، سأترك لك كل شيء هنا وسأغادر.. فلا تخيّب ظني بك.. سيثور مانيم ما إن يرى هذا وسيحاول منعه بكل قوة.."

قال تيمين "لا تقلق، يمكنني إكمال العمل الرائع الذي قمت به.. أنت لديك قضية أهم تنهيها فلا تشغل بالك بنا.."

وربت على كتفه مضيفاً "أتمنى ألا يسقط مانيم إلا على يديك.."

زفر هارولان وقلقه يتزايد.. الوقت يمر، وكل ثانية يقضيها هنا تبعده عن أمنيته أميالاً عديدة.. وتثقل كاهله أكثر فأكثر..

****

بعد مسير طويل في الممرات التي تتشعب في أرجاء القصر كله، توقف الرئيس في مساحة واسعة قليلاً قائلاً لبي ناريا "الأمر أمرك الآن.. نفذت وعدي بإيصالك إلى القصر، والآن يجب أن تنفذي وعدك بتسليمنا خرائط الممرات السرية كلها.."

قالت بي ناريا "سأجلبها لكم.. لكن لن يلحق بي أحدكم أبداً.."

قال أحد الرجال بغيظ "ما هذا الهراء.."

أوقفه الرئيس وهو يقول لبي ناريا مقطباً "والسبب؟"

قالت بي ناريا بثبات غير عابئة بنظرات الغضب التي أحاطت بها "لا أريدكم أن تعلموا بموقعها الحقيقي.. وهي عند شخص يهمني أمره ولا أريد أن يصاب بضرر.. أنا وعدتكم وعد ملكة بأني سأسلمها لكم.. انتظروني هنا وسأعود بأسرع ما أستطيع.."

تعالت همهمات ساخطة من الرجال والرئيس ينظر في عيني بي ناريا الثابتتين وكأنه يحاول قراءة دواخلها، ثم قال "حسناً.. سننتظر هنا.."

هتف أحد الرجال "ماذا؟ هل ستخدعك بهذه السهولة أيها الرئيس؟"

قال الرئيس بصرامة "لم يخدعني أحد.. سننتظر جميعاً بصمت.. لكني أمهلك أقل من نصف ساعة وأعتقد هي كافية.."

هزت بي ناريا رأسها إيجاباً، ثم استدارت وجوين تلحقها ملقية نظرة على الثوار الغاضبين خلفها، فيما جلس الرئيس في جانب المكان بصمت وأحد الرجال يقول له "هذا عمل سنندم عليه.. بي ناريا أثبتت طوال بقائها معنا أنها لا تعبأ بأحد غير ذاتها.."

قال الرئيس بدون أن يبدو القلق على وجهه "ستثبت لنا الدقائق القادمة صحة ظني أم خطؤه.."

صمت الرجال رغم حنقهم وهم غير قادرين على مجادلته في الأمر..

****

في اللحظة الموعودة، فوجيء العالم كله بانقطاع البث العادي من الشاشات المنثورة في الساحات الرئيسية لكل مدن العالم، ليظهر عليها بيان ثوار هيمانيا.. بدا أن الزمن توقف في العالم كله والجميع يستمعون للبيان بدهشة مذهولة.. فمع التعتيم الذي فرضه مانيم لما يحدث في يناسّا، كان الكل جاهلاً لتقدم الثورة الهيمانية واختراقها يناسّا.. وفي القصر، هبّ مانيم واقفاً وقد اشتد غيظه صارخاً "لماذا لم أعلم بشيء من هذا؟ لو كان الثوار قد أفلحوا بالسيطرة على مركز البث، لماذا لم يكلف أحدهم نفسه لإبلاغي بهذا؟"

قال القائد العام عبر جهاز الاتصال "أغلب جنودنا منشغلون في معارك محدودة مع الثوار في أجزاء مختلفة من المدينة.. تركنا فرقة واحدة فقط لحماية مركز البث، ولم نعلم أن للثوار هدف بالاستيلاء عليها.."

صاح مانيم بغضب "وأنت لازلت تجادلني؟ لماذا لم توقف البث حتى الآن؟ انطلق بعشر فرق وفجروا مركز البث على رؤوسهم.."

قال القائد العام دون اهتمام بصراخ مانيم "الفرق تتقدم إلى المركز بالفعل، وأنا سألحق بهم حالاً.."

وأنهى الاتصال، فهدر مانيم "أين مردين؟ فليمثل أمامي الآن.."

لم تمض لحظات حتى كان مردين يقف أمام مانيم الذي قال بعصبية "خاطب ولاتنا في الأقاليم كلها.. فليقطعوا الإرسال عن شاشات البث في كل المدن.. ليحرقوها تماماً إن لزم الأمر.. أهم شيء هو أن لا يستمر بث هذه الرسالة الوقحة.."

انطلق مردين لتنفيذ أمره دون إبطاء.. في نفس اللحظة التي أحاط فيها الجنود بمركز البث إحاطة تامة.. وعند

تلقي الإشارة، اندفعوا متتابعين ليقتحموا مبنيي المركز في تزامن مدهش وهم يفتشون قاعاته وغرفه العديده.. لكن لم تمض دقائق حتى تلقى القائد العام اتصالاً من قائد إحدى الفرق الذي قال "سيدي.. المبنى خالٍ تماماً.."

صمت القائد بدهشة لثوانٍ، ثم قال "والمبنى الآخر؟"

أجابه "خالٍ هو أيضاً.."

فقال القائد "ابحثوا جيداً.. وليتتبع مهندس الاتصالات البث ليعرف من أين يتم إرساله.. أنا قادم حالاً.."

أما تيمين، والذي وقف يراقب البث المستمر، وصله اتصال من أحد رجاله يقول "الجند يفتشون مبنى مركز البث.. ويبدو أنهم سيحاولون تتبع البث للوصول إلينا"

علق تيمين "لا تترك موقعك وأبلغني بأخبارهم أولاً بأول.."

وأنهى الاتصال قائلاً لرجاله "علينا إخلاء المكان سريعاً.. سيصل الجنود إلينا قريباً"

قال أحد الرجال "كيف سيستدلون على موقعنا؟ لقد بذلنا جهداً في نقل المعدات اللازمة للبث ونقل العاملين في المركز إلى هذا المخبأ، فكيف نتنازل عن كل هذا الآن؟"

أجاب تيمين "هذه هي الأوامر.. لقد تمكنا من نشر رسالتنا عدة مرات والفكرة قد وصلت للجميع.. لن يقدر مانيم على تغطية الأحداث التي تجري في يناسّا ولن يستغفل العالم بعد الآن.. أهم شيء هو أن نضمن سلامة رجالنا.."

في تلك الأثناء، كان القائد العام يتأمل مبنى مركز البث الرئيسي ملاحظاً أن العديد من الأجهزة قد اختفت من موقعها، والفوضى تعم المكان.. وعندما اقترب منه أحد مهندسي الاتصالات بالجيش حاملاً جهازاً صغيراً يعرض عدة بيانات مختلفة، سأله القائد "حدد لي موقعها بدقة وسرعة.. يجب أن نوقف البث الآن.."

قال المهندس "سأفعل.. لكن هل لي بتعليق؟"

نظر القائد إليه بتساؤل، فقال المهندس "لقد استولى الثوار على بعض الأجهزة اللازمة للتصوير والبث، لكنهم لا يستطيعون بث رسالتهم إلى الأقاليم المختلفة إلا عن طريق برج الإرسال الرئيسي الموجود هنا.. فهو الوحيد القادر على بث الإرسال إلى شاشاتنا الرئيسية في العالم كله.. لذلك يمكن بتعطيله أن نوقف الإرسال حالاً حتى يتمكن جنودنا من الوصول إلى موقع الثوار"

فقال القائد "حسناً.. حدد لي موقع البث بدقة، ثم اعمل على تعطيل برج الإرسال سريعاً.. وإن لم تفلح فعلى الأقل قم بتدميره تماماً.."

سارع المهندس لتحديد موقع البث الجديد، في نفس اللحظة التي كان فيها تيمين يتأكد من إخلاء الموقع من الثوار ومن طاقم البث الذي غادر خوفاً من بطش مانيم بهم.. نظر تيمين إلى الأجهزة التي تم تركيبها بعجلة لتكوين محطة بث مؤقتة في إحدى مركبات البث الخاصة بالمركز الإعلامي، ثم حمل سلاحة وغادر مع رجاله تاركاً الأجهزة تهدر ناقلة رسالتهم إلى العالم.. تلك الرسالة التي تأخرت سبع سنين على الأقل..

****

صرخ مانيم في جهاز الإرسال مخاطباً القائد العام للجند عندما وصله آخر تقرير للمعارك الدائرة في المدينة "وما الذي تفعله أنت؟ الهجوم يعمّ المدينة كلها.. كم هيمانياً تسلل إلى المدينة تحت أنفك دون أن تعلم؟"
قال القائد العام بضيق "أنا أنفذ أوامرك يا مولاي.. نحن نبذل جهدنا بالفعل.. وجنودنا لا يكادون يلتقطون أنفاسهم حتى نفاجأ بهجوم جديد من الثوار.."
صاح مانيم بحنق "والبث.. هل أوقفته بالفعل؟ أتمنى أن تكون قد تمكنت من القبض على بعض الثوار في مركز البث.."
قال القائد "لقد أوقفناه بالفعل، عبر تعطيل برج البث.. لكن الثوار لم يكونوا يبثون رسالتهم من مبنى الإرسال، بل سرقوا بضع أجهزة من المبنى وكونوا محطة إرسال مؤقتة.."
صاح مانيم "أين؟ ومن ساعدهم؟"
قال القائد وهو ينظر إلى الساحة حوله "لقد استخدموا إحدى مركبات المحطة وحولوها إلى محطة مؤقتة.. وكانوا يتمركزون في الجانب الشرقي للمدينة بعيداً عن محطة الإرسال الرئيسية.. حددنا موقعهم وداهمنا المركبة لنفاجأ بها خالية تماماً.. يبدو أنهم تركوا عيناً تراقب ما يحدث في المحطة الرئيسية لتبلغهم بتحركاتنا وتنذرهم عن قدومنا.."
فقال مانيم بغيظ "إذن فشلتم في الإمساك بأحدهم؟ تتبع آثارهم.. لا تعد قبل أن تأتني ببعض الثوار أسرى.. أريد استجوابهم ومعرفة مخبأهم الرئيسي.. بي ناريا ولابد مختبئة هناك وأريد الإمساك بها بأي طريقة.."
أنهى القائد الاتصال وقال لجنوده "فتشوا الساحة وما يحيط بها من منازل وأزقة ومخابيء.. استجوبوا السكان بحزم فلابد أنهم شهدوا ما جرى هنا.. يجب أن نتتبع آثار هؤلاء الشرذمة حتى نقضي عليهم، وإلا واجهنا غضبة الملك وهو في أتعس حالاته اليوم.."
انطلق رجاله لتنفيذ أمره فيما أخذ القائد يتصل بقائد إحدى الكتائب التي انهمكت بقتال فرقة أخرى من الثوار عند جانب آخر للمدينة.. يستعلم عن سير القتال هناك ويلقي بأوامره الجديدة، وكل هذه الأحداث تزيد من عصبيته وتوتره شاعراً أن زمام الأمور قد يفلت منهم في أية لحظة..

****

عبرت بي ناريا عدة ممرات خلف جوين مغمغمة "أنت واثقة من الطريق؟ تبدو الممرات متشابهة بالنسبة لي.."
قالت جوين "لا تخشي شيئاً مولاتي.. لن أخطيء في الطريق بالتأكيد.. لقد حفظته عن ظهر قلب.."
علقت بي ناريا"أخشى أن نجد أنفسنا في جناح مانيم دون أن ندري.."
ابتسمت جوين دون أن ترد، واستمرتا بالسير لفترة طالت.. كانت كل الممرات مظلمة إلا من النور الذي تحمله جوين، والذي ينير الممرات التي تبدو قديمة مع قلة العناية بها، حيث يغطي الطحلب أجزاء منها والغبار يمحي نقوشها البارزة.. توقفت جوين عند جانب أحد تلك النقوش، وفتحت الباب السري بنفس الطريقة المعتادة،

فهمست بي ناريا "أأنت متأكدة من خلو الجناح من أحد سوى الملكة الأم؟ لا أريد أن يفاجئنا الجنود.."
قالت جوين "لقد منع الملك دخول أحد إلى جناح مولاتي سواي.. حتى الأطباء والمستشار قد منعوا من الدخول.. أنا الوحيدة التي أوكل إلي أمر خدمتها.. لذلك من المستحيل أن نجد أحداً في الجناح في أي وقت"
وأشارت لبي ناريا أن تبقى في موقعها فيما دلفت هي إلى الجناح بهدوء.. ظلت بي ناريا في موقعها وحقدها يتزايد على مانيم.. ما الذي فعلته له الملكة الأم ليعاملها بهذه القسوة؟ ألم يكفه كل ما فعله ليستولي على العرش حتى يذيق الملكة الأم كل هذا العذاب؟..
سمعت جوين تناديها بخفوت، فدلفت بخطوات خفيفة إلى الجناح شبه المظلم، وتقدمت من فراش الملكة لتراها على الضوء الخافت بحال صعقها.. الشحوب، الهزال، والرجفة في جسدها كلها أشياء لا تدل على أمر حسن..
جلست قرب الفراش وأمسكت يد الملكة الهزيلة هامسة "أماه.."
فتحت الملكة الأم عيناها بدهشة متطلعة إلى بي ناريا بعدم فهم، ثم همست بصوت مرتجف "بي ناريا؟ أحقاً هذه أنت؟"
قالت بي ناريا وغصة تملأ حلقها "أجل.. عدت أخيراً.."
اغرورقت عينا الملكة الأم بالدموع وهي تقول "هذه أول مرة أسمعك تناديني بأماه.. لطالما تمنيت سماعها من قبل، لكني الآن سعيدة.."
قالت بي ناريا "ما الذي تقولينه يا أماه؟.. أنت أمي ولا أم لي سواك.. لقد عاملتك بقسوة في السابق، لكن ليس كرهاً، بل أعماني العرش والآمال التي ملأ أبي بها عقلي عن أي شيء آخر.."
غمغمت الملكة الأم "الآن تغمرني الراحة برؤيتك سالمة.. أرجو ألا تكوني قد كرهتني لما قاسيته في هيمانيا.. أشعر بنهايتي قريبة، ولا أريد أن أرحل وفي قلبك غضب عليّ"
قالت بي ناريا بشيء من القلق "لم هذا التشاؤم؟ أنت بخير، وسيتحسن حالك قريباً.. اصبري واستعيدي قواك بسرعة لتشهدي نصري على مانيم الوغد.."
قالت الملكة الأم متوسلة "أرجوك يا ابنتي.. اتركي أمر مانيم.. لا أريدك أن تسقطي في براثنه من جديد.. لقد أقسم على قتلك فور قبضه عليك، وهذا أكثر ما أخافه في الدنيا.."
ربتت بي ناريا على يدها قائلة "لا تقلقي.. لن أعرض نفسي للخطر.. ارتاحي الآن وأنا لن أغيب طويلاً.."
ونهضت مبتعدة وهي تقول لجوين بهمس "أين المخططات؟"
دلتها جوين على مخططات الممرات السرية، فتناولتها بي ناريا وتفحصتها بكثب قبل أن تقول "يجب أن لا نفرط في النسخ الأصلية أبداً.. أين يمكنني نسخها دون أن يكشفنا أحد؟"
سارعت جوين لاستظهار نسخ من المخططات قائلة "لقد تمكنت في غفلة من الجميع من نسخ المخططات بمساعدة المستشار.. كما قمت بتحذيره عما سيجري اليوم.."
أمسكت بي ناريا النسخ قائلة بابتسامة مندهشة "لقد فاجأتني يا فتاة.."
ثم نظرت باتجاه الملكة التي تراقبهما بعينين صامتتين مضيفة "ابقي مع الملكة حتى عودتي.. سيبدأ كل شيء

ما إن أسلم هذه المخططات للثوار، وعلينا الحذر في هذه الأثناء حتى يتم القضاء على مانيم.."
واسرعت تعود من حيث أتت عبر الممر السري، فيما جلست جوين قرب فراش الملكة الأم وقلقها يتزايد مما قد يحدث، هنا في القصر وهناك في المدينة..

****

في منطقة متوسطة من الممرات السرية، جلس رئيس الثوار محاطاً برجاله ينتظر قدوم بي ناريا.. لم يكن قد مرّ وقت طويل على مغادرتها عندما تساءل أحد الرجال بهمس "وماذا لو كانت تخدعنا؟ قد تهرب وتتركنا هنا حتى نسقط في يد مانيم.."
قال الرئيس بهدوء "لن تفعل.. أنا أثق بها.."
قال الرجل مقطباً "كيف يمكنك ذلك؟ بعد كل ما فعلته، وبعد كل التكبر الذي لم يكسره شيء تثق بها؟"
قال الرئيس بصوت أعلى ليسكته "إن خانتنا فأنا سأتحمل مسؤولية ذلك.."
تهامس الرجال وشيء من الضيق يتسرب إلى نفوسهم، لكن الرئيس لم يعلق بكلمة أخرى وهو يستسلم لأفكاره ويحاول ترتيب الخطة التي ناقشها مسبقاً في عقله.. بعد لحظات، سمعوا خطوات راكضة في جانب يخالف الذي اختفت عنده بي ناريا، فتطلع الجميع إلى تلك الجهة بتحفز وهم لا يرون أي مصدر للإضاءة قادم تجاههم.. لكن سرعان ما تبين لهم وجه القادم عندما ألقت مصابيحهم ضوءها عليه، فقطب الرئيس وهو يقول بغير تصديق "هارولان؟ ما الذي تفعله هنا؟"
اقترب هارولان منهم وهو يحاول التقاط أنفاسه، فعاد الرئيس يسأله بحدة "ما الذي جاء بك هنا؟ لقد أسندت إليك مهمة رئيسية، فهل تخليت عنها لتلحق بنا؟"
شدّ هارولان جسده مجيباً بحسم "بل أتيت بعد أن أنجزت مهمتي.. رسالتنا تبث الآن لجهات الكوكب كلها، ولن تتوقف حتى يعثر الجنود على محطة الإرسال المؤقتة التي صنعناها.. ولقد تركت تيمين ليتولى أمر الرجال ويتأكد من هروبهم قبل ذلك.."
قال الرئيس والضيق لم يزايله "لكني أكدّت لك أنني غير راضٍ عن قدومك للقصر.."
أجاب هارولان دون أن يبدو عليه أي ضيق "وأنت تعلم أنني لا يمكن أن أتنازل عما جئت لأجله.. يمكنك أن تقتلني هنا الآن، لكن لا تطلب مني المغادرة دون أن أقتل مانيم بيدي هاتين.."
صمت الرئيس وهو ينظر إلى هارولان الذي ثبت في مكانه والتصميم في وجهه، ثم تنهد الرئيس مغمغماً "عنيد جداً.. فلتمض هذه الليلة على خير..."
ثم ضيّق عينيه متسائلاً "مهلاً، كيف عرفت موقع المدخل؟ بل كيف تمكنت من فتحه دون القلادة التي تملكها بي ناريا؟"
رفع هارولان يده القابضة على قلادة صغيرة مغمغماً "أتقصد هذه؟"

تطلع الرئيس وبقية الرجال إلى قلادة مطابقة للتي تحملها بي ناريا، ثم ضحك الرئيس بشكل تعجب له هارولان وهو يقول "فعلاً.. كل التروس قد وضعت في مواقعها الصحيحة، وما بقي إلا القليل لتدور العجلة.. يبدو أنه مقدر لك أن تكون هنا وأن تكتب تاريخ المملكة بنفسك.."

زاد تعجب هارولان من حديث الرئيس، لكنه لم يعلق وهو يناوله القلادة فتقبلها الرئيس صامتاً.. عندما سمعوا أحد الرجال يقول "شخص آخر قادم إلينا.."

التفتوا ليروا نوراً يقترب منهم، وسرعان ما تبينوا بي ناريا التي حملت عدة مخططات في يد، ومصباحاً في اليد الأخرى.. تقدمت منهم حتى أصبحت في مواجهتهم، وهي تنظر إلى هارولان الذي لم تره قبل ذلك بابتسامة، ثم تقدمت من الرئيس مباشرة قائلة "هذا هو ما وعدتك به.. خرائط الممرات السرية الخاصة بالقصر.. طبعاً هذه هي نسخة عن الخرائط الأصلية، فلا يمكن التفريط في الأصل أبداً.."

وأشارت إلى بقعة فيها "نحن هنا.. وأنتم تعرفون أجزاء القصر كله لذلك ليس من داعٍ لأن أشرحها من جديد"

هز الرئيس رأسه قائلا "هذا رائع.. خطتنا الآن ستغدو أسهل بكثير"

ثم رفع رأسه متسائلاً "والمفتاح؟ لا نملك إلا واحداً وهو الذي أحضره هارولان، لكنه لا يكفي لمخططنا.. فهل تملكين مفاتيح أخرى؟"

قالت هازة رأسها نفياً "لا أملك إلا الآخر، ولن أفرط فيه فأنا بحاجة إليه أيضاً.. لكن الأبواب يمكن فتحها من الداخل بدون مفتاح، إذ ستجد نتوءاً بارزاً قرب كل باب بالضغط عليه يمكنك فتحه.. فقط حاذر من ترك الباب دون حراسة والانشغال خارجه إذ لن تجد طريقة للعودة للممر.."

قطب الرئيس معلقاً "هذه مخاطرة، إذ سننكشف عندها بسهولة.."

هزت كتفيها مجيبة "هذا هو السبيل الوحيد.. ولا تحاول تفتيشي فقد تركت القلادة خلفي ولن تجدوها أبداً.."

قال الرئيس "حسناً.. لن يوقفنا أمر صغير كهذا.."

فقالت "لقد أوفيت بوعدي لكم.. لكن لي رجاء أخير.. لا تقتربوا من جناح الملكة الأم ولا تضرّوها بشيء.. وكذلك المستشار الخاص بي.. إنه رجل طيب وساعدني كثيراً، وسيساعدكم قطعاً ضد مانيم"

قال الرئيس "نعدك بهذا.."

اقتربت بي ناريا من هارولان قائلة "لقد انتفت حاجتكم لي.. فهل ستبرّ بعهدك الآن؟"

ظل ينظر لوجهها الهادىء والصراع يبدو جلياً على وجهه، ثم أشاح بوجهه بعيداً بصمت.. فابتسمت قائلة "إذن.. حتى نلتقي.."

واستدارت عائدة من حيث أتت دون أن تلتفت إليهم مرة أخرى وابتسامة شبه سعيدة ترتسم على شفتيها.. أما الرئيس فقد ربت على كتف هارولان وهو يقول لرجاله "الآن سننفذ مخططنا دون إبطاء.. سندرس هذه المخططات جيداً، وسنبدأ هجومنا مع انتصاف الليل.. فاستعدوا يا رجال.."

****

الفصل الثالث عشر:

الثائرة

عن المواجهة

..

والموت

..

والانتصار الأخير

..

لم يكن الليل قد انتصف عندما اشتعلت الأمور في القسم الشرقي من القصر، الذي يحوي أجنحة مخصصة للضيوف وهي فارغة حالياً، بالإضافة لقاعات اجتماع ومكاتب لبعض الوزراء.. كان الجنود يقفون في مواقعهم كالعادة يراقبون ممرات القصر شبه المظلمة رغم علمهم أن مخلوقاً لن يصل إلى هذه الممرات دون أن يكشفه الجنود عند مداخل القصر.. لذلك، كانت دهشتهم مروعة عندما رأوا بضع مكعبات سوداء تلقى قريباً منهم من إحدى الجهات التي تعلوها ظلمة خفيفة.. وفور أن أدركوا ماهية تلك المكعبات حتى صاح أقربهم لها "ابتعدوا.."
تبع حديثه انفجار محدود هزّ القصر وكسر الهدوء المخيم عليه تبعه عدة انفجارات من الموقع نفسه.. غمرت سحابة من الدخان المكان عندما وقف أبعد الجنود هاتفاً "هل أنتم بخير؟"
جاوبه أنين بعض الجنود والآخرين يسرعون لنجدتهم فيما وقف البعض مشهراً أسلحته بتحفز وتوتر لا مثيل له.. لكن الصمت عمّ المكان بعد ذلك الاحتفال القصير والجنود يسارعون إلى الجهة التي ظهرت منها المكعبات بحذر شديد.. انقشع الدخان بعد فترة قصيرة والجنود يبحثون عن الفاعلين في القسم كله وأحدهم يتحدث في جهاز الاتصال إلى نائب القائد العام للجند والذي يبقى طوال الليل ساهراً تحسباً لأي طارئ..
بعد فترة قصيرة اجتمع الجنود مجدداً وأحدهم يقول "لا شيء.. القسم كله خالٍ من أي أثر.."
قال الجندي الذي بقي على اتصال مع النائب "عاودوا البحث.. نائب القائد آت الآن وسيشرف بنفسه على الأمر.."
لم يعترض الجنود على قوله وهم يعاودون الانتشار في المكان، فيما التفت الجندي إلى من بقي قربه قائلاً "انقلوا الجرحى بعيداً، وليحضر أحد الأطباء لعلاجهم بسرعة.."
جاوبه صوت رصاص صادر من البقعة ذاتها التي أتت منها القنابل، فالتفت بدهشة ليرى بضع جنود يتساقطون جرحى والرصاص ينهمر بغزارة من موقع مظلم لا ينيره أي مصباح من المصابيح القريبة الخافتة الإضاءة.. صرخ الجندي برفاقه ملقياً عليهم بعض الأوامر فيما انشغل بعضهم بتبادل إطلاق النار مع أولئك المجهولين..
في جانب من القصر بعيد عن موضع الاشتباك، كان نائب القائد العام يسير بسرعة مع بعض الجنود باتجاه القسم الشرقي وهو يحاول الاتصال بالقائد العام.. حاول عدة مرات لكن تعذر عليه ذلك مما جعله يهتف بسخط "أهذا وقت مناسب للتأخير؟ لقد حدث ما كنا نخشاه بالفعل.. ستطير رقاب كثيرة الليلة.."
لم يعلق الجنود خلفه بكلمة، فيما سارع النائب للاتصال بقائد إحدى فرق الجند المرابضة قرب باب القصر الشرقي "أطلق الإنذار العام.. بعض الثوار نجحوا في التسلل للقصر تحت أبصاركم أيها الأغبياء.."
تساءل قائد الفرقة بذهول "كيف؟ لا يمكن لحشرة أن تمر جوار القصر دون أن نعلم"
جاوبه النائب بسخرية "لكن فرقة كاملة استطاعت الدخول للقصر بعتادها.. يبدو أنكم ركزتم انتباهكم على الحشرات حتى استطاع هذا الجيش المرور فوق رؤوسكم دون أن تعلموا"
لم يعلق قائد الفرقة وهو يقطب بضيق، فيما قال النائب بحدة "أرسل لي عدة فرق للقسم الشرقي.. يجب أن

نتدارك هذا الموقف ونقبض عليهم قبل أن يصلوا للملك.."
قال قائد الفرقة بحزم "لا يمكنني هذا يا سيدي.. لقد حذرني القائد العام من التحرك أنا أو أياً من جنودي عن هذا الموقع حتى لو احترق القصر بأكمله.. هذا أمره بالحرف الواحد"
قال النائب بغيظ "ما فائدة حراسة المدخل في هذه المصيبة التي نحن فيها؟.. تباً لك"
وأنهى الاتصال بحدة، ثم بعد تفكير أجرى اتصالاً عاماً بالجند الموجودين في القصر، وقال بحدة "انتباه إلى جميع الجنود في القصر.. لقد أفلح الثوار بالدخول إلى القصر، والآن هم مشتبكون مع جنودنا في القسم الشرقي.. أريد من كل قسم أن يرسل لي عشرة جنود على الأقل إلى القسم الشرقي مسلحين بعتادهم.. والبقية عليهم تشديد الحراسة في مواقعهم.. أي تأخير سيحاسب عليه الجميع.."
وأنهى الاتصال وهو يسرع في طريقه إلى المعركة الدائرة والتي كانت تهز القسم الشرقي من القصر كله..

****

انتفض مانيم لدى سماعه لصوت القتال الدائر في القسم الشرقي من القصر.. كان الصوت يصل لسمعه خافتاً وإن كان شديد الوضوح مما جعله يهتف بجنوده "ما الأمر؟ هل تمكن الثوار من الوصول للقصر وأنتم غافلون؟"
ظل الجنود يتطلعون لبعضهم البعض بحيرة وأحدهم يتقدم من مانيم قائلاً "لا علم لنا حتى الآن يا مولاي.. لم تردنا أخبار من القائد العام أو من نائبه"
فقال مقطباً "إذن اتصل بأحدهما بسرعة واستفهم عن الأمر.."
سارع الجندي مطيعاً قوله بالاتصال بالقائد العام للجند، لكن لم يكد يكمل الاتصال حتى وجد نائب القائد يدلف القاعة بعجلة هاتفاً "مولاي.. الثوار.."
قاطعه مانيم قائلاً بعصبية "قد تسللوا للقصر.. أهذا ما جئت تقوله؟"
قال النائب بالعاً ريقه "بلى يا مولاي.. لقد ظهروا فجأة عند القسم الشرقي من القصر وهم يشتبكون مع رجالنا في قتال محدود.."
ضرب مانيم على عرشه بقبضة يده قائلاً بحدة "لماذا لم تقبضوا عليهم حتى الآن؟ بل اقتلوهم.. اقتلوهم دون هوادة فهذا أفضل.."
قال النائب بتوتر "حاولنا ذلك يا سيدي.. لكن تعذر ذلك على الجنود حتى الآن.."
قال مانيم بغضب "اتصل بالقائد العام.. فليعد هو والفرق الأخرى من المدينة ويتخلصوا من الثوار في القصر.. وأنت.. ابحث عن المتسببين بإهمالهم في تسلل الثوار للقصر رغم الحراسة المشددة.."
قلب النائب كفيه قائلاً "لكن يا مولاي.. لقد تأكدت من الأبواب والمداخل في القصر كافة.. جميعها محمية بتشدد، ورغم القتال المحدود الدائر عند البوابة الشمالية، فإن أحداً من الثوار لم يفلح بدخول القصر عبرها.. لكن الثوار في القصر بدوا كالأشباح، يظهرون لينشروا الدمار، ويختفون قبل أن ننجح في القبض على أحدهم.."

اتسعت عينا مانيم بدهشة قائلاً "كيف ذاك؟ كيف تمكنوا من فعل هذا وهم غرباء عن القصر؟ بل إنهم يدمرون مواقع استراتيجية في المدينة رغم أنهم قدموا منذ فترة قصيرة إلى المدينة.. فمتى أحاطوا علماً بهذه المواقع وبطريقة الدخول للقصر دون أن يكشفهم الجنود؟"

أجاب النائب "لقد علمت أن كثيراً من مواطني يناسّا قد انضموا للثوار.. لابد أنهم أمدوهم بكل المعلومات التي احتاجوا إليها لتكون ضرباتهم موجعة أكثر.."

قال مانيم مقطباً بحنق "لا.. لا يكفي ما يحمله أولئك من معلومات لإيصال الثوار إلى ما هم عليه الآن.. لابد أنها هي.. هي معهم ولاشك، ولن أكون مانيم إن لم أقبض عليها"

ثم التفت إلى النائب المتعجب وأَمَرَه قائلاً "ابحث عن بي ناريا.. إنها هنا في القصر.. ابحث في جناحها أو في أي بقعة قد تكون فيها.. لا أريد إخفاقاً هذه المرة في الإمساك بها.. يجب أن أحرم الثوار من مصدر معلومات مهم مثلها"

انطلق النائب لتنفيذ أمره فيما غمغم مانيم بابتسامة ساخرة "عدت إلى قصرك أخيراً يا بي ناريا؟.. لكنك جئت لقدرك بنفسك أيتها الفتاة.."

****

نهضت جوين واقفة بقلق وهي تلتفت إلى الخطوات الراكضة خلفها.. فرأت بي ناريا تقترب منها هامسة مخطوفة الأنفاس "هل أغلقت باب الجناح بإحكام؟"

هزت جوين رأسها إيجاباً، فتنهدت بي ناريا وهي تتهاوى على كرسي قريب "الأوغاد، اقتحموا جناحي ودنسوه بأحذيتهم القذرة.. يبدو أن مانيم شك بوجودي في القصر مع ظهور الثوار فيه فأرسلهم للقبض علي.. من الجيد أنني استطعت الهرب قبل أن يروني هناك"

تساءلت جوين بقلق "لماذا خاطرت بالذهاب إلى جناحك في هذه الأوقات الخطرة يا مولاتي؟ الثوار أبلغوك أنهم لن يحاولوا حمايتك في القصر"

أزاحت خصلات شعرها عن وجهها وهي تقول بكبرياء "لست بحاجة لحماية أحد.. هذه مدينتي وهذا قصري ولن يتمكن مانيم من زحزحتي منه.. ثم إنني سئمت من هذه الملابس المبللة الرثة، فأردت استبدال ملابسي قبل الإتيان بخطوة أخرى.. لكني لم أقدر إلا على سرقة أحد أثوابي وإحضاره إلى هنا قبل أن يراني أحدهم.."

ثم قالت وهي تشرع باستبدال ملابسها "المهم، أريدك أن تجمعيني بالجنود المخلصين لي قبل أن تطلع شمس النهار.. يجب أن اتخذ خطوة سريعة مستغلة انشغال مانيم والثوار ببعض.. لن أنتظر حتى يحقق الثوار أهدافهم ويتغلبوا عليّ"

علقت جوين "أمرك مولاتي.. لكن ألن يكون قدومهم إلى جناح الملكة الأم خطراً عليها وعليك؟"

قالت بي ناريا "بل أريد الاجتماع بهم في جناحي.. فليتظاهروا بأنهم يفتشون الجناح مجدداً ويتأكدوا من خلوه من أتباع مانيم، بعدها سأحضر عبر الممر السري وألتقي بهم.."

فقالت جوين "حسناً.."
نظرت بي ناريا للملكة النائمة وتساءلت "هل هي بخير؟"
قالت جوين "لا تخافي.. إنها نائمة منذ غادرْتِنا.. وأرجو أن تكون بخير.. غداً مع بعض العناية ستصبح أفضل.."
قالت بي ناريا "غداً سأحاول الوصول لطبيب القصر وإحضاره لعلاجها.. لا يمكن تركها تتعذب هكذا.."
قالت جوين بقلق "لا يمكنك الخروج الآن فمانيم ولاشك يبحث عنك في القصر كله.."
أجابت بي ناريا "لا تقلقي.. سأرى إن كنت أستطيع الوصول إليه عبر الممرات السرية، وسأحضره عبرها أيضاً.."
علقت جوين مبتسمة "لم تعد هذه الممرات سرية جداً لكثرة من عرفوا بها.."
اقتربت بي ناريا من فراش الملكة الأم لتطمئن عليها.. كانت الملكة الأم تزداد شحوباً في كل لحظة تراها مما زاد غضبها وحنقها على مانيم.. تلمست يد الملكة الأم برفق خشية أن توقظها وهي تهمس "قريباً يا أماه.. سننتصر على مانيم، وستستردين صحتك وتشهدين عودتي ملكة على الكوكب قاطبة.."
شعرت ببرودة غريبة تتسلل ليدها من يد الملكة الأم.. تلمست يدها بقلق، ثم وضعت يدها على خد الملكة الأم وهي تناديها.. لا تدري لم شعرت بذعر جعلها تهز الملكة الأم وهي تقول بصوت أعلى "أماه.. استيقظي.. هل أنت بخير؟"
اقتربت جوين بدهشة وهي تقول "إنها نائمة.. لا داعي لإفزاعها يا مولاتي.."
فصاحت بي ناريا "لكنها لا تجيب.."
هزت الملكة الأم بقوة أكبر دون أن تجد منها استجابة، فوضعت رأسها على صدرها محاولة الاستماع لنبضها.. مرت لحظات قاسية والصمت يعمّ المكان قبل تعتدل واقفة وتنظر لوجه الملكة الأم بذهول.. فيما سارعت جوين تتفحص الملكة الأم بدورها بقلق.. أما بي ناريا، فقد تهاوت أرضاً وهي تنظر إلى وجه الملكة الأم الساكن رغم شحوبه.. وهمست بصوت مرتجف ودموعها تتدافع من عينيها "لقد رحلت.. رحلت قبل أن تفرح بنصري.. قبل أن تنعم بالراحة والأمان بغياب مانيم.. الوغد، لقد قتلها.. قتلها.. الوغد، سلبني كل شيء في هذه الدنيا.."
وأجهشت في بكاء مرير غير عابئة بجوين التي أخذت تبكي بدورها قرب الملكة الأم.. هذه صدمة جديدة أصابتها في الصميم قبل أن تتعافى من كل الصدمات التي حلّت بها.. هذه كانت آخر من ساندها في الدنيا بإخلاص وآخر من منحها حباً بلا حدود.. وقد خسرتها قبل أن تتمكن من رد جميلها ولو لوقت قصير.. شعرت أنها فقدت دعماً معنوياً كان يشجعها على الاستمرار ويمدها بالقوة.. ولا تدري متى سترتاح من المصائب التي حلت بها كلها..

****

قبل أن يبدأ الرئيس الجزء الثاني من خطته، جاءه رجلين من رجاله الذين أرسلهم إلى الجانب الشرقي من

القصر.. فقال له أولهم "أمورنا تسير على أتم ما يرام أيها الرئيس.. لقد استطعنا احتلال الجانب الشرقي كله وتراجع الجنود مكتفين بإطلاق النار من على مبعدة.. يبدو أنهم ينتظرون الإمدادات التي تأخرت كثيراً.."
قال الرئيس "لن يطول الوقت قبل أن تصلهم الإمدادات.. أسرعوا في تأمين الجانب الشرقي كله.. سأرسل فرقاً أخرى لإشغال الجنود في جهات أخرى من القصر، حتى نتمكن من الإنفراد بمانيم.."
استغل هارولان انشغال الرئيس مع رجاله في التخطيط للمرحلة القادمة، وتراجع عدة خطوات قبل أن يستدير ويغادر باتجاه قد حفظه جيداً.. لقد أمعن النظر جيداً في الخرائط الخاصة بالممرات السرية، وحفظ طريقه إلى قاعة العرش، وإلى جناح الملك.. الآن، حان وقت المواجهة، وقت الانتقام.. حان الوقت للتخلص من كل هذه الأحلام المرعبة التي يراها كلما أغمض عينيه، تذكره بتلك الليلة وبكل لحظة مأساوية شهدها فيها.. وبعد أن قطع كل هذه المسافة، ما كان بإمكان أحد إثناءه عما ينوي فعله..
أما في قاعة العرش فقد كان الوضع متفجراً ومردين يقف مرتجفاً أمام مانيم وهو يقول "الأوضاع سيئة يا مولاي.. الهيمانيين قد استولوا على الجانب الشرقي من القصر كله.. يبدو أن جنودنا غير قادرين على ردعهم والقبض عليهم.."
صاح مانيم هادراً "وما الذي تفعله أنت؟ ألا تخاف على نفسك في حال تمكّن هؤلاء الشرزمة من السيطرة على القصر؟"
قال مردين قالباً كفيه "لكن مولاي.. إنهم يظهرون في كل مكان وفي أي وقت بدون إنذار.. ويختفون قبل أن نتمكن من اللحاق بهم.. لا نعلم كيف يفعلون هذا ولم نتمكن من الإمساك بأحدهم حتى نستجوبه.."
ضرب مانيم العرش بيده صارخاً "أعذار واهية.. أريد الانتهاء منهم الآن.. لا تقبضوا عليهم.. اقتلوهم.. اقتلوهم فوراً.."
قال مردين "أمرك مولاي.."
عاد مانيم للصياح "استنفر جميع الجنود في الأحياء القريبة.. لا، في المدينة كلها.. أهم عملية هي القضاء على الثوار في القصر، وبعدها تولّوا أمر البقية في المدينة.."
ركض مردين لتنفيذ أمر مانيم، بينما تهاوى مانيم على عرشه مغمغماً بحنق "كيف؟ كيف يفعلون هذا ويفلتوا من الجنود الأغبياء؟ كيف يستغفلني بهذه الطريقة هؤلاء الهمج؟ لابد أن لبي ناريا يداً في هذا.. الحقيرة تستغل معرفتها بالقصر والمدينة لتقودهم ضدي.."
سمع حركة خافتة خلفه، فاستدار بشيء من التعجب لينظر إلى الجدار الخالي خلف العرش.. لكنه، وفي لحظة خاطفة، رأى ذلك الهيماني بثياب رثة ووجه أسمر، تعلوه نظرة شرسة وجرح طولي في الخد، ينقض عليه وخنجر ناصع في يده.. تراجع مانيم بذعر حتى سقط للخلف ليتفادى بسقطته هذه ضربة موجهة إلى رقبته..
نهض مانيم بسرعة قائلاً بخوف "م.. م.. من أنت؟ من أين أتيت؟"
قال الهيماني بسخرية "من أنا؟ نسيتني بهذه السرعة يا جلالة الملك؟"
دقق مانيم النظر في وجهه قبل أن يقول بصوت لم يملك السخرية فيه "أجل، عرفتك.. أنت هارولان، أليس

كذلك؟.. لكن أذكرك وسيم المظهر، ولم أتعرفك بهذا التشوه الذي اعتراك.. ما الذي أصابك يا رجل؟"
لم يعلق هارولان رغم الغضب المتنامي في صدره وهو يوجه له ضربة أخرى تفاداها مانيم بصعوبة وهو يتراجع، لكنه لم يستطع تفادي اللكمة التي لحقتها وأصابته بقوة على وجهه رمته للوراء بضعة أمتار.. اشتد الألم في فكه وهو الذي لم يحتك مع أحد في صراع يدوي من قبل، ولم يشعر بمثل هذا الألم قط.. لكنه تحامل على نفسه ونهض مثبتاً بصره على هارولان الذي قال وابتسامة ألقت الخوف في نفس مانيم ترتسم على وجهه "هذا الجرح هدية منك.. ولقد احتفظت به ليذكرني بك نائماً ومستيقظاً، وقد عزمت على رده لك أضعافاً مضاعفة.."
صاح مانيم وقد توتر "أيها الجنود.."
انقض عليه هارولان بضربة أخرى تلقاها مانيم بذراعه ليطلق صيحة ألم وذعر، فيما أمسكه هارولان بيده الأخرى لئلا يهرب مضيفاً بلهجة مرعبة "أنا مصيرك، قدرك.. سمّه ما شئت..لكن لن يمكنك الإفلات من قدرك.. أنا الموت المحتوم، ولن تناله إلا على يديّ"
ووجه له هارولان الخنجر بضربة أصابت وجه مانيم بجرح عميق صرخ على إثرها متألماً وهو يسقط أرضاً وهارولان يضيف "كيف يمكنني أن أتركك تنعم بحياتك بعدما أذقتني إياه؟ الآن أصبحت تملك جرحاً كالذي أصابني به جنودك.. لكن للأسف لن تملك من الوقت ما تتذكرني فيه برؤية هذا الجرح.. فاليوم هو يومك ونهايتك قد أزفت"
صاح مانيم بصوت متألم "ابتعد أيها الهمجي.. لا تقترب مني.. أيها الجنوووود.."
انقض عليه هارولان من جديد.. لكن طلقة طاشت قريباً منه جعلته يقف ملتفتاً للوراء.. كان جنديين من المكلفين بحراسة قاعة العرش قد دلفا بعد سماع صياح مانيم، وأحدهما يجري اتصالاً سريعاً مستنفراً بقية الجنود.. فنهض مانيم صارخاً "اقتلوه.. اقتلوه حالاً.."
صوّب الجندي الأول سلاحه نحو هارولان من جديد لكن هارولان رماه بالخنجر بضربة خاطفة لتصيب ذراعه وتطيش رصاصته الثانية، فيما تراجع هارولان بخطوات سريعة خلف العرش ليختفي بلا صوت..
ساد الصمت القاعة تماماً، قبل أن يهبّ مانيم واقفاً ويندفع خلف العرش إلى الحائط الذي تزينه الستائر والأعمدة المذهبة، فتحسسه متلفتاً حوله وهو يقول بحنق "يا للوغد.. إنه يعرف طريقاً سرياً يمكنه من التنقل في القصر بلا رادع.."
والتفت إلى الجنديين صائحاً "استدعوا طبيب القصر ليداوي جراحي.. وأريد فرقة كاملة من الجنود في القاعة.. لن يستغفلني هؤلاء الهمج مرة أخرى.."
وجلس بعيداً عن العرش تحسباً لخروج أحد الهيمانيين من خلفه وهو يضع يده على جرح وجهه الذي تتصبب الدماء منه ويصيح بحنق "واستدعوا المستشار.. لابد أنه يعلم بأمر هذه الممرات السرية.. العجوز الخرف.."
أما هارولان فما إن أغلق باب الممر السري خلفه حتى وقف في مكانه يرتجف من الغضب.. كانت رؤية مانيم تفجر ذكريات بشعة في عقله.. لو أن الجنود تأخروا قليلاً، لو أنه استفرد بمانيم قليلاً، لأذاقه من العذاب أضعاف ما عاشه هو تلك الليلة..

سمع صوت أحد رفاقه يقول "كان ما فعلته استعراضياً كثيراً.. طلقة واحدة من سلاحك كانت ستورديه قبل أن يراك.."

قال هارولان بحقد "الموت السريع لا يليق بأشكاله، والرحمة لا يستحقها بتاتاً.."

ثم التفت إلى رفيقه قائلاً "شكراً لمساعدتك لي.. أنا مدين لك.."

ربت الرجل على كتفه قائلاً "لم أطق صبراً وأنا أراك تنفصل عن البقية فلحقتك.. لو أنك خرجت إلى القاعة بمفردك لما وجدت سبيلاً للعودة لو لم أحرص على انتظارك.."

غمغم هارولان "لقد عقدت العزم ألا أغادر قبل أن أرى جثة مانيم أمامي، حتى لو كان معنى هذا موتي أنا.. لكن يبدو أن وقت ذلك الوغد لم يحن بعد.."

عاد الرجل يربت على كتفه، ثم استدار عائداً إلى البقية تاركاً هارولان خلفه.. قبض هارولان بقوة على القلادة الفضية الصغيرة المعلقة في عنقه وكأنه يستمد منها القوة، ونظر إلى سلاحه الذي كاد يفرغ سابقاً في مواجهاتهم مع الجنود.. ثم قبض عليه بقوة عائداً إلى رفاقه الذين تركهم دون استئذان..

****

رغم كل الضجة الدائرة في القصر، ورغم صراخ الجنود وأصوات الطلقات والانفجارات التي لم تتوقف منذ مدة، إلا أن الهدوء والسكينة كانا يعمّان جناح الملكة الأم.. حيث جسدها مسجىً في فراشها يلفها صمت الموت، وقربها جوين تجلس ذاهلة ودموعها تسيل على وجهها بلا انقطاع.. ومن بين دموعها، تذكرت تصرف بي ناريا بتعجب.. فرغم دموعها التي سالت أنهاراً حزناً على أمها الراحلة، إلا أنها سرعان ما تمالكت نفسها ومسحت دموعها بحزم.. شعرت أن بي ناريا قد أجبرت نفسها على إرجاء حزنها، وغادرت الجناح عبر الممر السري بتصميم لا يردعه شيء..

مسحت جوين دموعها التي عادت تسيل من جديد وهي تغمغم بصوت مرتجف "لو كانت تدري مولاتي الملكة أن حزن ابنتها لن يدوم عليها دقائق معدودة، لربما ماتت كمداً.."

انتبهت للتعبير الذي استخدمته، فضحكت بصوت مرتجف قبل أن تطرق باكية من جديد..

بعد مدة طالت والهدوء لا يكسره شيء في الجناح، سمعت جوين أقدام الجنود تقترب من الباب وطرقات قوية تتعالى في المكان.. فتجاهلتها وهي تعضّ على شفتيها بحنق لتعدّيهم على خلوتها الحزينة.. لكن الطرقات لم تتوقف بل تعالت أكثر لمدة محدودة، ثم فوجئت بالباب يفتح بقوة ويدلف منه عدد من الجنود وأولهم يقول "مولاتي الملكة.. عذراً للمقاطعة..."

وقفت جوين واتجهت نحوه قائلة بغضب "من سمح لكم بدخول الجناح دون إذن؟"

قال الجندي بصرامة "إنها أوامر الملك.. لقد أمر بتفتيش القصر كاملاً دون تمييز"

ونظر خلفها مضيفاً "هل مولاتي الملكة نائمة؟ لن نستغرق دقائق في التفتيش وسنغادر بعدها دون أن نمسّ

شيئاً.."

صاحت جوين بغضب "مولاتك ماتت.. لقد ماتت الملكة الأم وحيدة تعيسة بسبب الملك.. فما الذي تستطيعون فعله الآن؟"

ودفعته بقوة للخلف وهي تصرخ "اخرجوا.. لا يحق لكم تدنيس جناحها.. اخرجوا ودعوها ترقد في سلام بعد أن حرمتموها إياه في حياتها.."

بدت صدمة الخبر واضحة على الجميع وهم صامتون، وتراجعوا معقودي الألسنة حتى خرجوا من الجناح تاركين جوين ترتجف غضبى في مكانها، قبل أن تعود لكرسيها السابق وترمي جسدها عليه فتعود دموعها لتسيل من جديد..

****

انطلقت فرقة من الجنود قادمين من أحد أجنحة القصر إلى القسم الشرقي من القصر إطاعة لأوامر نائب القائد.. وفي الطريق التقوا ببضع وصيفات ممن يقضين الليل في القصر وهن يقفن مرعوبات في أحد الممرات.. فاستوقفتهم إحدى الوصيفات متسائلة بقلق "أصحيح ما سمعناه؟ هل تمكن الثوار من التسلل إلى القصر؟"

أجابها أحد الجنود بشيء من الخشونة "لا شأن لك بهذا.. ادخلن إلى مأواكن وكفاكن هذا الفضول.."

قالت وصيفة أخرى برعب "هذا ليس فضولاً.. ما الذي سيحدث لنا لو تمكن الثوار من هيمانيا بالاستيلاء على القصر؟ هل سيأخذوننا سبايا؟ أنا لا أريد هذا.. أريد العودة لمنزلي الآن.."

صاح الجندي بصرامة "كفي عن هذا السخف.. كيف يمكن للهيمانيين أن يقدروا على القضاء على كل الجنود في المدينة؟ دعي عنك هذه المخاوف وادخلن ولا تخرجن الآن.."

قال جندي آخر بثقة وهو يرى علامات القلق على وجوههن "الملك لا يمكن أن ينهزم أمام شرذمة حقيرة كهذه.."

تعالى صوت خافت خلفهم يقول "بل ربما هذه الشرذمة هي أفضل لنا من حاكم ظالم كمانيم.."

اجتمعت النظرات المستنكرة عند وجه جندي يقف آخرهم مطرق برأسه، فقال له الجندي الأول بصرامة وحدة "ماذا تقصد يا هذا؟"

قال الجندي وقد تجرأ لرفع صوته أكثر "أعني أن حاكماً ظالماً لا يمكن أن يجلب الخير لهذا الكوكب.. ومانيم له تاريخ طويل غير مشرف في إقليم هيمانيا.. فلماذا لجأ الهيمانيون لنقل ثورتهم الآن إلى العاصمة ولم يفعلوا ذلك في حكم الملك السابق؟.."

سأله الجندي الأول بسخرية "وما الجواب أيها المتذاكي؟.."

قال الجندي شاداً جسده "لأن مانيم تاريخه معروف وأسود في هيمانيا عندما كان مجرد والٍ لها، فكيف عندما يكون حاكماً للمملكة كلها؟ أي عدل نرتجيه في حكمه هذا؟"

لكمه الجندي على كتفه بقوة قائلاً "ما هذه الوقاحة؟ سيتم استجوابك على هذا وستحاكم على عدم ولائك.."

اندفع جندي آخر يقول بدوره "لماذا؟.. ألأنه قال الحقيقة التي نعرفها جميعاً ونتعامى عنها؟ هل تظن أن مانيم

سيتحلى بالطيبة الآن ويبدأ بإسباغ العدل بين الجميع؟ لم لا تفيق من هذا الولاء الأعمى؟"
استشاط الجندي غضباً وهو يصيح بهما "ما بالكما؟ أهذا وقت التشكيك في صحة ولاية الملك وفي قراراته؟"
نظر إليه بقية الجنود والشك يبدو جلياً في وجوههم، قبل أن يغمغم أحدهم "لو كنت أفكر بمصلحة وطني.. لو كان ولائي لوطني وليس لحاكم بعينه، فأنا سأختار الثوار قطعاً.."
رفع الجندي الغاضب سلاحه في وجهه وهو يقول بصرامة "يبدو أنني سأتخذ إجراءً صارماً تجاه كل من لا يثبت ولاؤه للملك.."
فوجيء بارتفاع أسلحة بقية الجنود في وجهه وسط شهقات الوصيفات.. بلع ريقه بصعوبة وهو ينظر إليهم قبل أن يقول بصوت متحشرج "أهذا هو العدل الذي تسعون إليه؟"
قال الجندي الذي كان الأول في إبداء رأيه "العدل أن يُسمح لنا باتخاذ قرارنا دون الرجوع لأوامر من أحد.. قبل أن نكون جنوداً فنحن مواطنون لنا أهل وأقارب يهمنا ألا يصيبهم مكروه.. وفي حكم مانيم لم يكن أحدنا ينام قرير العين دون الخوف من قرار متعسف يصدر بحقه"
ثم التفت إلى البقية قائلاً "أنا ذاهب للثوار.. من يرد الانضمام إليّ فمرحباً به.."
واستدار مبتعداً بصمت، فلحقه بقية الجنود في الفرقة تاركين الجندي الغاضب يجز على أسنانه بغيظ، ثم قالت إحدى الوصيفات بخفوت "ألست توافقهم الرأي؟ سمعت حديثاً يتردد في أحياء العاصمة أن هؤلاء الثوار يريدون إنشاء مجلس حكم.. إذن هدفهم ليس الإطاحة بمانيم واحتلال مكانه دون وجه حق.."
زفر الجندي بحنق وأصابعه تشدّ على سلاحه محاولاً اتخاذ قراره، ثم بدون كلمة رحل خلف رفاقه تاركاً الوصيفات ينظرن إلى بعضهن بصمت، قبل أن تقول إحداهن "أتعلمن؟ لا ينبغي لنا أن نقبع في مخدعنا صامتات بانتظار أن يقرر شخص ما مصيرنا.. سأذهب لتحديد مصيري بنفسي.. فهل أنتن معي؟"
علت الدهشة وجوه الباقيات وإحداهن تقول "هل أنت واثقة من هؤلاء الثوار؟"
أجابتها "على الأقل أنا واثقة مما هو عليه مانيم.. وأي بديل هو بالتأكيد أكثر إشراقاً.."
صمتن وعيونهن حيرى، لكنهن وافقنها بعد لحظات وإحداهن تتساءل "وما العمل وسط هذه المعارك التي لا قبل لنا بها؟"
ابتسمت الوصيفة قائلة "على الأقل، فلنحاول جس نبض باقي الجنود بالنسبة للأمر.. ونرى إن كنا لسنا الوحيدات الراغبات بالتغيير.."
وانطلقت في طريقها والأخريات يتبعنها بصمت تام..

****

تطلعت بي ناريا في وجوه الجنود التسعة عشر الذين وجدتهم ينتظرونها في جناحها، والذين جاؤوا بتوصية من جوين وتعهد منهم بأنهم موالون لها.. كانت أصوات المعارك الدائرة في أجزاء مختلفة من القصر تصل لسمعها

خافتة لبعدها عن جناحها، فيما حرصت هي على إبقاء الجناح مظلماً إلا من نور خافت على مبعدة لكي لا ينكشف أمر تواجدها مع الجنود لأحد في الخارج.. ورغم الإضاءة الخافتة، إلا أن عيني بي ناريا بدتا حمراوين لامعتين بدموع عزيزة على النزول.. وشفتاها مزمومتان وكأنها تحاول السيطرة على رجفتهما لئلا تبدو للعيان.. كانت بي ناريا قد غادرت جناح الملكة الأم يدفعها عزمها للاستمرار.. فحزنها كان هائلاً، إلا أن عزيمتها أبت أن تدع فرصتها الوحيدة للنجاح تفلت من يديها.. قد تكون هذه قسوة منها، لكنها موقنة أن أمها الملكة لم تكن لترضَ بأن تراها تفشل بعد كل المجهود والمصائب التي مرت بها لأجل حزن مهما كان حجمه.. خرجت من الجناح وهي تطوي حزنها في صدرها بإرادتها، وإن لم يفتها إحضار الخرائط الخاصة بالممرات السرية أملاً في أن تكون عوناً لها في قلب المعركة ضد الثوار وضد مانيم معاً..

وقفت بي ناريا أمام الجنود متأملة ملامحهم بحثاً عن شبح خيانة قد تبدر من أحدهم، بعدما حدث مع ذلك الجندي في الغابة القريبة من يناسّا.. وقد أدرك أحد الجنود ذلك فقال لها وهو يركع أمامها خافضاً رأسه "مولاتي.. نحن مخلصون لك ولن نخونك أبداً.. وفاء لك وللملك الراحل الذي أسبغ علينا فضلاً عظيماً.."

ابتسمت بي ناريا ابتسامة محدودة معلقة "وجزاؤكم عندي سيكون كبيراً بعد أن أعود للعرش.. لا يمكن أن أنسى من ساندوني وسط كل تلك الخيانات التي صدمتني.. أنتم أوفياء وستنالون ما تستحقون على وفائكم الرائع هذا.."

ثم جلست على كرسي قريب سائلة "لكن عددكم لا يكفي لقلب المعركة لصالحنا.. هل يمكنكم ضمّ جند آخرين إليكم؟"

أجابها الجندي "سنحاول يا مولاتي.. وإن كنت أظن هذا عسير التحقيق الآن"

قطبت متسائلة بصرامة "ماذا تقصد؟ كيف تجزم بذلك دون أن تجرب؟"

قال الجندي بتوتر "العديد من جنودنا قد انضموا للثوار.. لقد شهدت بنفسي فرقة كاملة تخلت عن موقعها وانضمت للثوار في قتالهم الدائر في القسم الشرقي.."

اتسعت عيناها بدهشة وهي تقول "الجنود؟ كيف انضموا للثوار؟ ما الذي دفعهم لذلك؟"

غمغم جندي آخر "ربما لمسوا فيهم ما لم يجدوه في حكم مانيم.. الكثير من الجنود قد واجهوا غضب الملك وقراراته التعسفية في الأسابيع الماضية، ولا أحد منا أصبح يأمن على أهله وأحبابه من شره.."

قطبت بي ناريا معلقة "وهل فعلتُ بكم الشيء ذاته أيام حكمي؟ لقد تحرّيت العدل ما استطعت.. ورغم اتهام الجميع لي بأني قاسية القلب، إلا أني لم أسعى لظلم أحد ولن أفعل.."

تطلع الجنود لبعضهم البعض قبل أن يقول أحدهم بتردد "لكنهم يعدون بإنشاء مجلس للحكم.. وهذا أضمن للعدل وإحقاق الحق من حكم شخص واحد.."

اتسعت عيناها وهي تقول بحدة "ماذا تعني بهذا؟"

تنفس الجندي بعمق قبل أن يقول قاطعاً تردده "معناه أننا، كالكثير غيرنا، نودّ أن نشهد العدل في كوكبنا.. ولو وقفنا في وجه الثورة الآن فقد يعني هذا خضوعنا للعقاب أو استبعادنا من القصر بعد نجاحها في إقصاء

مانيم"
قالت بي ناريا بحنق "هل جزمتم بنجاح الثورة منذ الآن؟ مازالت المعركة في بدايتها"
قال جندي آخر "لكننا نستطيع تبين الطرف الرابح من الخاسر منذ الآن.."
وقفت بي ناريا تنظر إليهم ورجفة غضب تحتل جسدها كله، ثم قالت بثورة مكتومة "هل معنى هذا أنكم تفضلون الثوار الهيمانيين على ابنة الملك السابق؟ أنا الملكة، ولم أكن لأغادر منصبي هذا لولا خداع مانيم وغدره.. ألم تقسموا على الولاء لي؟"
نظر الجنود إلى بعضهم البعض، قبل أن يقول أولهم محنياً رأسه "لن أجادل مولاتي في كونها ابنة الملك السابق أم لا.. لكن...."
قاطعته صفعة دوّت على وجهه بقوة وبي ناريا تنظر إليه بغضب هائل.. لكنه لم ينفعل وهو يكتم ثورة اعتملت في أعماقه، بل قال بصوت حاول جعله عادياً "يحق لك فعل ما تريدين، لكنه لن يغير الحقائق يا مولاتي.. لقد التقيت ببعض الثوار بالفعل.. إنهم لا يطمعون بالاستيلاء على العرش.. يريدون أن يتولى كل إقليم منصباً في مجلس الحكم كي يضمن ألا يظلم أحد أي إقليم كما حدث مع هيمانيا سابقاً.. أليس هذا هو العدل بعينه؟ إن لم يكن كذلك فما الذي تعدينا به يا مولاتي؟"
قالت بي ناريا بغضب "لا يحق لك مجادلتي.. لا يحق لك التشكيك في عدالتي وحكمي.. أنا..."
قاطعها الجندي شاداً جسده "بل يحق لي ذلك.. كأي فرد من هذه المملكة يبحث عن العدل والأمن وضمان حقوقه.."
اتسعت عيناها بذهول وهي تلمح نظرات الجنود الآخرين التي وافقته على كل كلمة قالها.. شعرت أن حلقها قد جفّ ولسانها يبس فما عادت تقدر على مجادلته بكلمه.. وإزاء صمتها الذي طال انحنى الجندي لها باحترام واضح وهو يقول "سنعمل على ألا يصيبك مكروه، وفاء للملك السابق.. اعذري خيانتنا هذه إن كنت تعدينها كذلك.."
وغادر الجناح بصمت فتبعه بقية الجنود تاركين بي ناريا تنهار على أقرب كرسي وجسدها لا يكف عن الارتجاف.. أهذا ما آل إليه حالها بعد كل هذا الجهد الذي بذلته للعودة؟ هل ربح الثوار المعركة ضدها وأثبتوا أن حكمها كان خاطئاً منذ البداية؟.. هل تستسلم وتترك الأمر لهم بعد كل ما قاسته وتعذبت لأجله حتى تصل حيث هي الآن؟ إن فقدت العرش، فما الذي سيعوضها عن كل ما فقدته؟ ما الذي سيهديء عذابها ويلئم جراحها ويصبّرها على كل ما جرى لها؟ بدءاً بحياتها التي انهارت، وأمها التي فقدتها في أشد حاجتها لها، وليس انتهاء بهارولان الذي نبذها.. أما تكفيها كل هذه الجراح؟ أما يكفيها كل هذا الألم؟..
حاولت تمالك نفسها واسترداد عزمها، لكنها لم تقدر على الإتيان بحركة وهي تبقى في جناحها وحيدة والمرارة تعود لها بعد أن فقدت كل شيء.. كل شيء كانت تطمح إليه في هذا العالم قد آل لغيرها، وهي... لا تعلم إلام سيؤول بها الحال..

****

كان رئيس الثوار مستغرقاً بحديث مع أحد رجاله وهو يلقي إليه بتعليماته حول المرحلة القادمة من الخطة، عندما جاءه رجل آخر وسارع ليقول فور اقترابه "لديّ أنباء ساره.. لقد تحوّل سير المعركة تماماً لصالحنا"
تطلع إليه من بقي من الثوار والرئيس يتساءل "أرجو أن يكون تفاؤلك محقاً.. ما الذي حدث؟"
قال الرجل بلهفة "الجنود.. عدة فرق منهم قد أعلنت استسلامها ورغبتها الانضمام إلينا.. وقد بدأوا في مشاركتنا معاركنا بالفعل"
علا الارتياح وجوه الجميع وأحدهم يقول "بهذا سنصل للنصر أسرع مما توقعنا"
غمغم الرئيس مقطباً "ولم لا تكون هذه خدعة؟ لا يقنعني هذا المنطق ولا أظن أن الجنود سيقاتلون رفاقهم بهذه السهولة"
قال الرجل "لقد أبدوا ضيقهم من حكم مانيم ورغبتهم في تحقيق ما نطمح إليه، وهو تشكيل مجلس للحكم.."
قال الرئيس "لكننا لا نملك ضمانات على صدقهم إلا قولهم، وربما كانوا مدسوسين علينا رغبة بزعزعتنا من الداخل بدل الاكتفاء بمقاتلتنا من الخارج.."
فقال الرجل بحيرة "وما الذي تقترح علينا فعله؟"
استغرق الرئيس بالتفكير لمدة وهم صامتون ينتظرون حكمه، ثم رفع رأسه قائلاً "إن كانوا حقاً يرغبون بمساعدتنا على الإطاحة بمانيم، فليتنحوا من القتال.. لا نريد تدخلهم في المعارك، وابتعادهم عنها كفيل بترجيح كفة الأمور لصالحنا.. وحاذروا من دلّهم على أيٍّ من مداخل الممرات السرية.. هم ليسوا أعداءنا وليسوا رفاقنا أيضاً.. فعاملوهم على هذا الأساس.."
انطلق الرجل لتنفيذ أمره، بينما التفت الرئيس لرجلين آخرين من رجاله قائلاً "اهتموا أنتم بأداء ما أوكلته إليكم.. أي تأخير يحسب علينا، ويعني وصول المزيد من الإمدادات للجنود وجعل مهمتنا أصعب وأكثر شراسة"
هزا رأسيهما موافقين، قبل أن يبتعدا بدوريهما في طريق آخر..
في تلك الأثناء، كان مردين معسكراً في غرفة الاتصالات الخاصة بالقصر وهو يجري اتصالاته بين فرق الجنود المنتشرة في المدينة محاولاً الحصول على أية أخبار جيدة، وملقياً بأوامره كما أوصاه مانيم للتغلب على الثورات التي عمّت أنحاء عدة من المدينة.. وبين اتصال وآخر كان يجلس مرتجفاً وهو يجفف عرقه الغزير وسط نظرات بعض الجنود الصامتة، قبل أن يتجرأ أحدهم ليسأل "سيدي.. الثوار يتزايدون في القصر أكثر فأكثر.. عدة أقسام من القصر قد اشتعلت بمعارك بينهم وبين جنودنا.. أليس من الأسلم أن نسحب جنودنا ليعودوا إلى القصر ويحاولوا القضاء على من هم فيه من الثوار؟"
قال مردين بعصبية "وهذا ما أحاول فعله منذ ساعة.. القائد العام الأحمق مصرّ على أنه من الخطأ الانسحاب من المدينة وتسليمها للثوار، لأن ذلك يعني من وجهة نظره أن نكون محاصرين في القصر"
ظل الجنود صامتين بتوتر وهم بحيرة من كل الأحداث التي تعصف بليلتهم هذه، بينما اندفع مردين للاتصال

بالقائد العام مرة أخرى ليقول بصراخ حاد "أين أنت أيها القائد.. ألم تقل إنك قادم لإدارة العمليات في القصر؟ يكاد الثوار يستولون على القصر وأنت متكاسل عن أداء عملك؟"
قال القائد العام "أتسمي ما أفعله منذ بداية هذه الليلة تكاسلاً؟ ألا يكفي تشتت أوامر الملك بين مقاتلة الثوار في المدينة وبين حماية قصره وقاعة عرشه؟ إنني أفعل المستحيل لموازنة الأمور.. ويكفي أن المدينة كلها تبدو قد انقلبت علينا دون سابق إنذار"
صاح مردين "ماذا تعني؟"
قال القائد "لقد اشتبك جنودنا مع عدد من سكان يناسّا في أحياء كثيرة من المدينة.. لقد ظهر الرجال فجأة من بين الأزقة وفوق المنازل وداهموا جنودنا وهم منشغلون في مقاتلة الثوار، وهذا تسبب في إسقاط العديد من الفرق وأسر آخرين.. الأمر يزداد صعوبة ولا يعينني الوضع المشتعل في القصر بشيء"
قال مردين بحنق "سيأتي دور هؤلاء الخونة لاحقاً.. عد أنت إلى هنا وحاول السيطرة على الأمور في القصر.. لا نريد للملك أن يتضرر بشيء وسط هذه المعمعة"
قال القائد زافراً "أنا قريب بالفعل.. إن هي دقائق حتى....."
قطع حديثه شوشرة مفاجئة تبعها صوت انفجارات هزت عدة أجزاء من القصر.. فهبّ مردين بخوف وهو يصيح "ما الذي جرى؟"
استغرق الرجال حوله في إجراء اتصالاتهم بأقسام القصر بحثاً عن سبب الانفجارات المتتالية، ثم التفت إليه أحد الرجال قائلاً بتوتر "سيدي.. لقد تم تفجير الجسر عند البوابة الرئيسية تماماً.."
قال آخر بسرعة "بل لقد تم تفجير جميع الجسور المؤدية للمدينة.. القصر أصبح معزولاً تماماً.."
شحب وجه مردين قبل أن يصيح بعصبية "وأين القائد العام هذا؟"
قال الأول بتوتر أشد "لقد أبلغني الرجال عند البوابة الرئيسية أن مركبة القائد كانت تعبر الجسر في اللحظة التي حدث فيها الانفجار.. والآن، لم يبق لها أثر ولا لأحد ممن كانوا فيها"
اتسعت عينا مردين بصدمة، ثم قال عاضاً على أصابعه "والآن.. نجح الثوار في إحراز نصر قاتل علينا.. يجب على الجنود الاكتفاء بمن هم في القصر، إذ أصبح وصول الإمدادات إلينا أمراً مستحيلاً.."
وقال لأحد الجنود بعصبية "اذهب إلى قواد الطائرات الملكية في المهابط الخاصة بها.. فليذهبوا بطائراتهم إلى مواقع الجنود وليحضروا الإمدادات من الجنود والمعدات جواً.. هذا هو السبيل الوحيد إن كنا نريد النصر"
سمع صوتاً من خلفه يقول "بل ليبقَ كل منكم في موقعه دون حراك.."
التفتوا ليروا ما يزيد على العشرة من رجال الثورة شاهرين أسلحتهم في وجوه الجميع وأحدهم يضيف "هذا إن رغبتم بسلامة أعناقكم.."
شحب وجه مردين بذعر والعرق يتصبب على وجهه.. ثم رفع يديه عالياً وهو يصيح بذل "أنا استسلم.. لا تؤذوني.. أرجوكم"
رفع بقية الجنود الذين لا يزيدون على أربع أيديهم بدورهم وهم يلقون بنظرات الحنق والاشمئزاز على مردين

الذي وقف يرتجف في موقعه.. بينما سارع الثوار لتقييدهم في جانب المكان، وأحدهم يتقدم من جهاز الاتصال فيضع السماعات على أذنه لينصت لما يتناقله الجنود.. ولم يكن ما يسمعه مقلقاً أبداً..

****

صرخ مانيم في نائب القائد "ماذا قلت؟"
قال النائب بتوتر "مولاي.. لقد تمكن الثوار من تفجير الجسور المؤدية إلى القصر.. وهذا قد أطاح بالعديد من جنودنا الذين كانوا يحرسونها، وقطع الدرب على الإمدادات من الوصول إلينا من مناطق المدينة المختلفة.."
ثم أضاف بأسف "ولقد أصاب الحادث سيارة القائد العام الذي كان على وشك عبور الجسر الرئيسي.. فأودى بحياته ومن معه.."
قال مانيم بصرامة "إذن أعينك أنت قائداً عاماً للجند.. اعمل على استبدال الجسور بأي طريقة ممكنه ليتمكن الجنود من الوصول إلى القصر والقضاء على هؤلاء الثوار.."
نظر النائب إلى مانيم بنظرة لم يفهمها الأخير، قبل أن يخفض رأسه مغمغماً "أمر مولاي.."
فأضاف مانيم دون اهتمام "وأحضر لي خمس فرق من الجنود لحماية قاعة العرش وحمايتي.. الآن، بعد أن تمكن الثوار من السيطرة على عدة مناطق من القصر وشغلوا الجنود بمعارك معهم، سيكون هدفهم التالي هو قاعة العرش هذه.. لكن لن أمكنهم من النيل مني بسهولة.."
أحنى النائب رأسه موافقاً وسارع لتنفيذ أمره، فيما جلس مانيم بعيداً عن عرشه خوفاً من مباغتة أحد له وهو يهز قدمه بعصبية.. أما النائب، فرغم الترقية التي جاءته دون أن يحلم بها، فقد كان السخط يملؤه لتجاهل مانيم القائد السابق وعدم شعوره حتى ببعض الأسف عليه ولو للحظات.. أهذا جزاء من يعمل عند الملك طوال تلك المدة التي قضاها القائد العام في خدمته وخدمة من سبقوه؟ لا يحظى حتى بلحظة حزن من سعادته.. أهذه هي نهاية الإخلاص في العمل؟..
وفي وسط الممرات السرية، التقى عدد من رجال الثورة القادمين من أرجاء مختلفة من القصر برئيسهم وأحدهم يقول "لقد نجحنا في السيطرة على القسم الشرقي تماماً وانضم من فيه من الجنود إلينا، ومن بقي على إخلاصه لمانيم تراجع مكتفياً بالقتال من بعد دون تأثير يذكر على رجالنا.."
قال الآخر "ونحن نجحنا في السيطرة على مداخل القصر.. تبعاً لخطتك فجّرنا الجسور كلها، واستولينا على المواقع حيث تراجع الجنود الذين وجدوا أنفسهم محصورين بيننا وبين الجسور المحطمة ومن خلفها القناة العميقة.. فمنهم من استسلم وتخلى عن سلاحه، ومنهم من قفز في القناة بعد معركة شبه يائسة.."
أومأ الرئيس برضا وقال "وماذا عن باقي المناطق؟"
قال رجل آخر "نحن في القسم الغربي نخوض معركة حامية مع الجنود.. إذ يبدو أن عدداً من الفرق قد هبّت لمساعدة رفاقهم هناك وهم يقاتلوننا بشراسة.. لكننا لم نستسلم لهم بعد.. نحتاج لمزيد من الوقت والرجال حتى

نفلح بتأمين القسم تماماً.."
قال رجل رابع "أما القسم الجنوبي فهو من أسهل المناطق.. عندما بدأنا هجومنا جابهنا قتالاً خفيفاً من بعض الجنود.. لكن العديد منهم قد رموا أسلحتهم وانضموا لنا على الفور، وكأنهم كانوا ينتظروننا"
نظر له الرئيس بدهشة مستفسراً، فقال الرجل موضحاً "بعد سؤالهم، أخبرونا أن عدداً من الجنود وأيضاً الوصيفات قد داروا بين مختلف الأقسام في القصر محاولين ضمّ بقية الجنود إلى الثوار.. وقد أتى عملهم بثمار كبيرة الفائدة لنا.."
قبل أن يعلق الرئيس أتاه أحد رجاله قائلاً "أيها الرئيس.. لقد التقيت بعدد من قواد فرق الجنود الذين أعلموني برغبتهم مقابلتك.. ولقد تخلصوا من أسلحتهم ضماناً لأنهم لا يريدون شراً بنا"
قال هارولان الذي كان واقفاً يستمع إليهم بصمت "قد تكون هذه خدعة.. لا يمكن أن ندلهم على الممرات السرية دون حذر.."
علق الرئيس قائلاً "في هذه المرحلة، لا يضيرنا ذلك.. لقد تجاوزنا مرحلة الخطر وغدت خطواتنا أكثر ثباتاً.. بقيت مرحلة أخيرة فقط ولن يستطيعوا إيقافنا مهما فعلوا"
وأشار لرجله قائلاً "أحضرهم إليّ.. وتأكد أنهم غير مسلحون"
عاد الرجل أدراجه بينما قال هارولان "تلك ثقة زائدة لم أعهدها منك"
فابتسم الرئيس معلقاً "لأن اللحظة الأخيرة قد حانت بأسرع مما توقعت.. والفضل لجهودكم جميعاً.. وجهود أبناء يناسّا الشجعان.."
نظر إليه هارولان متسائلاً "ماذا تعني؟"
قال الرئيس وهو يقف "أعني أن الوقت قد حان للتوجه إلى قاعة العرش.. ومواجهة الجالس عليه بحزم"
قبض هارولان بيده على خنجره وهو يخفي انفعاله، عندما سمع الرئيس يقول له "ولا أريد أي تصرف شخصي منك.. ابق مع الجميع ولا تتهور بفعل تقضي نحبك فيه.."
لم يعلق هارولان بكلمة والرئيس يقول لرجاله "عودوا إلى مواقعكم وحاولوا إلهاء من بقي من الجنود أطول وقت ممكن.. لا نريد المزيد منهم أن يداهمونا في القاعة قبل أن نتمكن من القبض على مانيم"
اندفع الرجال لأداء مهامهم، بينما وقف الرئيس بصمت ومعه هارولان وما يقارب العشرة من الثوار في انتظار قواد الفرق.. وبعدها سيتم إعلان بداية اللحظات الأخيرة للثورة، والتي طال انتظارهم لها..
وفي قاعة العرش، هتف مانيم في جهاز الاتصال مخاطباً النائب السابق "أين أنت؟ وأين الجنود الذين وعدت بإحضارهم إليّ؟ لو حصل لي مكروه فأنت ستحاسب على هذا.."
قال النائب "مولاي.. إحضار هذا العدد الكبير من الفرق يعني أن نُضْعف دفاعاتنا في الأقسام الأخرى من القصر.."
قال مانيم بعصبية "لا يهمني.. لا أريد أن يغافلني الهمج في القاعة بينما أنتم تتسلون ببعض الألعاب في القصر.. فلتحضرهم لي حالاً.. أتسمع؟"

سمع مانيم صوتاً من خلفه يقول "فات الأوان على هذا.."
هبّ مانيم واقفاً بفزع، ليرى جماعة من الثوار الذين اندفعوا من فتحة الجدار خلف عرشه ليحيطوا به وبالقاعة.. لكن سرعان ما تمالك انفعاله وقال بابتسامة ساخرة "كنت أنتظركم منذ فترة يا سادة.. وقد مللت الانتظار حقاً.."
وضغط على جهاز الاتصال قائلاً "أيها الجنود.."
قبل أن يتحرك أي من الثوار رأوا جمعاً من الجنود يظهر من خلف الأعمدة والأثاث الموزع في القاعة، بالإضافة إلى المزيد منهم اندفعوا من باب القاعة ليحاصروا الثوار.. ظل مانيم ينظر لهم بسخرية شديدة للمأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه، لكن لم يبادله الثوار إلا نظرات واثقة حادة.. فقطب مانيم قائلاً "إذن أنتم لا تخشون الموقف الذي أنتم فيه؟"
لاحظ وجود بعض من قواد جنود القصر بين الثوار ووجوههم تحمل تحدياً وتصميماً على إسقاطه، فقال بمقت "أنتم أيضاً؟ سيكون حسابكم عسيراً على يدي.. لقد جنيتم على أنفسكم، وعلى أهليكم كذلك، بنبذ مليككم وعصيانه.."
لاح شبح ابتسامة على وجه رئيس الثوار لقوله مما غاظه أكثر، فصرخ في الجنود من خلفه "أطلقوا النار.. اقتلوهم.."
لم يسمع صدى طلقة واحدة في القاعة والسكون يخيم على المكان، فالتفت إلى جنوده ليراهم يتبادلون النظرات المترددة، فعاد يصرخ فيهم وهو يتراجع "أيها الجنود.. أمرتكم بإطلاق النيران.."
رأى قائد الفرقة المسؤولة عن حماية القاعة يخفض سلاحه وهو يقول بحزم "لا.. لن نفعل.."
نظر لهم بدهشة ليرى بقية الجنود يخفضون أسلحتهم بدورهم والقائد يضيف "لن نطلق في وجوه رفاقنا أبداً.."
هتف مانيم بذهول "تعصون أمر ملككم؟"
رأى نائب القائد السابق يدلف القاعة في تلك اللحظة مع مجموعة أخرى من الجنود.. فصاح فيه مانيم "أيها القائد.. ألق القبض على هؤلاء الخونة.. واقتل الثوار كلهم.. الآن.."
تطلع النائب السابق في وجوه جنوده في القاعة.. قبل أن يقول مواجهاً مانيم بحزم "لا.. لن يحدث هذا.."
ازداد ذهول مانيم وهو يرى الجنود جميعاً يطيعون أمر النائب بصمت، فصاح بحنق "أنا قد نصبتك قائداً للجند.. لم تكن تحلم بهذا قط.. أهذا جزاء الجميل؟"
قال النائب بهزء "بل هذا جزاء خيانتك.. لقد أثبت لي أن العمل عندك بإخلاص لا يساوي ذرة تراب.."
قال رئيس الثوار "استسلم يا مانيم.. الجنود قد تخلوا عنك.. وما من رجل عاقل سيتشبث بملك ظالم لا أمان له.. أنت أوقعت نفسك بنفسك عندما هددت جنودك دون اعتبار لرفاقهم الواقفين خلفك.."
رأى مانيم هارولان يقترب منه رافعاً سلاحه ونظراته الثائرة أثارت فزعاً في قلب مانيم الذي وجد نفسه بين مطرقة الثوار وسندان الجنود.. فدار بعينيه في المكان وهو يقول جازاً على أسنانه "تخليتم عني أيها الأوغاد؟ نبذتم ملككم لأجل حفنة من الحثالة الهيمانيين؟"

هجم عليه هارولان مستخدماً خنجره عوضاً عن السلاح في يده، لكن مانيم ترك الضربة تصيب معطفه الذي تخلى عنه بسرعة ورماه على هارولان ليكسب بضع ثوانٍ اندفع فيها لمدخل الممر السري القريب منه والذي غفل عنه الثوار.. حاول أحد الثوار اعتراضه لكن مانيم راوغه بسهولة لضآلة جسده رغم طوله والخوف يزيد سرعته.. كما لم يهتم للطلقات التي تناثرت حوله وإحداها تصيب ذراعه، ولما وصل إلى المدخل ورأى أحد الثوار يقف قربه بانتظار البقية هجم عليه مانيم ولكمه بأقوى ما يستطيع.. لم تكن لكمته كافية لإسقاط الهيماني لكنها تسببت في اختلال توازنه للحظة استغلها مانيم في ركله بقوة ليسقط خارج الممر وسط القاعة، فيما سارع مانيم بإغلاق الباب خلفه.. وعلى الفور انطلق ركضاً عبر الممرات وهو يدرك أن الثوار سيملؤون المكان خلال لحظات، وحاول مقارنة الممرات التي يعبرها بممرات القصر التي يحفظها منذ صغره وهو يغمغم جازاً على أسنانه "الأوغاد.. كيف تمكنوا من فعل هذا كله؟ بل كيف وجدت بي ناريا هذه الممرات السرية دون علمي؟ لا يمكن أن أسمح لهم بالتغلب علي.. ليس أنا.."

وفي القاعة، قال هارولان للرئيس "افتح البوابة.. يجب أن ألحق به قبل أن يهرب.."

قال الرئيس هازاً رأسه "القلادة تركتها مع الخرائط وسط الممرات.. لأنني خشيت أن يستولي عليها مانيم.. لكن لا تقلق، لا أعتقد أنه يعرف طريقة فتح الممرات من الداخل"

والتفت إلى أحد رجاله قائلاً "ابحث عن بي ناريا وخذ القلادة الأخرى منها.. يجب أن ندخل الممرات ونقبض عليه قبل أن يقوم بأي فعل متهور"

قبل أن يتحرك أي من رجاله اندفع هارولان خارجاً من القاعة وسط الجنود الذين لم يتحركوا من موقعهم أو يعترضوا طريقه.. أما الرئيس فقد اقترب من نائب القائد وقال له "شكراً لكم لمساندتنا.. لم أكن أرغب بخوض المزيد من المعارك مع رجالك الشجعان.."

قال النائب وهو يمد يده تجاه الرئيس "فعلت هذا لأجل رجالي بالأساس.. ولأجل يناسّا كلها"

صافحه الرئيس مغمغماً "بهذا.. قد أُعلنت صفحة جديدة من تاريخ الكوكب المجيد.."

أما مانيم، فقد طال سيره بضع دقائق تبدت له كساعات طويله وهو يذرع الممرات بغير هدىً.. عليه الفرار.. عليه الهرب بعنقه بعد أن تخلى عنه الجميع، ولا يشك في نهايته إن سقط في أيدي الثوار أو الجنود.. وصل إلى نهاية أحد هذه الممرات، فتأكد له أنه ولابد يحوي مخرجاً سرياً.. أخذ يبحث بيديه بين الحجارة المصفوفة ويضغط على ما تصلها يداه محاولاً البحث عن سبيل لفتح الباب.. ولحسن حظه شعر بإحدى تلك الأحجار تغوص وسمع صوتاً خافتاً والباب ينفتح أمامه بشكل جزئي..

لم يكن مع مانيم أي سلاح بخلاف خنجر صغير، فأمسكه بيده متأهباً وهو يطل من فرجة الباب خوفاً من مباغتة أحد الثوار له.. كان الباب يؤدي لأحد الأجنحة الفخمة، مما دله أنه خاص بأحد الشخصيات عالية المركز في القصر، وإن لم يتمكن من معرفة صاحبه.. كان المكان مظلماً وخالياً، فخرج بحذر وهو يتلفت حوله وعقله يبحث عن مخرج له من المكان قبل أن ينال منه الثوار.. أخذ يبحث في الأدراج والخزائن التي تحوي ثياباً نسائية عن أي سلاح قد يفيده في الدفاع عن نفسه.. وأثناء بحثه أسقط عدداً من الأوراق أرضاً..

جذبه منظر الأوراق المصفرة، فانحنى يرفعها وهو يتفحصها.. ولدهشته العارمة وجدها خرائط خاصة بالممرات السرية التي تحتل القصر بأكمله، فغمغم بابتسامة "هذا رائع.. الحظ لم يغادرني بعد.."

سمع صوتاً خلفه يقول بتوجس "من هناك؟"

استدار مشهراً خنجره، ولم تفته معرفة الفتاة الواقفة وسط الجناح رغم الظلام، فقال بابتسامة جذلة "مرحى.. كنت للتو أقول إن حظي الحسن لم ينفذ بعد"

اتسعت عينا الفتاة وقد تعرفت الصوت، فاستدارت راكضة تجاه باب الجناح، لكنه لحقها بخطوتين وأمسكها واضعا الخنجر على عنقها وباليد الأخرى كاتماً صوتها "اشتقت إليك يا عزيزتي.. ألم تشتاقي لرؤيتي يا نارياسّا؟"

لم تجرؤ بي ناريا على الإتيان بحركة وهو يضغط بالخنجر على عنقها.. وسمعته يقول "لو صدر منك أي صوت، فسأنحرك وأهرب من حيث أتيت قبل أن يصل أي أحد لإنقاذك"

ورفع يده عن فمها لتقول له بغضب "ماذا تريد مني؟"

أجابها "الحظ وحده قادني إلى جناحك الآن.. أنا لا أنوي السقوط في يد الثوار بسهولة.. وكنت أود لو أراك وأودعك للمرة الأخيرة قبل ذهابي.. فهل تعتقدين أنني سأترك كل شيء لك وأرحل؟"

قالت مقطبة "وما الذي ستفعله.. ستحتجزني رهينة؟"

أجاب ضاحكا "كنت أود هذا، لكن يبدو أن الثوار لا يهمهم عودتك للعرش البتة.. لذلك قتلك الآن أكثر فائدة من احتجازك"

سمعا طرقاً على الباب وصوت جوين يتعالى قائلاً "هل أنت هنا يا مولاتي؟ هناك أمر مهم فاسمحي لي بالدخول"

همس مانيم لها "لا تردي بكلمة أو صوت.."

ازداد الطرق على الباب ومانيم يجذبها إلى الخرائط الموضوعة جانباً، فلملمها بعجلة وهو يسألها "ألا تملكين أي نوع من الأسلحة؟"

أجابت بسخرية "وتريدني الإجابة على هذا السؤال؟"

قال لها بحدة "أجل إن كنت تريدين كسب المزيد من الوقت قبل موتك"

قالت هازة كتفيها "وما الفارق؟"

ضغط بالخنجر أكثر حتى آلمها وهو يقول بحنق "أجيبي.. هل تملكين أي...."

فوجئا بالباب يفتح بعنف وهارولان يدلف منه مشهراً سلاحه.. أسرعت جوين التي تبعته بإضاءة المكان، فتعالت شهقاتها مع بعض الوصيفات اللواتي تبعنها وهن يرين تهديد مانيم لبي ناريا.. بينما قال مانيم "أنت لا تتعب، أليس كذلك؟ أستغرب كيف وجدتني بسهولة.."

قال هارولان وهو يصوّب سلاحه إلى رأسه "رائحتك الكريهة تدل عليك مهما ابتعدت.. أطلق بي ناريا الآن"

ضحك مانيم معلقاً "بهذه السهولة؟ أطلقها حتى تصيبني برصاصة قاتلة في اللحظة ذاتها؟"

قال هارولان بلهجة شديدة "ستموت في كل الحالات.."
وتقدم خطوتين تجاههما، لكن مانيم جذب بي ناريا متراجعاً وهو يصيح "لا تقترب أو تأتِ بحركة لا تعجبني.. هذا إن كنت تهتم بحياتها"
قال هارولان بسخرية "أتهددني؟"
أجاب مانيم "بل أنا أعني ما أقول.."
وضغط بالخنجر أكثر على عنق بي ناريا التي أخفت ألمها وإن لم يفتها الإحساس بالدماء الدافئة التي سالت من تحت الخنجر.. بينما قال هارولان دون انفعال "لا تحاول الضغط علي، فلن يغادر أحدنا هذا الجناح قبل أن أراك جثة هامدة.."
صاح مانيم "تقتلني؟ هل تود أن تعيد الكرة من جديد؟.. ألم يكفك كل ما حدث لك منذ سنين؟.."
التمع البغض في عيني هارولان وهو يقول من بين أسنانه "بل بسبب ما حدث منذ سنين أنا هنا.. ولن تنجو من يدي مثلما حدث المرة السابقة.."
ظلت بي ناريا تستمع لما يقولانه باهتمام شديد، فيما قال مانيم بعصبية "لا يحق لك هذا وأنت من بدأ معاداتي.. أنت من اقتحم غرفتي وحاول اغتيالي في هيمانيا.. أنت من أصابني بجرح نافذ في صدري وشوهني.. أم أنك نسيت؟ ما حل بوجهك الوسيم وبكل من له صلة بك لا يساوي ما تجرأت بفعله بي تلك الليلة.."
قاطعته بي ناريا سائلة بحدة "وكيف حصلت على موافقة الملك الراحل على أمر كهذا؟"
ضحك مانيم بسخرية مجيباً "موافقته؟ الملك الساذج كان يمدني بعدد من الأوراق الخاصة به خالية ومذيلة بتوقيعه لتسهيل أموري في الإقليم.. ولم يعلم قط ما فعلته بها.."
قطبت بي ناريا كاتمة غضبها وهارولان يقول بوجه قاتم مرعب "إذن كل ذلك كان من تخطيطك أنت.. تنتقم لجرح تافه بقتلك أشخاصاً أبرياء؟"
صرخ مانيم بثورة "لو أحرقتُ هيمانيا كلها ما كفاني هذا وشفى غليلي.. أنت، أيها الحقير، تتجرأ عليّ؟ أنتم مجرد حثالة.. تتجرؤون على سادتكم وتعيثون الفوضى في مدينتي؟ وفوق كل هذا لن تكتفوا إلا بقتلي؟.. من تظن نفسك أيها الهمجي....؟"
لاحظ هارولان أن مانيم قد فقد شيئاً من حذره مع اشتداد غضبه وصياحه، وبدا بشكل أوضح بعد أن كان مختبئاً خلف بي ناريا.. فلم يتردد هارولان في استغلال الفرصة وهو واثق من قدراته، وبغفلة من الجميع انطلقت رصاصة فجأة من مسدسه لتصيب جبهة مانيم بدقة تامة.. علت مانيم نظرة مذهولة قبل أن يسقط أرضاً ملطخاً بالدماء، بينما لم تحوّل بي ناريا بصرها عن هارولان ولم تُبْدِ انفعالاً بموت مانيم، قبل أن تغمغم "ظننتك ستصيبنا نحن الإثنان بضربة واحدة.. كانت تلك فرصة رائعة لك للانتقام.."
لم يجبها وهو يقترب من جثة مانيم، وركله بازدراء وهو يشعر أن ناراً كانت تعتمل في صدره قد انطفأت تماماً.. لم يظن أن قتل هذا الحقير كان كفيلاً بإراحته من كل تلك الانفعالات التي سكنت صدره منذ ليلة مقتل أهله أجمعين.. قطع أفكاره صوت بي ناريا وهي تسأله "أهذا سبب كل ما فعله مانيم بك؟"

بدا أنه لن يجيبها بكلمة، ثم قال بصوت هادئ يخفي انفعاله "بعد كل ما ارتكبه مانيم في هيمانيا، تسللت لقصره في ليلة وحاولت اغتياله ليرتاح الشعب من شره.. لكنه أفلح بالهرب، ولم أصبه إلا بجرح في صدره.. لكن لم أتوقع أن يستهدف عائلتي كلها مقابل ذلك الجرح المهين.. حياتهم كلها لا تساوي تشوهاً بسيطاً في صدره؟ بئس المعيشة معيشتنا في حكمه.."

لم تعلق بي ناريا وهي حائرة في ما تقوله.. أتعزيه بمن فقدهم أم تهنئه بما أحرزه في انتقامه؟..

التفت هارولان ليرى بي ناريا تنظر إليه بصمت، فمد يده بدون شعور ومسح الدماء التي تسيل من الجرح الذي أحدثه مانيم في رقبتها، لكنه سحب يده بعدها بسرعة قبل أن يقول لها بدون انفعال ظاهر "هل أنت بخير؟"

ضغطت على الجرح في رقبتها بيدها وباليد الأخرى مسحت دماء مانيم التي لطخت جانباً من رأسها مجيبة بابتسامة "عدا عن هذا الجرح البسيط فأنا فقط مشمئزة من دماء هذا الوغد التي لطختني.."

ثم أضافت "لا أظنني بحاجة لشكرك فأنت لم تسع لإنقاذي بل كنت تأخذ ثأرك.. أليس كذلك؟"

تجاهلها من جديد وغادر المكان بصمت، فيما اقتربت منها جوين مع وصيفاتها بجزع وإحداهن تحمل بعض العدة لمعالجة جرحها، لكنها قالت وهي تبتعد "ليس الآن.. أريد أن أستحم.. جهزوا لي أفضل عطوري، فرائحة الدماء الفاسدة هذه تكاد تخنقني"

وأشارت للجثة قائلة "ولا أريد أن أرى أي أثر يدل على ما حدث هنا عندما انتهي.. فليُلقى هذا المأفون خارجاً ولا يدفن حتى تتعفن جثته كما تعفنت نفسه منذ الأزل"

سارعت الوصيفات لتلبية طلباتها، بينما وقفت بي ناريا قرب مرآة كبيرة تغطي الجدار تتأمل الجرح في رقبتها، والذي شيئاً ما ذكرها بجرح هارولان.. لو أصابها هذا الجرح قبل مغادرتها القصر لملأت الدنيا صراخاً من تشوه جمالها الذي تحرص عليه كل الحرص.. لكنه الآن لا يعني لها شيئاً، وحتى وجهها تراه باهتاً لا يوحي بأي جمال، وكأن رفض هارولان لها جعلها ترى نفسها بنظرة جديدة تختلف عن كل الثقة والغرور اللذين شعرت بهما طوال حياتها..

تنهدت محاولة إزالة كل المشاعر التي ملأتها في الشهر الذي مر عليها منذ أطاح بها مانيم وهي عاجزة عن تصديق أن كل هذا قد انتهى.. نظرت إلى يناسّا من نافذتها حيث بدأت الشمس بإرسال أول خيوط نورها إلى المدينة المجروحة، فلم تصدق بي ناريا أن كل هذا قد حدث وانقضى في ليلة واحدة.. التفتت تتأمل جثة مانيم ملياً، قبل أن تتجه لأخذ حمامها مغمغمة "نهاية أقل مما يستحقه هذا المأفون البغيض.."

****

الفصل الرابع عشر:

المهزومة

عن الانتخاب

..

والمُلْك

..

والموطن الأخير

..

مع الشمس الغاربة، بعد انقضاء أول نهار يشهد انتصار الثورة وتحرر العالم من حكم مانيم، تم دفن الملكة الأم دفناً يليق بها جوار قبر الملك الراحل.. لم يتم الإعلان عن الدفن لأحد وسط عدم استتباب الأمن في المدينة، ولم يحضر الدفن إلا قلة من سكان القصر ومن الجند.. تتقدمهم بي ناريا بصمت.. ويتبعها المستشار وجوين ورئيس الثوار الذي أصرّ على الحضور رغم غياب بقية الثوار..

مضت مراسم الدفن سريعة حتى واروا الجثمان التراب، ثم عاد الركب إلى القصر بحراسة ثلة من الجند.. لم تستغرب بي ناريا عدم قدوم هارولان، فهو يكرهها، كما يكره كل ما يتعلق بالقصر والعائلة المالكة.. لذلك هي لم تتوقع إظهار تعاطف منه حتى من باب المجاملة..

وفور عودتهم، طلبت بي ناريا التحدث مع رئيس الثوار، فوقف الاثنان في شرفة منعزلة في القصر يتطلعون إلى أنوار المدينة التي بدأت تستعد لليلتها الأولى دون ملك.. ثم قالت بي ناريا "هنيئاً لكم.. لقد حققتم هدفكم وانتصرتم على مانيم.. الآن الطريق مفتوح أمامكم لنيل ما تريدون"

علق الرئيس بهدوء "لا نريد إلا ما هو حق لنا.. نريد سلام هيمانيا وأمنها ورخاءها.."

ابتسمت بي ناريا معلقة "تواضع قد تندم عليه في المستقبل"

صمت الرئيس دون إجابة.. فقالت مستردة جديتها "لقد أحبطتم خطتي تماماً واستوليتم على يناسّا وطوّعتم جنودها.. فماذا الآن؟ هل تنوي تنفيذ ما خططت له مسبقاً بتشكيل مجلس حكم أم أن الخطة تغيرت؟"

أجابها "بل سأمضي في ما خططت له.. وهو الأفضل لكل الأقاليم دون استثناء"

تساءلت "والملك؟ من ستضع فوق العرش هذه المرة؟"

قال مبتسماً "الشعب سيقرر هذا أيضاً.."

فقالت مقطبة "وماذا لو كان اختيار الشعب خاطئاً؟ الشعب لن يرى إلا المظاهر، وقد ينخدع ببضع كلمات منمقة فيختار من هو أسوأ من مانيم"

علق الرئيس "أحب أن أضع ثقتي في الشعب.."

تنهدت قائلة "ولماذا لا أستعيد العرش مادام مجلس الحكم سيضمن لكم العدل الذي ترجونه؟"

لم يعلق بكلمة وابتسامة ترتسم على شفتيه، فقالت بشيء من الصرامة "العرش عرشي.. وأنا أحق من أي شخص آخر به.. ومعاونتي لكم نبعت من إيقاني بحقكم في تقرير مصير هيمانيا، فلن أسعى لظلمكم أبداً.."

قال الرئيس بهدوء "هو ليس عرشك يا بي ناريا.. هذا العرش ملك للشعب كله، وهو المسؤول عن تقرير مصيره"

قالت بحدة "ماذا تعني؟"

قال "سيُجرى استفتاء يضم المملكة كلها بخصوص العرش وهوية الملك القادم.. وحتى تلك اللحظة، عليك بالصبر.. فمن يدري ما يكون مصير المملكة في الأيام القادمة"

قالت بغضب "ليس لك الحق بفعل هذا.. بأي حق نصبت نفسك مسؤولاً عن تقرير الأمور في يناسّا؟"

لم يحتد الرئيس وهو يجيب "ولم أنت غاضبة؟ ألا تحبين أن تري إن كان الشعب سيختارك مرة أخرى أم لا؟ أم أن ثقتك تزعزعت بخصوص هذا الأمر؟"
صاحت بحنق "لست أخشاك أو أخشى أحداً آخر.. لكني أراك قد تجاوزت حدودك.."
ثم استدارت مضيفة بحدة "كنت أتمنى ألا تقلل من شأني بهذه الطريقة، فستندم على هذا.."
وغادرت بشكل عاصف إلى جناحها، فيما ابتسم الرئيس معلقاً "لو كنت واثقة فلماذا تهربين من الجدال يا بي ناريا؟"

****

في اليوم التالي لنصر الثوره، اجتمع رئيس الثوار بالمستشار السابق ومعه عدد من الرجال الثقة العاملين في القصر والمدينة.. فقال رئيس الثوار "أنتم تعلمون أننا نطالب بتشكيل مجلس للحكم، يشارك الملك الجديد في الحكم ويمنع الظلم أن يتكرر من جديد.. نريد أعضاء المجلس أن يتكونوا من ممثلين لأقاليم المملكة كلها.. ويتم هذا عبر انتخاب كل إقليم لممثله على حده.."
علق المستشار "هذا رائع نظرياً.. لكن لن يخلو الأمر من الخداع والتزييف بغية الحصول على هذا المنصب الذي سيحصل صاحبه على الكثير من المميزات هنا وفي إقليمه.."
قال الرئيس بحزم "لهذا يجب ألا يعطى العضو نفسه أية صلاحيات.. المجلس عمله مراقبة قرارات الملك وتحقيق العدالة والمساواة بين الأقاليم.."
صمت المستشار مفكراً والرئيس يضيف "هذه عملية ستطول، لذلك يجب أن يتم تشكيل مجلس مؤقت من رجال ثقة في يناسّا حتى يتم اختيار الملك الجديد وتشكيل المجلس الدائم.."
فقال المستشار "إذن ليس هناك من هو أصلح منك لرئاسة المجلس المؤقت.. وأظن الثوار جميعهم والجنود الذين شهدوا ثورتك سيساندون هذا الرأي.."
هز الرئيس رأسه نفياً وقال "لا أرغب بذلك.. لقد بذلت ما يكفي في هذه الثورة وجلّ همي الآن العودة إلى هيمانيا فبقائي هنا قد طال.."
قال المستشار "لن نرضى بأن تستبعد أنت من المجلس.. ستكون عضواً فيه على الأقل.."
قال الرئيس مبتسماً "إن وعدتني بأن تكون عضواً أنت أيضاً.."
قال المستشار "لا، لا يمكنني أن أكون في وظيفة غير مستشار الملك.. هذا إن رضي بي الملك الجديد.."
ربت الرئيس على كتفه وأحد الرجال يقول "وماذا عن بقية الأعضاء؟ ما الذي يضمن ألا يسيؤوا استخدام سلطاتهم المؤقتة؟"
قال الرئيس "يجب أن نثق فيهم.. وفي الوقت الراهن لن يغادر الثوار يناسّا حتى يتم انتخاب الملك الجديد الذي سيتأكد من سير عملية تشكيل المجلس بالأمانة المطلوبة.."

غمغم المستشار "وبي ناريا؟ ماذا سيكون مصيرها؟"
قال الرجل "هذا رهن بتقبلها للأمر.. إن اختارها الشعب كما تدّعي فلن يعترض أحد على ذلك.. لكن إن حاولت اعتراض تشكيل المجلس فيجب أن يتم ردعها ومنعها من تعطيل العملية"
صمت المستشار وهو يفكر في أمر بي ناريا.. لقد كان شديد الإخلاص للملك الراحل، وبي ناريا بمثابة ابنة صديقه المقرب.. لذلك لا يتمنى أن يلحقها أي سوء أو ضرر.. قطع أفكاره صوت الرئيس الذي قال مبتسماً "لا تقلق.. لن يمسها شخص بسوء أبداً.."
علق المستشار "هل تجيد قراءة الأفكار؟ بدأت أخشاك يا رجل.."
ضحك الرئيس لتعليقه ثم قال "لابد أن أجيد ذلك مادمت سأقود عينات مختلفة من البشر.. الثورة والثوار قد علموني الكثير مما أتمتع به الآن.."
بعد جلسة طويلة، تم إعلان تشكيل مجلس الحكم المؤقت في المدينة، برئاسة أحد الوزراء القدامى الذي تقاعد من عمله بعد مدة طويلة قضاها في خدمة الملك السابق ووالده، وبعضوية عشر رجال موثوقين من ضمنهم رئيس الثوار.. ولدى إعلان الخبر تدافع الثوار لتهنئة رئيسهم الذي ابتسم معلقاً "يبدو أنكم تستمتعون برؤيتي متورطاً أكثر مما أنا فيه.."
علق تيمين ضاحكاً "بالفعل.. هذا جزاؤك الوحيد لدفعنا خوض هذه الثورة ولكل ما قاسيناه.."
تساءل الرئيس متلفتاً "وأين هارولان؟إنه مختفٍ منذ البارحة.."
أجاب أحد الرجال "لقد رأيته يخرج من القصر مساء البارحة ولم يعد حتى الآن.."
قطب الرئيس قائلاً "هل أنتم متأكدون أنه في المدينة؟ ألم يخبركم إلى أين هو ذاهب؟"
قال تيمين "لا أظنه سيغادر دون إعلامك بهذا.."
غمغم الرئيس "لست أدري.. لا أعلم ما يدور حقاً برأس ذلك الرجل.."
سمع صوتاً من خلفهم يقول بهدوء "وهل يمكن أن أغادر دون إذن رئيسي؟ هذا محال.."
التفتوا ليروا هارولان يقف خلفهم بوجه هادئ وقد اختفى الصراع والحيرة التي علتاه منذ مدة ليست بالقصيرة.. فقال الرئيس "ما دمت لا تخالف رئيسك، إذن لديّ مهمة محدودة لك.."
رفع هارولان حاجبيه بتساؤل، لكن لم تجاوبه إلا ابتسامة غامضة من الرئيس..

****

في محطة البث، وبعد أن تم إصلاح برج البث بسرعة كبيرة بالاستعانة بالمهندسين السابقين، تساءل هارولان بريبة وهو ينظر لرئيس الثوار "ولماذا يجب أن يكون أنا؟"
قال الرئيس بابتسامة "الكل أعجب بخطابك السابق.. أنت تملك هالة من الإقناع يصعب على الآخرين رفضها.. لذلك يجب أن تقوم بهذا أنت.."
بدا عدم الاقتناع على وجه هارولان وهو يغمغم "وأنت لا تملك هذه الهالة، أتعلم ذلك؟.. فلم تقنعني بكلمة مما

قلته.."

وجد تيمين يدفعه من الخلف وهو يقول مبتسماً "مم أنت خائف؟ أتخجل من الظهور أمام العالم لقول هذه الرسالة القصيرة؟"

قال هارولان بضيق "بل يجب أن يفعل هذا أحد أعضاء المجلس.. فهذا أكثر إقناعاً.. لقد تحدثت عن الثوار سابقاً، لكن بأي صفة أتحدث عن مجلس الحكم وأنا لست طرفاً فيه؟.."

انشغل الاثنان بمحاولة إقناعه فيما يعمل بضع رجال ممن كانوا ضمن طاقم البث السابق على تجهيز الآلات والمعدات بانتظار لحظة البدء..

وفي القصر، حيث اعتزلت بي ناريا الجميع في جناحها وعدد قليل من وصيفاتها مسموح لهن بالدخول وخدمتها.. كانت تدور قلقة متوجسة، تتأمل الشاشة الكبيرة السوداء المعلقة في جانب من جناحها.. كانت تعلم أن هذا اليوم هو اليوم الموعود لإطلاق رسالة مجلس الحكم للعالم كله، حيث سيتم استفتاء الشعب في الأقاليم قاطبة لاختيار الملك الذي سيجلس على عرش المملكة..

ورغم الثقة التي أظهرتها أمام رئيس الثوار، إلا أن القلق ينهشها وهي لم تعرف مصيرها بعد.. لم تستطع مواجهة المستشار ومن بقي من الوزراء ونبلاء القصر.. وحتى الثوار فضلت الابتعاد عنهم وانتظار النتيجة وحيدة هنا..

بعد فترة من الوقت بدت كدهر كامل، رأت الشاشة تنير معلنة بدء الرسالة التي تبث إلى العالم كله في نفس اللحظة.. خفق قلبها للحظات وهي ترى وجه هارولان يرتسم على الشاشة، ورغم تعجبها من اختياره هو لينقل هذه الرسالة، إلا أنها ظلت تتأمل ملامحه وشيء من الحزن يقبض صدرها.. انقضى يومان لم تره فيهما أو تسمع صوته منذ ليلة مقتل مانيم، ورغم أنها لم تنسه للحظة واحدة، إلا أن كبرياءها منعها من البحث عنه أو حتى سؤال أحد عن أخباره..

بعد تنحنح قصير، ارتفع صوت هارولان الجهوري يقول "يا أبناء الكوكب البلوري المجيد.. ها نحن نخاطبكم مجدداً وكلنا أمل بحسن تقديركم واختياركم.. لقد انتصرت الثورة كما تعلمون، وتم القضاء على الطاغية الذي استعبدنا دون وجه حق.. ولكي نضمن العدل والمساواة للجميع، تشكّل مجلس حكم مؤقت مكون من رجال ثقة يتسمون بالعدل والأمانة، وذلك حتى يقوم كل إقليم في الكوكب بإرسال مندوب من أبناءه ليتخذ موقعاً في مجلس الحكم مساوياً للبقية.. الآن لم يبق إلا انتخاب ملك للمملكة هذه، فمجلس الحكم غير كاف لتسيير أمور المملكة كلها.. حاكم نتمنى أن يكون عادلاً ويتعظ ممن سبقوه فيسعى لنشر الحق والمساواة بين الأقاليم دون تفضيل أحدها على غيره.. بي ناريا مصرّة على استعادة العرش الذي فقدته، فإن كنتم تريدونها ملكة من جديد فلن يعترض أحد على استعادتها إياه، وإن رغبتم بتولية شخص آخر فسيساندكم مجلس الحكم وثوار هيمانيا جميعاً حتى نتأكد أن إرادة الشعب ستطبق دون اعتراض من أحد.."

وتنهد وهو يضيف "كل ما نرجوه أن تحسنوا الاختيار.. لا تجعلوا المظاهر الخادعة والكلمات المنمقة تعمي أعينكم عن الحق.. نريد حاكماً عادلاً، لا نندم معه على ما خسرناه ومن فقدناه في هذه الثورة.. لقد بذلنا أغلى

ما نملك لنحصل على التغيير، فلا تضيعوا تضحيتنا هباءً.."
بدا أنه يتلو رسالته من وحي اللحظة، ولا يعتمد على كلمات مكتوبة مسبقاً.. ورغم ألمها لما يحدث ولأنها لا تملك تحديد مصيرها بنفسها، ورغم مرارتها وهي ترى هارولان يتحدث بحماس وكأنه لا يحمل هماً ولا يبدو عليه حزن لمفارقتها، إلا أنها لم ترفع بصرها عن الشاشة وهي في عجب من أمرها.. ألهذه الدرجة تعلقت به وأحبته حتى ليكفيها أن تراه من بعيد لتسكن آلام قلبها؟ أهذا ما كانت تستهزئ به وتسخر من انصياع الآخرين له متحدية نفسها أنها لن تسقط في شراكه؟ لكنها لم تسقط، بل غرقت غرقاً كاملاً لا ينفعها أي علاج معه..
بعد انتهاء الرسالة، زفرت بي ناريا بقلق وهي تلقي بنفسها على أقرب كرسي وتغمض عينيها.. يجب أن تبعد هارولان عن ذهنها تماماً.. فالآن، هي مجرد أيام ويتحدد مصيرها، وما عادت بالثقة التي تتفاخر بها أن الشعب سيختارها دون شك.. لكن إن لم يفعل، فمن سيختار؟ وما مصيرها هي إذ ذاك؟..

****

لم يمض يومان على بدء الاستفتاء الذي عمّ الكوكب كله بأقاليمه القاصية والدانية، والتي تحمس لها الشعب تحمساً كبيراً وهو يشعر أنه للمرة الأولى يمكنه تحديد مصيره بنفسه، حتى كان المستشار ينظر للصناديق الضخمة التي يتم إنزالها من إحدى الطائرات القادمة من ولاية سولان وهو يغمغم "يبدو أن العملية تسير بأسرع مما توقعت.. الكثيرون قد تحمسوا وأدلوا بصوتهم منذ اليوم الأول دون إبطاء.."
توقع تعليقاً من رئيس الثوار الواقف قربه، لكنه عوضاً عن هذا سمعه يقول بصرامة "مستحيل.."
التفت إليه ليجده يخاطب هارولان الواقف أمامه مقطب الوجه، ثم قال "أأنت جاد في رغبتك بالرحيل؟ نحن لازلنا بحاجة لك هنا.. فالثورة لم تنته بعد ولن تنتهي إلا بتعيين الملك الجديد.."
قال هارولان بضيق "وجودي لا داعي له.. اسمح لي بالرحيل ما دمت أملك من الصبر ما يكفيني لاستئذانك.. لكن متى انعدم صبري فلن تجد لي أثراً في يانّا كلها.."
حاول الرئيس التلطف بحديثه وهو يغمغم "وبي ناريا.. ستغادر قبل أن تعلم ما هو مصيرها؟"
أشاح هارولان بوجهه بضيق دون أن يجيب والمستشار ينظر لهما بتعجب.. ثم سمع هارولان يغمغم "لا يمكنني البقاء هنا.. هذا القصر البغيض لا يحمل إلا رائحة مانيم.. ولا أطيق تلك الرائحة أبداً.."
زفر الرئيس بحيرة وهو لا يدري ما الأسلوب الذي يستخدمه لإقناع هارولان بالبقاء.. وقبل أن يفتح فمه رأى جوين قادمة بلهفة تجاه هارولان فتُحْني رأسها للرئيس والمستشار بعجلة، قبل أن تقول مخاطبة هارولان "أرجوك.. هل أستطيع التحدث إليك قليلاً؟"
قال هارولان دون أن ينظر لها "لا أعتقد أنك تملكين ما قد يهمني.."
قالت بتوسل "أرجوك.. أنا بحاجة لمساعدتك.. إنه يخص بي ناريا.."
لم يعلق بكلمة وإن بدا عليه الاهتمام كما بدا على الرئيس والمستشار، فقالت جوين بتوتر "لقد عزلت نفسها عن

الجميع منذ ليلة دفن الملكة الأم.. وترفض الخروج أو السماح لأحد بالدخول عليها سواي وعدد قليل من الوصيفات.. إنها بحالة سيئة، وموضوع الاستفتاء هذا يزيدها إرهاقاً وتوتراً.."

تساءل هارولان "وما المطلوب مني فعله بالضبط؟"

قالت برجاء "اذهب إليها وحاول إقناعها بالخروج.. أخبرها أن ما تفعله لا فائدة منه وسيضرّ بها.. أرجوك، إنها لا تستمع لكلمة مما أقوله، وهي بالكاد تتناول شيئاً من الطعام أو تحصل على دقائق معدودة من النوم.. لو استمر بها الحال هكذا فستنهار قريباً.."

صمت هارولان بدون تعليق وهي تضيف "قد تستمع إليك وتغير رأيها.. إنها تهتم لأمرك، فحاول مساعدتها قليلاً.."

قال هارولان مشيحاً "لست في حالة تسمح بمساعدة أحد.."

وغادر بصمت وجوين تهتف خلفه "لكن...."

رفع يده لتكف عن محادثته دون أن يلتفت، فيما التفتت جوين بشيء من اليأس تنقل بصرها بين الرئيس والمستشار، فغمغم المستشار "سأذهب إليها لاحقاً.. إن كل ما مرت به كان قاسياً جداً.. فلا عجب أن تكون ردة فعلها هكذا.."

صمتت جوين بدورها وهي تحني رأسها من جديد وتغادر، فيما وجد الرئيس المستشار يميل تجاهه وهو يسأل بشيء من الفضول "ما الذي بين ذلك الشاب وبي ناريا حقاً؟"

****

في ذلك المساء، استأذن المستشار للدخول على بي ناريا، وبعد محايلة طويلة من جوين سمحت له بي ناريا بالدخول.. فدلف جناحها الهادئ وشبه المظلم، ليجدها جالسة في جانب منه مرتدية ثياباً بسيطة بغير بذخ، وجهها وشعرها بلا زينة كما اعتادها، والشحوب يغزو بشرتها المشرقة عادة.. فاقترب منها المستشار قائلاً بلطف "ما الأمر يا ابنتي؟ حتى متى ستحجزين نفسك في هذا الجناح الكئيب وتعتزلين العالم كله؟ لقد أقلقتنا جميعاً حتى بتنا نخاف مما قد تفعلينه بنفسك.."

غمغمت بي ناريا بهدوء "وما الذي قد أفعله بنفسي أكثر مما فعله مانيم بي؟ لو كنت تظنني سأقتل نفسي فلا تخف.. من هي مثلي لا يحق لها ارتكاب هذه الجريمة.."

جلس قريباً منها وهو يقول "لم يكن والداك ليرضيا برؤيتك هكذا.. انهضي واستعيدي نشاطك، مهما كان ما اعتزلتنا لأجله فهو لا يستحق هذا العناء.. صدقيني يا ابنتي.."

التفتت إليه متسائلة "أتعني أن عليّ التنازل عن العرش بطيب خاطر؟"

قال متنهداً "لست أعني هذا، وأنا مدرك أنك لن تفعلي هذا بتاتاً، لكن على الأقل اعتني بصحتك أكثر، فإذا آل إليك العرش من جديد ستملكينه وأنت بكامل قوتك وصفاء ذهنك.. أما الآن، فأنت بحالتك هذه أضعف من أن

تتولي تلك المهمة.."
صمتت بي ناريا وجوين قريبة تنظر للمستشار بتوسل ليحاول إقناعها أكثر.. لكنهما سمعا بي ناريا تقول "لا أستطيع.. لا تجبراني على ما سيسيء إليّ أكثر من هذا.. عندما تظهر نتيجة الاستفتاء، سأترك عزلتي هذه بدون إيعاز من أحد.. الآن اتركاني ولا تحاولا دفعي لفعل ما لا أريده.."
تنهد المستشار وهو يقف قائلاً "على الأقل اهتمي بغذائك وراحتك.. لا ترهقي جسدك أكثر مما فعلت بك الأيام السابقة.."
وغادر الجناح بصمت تاركاً بي ناريا مستغرقة في أفكارها دون أن تبذل جهداً لمقاومة الكآبة التي حلت عليها منذ موت والدتها وسقوط العرش بيد أعدائها الثوار..

****

جلس هارولان في إحدى الشرفات التي تقع على برج عالٍ من أبراج القصر.. كان هواء يناسّا البارد يهبّ عابثاً بشعره وهو يتأمل المدينة المترامية الأطراف تحت القصر العالي.. كان الظلام قد حلّ وأنوار المدينة تلتمع كجواهر صغيرة في بحر أسود.. بالإضافة لنور القصر البلوري الأزرق الذي يجعله مبهراً ويبهج الناظر إليه.. لكن بدا هارولان لعيني تيمين الذي اقترب منه أبعد ما يكون عن البهجة والراحة.. فقال وهو يقف قربه "أهذا الموقع الذي تختفي فيه منذ يومين؟ الرئيس يبحث عنك دون انقطاع.. أظنه يخشى أن تتبخر فجأة من المدينة دون أي خبر.."
لم يعلق هارولان وهو سارح البصر في الأفق البعيد.. فضربه تيمين بشيء من القوة على كتفه قائلاً "ما بالك يا رجل؟ لقد أتممت ما حلمت به منذ سنين.. المفترض أن تكون الآن سعيداً وتلقي كل تلك الذكريات السيئة خلفك"
تنهد هارولان قائلاً "هذا ما يقوله من لم يجرب الانتقام.. بالفعل أنا سعيد لانتقامي من مانيم.. سعيد لأنه لم يسقط إلا على يدي.. ولو عادت الدنيا لتلك اللحظة من جديد فسأكرر ما فعلته دون ندم.. لكن هذا لا يرفع الثقل الذي أشعر به على كاهلي.. موتهم.. وموته.. كل هذا انقضى في ثوانٍ معدودة.. ما السبب الذي منح مانيم الحق في سلب حياتهم؟.. ما الذي استفاده حقاً من موتهم؟ وما الذي استفدته أنا من موته هو؟ قلبي مثقل، وضميري مثقل بأني السبب في موت أهلي جميعاً.. الانتقام لا يريح صاحبه كما قد يتوقع البعض.. بل هو يزيد ثقلاً على قلب صاحبه.. وهو أكثر مما قد أطيق"
ابتسم تيمين معلقاً "ألهذا السبب تبعد نفسك عن بي ناريا؟"
تنهد هارولان مطرقاً لثوانٍ وبدا أنه لن يجيب.. ثم قال بصوت مرير "لا أستطيع مواجهتها وأنا في هذه الحالة.. لم أغفر لها كذبها عليّ، ولا أستطيع نسيان كل شيء والعودة لما كنت عليه في هيمانيا.. كما أنني لا أظنها أحبت رجلاً كئيباً غارقاً في همومه كما أنا عليه الآن.."
علق تيمين "وربما لو حاولت وصل ما انقطع بينكما سيزول كل هذا الهمّ الذي أغرقت نفسك فيه بإرادتك.. أنت

لا تريد مسامحتها بإرادتك، ولا تريد تجاوز غمّك بإرادتك.. فلا تدّعي أنك لا تستطيع.."
وربت على كتفه مضيفاً "إن لم تحاول، فلن تعلم أبداً ما يمكنك فعله بإرادتك هذه.. ولا تنس أن بقاؤنا في يناسّا مؤقت.. فهل تريد المغادرة ونسيان بي ناريا حقاً؟"
صمت هارولان وتيمين يستجيب لصمته.. عالماً أن عشرات الأفكار ولابد تتدافع في عقله.. فإلى أيها سيستجيب؟ ورغم أن تيمين يعلم الإجابة تمام العلم، إلا أنه ظل صامتاً تاركاً هارولان يتخذ قراره بنفسه..

****

اقتحمت جوين جناح بي ناريا هاتفة "نتيجة الاستفتاء ظهرت يا مولاتي.."
هبّت بي ناريا واقفة ورجفة تعتري جسدها.. كان القلق والتوتر قد أكلا عقلها طوال الأسبوع الفائت، حتى ظنت أن عقلها سينفجر لكثرة التفكير.. أما الآن، فالنتيجة التي تنتظرها، قد ظهرت أخيراً.. ورغم كل ما تتظاهر به من ثقة دائمة أنها لابد هي المنتصرة.. أنها الملكة الحقيقية التي لن يرضى الشعب بغيرها، فإن صوتها ارتجف رغماً عنها وهي تسأل "والنتيجة؟"
قالت جوين وحماسها لا يخفت "لا نعلم بعد.. المجلس يحتفظ بالنتيجة ولم يعلنها بعد.."
رمت بي ناريا جسدها على كرسيها مجدداً وهي تغمغم وكأنها تحاول إقناع نفسها أكثر من جوين "مهما يكن.. النتيجة معروفة سلفاً.. بعد مانيم، الشعب قد عرف ميزتي ولن يرضى غيري على العرش.."
صمتت جوين بدون تعليق، فلم ترغب بقول ما قد تضيق به بي ناريا.. وحتى بعد المدة الطويلة التي عرفتها بها، لازالت تندهش من ثقة بي ناريا المطلقة والزائدة عن الحد، كما يبدو لها.. من أين تأتي بثقتها هذه التي لم تختلّ حتى بعد كل هذه الأحداث التي مرت بها؟..
سمعت بي ناريا تقول لها "اتركيني بمفردي.. وعندما تظهر نتيجة الاستفتاء، أبلغيني بها فوراً.."
قالت جوين "أمرك يا مولاتي"
وغادرت الجناح تاركة بي ناريا تنعزل مرة أخرى في جناحها وبين ثنايا أفكارها..
في تلك الأثناء، وما إن انفض اجتماع المجلس المغلق الذي دام لمدة طويلة، والذي حضر هارولان الجزء الأخير منه بطلب من رئيس الثوار، حتى انطلق هارولان بحثاً عن بي ناريا.. قابل جوين في طريقه التي قالت له مبتسمة أن بي ناريا معتكفة في جناحها بانتظار سماع نتيجة الاستفتاء.. فأسرع إلى الجناح الذي يحفظ موقعه كما يحفظ موقع كل جزء من أجزاء القصر..
أما بي ناريا.. فعندما أبلغتها إحدى وصيفاتها أن هارولان يطلب مقابلتها غلبها التعجب والتوتر.. كان يتفادى لقاءها منذ وصولهم إلى القصر وقضائهم على مانيم، لذلك كان أمر قدومه إليها يثير الدهشة ولا شك.. هل هو متعلق بنتيجة الاستفتاء؟ لو كانت هي المختاره، هل سيعترض على هذا؟..
سمحت له بالدخول وظلت تسير في أرجاء الجناح متوترة حتى وقفت قرب النافذة تنظر إلى المدينة الأقرب إلى قلبها.. ولما سمعت صوت خطواته التي تعرفها التفتت إليه حيث وقف في منتصف الجناح.. كان يبدو أرتب

هنداماً، وإن فضّل ارتداء أبسط الملابس مقارنة بما يرتديه سكان القصر.. وقد وقف مثبتاً بصره عليها، وهي التي لاحظت أنه منذ معرفته لهويتها الحقيقية كان يتجنب النظر إليها مباشرة ما استطاع.. اختلجت مشاعرها لرؤيته بعد انقطاع طال، وإن سرعان ما أنّبت نفسها لهذا وهي تؤكد لنفسها ألا فائدة مما تشعر به تجاه رجل يكرهها.. لكن رغماً عنها شعرت بشيء من السعادة لرؤيته وهي تتأمل وجهه الذي كان يحمل ألف معنى ومعنى، وعيناه تبوحان بألف كلمة وكلمة.. فقالت بابتسامة صغيرة "ما الأمر الذي يشرفني بزيارتك هذه؟"

وجدته يخطو خطوات واسعة تجاهها مما جعلها تتراجع غريزياً وعيناها متسعتان خوفاً من أن يسعى لإيذائها كما هدد دائماً.. لكنها فوجئت به يشدها إليه ويحتضنها بقوة بصمت للحظات.. أخذتها الدهشة فتجمدت دون أن تنبس بكلمة حتى سمعته يهمس "أحبك يا نارياسّا.."

ارتجفت بي ناريا وهي تسمعه يناديها بهذا اللقب للمرة الأولى.. وشعرت بقلبها يتسارع في دقاته وكأنها تستمع لاعترافه للمرة الأولى.. وقبل أن تجيب سمعته يضيف "لقد كابرتُ كثيرا، وأنكرت قلبي كثيراً، وقاومت نفسي كثيراً جداً.. كنت أريد حبك لي، وأريد أن أضمك كلما رأيتك قريبة مني.. لكنني تصرفت بعناد شديد وتمسكت بعهد قديم لا ذنب لك فيه"

ونظر إلى وجهها قائلاً "لكنني الآن ندمت.. واستسلمت"

تساءلت بخفوت "وماذا عن عهدك؟"

قال متنهداً "المجرم الحقيقي قد مات على يديّ ، أما أنت.. فلا ذنب لك فيه، ولن يعيد موتك أحداً ممن فقدتهم"

وأحاط وجهها بيديه متساءلاً برجاء "هل ستصفحين عني يا زهرتي؟"

ابتسمت بعذوبة هامسة "لم أكرهك لأصفح عنك، فمكانتك لم تتغير في قلبي أبداً"

سألها السؤال الذي لا يمل تكراره "أحقاً أنت لي؟"

قالت وهي تنظر له بعينيها اللامعتين "أنا لك دائماً.. وأبداً.."

ضمّها إليه من جديد وهو يهمس بانفعال "أعدك أن تنسي كل ما مر بك من قبل، وأن أعوضك عن معاملتي السيئة لك في السابق.. لنهرب معاً، ونبحث عن سعادتنا في مكان لا يعرفنا فيه أحد.."

انتفضت ودفعته بعيداً قائلة بقلق "نهرب؟ لماذا؟ لقد بذلنا الكثير لنصل إلى هذه المرحلة، فلماذا نرمى جهودنا كلها بلا طائل؟"

قال راجياً "ولماذا الحرص على شيء لن يجلب لنا إلا التعاسة؟ لندع هذا العرش المشؤوم ونغادر هاربين بحبنا قبل أن يحول شيء بيننا وبين ذلك"

قطبت قائلة بإصرار "مطلقاً.. أنا باقية هنا حتى أستعيد عرشي.."

همس برجاء وهو يمسك يدها "أرجوك يا نارياسّا...."

سمعوا من يعلمهما بطلب رئيس الثوار مقابلتها، فسمحت بي ناريا له، وشدّت على يد هارولان بيدها مغمغمة "لماذا تخشى من البقاء في القصر؟ مهما حدث.. سيظل حبك متغلغلاً في أعماقي ولن يغيره شيء"

تنهد هارولان بأسى وهو يلتفت بعيداً دون أن تفهم السبب، ولما وصل إليهم الرئيس خاطب هارولان قائلاً "هل

أعلمتها بكل شيء؟"

هز هارولان رأسه نفياً بضيق وبي ناريا تنقل بصرها بينهما متسائلة، فوجه الرئيس الحديث إليها قائلاً "لقد وصلتنا نتائج استفتاء الشعب قبل قليل، وقام مجلس الحكم برؤية النتائج، لذلك رأيت أن أعلمك بنتيجتها قبل أن يُبث الخبر غداً صباحاً عبر أرجاء المملكة"

شعرت بانفعال شديد وهي تقول "وما كانت النتيجة؟"

تنهد الرئيس قبل أن يقول باحثاً عن الكلمات الأنسب لإيصال الخبر إليها "لقد اختار الشعب الملك القادم على المملكة.. لكنه.... لم يكن أنت"

ظلت تنظر إليه بعدم فهم وهي تشعر بهارولان يضغط على يدها، فعادت تقول "ما هي نتيجة الاستفتاء؟"

قال الرئيس بلهجة أوضح "إنه ليس أنت يا بي ناريا.. وليس أي شخص آخر من العائلة المالكة.. الشعب يريد التغيير، ويريد شخصاً يمثل هذا التغيير بشكل أفضل"

فصاحت "من هو؟"

رأت نظرات الرئيس تتجه إلى الواقف قربها، فالتفتت بدورها إليه سائلة بإلحاح "من هو يا هارولان؟ أنت تعلم، أليس كذلك؟"

أشاح هارولان بوجهه والضيق يبدو جلياً عليه، ثم سمعت الرئيس يقول "إنه هارولان.."

اتسعت عيناها بغير تصديق وهي تنظر للرئيس تارة ولهارولان تارة أخرى، ثم قالت بصوت مرتجف "إنه أنت؟"

قال هارولان بضيق "هذا أمر لم أقبله ولا يمكن أن أفعل.."

جذبت يدها من يده وأشارت له بإصبع مرتجف قائلة "أنت الملك الجديد؟ اختارك الشعب أنت ونبذني؟كيف؟ لماذا؟! ما الذي رأوه فيك في هذه المدة القصيرة؟!"

قال الرئيس "رأوا ذات الشيء الذي رأيته أنت فيه وأحببته لأجله.. شخصية هارولان وصفاته تجذب كل من عرفه، ولذلك رأى الشعب أنه أقرب إليهم وإلى آلامهم من شخص عاش طوال عمره في قصر مرفهاً.."

أمسكت رأسها بيديها وهي تتمتم "لست أصدق هذا.. لن يصدقه أحد.."

أمسك هارولان كتفيها قائلاً "صدقيني يا بي ناريا.. أنا لا أريد العرش، ولم أحلم يوماً به.. كل ما أريده هو أنت.. أنت فقط"

صرخت وهي تدفعه "كاذب.. كل ما تقوله كذب وتزييف.. أنت تخدعني لتسلبني ما هو حق لي، وتظنني سأرضى بالقليل الذي ترميه في وجهي؟.."

ورمته بكل ما طالته يداها وهي تصرخ بهستيرية "أخرج.. لا تقترب مني مرة أخرى.. أنت انتهازي والكل منخدع بكلامك المعسول.."

حاول هارولان أن يوقفها، لكن الرئيس جذبه معه عنوة حتى خرجوا من الجناح وقال "أتركها، إنها صدمة كبيرة ما كانت تتوقعها.. ووجودك لن يساعدها الآن.. لم أكن أرغب بوجودك في هذه اللحظة، لكني فوجئت أنك سبقتني إليها"

وسار عائداً إلى قاعة الحكم، ولما التفت خلفه وجد هارولان يقف قرب باب الجناح مطرقاً، فسأله الرئيس "ألن تأتي معي لنرى ما قرره مجلس الحكم؟"
قال هارولان بلهجة مريرة "أنا متأكد أنها تبكي الآن.. أشعر بكل ما تشعر به من صدمة ومرارة، لكني غير قادر على أن أكون قربها في محنتها هذه"
تنهد الرئيس وغادر بصمت تاركاً الإثنين وهو متعجب من حالهما.. وكأنه مقدر لهما الاختلاف والبعد مهما تقاربا، كما أنهما من عالمين مختلفين لا يمكن أن يلتقيا..

****

ظلت جوين تدور في الجناح تقضي بعض الأعمال ونظراتها لا تبتعد عن بي ناريا التي جلست على كرسي قرب النافذة لا تتحرك وهي تراقب سماء يناسّا الصافية.. ورغم أنها لم تُظْهِر البكاء إلا أن جفنيها المنتفخان كانا يدلان على أنها تقضي لياليها باكية حيث لا يسمعها أحد.. وبعد أن ضاقت برؤية بي ناريا بهذه الحال اقتربت منها وركعت قربها قائلة بخفوت "حتى متى يا مولاتي؟ أتظنين أن الملك والملكة الراحلين سيسعدهما رؤيتك بهذه الحال؟ متى ستتجاوزين حزنك وتلتفتين لأمور أهم في حياتك الجديدة؟"
غمغمت بي ناريا بمرارة "وما الذي تبقى لي لأهتم بأمره؟ فقدت العرش الذي كان محور حياتي، وفقدت والديّ تباعاً، وقريباً سأطرد من القصر لأعيش مع العامة حياة لا أعرف عنها شيئاً.. فما الذي يمكن أن أتطلع إليه؟"
قالت جوين مبتسمة "لديك شخص تهوينه ويهواك.. ويمكنك أن تعيشي معه بسعادة تامة ما بقي لك من العمر وتؤسسي عائلة خاصة بك.. أليس هذا أفضل من التحسر على أمور لا تملكين منها شيئاً؟"
وتنهدت مضيفة "ليتني أجد من يحبني بمثل هذا الحب.. لتنازلت عن كل شيء لأحتفظ به"
علقت بي ناريا قائلة "كان هذا سابقاً، أما الآن فلابد أن العرش قد أعمى عينيه.. لم أسمع منه نبأً منذ انتخبوه ملكاً.. ورغم أنه أنكر رغبته في العرش، لكني أعلم الآن أنه قَبِل به وأصبح ملكاً رسمياً على المملكة.. فلا أظنه سيتخلى عنه الآن لأجل أي حب مزعوم"
قالت جوين هازة رأسها "هناك أشياء لا تعلمينها.. لم يرضَ هارولان بالعرش إلا بعد محايلة طويلة من رئيس الثوار.. وهارولان يحضر إلى جناحك عدة مرات يومياً ليسألني عنك ويطمئن عليك، مع أن بإمكانه إرسال رسول أو استدعائي إليه.. وفي كل مرة أراه في لهفة لرؤيتك، لكنه يخشى من رفضك له، ويظنك تكرهينه بعد كل ما جرى"
وأضافت دون أن ترى اهتماماً بادياً في عينيها "صحيح أنه أصبح الملك، لكنه رفض إجراء أي تنصيب رسمي، مكتفياً فقط بإعلان الخبر في الأقاليم كلها.. ولو رأيته الآن لما رأيت اختلافاً في شكله أو تصرفاته عن السابق.. فهو يرفض الملابس الباذخة ويرفض الإقامة في جناح الملك السابق، مفضلاً إحدى الغرف الصغيرة في القصر.. إنه ليس ممن يهوون السلطة أو الحياة الباذخة، ومتأكدة أنه سيتخلى عن هذا كله لأجلك.. لكن أنت

من لا يستطيع التنازل.."
قالت بي ناريا بحدة "أنتم لا تفهمون شيئاً.. كيف يمكنني التنازل عن عشرين سنة من عمري قضيتها والعرش نصب عيني.. أن أتنازل الآن معناه أن أعترف بأنني قضيت السنين تلك كلها في هباء.. "
تنهدت جوين يائسة وقالت "أنت خسرت شيئاً وكسبت شيئاً أكثر قيمة.. فلا تخسري ما هو أثمن لأجل شيء وضيع.. فستندمين على هذا ما بقي لك من العمر"
وتركتها لتعود لأعمالها بينما بي ناريا تغمغم "ولم يجب أن أخسر أي شيء؟ لم لا أحصل على العرش وعلى حب هارولان معاً؟ ألا أستحق هذا؟"

****

سارت بي ناريا بخطوات واثقة رافعة رأسها في ممرات القصر باتجاه قاعة العرش.. رفضت أن يقودها الجنديان اللذان حضرا لاصطحابها وأصرت على أن يتبعاها بعدة خطوات.. كانت تشعر بنظرات الجنود والوصيفات الذين تمر بهم وكأنها ضحكات استهزاء وسخرية لما آل إليه حالها، لكنها تجاهلت كل هذا حتى دلفت القاعة لتجد مجلس الحكم المؤقت مجتمعين وسطها وهم بانتظارها..
وقفت بي ناريا وسط القاعة متسائلة "ما الذي استوجب استدعائي اليوم؟"
قال لها رئيس المجلس "إجلسي يا بي ناريا"
قالت بأنفة "ليس مما يشرفني الجلوس مع من لا يمنحني الاحترام الكافي"
التقت النظرات بصمت دون أن يعلق أحد على قولها، ثم سمعت رئيس المجلس يقول لها "بي ناريا.. بصفتي رئيس مجلس الحكم أبلغك بالقرار الذي أجمعنا عليه بشأنك.. نسبة لكونك الملكة السابقة، ولإصرارك السابق على العودة للعرش، بالإضافة لرفضك إقامة مجلس حكم ورفضك من اختاره الشعب حاكماً عليه.. لكل هذا فقد أجمع المجلس أنك تشكلين خطراً على أمن الحكم الجديد ولا يمكن التغاضي عن هذا"
قطبت قائلة بجفاء "ماذا تعني؟"
أجابها وهو يعقد يديه "معناه أن المجلس قد أصدر عليك حكماً بالنفي مدى الحياة.."
اتسعت عيناها ذهولاً وهو يضيف "سيتم نفيك إلى إقليم بيران الجنوبي.. وسيتم تأمين مسكن لك هناك لكن لن تُعْفَي من المراقبة سنين طويلة.. كي نضمن ألا تحاولي العودة إلى يناسّا واستعادة الحكم.."
صاحت "أنت تهذي ولا شك.. تنفوني؟ بأي حق؟ لا يمكنكم إجباري على مغادرة يناسّا"
قال أحد الأعضاء بلهجة حادة "لا يمكنك التطاول على الرئيس.. هذا قرار نافذ ولا يمكنك رفضه"
ظلت تنظر لهم بغير تصديق وهي تقول "وما الذي سأفعله في إقليم المزارعين ذاك؟ هل سأزرع وأحرث لأكتسب قوتي؟ أنتم تمزحون دون شك"
قال الرئيس "سيمنحك المجلس بعض الأموال التعويضية لكنها لن تدوم.. ربما عليك البدء بالتفكير في العيش

من بذل يديك.. إن لم تتعبي فلن تجدي ما تأكلينه.."
صاحت بحدة "أموال تعويضية؟ تعوضونني عن عرشي ومملكتي وقصري وحياتي كلها ببضع نقود تجودون بها عليّ؟! أنا أرفض كل هذا.."
قال الرئيس بحدة "مهما كان رأيك، ومهما طال اعتراضك فالحكم سينفذ عليك غداً صباحاً.. الأفضل لك أن تسلمي بالأمر.. فهذا أفضل من الحكم بالإعدام وهو ما كان سيفعله أي ملك آخر"
نظرت لوجوههم بغيظ وقالت رافعة وجهها "لو ظننتم أن نفيي سيجعلني أتخلى عن استعادة عرشي فأنتم واهمون.. سأعود.. وسأستعيد العرش مهما يكن.."
وغادرت المكان بشكل عاصف تاركة إياهم يتبادلون النظرات، ثم غمغم الرئيس "فتاة صعبة"
قال أحد الأعضاء بحنق "لقد أخبرتكم أن سجنها مدى الحياة أفضل من إطلاقها.. إنها مجنونة بالعرش"
قال رئيس الثوار "سجنها سيؤجج مشاعر الغضب في نفسها أكثر وسيجعلها أكثر تصميماً على استعادة العرش.. ربما يغدو بيران قادراً على تغييرها أكثر مما نحاول إجبارها عليه.."
أما بي ناريا فقد اتجهت بغضب إلى جناحها وفتحت بابه بعنف.. كانت إحدى الوصيفات فيه فطردتها بي ناريا بعصبية وأخذت تدور في المكان وهي تشعر أن جسدها كله يرتجف.. لم يَجْرِ أي أمر منذ شهر كما كانت ترغب به.. كل الأمور تعاكسها، وكل الأحداث تدفع في نفسها مرارة وتبعدها أكثر عن العرش.. لماذا؟ أهي حقاً لا تستحق العرش؟ أهي حقاً لا تستحق الحصول على أي شيء مما رغبت به؟ أبهذا السوء يرونها؟..
وقفت وسط الجناح الذي شهد عمرها كله والمرارة تتزايد في حلقها.. تأملت كل ركن فيه وهي تتذكر كل نقش وكل زاوية فيه.. مهما صرخت ورفضت وعارضت، فنفيها سيتم رغماً عنها بعد أن فقدت كل من كان يساندها ويعينها..
سمعت خطوات خافتة تقترب منها فكادت تلتفت لتطرد صاحبها، لكنها تعرفت صاحب تلك الخطوات دون أن تراه مما دفعها لتتنهد بمرارة وهي تشعر بدقات قلبها تتزايد.. وبصمت، شعرت به خلفها وذراعيه تحيطان كتفيها وهو يضمها دون أن يواجهها.. رغماً عنها بدأت دموعها تتدافع ووجدت نفسها غير قادرة على كتمان بكائها، فتمسكت بذراعيه وهي تبكي وقد شعرت بدفء مشاعره التي غابت عنها منذ مدة لم تره فيها أو حتى تلمح طيفه.. وقالت بصوت متحشرج من بين بكائها "لماذا؟ لماذا يجب أن أفقد كل شيء بهذه الطريقة؟ لماذا لا يمكنني الحصول على أي شيء أتمناه وأرغب به؟ لماذا لا أقدر على التحكم بمصيري وأجد أنني تحت رحمة أهواء رجال آخرين؟ أنا أكره كل هذا.."
واستطردت دون أن يعلق وهي تضغط على ذراعه أكثر وصوتها يرتجف "حتى أنت.. نسيتني ما إن حصلت على العرش.. وكأنني لا أعني بالنسبة لك شيئاً.. حتى حبك فقدته مع كل ما فقدت في حياتي.."
سمعت هارولان يهمس "أنت تعنين لي كل شيء.. لقد منحتك قلبي وهو أغلى ما أملك، لكنه لم يكفك يوماً أو يملأ عينيك.."
غمغمت بمرارة "وما الفائدة؟ غداً سيتم نفيي إلى أقصى الكوكب.. ولن تراني بعدها.."

قال لها "مازال عرضي قائماً.. سأذهب معك إلى أقاصي الأرض.. أهم شيء بالنسبة لي أن تكوني معي.."
التفتت تتأمل وجهه من بين دموعها.. كان هو ذاته هارولان.. لم يتغير قبل الملك وبعده.. ونظراته الحانية لم تتغير عما رأتها في إقليم نيما عندما باح لها بمشاعره أول مرة..
مسح دموعها بأصابعه وهو يغمغم "أهذه الدموع خوفاً من فراقي أو فراق العرش؟"
قالت بشيء من الأمل "ولماذا يجب أن أفارق أحدكما؟ لم لا أبقى معك هنا في يناسّا؟"
ابتسم معلقاً "الحل الوحيد أن تكوني زوجتي.. عندها سيرضخ مجلس الحكم ويوافق على بقائك في يناسّا.."
قالت باهتمام دون أن ترى اللهفة في عينيه "ولم لا تتنازل أنت عن العرش لي؟ لن يعترض أحد بكلمة عندها.. أليس كذلك؟"
تنهد قائلاً بضيق "لن يعطوه لك أبداً.. استسلمي يا بي ناريا.. العرش ليس ملكاً لك.. لقد امتلكته فترة وآن انتقاله إلى غيرك"
قالت باعتراض "لكن أنت...."
قال بجدية "حتى لو نفذت كل ما تقولينه، فور تنازلي عن العرش سيولّون شخصاً غيري ولن يسمحوا لك باسترداده.. إن عارضت أكثر من هذا قد يلجأون لقتلك كحل أخير"
تساءلت برجاء "ألن تساندني؟ الشعب كله يحبك ويتبعك.. وسيطيعك لو جاء أمر توليتي منك.. كما أنك ستبقى معي طوال العمر، أليس هذا ما ترغب به؟"
تراجع عدة خطوات ونظراته تشي بضيقه ويأسه، فقالت بإلحاح "أليس كذلك يا هارولان؟"
أجابها بشيء من الحدة "حتى متى ستركضين خلف عرش زائف ومُلك لن يمنحك إلا التعاسة؟ كفاك تذللاً لتحصلي على شيء لا يساوي حفنة تراب.."
قالت بحدة "أنا لا أتذلل لأحد.. لكني لا أقبل كل هذا الظلم الواقع علي.."
قال بغضب "لم يظلمك أحد، لكنك لن تستفيقي من أحلام طفولتك أبداً.. لقد منحتك كل ما أملك، لكنك تركلين هذا باحتقار وكأنه لا يساوي شيئاً.. "
واستدار مضيفاً بحدة "لقد عرضت عليك التنازل عن كل شيء والرحيل، لكن هذا لا يرضي غرورك بما فيه الكفاية.."
أمسكت يده قبل أن يغادر وهي تقول بصوت مرتجف "لكنني أحبك يا هارولان.. حقاً أحبك ولا أريد التخلي عنك.. أريد فقط أن تساندني في المرحلة القادمة، فهل هذا كثير؟"
ظل صامتاً بوجه مطرق مما منحها أملاً، فهمست برجاء "أرجوك.."
فوجئت به يجذب يده وهو يقول مشيحاً "الوداع يا بي ناريا.."
ظلت تنظر له بأسى وهو يغادر الجناح ليتركها غارقة في الصمت المرير، وسار بخطوات حانقة في الممر ووجهه يفضح ضيقه وألمه.. عندما فوجيء برؤية رئيس الثوار الذي وقف جانباً ينظر له قائلاً "إذن لم تجد طريقة للصلح مع بي ناريا؟.."

قال هارولان بدهشة وضيق "منذ متى وأنت تستمع لما يدور؟"
أجاب الرئيس بابتسامة "منذ أن رأيتك تتسلل لجناحها بصمت.. ولم يكن ذنبي أن الأبواب المشرعة لا تكتم الأحاديث.."
أكمل هارولان طريقه والرئيس قربه يتساءل "أحقٌ ما قلته عن تنازلك للعرش وذهابك إلى بيران معها؟"
قال هارولان بمرارة "لو أن هذا كان يكفيها، لما ترددت في فعله لحظة واحدة.. لكنه لا يكفيها أبداً"
ربت الرئيس على كتفه معلقاً "لا تخف.. الزمن كفيل بنسيان كل شيء.. حتى بي ناريا العنيدة ستنسى العرش، فقط أعطها الوقت الكافي.."
وأضاف وهو يرى نظراته المريرة "أما بالنسبة للعرش، فلا يمكنك نبذه الآن والمملكة في هذه المرحلة الحرجة.. لا تنسَ أن أبناء هيمانيا يتطلعون للحصول على بعض حقوقهم المنسية.."
تنهد هارولان بضيق وغمغم "حتى متى عليّ أن أصبر على هذا؟"
قال الرئيس مبتسماً "لا أستطيع أن أطمئنك كثيراً.. ستمضي شهور طويلة قبل أن تستقر الأمور في المملكة.. حتى هذا الوقت، عليك بالصبر.."
غمغم هارولان بصوت مثقل "لا تخف.. لا أملك إلا أن أفعل هذا.."
وسار باتجاه قاعة العرش وهو يتأمل ملامح القصر اللامع.. كان يفتقد الفضاء، والهواء المنعش، والأرض الواسعة.. كان يمقت القصر الذي يراه ضيقاً ويرى نفسه فيه حبيساً، ولولا وجود بي ناريا لما بقي فيه يوماً بعد استتباب الأمن.. تنهد من جديد وغمغم متأملاً السماء من نافذة القصر "من يدري ما سيحدث في الأيام المقبلة.."

****

قضت بي ناريا ليلتها الاخيرة في القصر كأسوأ ما يكون.. لم يقاربها النوم طوال الليل وظلت أسيرة أفكارها المريرة وهي تتقلب في سريرها الوثير.. لم يستوعب عقلها لماذا يرفض الجميع توليها العرش من جديد، رغم أنها كانت تنوي إصلاح جميع أخطائها السابقة.. ألأنها إمرأة؟ ألأنها وريثة غير شرعية؟ أم بسبب مانيم؟.. ظلت تتنهد بأسى وهي تفكر في المصير الذي ينتظرها في الغد.. ما الذي سيواجهها في إقليم بيران؟ هل ستبقى وحيدة ومنبوذة؟ هل ستستسلم لمصيرها الظالم هذا؟ كانت لا تنوي الهرب في هذه اللحظة، فالرعب والخوف الذي واجهته أثناء هروبها السابق يردعها عن تكرار التجربة.. وهي تعلم أن هربها يعني المغامرة بحياتها، فلن يتورعوا عن قتلها هذه المرة..
ظلت تفكر في ساعاتها الأخيرة الباقية في القصر.. وتفكر في هارولان بلا انقطاع.. بدا غاضباً أشد ما يكون عند مغادرته جناحها.. فهل ستراه قبل مغادرتها؟ أم أن غضبه سيمنعه من وداعها للمرة الاخيرة؟ رغم أنها لا تزال مصرة على أحقيتها في العرش، إلا أنها مدركة أنها قد خيّبت أمل هارولان وحطمت قلبه بتفضيلها العرش

عليه.. تنهدت وهي تفكر بمرارة.. لو أنها تراه للمرة الاخيرة، لو أنها تجد الفرصة لتعتذر، لو أنها تبوح له بمكنون قلبها للمرة الاخيرة.... لكن أوان هذا كله قد فات..

مع طلوع شمس اليوم التالي، كانت بي ناريا تجلس قرب النافذة تتأمل يناسّا كعادتها وقد ارتدت من الملابس أبسطها وبدا الإرهاق جلياً على وجهها.. ولما سمعت باب الجناح يفتح التفتت إليه بأمل، وإن خاب أملها عند رؤية جوين.. فتنهدت وهي تستدير إلى النافذة من جديد.. اقتربت جوين منها مغمغمة "تبدين محبطة لرؤيتي يا مولاتي.. هل كنت تتمنين رؤية شخص آخر؟"

قالت بي ناريا بهدوء "لا داعي لمناداتي بهذا اللقب، فأنا لم أعد أملك أي سلطة أو منزلة في القصر.."

قالت جوين بابتسامة وهي تجلس قريباً منها "هذا لا يمنع أن أعاملك بالاحترام الواجب.."

سمعا الباب يفتح من جديد فألقت بي ناريا نظرة خاطفة على الداخل قبل أن تعود لجمودها، بينما قال الجندي الذي دلف لتوه "سيدتي.. عليك المغادرة لتنفيذ أمر مجلس الحكم خلال لحظات.."

قالت له جوين برجاء "امنحنا بعض الوقت أرجوك.."

وافق الجندي وغادر بصمت، بينما أمسكت جوين يد بي ناريا هامسة "أنت تريدين رؤية هارولان.. أليس كذلك؟ يمكنني أن أطلب منه لقاءك قبل رحيلك وأنا متأكدة أنه متلهف لهذا أيضاً"

قالت بي ناريا وهي تقف "لا فائدة من هذا الآن.. قطعاً هو يكرهني، وسيرى محاولتي هذه كإذلال لي.. أفضّل الرحيل محتفظة بما بقي لي من كبريائي.."

قالت جوين بأسى "لكن.."

ربتت بي ناريا على كتف جوين مقاطعة "رغم أنني آذيتك في السابق، لكنك قدمت لي الكثير وأخلصت لي أكثر ممن كنت أثق فيهم طوال عمري.. ولن أنسى لك هذا"

عانقتها جوين قائلة "سنفتقدك كثيراً.."

ربتت بي ناريا على كتفها، ثم غادرت الجناح لتجد الجندي بانتظارها.. فتقدمها عبر ممرات القصر وبي ناريا تسير برأس مرفوعة دون أن تلتفت لما حولها.. رأت جميع من في القصر يحنون رؤوسهم مودعيها، لكنها لم تعلق بكلمة والجندي يقودها عبر ممرات القصر إلى خارجه حيث مهبط الطائرات الخاص الذي تتوسطه طائرة جاهزة للرحيل.. وقربها وقف رجال مجلس الحكم ومعهم المستشار بانتظارها.. ألقت بي ناريا نظرة خاطفة عليهم دون أن تتوقف عن سيرها، ملاحظة غياب هارولان، وهو شيء توقعته وإن آلمها كثيراً.. كان عدد من الجنود ينتظرها في الطائرة لمصاحبتها للتأكد من سلامتها والتأكد من أن قرار المجلس سينفذ دون إخلال، والجندي الذي يتقدمها قد تنحى ليتركها تصعد سلم الطائرة..

صعدت بي ناريا سلم الطائرة برأس مرفوع لكن بخطوات مثقلة.. لكن قبل أن تضمّها الطائرة في قلبها، استدارت ملقية نظرة أخيرة على القصر اللامع تحت أشعة الشمس.. بحثت عيناها طويلاً في أرجائه بانتظار ظهور وجه تتمنى رؤيته ولو لمرة أخيرة، ولما باءت محاولتها بالفشل استدارت وغصّة تملأ حلقها، فدلفت إلى الطائرة بصمت ليغلق الباب خلفها.. وبدأت الطائرة استعدادها للإرتفاع والرحيل..

وقرب إحدى النوافذ، كان هارولان يقف يراقب مغادرة بي ناريا دون أن يحاول الظهور لعينيها.. لم يظن يوماً أنها قد تتشبث بعنادها وتختار العرش رافضة حبه، لذلك كانت مرارته أكبر ونظراته لا تبتعد عنها عندما سمع من يقول "أأنت واثق أن هذا قرار صحيح؟"

التفت هارولان ليرى تيمين يقف قربه مضيفاً "أما كان من الأفضل أن تكون هناك.. لتراها وتودعها للمرة الأخيرة؟"

قال هارولان متنهداً بمرارة "لا.. القرب يزيد الجرح سوءاً.. بي ناريا لم تر فيّ إلا وسيلة للوصول للعرش.. وهي قد خسرته الآن لذلك لا معنى لوجودي قربها.."

ابتسم تيمين قائلاً وهو يغادر "لكنها كانت تبحث عنك بعينيها.. وهذا ينفي كل ما قلته وما تظنه.."

صمت هارولان وهو يتأمل الطائرة التي ابتعدت محلقة في السماء الصافية حتى غابت في الأفق.. ثم غادر موقعه بصمت وهو يشعر أن القصر يضيق أكثر فأكثر به.. جدرانه البلورية الشفافة تبدو له قاتمة مظلمة، وممراته الفسيحة أضحت تكتم أنفاسه.. كان وجود بي ناريا يزيل ضيقه هذا ويشعره بشيء من الراحة.. لكن الآن وقد غادرت، غدا يشعر أنه وحيد وسط كل هذا الجيش الذي يعيش في القصر، ويضيق صدره في هذا القصر الواسع، وكل دقيقة تمر تبدو بالنسبة له كدهر كامل.. ولا يعلم حتى متى سيمكنه التحمل قبل أن يلوذ بالفرار من كل هذا..

****

الفصل الخامس عشر:

الحالمة

عن الأمنيات

..

والمنفى

..

والحقول الذهبية

..

تمايلت الحقول الشاسعة التي التمعت تحت نور الشمس الدافئة بفعل نسمات الهواء التي حركتها برقة.. فبدت وكأنها خيوط ذهبية تنثني لتلمس الأرض بخفة ثم ترتفع منتصبة من جديد.. وفي الطريق الحجري الذي يعبر بين الحقول سارت فتاتان تحملان سلالاً من الفاكهة في طريقهن لمنازلهن وإحداهن تقول وهي تعدل من وضع الوشاح الذي يمنع شعرها من البعثرة بفعل الهواء "لقد حان الوقت مرة أخرى هذا العام.. يبدو أن أوان حصاد الحقول قد أزف سريعاً وسينشغل الجميع بهذا العمل.."

علقت الفتاة الأخرى وهي تتأمل الحقول مبتسمة "رغم التعب الذي نلاقيه، إلا أنني أحب رائحة هذه الحقول.. وما إن ينتهي الحصاد حتى أفتقد مرأى هذه الأمواج الذهبية اللامعة.."

كاد وشاح الفتاة الأولى يطير بفعل الهواء الذي ازدادت قوته شيئاً ما، مما جعلها تسقط سلتها في محاولتها الإمساك به، وتناثرت فاكهتها تسابق بعضها البعض في الطريق المنحدر، والفتاة تصيح "لا.. فاكهتي.."

ضحكت الفتاة الأخرى وهي تساعدها في التقاط ما تطاله منها.. بينما تذمرت الأولى وهي تركض خلف فاكهتها المتدحرجة، حتى توقفت عند قدمين اعترضتاها وسط الطريق.. فرفعت الفتاة رأسها لتطالع فتاة أكبر منها عمراً، ترتدي ثوباً أبيض بسيطاً وقبعة تظلل وجهها من الشمس، فيما ينسدل شعرها الفاحم الطويل خلف ظهرها في تباين ملفت مع ثوبها والهواء يلاعب خصلاته بنعومة.. لم تتفوه الفتاة الأولى بكلمة وهي تقف بعد أن جمعت فاكهتها.. فلاحظت في يد الفتاة الغريبة بعضاً من الفاكهة، مدت يدها بهم إليها وابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيها، فتناولت الفتاة ذات الوشاح الفاكهة وهي تبادلها ابتسامة مترددة..

كانت الفتاة الأخرى قد وصلت قرب رفيقتها، وبعد أن جمعتا ما سقط منهما تطلعتا إلى الغريبة التي أكملت سيرها صاعدة الطريق الحجري بصمت وعبقها يملأ أنفيهما.. فهمست الأولى "أهذه هي؟"

أومأت الأخرى موافقة وهي تضيف بهمس "أجل.. رأيتها عدة مرات عندما كنت أذهب برفقة أمي لمساعدتها في منزلها.."

غمغمت الأولى "حقاً إن فتيات العاصمة يختلفن اختلافاً كلياً عنا.. هيئتها وجمالها واهتمامها بمظهرها.. كل هذا يجذب الأنظار ولا شك.. بم تنادونها؟ هل تجبركم على مناداتها بمولاتي؟"

قالت الفتاة الأخرى مبتسمة وهما تكملان طريقهما "بل نناديها بي ناريا.. فقط بي ناريا"

أما بي ناريا، فقد سارت صاعدة الطريق المار بين الحقول والمؤدي لهضبة صغيرة مشرفة على المحيط الشاسع خلفها.. وبعد سير قصير، كانت تقف على الهضبة تتأمل المحيط بمياهه شديدة الزرقة وهي تضرب الصخور تحتها بصوت مدوٍ.. اشتدت الريح قليلاً مبعثرة شعرها، فسارعت للمّه من جديد وإرساله على صدرها وهي تتخلل خصلاته الناعمة بأصابعها كما اعتادت دائماً.. تنهدت وهي سارحة في الأمواج المتتالية لا تشعر بنفسها وفكرها يدور حول كل ما مرت به منذ الليلة التي غادرت فيها يناسّا الأحب إلى قلبها.. ورغم اعتراضها وإضرابها فور وصولها إلى بيران، إلا أن الجو الهادئ والطبيعة المذهلة التي تراها تتبدل كل يوم بشكل خيالي، قد جعلها تهدأ نفساً وهي تفكر عميقاً في حياتها..

والآن، وقد مرت سنة كاملة منذ غادرت العاصمة، فما زالت تتساءل.. أقد ظلمت نفسها بكل ما فعلته في السابق؟ أم هي تظلمها باستسلامها الحالي وبرضاها عن الوضع الذي هي فيه؟.. كانت قليلاً ما تتحرى أخبار المملكة ويناسّا، وقليلاً ما تندمج مع السكان المحليين في أي حوار أو مشاركة.. معتزلة بصمتها وأفكارها وكأنها تكفّر عن كل ما فعلته، بحق نفسها وبحق كل من تأذّى بسببها..

تنفست بعمق مستشعرة ملوحة البحر ورائحته النفاذة.. لطالما أحبت هذا المكان.. شعرت أنه مُلكٌ لها، ومخبأ لأحزانها وأحلامها.. مادامت قادرة على الوصول إلى هذه البقعة المتطرفة وقضاء ساعات في سكينة وهدوء، فهي تعود لمنزلها راضية وقد تخففت قليلاً من حمل قلبها.. من غيره يسمع شكواها عما فقدته؟ عن حبها الذي خسرته بأنانيتها؟ عن حلمها الذي خسرته بكبريائها؟ وعن رجلها الذي خسرته بتعنتها ورفضها لكل ما قدمه لها؟.. لكن هل يمكنها أن تعيد الماضي؟ هل تستطيع إعادة تلك اللحظة التي اختارت فيها العرش مفضلة إياه على قلبه الذي قدمه لها؟ لو يعود الزمن لغيّرت اختيارها بالتأكيد.. فما عاد العرش يعني لها شيئاً.. ولو كسبت العرش تلك الليلة وخسرت قلبه لكانت تلك خسارة لا يمكن تعويضها أبداً..

تنهدت من جديد وهي تحاول تذكر ملامحه، صوته، أو أي شيء يخصه.. حتى اسمه، كانت ترده في كل لحظة من كل ساعة في أيامها.. وكأنها تخشى أن يضيع منها كما ضاع كل شيء آخر.. همست بصوت واضح وهي تتأمل الأمواج المتدافعة "هارولان.. أين أنت؟ هل نسيتني حقاً؟ هل تخليت عني حقاً؟ ألا تشتاق لرؤيتي حقاً؟"

غلبت صوتها رجفة خفيفة، فصمتت مغمضة عينيها وهي تستمع لصوت الأمواج الذي شيئاً ما يذكرها به.. لا تعلم لماذا، لكن كلما نظرت إلى البحر، بهدوئه، بثورته، باتساعه، بسطوته، بكل شيء فيه، تذكرت لا إرادياً هارولان.. ورغم أنها لم تنسه لحظة من حياتها، إلا أن حضوره يزداد في هذا المكان.. وكأنه مكان خاص بها لتلتقي به وتشعر به، رغم اتساع المسافات بينهما..

سمعت أصواتاً تداخلت مع صوت الأمواج مما أشعرها بشيء من الضيق لهذا الإزعاج، وإن لم تلتفت خلفها وهي تسمع صوت رجل من المزارعين يقول لآخر "أؤكد لك أن هذا الخبر صحيح.. لقد تناقلته وكالات الأنباء جميعها، وإن لم يعلن رسمياً بعد"

قال الآخر بحدة "لا أصدق هذا.. ما لم يعلن هذا في قناة البث الرئيسية ليناسّا فلن يصدقه أحد"

قال الآخر "أخبرتك أنه لم يعلن رسمياً بعد، ولا أعلم لماذا.. لكنه مؤكد.."

فقال الآخر بغير تصديق "لكن.. من كان يصدق؟ لا يمكن أن يتنازل الملك عن عرشه ويترك حياته الباذخة دون سبب.. لابد أنه أجبر على هذا.. أليس كذلك؟"

قال الأول متأسفاً "لا علم لي.. لكنها خسارة فادحة حقاً.. لقد أحببناه بالفعل.. وهو قد قدم لنا الكثير بشكل أدهش الجميع.."

وكرر وهو يبتعد مع رفيقه "إنها خسارة فادحة بالفعل.."

شعرت بي ناريا بازدياد وجيب قلبها وهي تفتح عينيها وتحاول استيعاب ما سمعته.. هل تنازل هارولان عن العرش؟ هل تخلى عنه حقاً بعد هذه المدة الطويلة؟ لكن لماذا؟ أيعقل.....

حاولت إسكات أفكارها وهي تعض على شفتها مغالطة نفسها.. لم يكن الأمل لينفعها الآن.. وهي بعد مدة طويلة قد وطّنت نفسها على تقبل واقعها لكي لا تخسر أكثر مما خسرته، والتحلي ببعض الأمل الآن قد يزيد من إحساسها بخسارتها إن لم يتحقق ما أملت به..

استدارت وهي تلغي جميع الأفكار من عقلها وسلكت طريقها نازلة من الهضبة قبل أن تغرب الشمس ويقفر المكان تماماً من المارين.. وقد اشتدت النسمات وازدادت برودة متغلغلة في ملابسها ومبعثرة شعرها.. ومن بين الهدوء المخيم على المكان سمعت بي ناريا صوتاً بدا كصدى لخطواتها يحمله الهواء من خلفها، ثم سمعت صوتاً كسر الصمت حولها وهو يقول "نارياسّا..؟"

تجمدت بي ناريا ورجفة تعتريها دون أن تجرؤ على الاستدارة.. للحظة غالطت نفسها وشعرت أنها توهمت ما سمعته لكثرة ما فكرت فيه.. لكن الصوت عاد بنبرة أعلى "نارياسّا.. أهذه أنت؟"

عادت لها الرجفة أشد من السابق وهي تتعرف الصوت الذي لم تنسه يوماً.. ثم استدارت وهي تزيح خصلات شعرها التي تطايرت أمام وجهها.. وهناك، أعلى الهضبة، حيث كانت واقفة قبل قليل، رأت ذلك الشخص بقامته المديدة وهيئته التي لم تتغير رغم الشهور الطويلة التي لم تره فيها.. ظلت متجمدة في مكانها كما تجمد هو ونظراتها تلتقي بعينيه السوداوين التي حملت مئات التعبيرات لم تستطع إزاءها أن تمنع قلبها من اضطرابه وخفقاته المتزايدة.. ورغم ذلك، شعرت بأنها تكتم أنفاسها وهي تتطلع إليه بانتظار أي لمحة أو صوت يصدر عنه ليؤكد لها أن ما تراه ليس حلماً من أحلامها التي لا تنتهي..

وأخيراً، بعد صمت طال وقال الكثير، سمعته يقول بصوت حانٍ فيه ارتجافة حاول تمالكها "لقد عدت إليك أخيراً.. يا زهرتي"

انتفضت بي ناريا وهي تدرك الموجودات حولها، وتدرك أن ما تراه واقع وليس حلماً.. واقع قد حلمت به مرات ومرات لا تحصى طوال الشهور التي مضت.. عندها وجدت نفسها تهمس بصوت متهدج "هارولان...؟"

رأت ابتسامة عذبة ترتسم على شفتيه، فأطلقت نفسها وهي تجري نحوه تاركة خصلات شعرها تتطاير خلفها محاولة اللحاق بها بلهفة.. دون أن تعبأ بقبعتها التي طارت بفعل الهواء لتسقط على الأرض الحجرية بهدوء وكأنها تخشى كسر الصمت الذي قال الكثير.. الكثير..

~ النـهـايـة ~

****